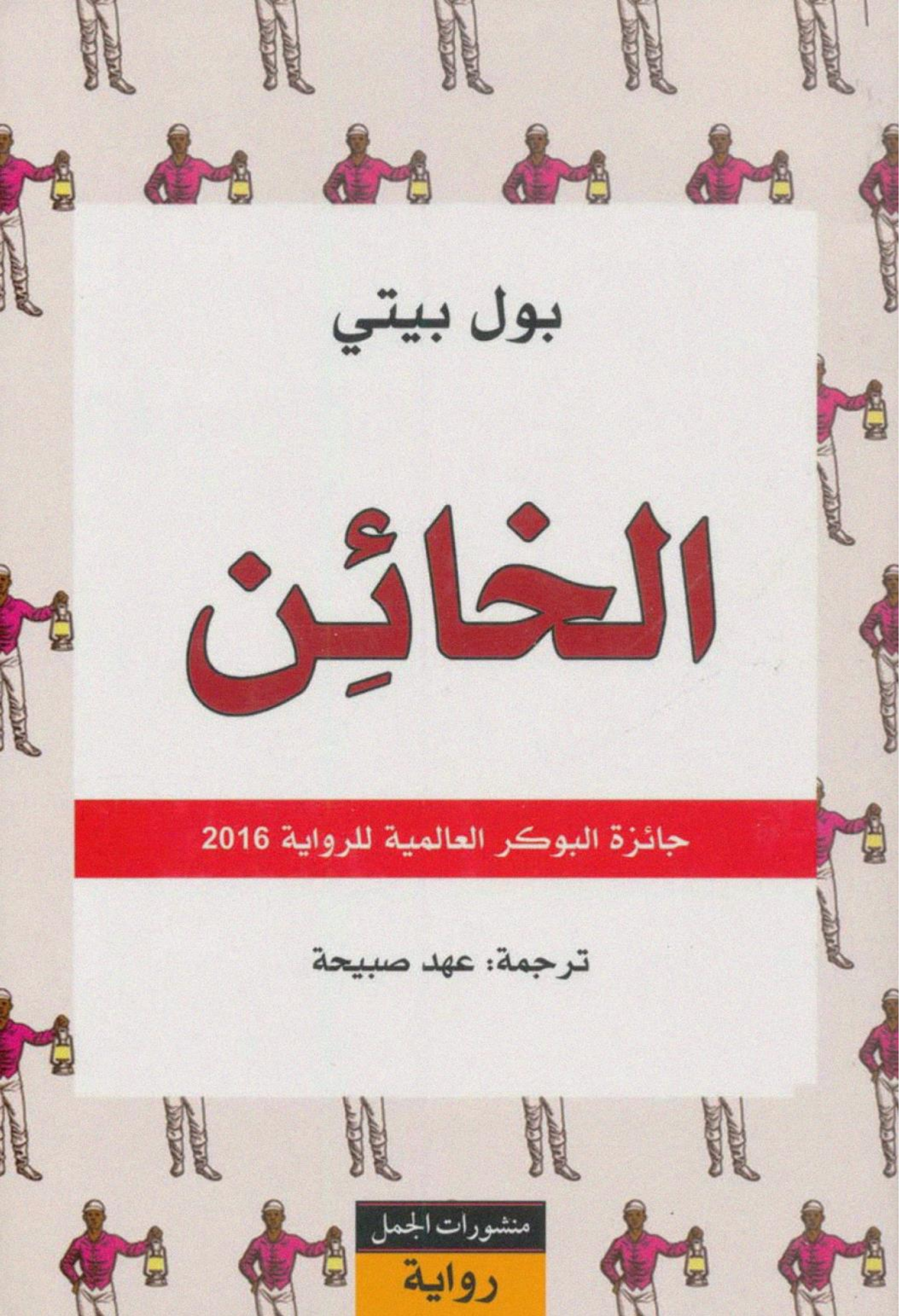


بول بيتي

الخائِن

جائزة البوكر العالمية للرواية 2016

ترجمة: عهد صبيحة

منشورات الجمل

رواية

بول بيتي

الخائِن

رواية

ترجمة: عهد صبيحة

جائزة البوكر العالمية للرواية 2016

منشورات الجمل

بول بيتي: الخائن

بول بيتي: الخائن، رواية، ترجمة: عهد صبيحة
الطبعة الأولى ٢٠١٨

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Paul Beatty: The Sellout

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تَقديمُ المترجِم

«روايةُ **الخائن** هي أحد تلك الكتب النادرة التي تمكّنت من اتّخاذ السخرية أسلوباً، وهو أسلوبٌ أدبيٌ صعبٌ للغاية، ولا يمكن إتقانه دائماً. لقد غاصت الرواية في قلب المجتمع الأمريكيّ المعاصر، بطرافة وحشيَّة، لم أقرأ مثلها منذ سويفت وتوين». بهذه الجمل افتتحت المؤرِّخة البريطانيَّة أماندا فورمان رئيسة الهيئة المانحة لجائزة مان بوكر تعليقَها على فوز رواية «الخائن» The Sellout للكاتب الأمريكيّ بول بيتي Paul Betty، بجائزتها للعام ٢٠١٦.

ومع أنَّ إضفاء صفة الهزل على الرواية فاجأ بيتي نفسه، الذي قال إنَّ مناقشة المظاهر الكوميديَّة في الرواية منع النقّاد من مناقشة أفكارها الجذريَّة، إلاَّ أنَّ معظم النُّقاد والقرّاء اجتمعوا على عدِّها واحدة من أكثر الروايات هزلاً في العصر الحديث. وصفتها إليزابيث دونلي في الغارديان بأنَّها «عملٌ رائعٌ أسّس لبيتي لأن يكون أكثر كتّاب أمريكا طرافةً»، في حين عدَّها الناقد ريني إيدي لودج «زوبعة هِجاء»، وأكمل «كلُّ شيء في حبكة الخائن يحمل تناقضاً، الحكايات تبدو حقيقيَّة بما يكفي لتصدِّقها، ولكنَّها سرياليَّة بما يكفي لترفع حاجبيك!».

بول بيتي (مواليد ٩ يونيو ١٩٦٢) كاتبٌ أمريكيٌ، وأستاذ مادَّة الكتابة

في جامعة كولومبيا. حاصل على شهادتَي ماجستير في الآداب من جامعة بروكلين، وفي علم النفس من جامعة بوسطن. صدر له ديوانا شِعر Bib Bank Take Little Bank في العام ١٩٩١، وJoker, Joker, Deuce في العام ١٩٩٤، كما حرّر أنطولوجيا الأدب الفكاهيّ الأفريقيّ- الأمريكيّ Hokum: An Anthology of African-American Humor في العام ٢٠٠٦. برع في الرواية، وصدر له أربع روايات: «مراوغة الولد الأبيض» The White Boy Shuffle في العام ١٩٩٦، و«الحجر البركانيّ» Tuff في العام ٢٠٠٠، و«أرض الأحلام» Slumberland في العام ٢٠٠٨، و«الخائن» في العام ٢٠١٦، وهي الرواية التي استحقّ بها جائزة حلقة نقّاد الكتاب الوطنيّة الأمريكيّة National Book Critics Circle Award، وجائزة مان بوكر Man Booker Prize العريقة، وهو أوّل أمريكيّ يحصل على الجائزة بعد أن أصبحت متاحة لروائيّين من خارج دول الكومونولث، منذ العام ٢٠١٤.

بطل الرواية، وهو الراوي أيضاً، رجلٌ أسودُ لا نعرف له اسماً سوى اسم أسرته وهو Me، كما ورد في حيثيّات المحكمة، وبالطبع اسمه يعني بالعربيّة «أنا»، كإحالة رمزيّة، ربّما، إلى أنّ ما يواجهه يخصُّ كلَّ شخص آخر في أمريكا، وليس في الأمر شخصانيّة. هذا الرجل يعيش في مجتمع غيتو للسُّود في ولاية لوس أنجلس الأمريكيّة، ويعاني، على نحو فانتازيّ، من اختفاء مدينته ديكنز من على الخريطة، كأنّه اختفاءٌ لقيم وموروث غنيٍّ وتاريخ لا يرغب أحدٌ بتذكُّره. «ديكنز مدينة غير موحَّدة في جنوب غرب مقاطعة لوس أنجلس. كانت كلّها سوداء، الآن فيها مكسيكيُّون. عُرفت مرّة بأنّها عاصمة القتل في العالم. ليست سيّئة كما تبدو عليه، لكن لا تسافر إليها»، وعلى مدى الحكاية يسعى البطل إلى استعادتها فيرسم خطَّ حدودٍ وهميّاً يفصل بين تاريخين وإرثين وحضارتين.

يظهرُ والده، الزنجيُّ الهامس، الذي يخبرنا البطل أنّه قُتل على أيدي رجال الشرطة، كشخصيّة فريدة في الأدب، صورة فانتازيّة لرجل يهمس في آذان السُّود الغاضبين الراغبين في الانتحار، ويطبّق التجارب النفسيّة على ابنه، فأرِ التجارب، ويتلقّى غدر صديقه بكلّ وداعة. كذلك الأمر، شخصيّة فانتازيّة أخرى، كشخصيّة هوميني الممثل الأسود المتقاعد، الذي يعيش على حلم اقتناء إرثه في عالم التمثيل، من سلسلة أفلام قديمة، ويقرّر أن يصيرَ عبداً بعد أن يئس من حياته.

يقرّر البطل مع عبده المفترض، هوميني، وبمساعدة باقي أصدقائه المؤمنين بقضيّته، إعادةَ الفصل العنصريِّ إلى المدينة، باختراع مدرسة وهميّة كلّها للبِيض، وطباعة لوحات تفصل بين البِيض والملوّنين في كلّ مناحي الحياة. الأمر الذي يلقى معارضةً شرسةً، تصل إلى حافة حربٍ يشنُّها فوي شيشاير، زعيم مُفكّري دونات دُم دُم كما كان يُطلَق عليه، وتستمرُ المعارك في أروقة المحكمة الدستوريّة العليا، وفيها يُتَّهم البطل بالإخلال بكلّ مبادئ الدستور الأمريكيّ الداعية إلى العدل والمساواة، بل ويصل الأمر إلى اتّهامه بجرائمَ ضدّ الإنسانيّة!

يحمل الصراع بين البطل وغريمه فوي شيشاير أبعاداً رمزيّة تضيء على مدى شفافية مفاهيم مثل العدل والمساواة الفضفاضة في المجتمع الأمريكيّ، كما يعكس الوحشة التي يعيشها هذا المجتمع الأسود الذي لم يغيّر من حاله قطُّ وصولُ أوّل مواطن أسودَ إلى سدّة رئاسة الولايات المتّحدة، ويكشف عريَ المبادئ في بلد يتغنّى دائماً بالديموقراطيّة.

يستفيد الراوي من موروث معرفته اللُّغويّة والثقافيّة بإقحام جُمل بلغات أخرى كالإسبانيّة واللاتينيّة والألمانيّة وغيرها، كإيحاء خفيّ، ربّما، إلى أنَّ ما نعانيه موجود في كلّ الثقافات، بلغةٍ قويّة، وبليغة، وسرد جذّاب يفيض بإحالاتٍ ثقافيّة خاصّة إلى أعلام وحركات وأماكن

ثقافيّة تخصُّ الحالة الأفريقيّة-الأمريكيّة، حاولتُ توضيح بعضها في الهوامش. وإن كنتُ لم أُشِر إلى كلّ تلك المفردات في الهوامش فبسبب استحالة الإحاطة بكلّ هذا الترف من الثقافة السّوداء.

عهد صبيحة

تمهيد

ربَّما كان أمراً يصعبُ تصديقه عندما تسمعه من رجلٍ أسودَ، لكنّي حقاً لم أسرق شيئاً في حياتي، ولم أغشَّ قطُّ في ضرائبي أو حتّى في لعبة ورق، ولم أنسلَّ يوماً إلى داخل السينما، ولم أسهُ يوماً عن ردّ الفكَّة إلى محاسب الصندوق في متجر، غيرَ مهتمٍّ بأساليبِ الروح التجاريَّة، والمتوقَّعِ من ذوي الدخول الدنيا، ولم أسطُ يوماً على منزل أو على محلِّ خمور، ولم أؤذِ بسلوكي حشدَ الراكبين في حافلة عامَّة أو حافلة المِترو بأن جلستُ على مقعدٍ مخصَّص لكبار السنّ وأخرجتُ قضيبيَ الضخم ومتَّعتُ نفسي حتّى النشوة، في حين ينظر أحدُهم إلى وجهي في ازدراء. ولكن، ها أنذا في الغرف الكهفيّة للمحكمة الدستوريّة العليا في الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، وسيّارتي تقفُ على نحو غير قانونيّ، وربّما ساخر، في شارع كونستيتيوشن العريض، ويداي مكبَّلتان خلف ظهري، وحقّي بالتزامي الصمت، بعد أن أنكروه، ودَّعتُه وأنا أجلسُ هنا على مقعد السيّارة ذي التنجيد السميك غير المريح، كما يبدو للعيان، حالُه كحال هذا البلد.

لم أتوقَّف عن التعرُّض للمضايقة مُذ وصلتُ إلى هذه المدينة التي جاءتني الدعوة إليها في مغلّف بريديٍّ ذي شكلٍ رسميٍّ مطبوع عليه كلمة «مهمّ»! بخطٍّ عريض، وبأحرف حمراء كأحرف ورق اليانصيب.

«سيِّدي العزيز» هكذا افتُتحت الرِّسالة.

«تهانينا، ربّما أنت الآن شخصٌ رابحٌ! لقد تمّ اختيار قضيّتك، من بين مئات قضايا الاستئناف الأخرى، كي يتمّ الاستماع إليها في المحكمة العليا للولايات المتّحدة الأمريكيّة. يالَهُ من شرف عظيم! نوصيك بشدّة أن تصلَ مبكراً ساعتين على الأقلّ من أجل وضع قضيّتك على لائحة الاستماع، السّاعة ١٠.٠٠ صباحاً، يوم التاسع عشر من مارس، في سنة سيّدنا...». خُتِمت الرّسالة بعنوان بناء المحكمة العليا، بدءاً من المطار إلى محطّة القطار آي ٩٥، وبمجموعة من القُصاصات المتعلّقة بكلّ ما يجذب؛ مطاعم، وأماكن تقدِّم السرير والفطور، وأشياء من هذا القبيل. لم يكن هناك توقيع، ببساطة انتهت الرسالة بـ...

المخلص لك

شعبُ الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

واشنطن العاصمة، بشوارعها العريضة، وطرقها الملتوية المدهشة، وتماثيلها الرخاميّة، وأعمدة «دوريك»، وقبابها. يفترض بك أن تشعرَ فيها وكأنّك في روما القديمة (في حال كانت شوارع روما القديمة مكسوّةً بالناس السُّود المشرّدين، وبالكلاب ذوات الأنوف التي تتنشّق رائحة القنابل، وبحافلات السياحة، وبأزهار الكرز). البارحة ظهراً، غادرتُ الفندق، مثلَ إثيوبيّ ينتعل صندلاً، قادم من أكثر أدغال لوس أنجلس ظلاماً، وانضممتُ إلى مسيرة حجّ الريفيّين المرتدين الجينز، يتبخترون ببطء وبروح وطنيّة أمام علامات تطوُّر الإمبراطوريّة التاريخيّ، وحدّقتُ بمهابة في نُصب لينكولن التذكاريّ. لو أنَّ أبراهام المحترم يعود إلى الحياة من جديد، وعلى نحو ما يقرّرُ أن يرفع هيكله العظميّ الأهيف، ذا الثلاث والعشرين قدماً والأربعة إنشات، عن عرشه، ماذا كان ليقول؟ ماذا كان ليفعل؟ هل كان ليرقص البريك-دانس؟ هل كان ليقرأ الصحيفة ويرى أنَّ الاتّحاد الذي حافظ عليه هو الآن حكومة للأثرياء الفاسدين،

وأنَّ الناس الذين حرَّرهم هم الآن عبيدٌ للإيقاع والراب والقروض المفترِسة، وأنَّ مجموعة مهاراته هي الآن تناسب ملعب كرة السلّة أكثر من البيت الأبيض؟ حيث يمكنه هناك أن يحصل على الكرة في الاستراحة، ويأخذ وضعيَّة مسجِّلِ الثلاث نقاط الملتحي، ويجهِّز نفسه للرمية، ويشتُم عندما تخطئ الكرة الشَّبكة. المحرّرُ العظيم، لا يمكنك إيقافه، كلُّ ما تأمُله هو أن تحتويه.

على نحو غير مفاجئ، لا شيء تفعله في البنتاغون سوى إشعال الحروب، حتَّى السيَّاح ممنوع عليهم التقاط صور مع بناء البنتاغون كخلفيَّة لصورهم. لذلك، عندما أعطتني عائلة جنديٍّ قديم في البحريَّة، امتدَّت خدمته على مدى أربعة أجيال، ويرتدي أفرادها زيَّ البحَّارة، كاميرا جاهزة للاستعمال وطلبوا منّي ملاحقتهم عن بُعد، والتقاطَ صورٍ لهم خِفيةً وهم يجذبون الانتباه، ويؤدُّون التحيَّة العسكريَّة، وينشرون إشارات السَّلام من غير سبب واضح، كنتُ سعيداً جدّاً، فحسب، لخدمة وطني. أمَّا في المتنزَّه الوطنيّ فقد كان ثمَّة مسيرٌ عسكريٌّ يقوم به شخصٌ واحد في واشنطن، ولدٌ أبيضُ وحيدٌ مُستلقٍ على الزرع بإدراك عميق أنَّ استلقاءه بهذه الطريقة يبدو للكاميرات وكأنَّ نُصب واشنطن البعيد يرتفع من فتحة بنطاله مثل قضيبٍ ذكريّ مستدقّ الرأس كبير قوقازيّ منتصب. ضحكَ الولد مع المارِّين، وابتسم لنغمات تصوير كاميراتهم وهو يداعب قضيبه الوهميّ الذي أوحى به المشهد الفوتوغرافيّ.

في حديقة الحيوانات، وقفتُ في مواجهة قفص حيوانات فصيلة الرئيسيَّات، أصغي السَّمع إلى امرأة دَهشت لرؤية غوريلاّ وزنها أربعمائة باوند، تبدو «كالرئيس» فعلاً، وهي تجلس على غصن سنديان مُقتَلع، منفرجةَ السَّاقين، وتبقي عيناً على الصغار في القفص. وعندما لحق صديقها الإعلانَ المعلَّق على الحائط بإصبعه، وهو يقرأ المعلومات،

مشيراً إلى أنَّ هذا النوع من «الرئيسيّات» ذا الظَّهر الفضيّ تصادف أنَّ اسمه باراكا، ضحكت المرأة بصوت عال، حتّى رأتني والغوريلا الأخرى ذات الأربعمئة باوند في الغرفة تُقحمُ في فمي شيئاً ما، ربّما كان ما تبقّى من مصّاصة مثلّجة أو حبّة موز من نوع تشيكيتا. عندها اغتمّت المرأة، وبكت، واعتذرت لأنّها نطقت بما يجول في خاطرها، ولأنّني وُلِدت! «بعض أفضل أصدقائي هم قرود» قالت من غير قصد. عندها، جاء دوري لأضحك. فهمتُ من أين جاءت هذه المرأة، من مدينة تفيض بزلاّت اللسان الفرويديّة، بالانتصاب الحسّيّ لمآثر وآثام أمريكا. هل هي العبوديّة؟ أم قدر أمريكا بالتوسّع؟ أم حلقات مسلسل *لافيرن وشيرلي*؟ أم التخاذل عن القيام بشيء في حين حاولت ألمانيا قتل كلّ يهوديٍّ في أوروبّا؟ لِمَ بعض أفضل أصدقائي هم المتحف الوطنيّ للفنّ الأفريقيّ، ومتحف الهولوكست، والمتحف الوطنيّ للهنود-الأمريكيّين، والمتحف الوطنيُّ للنّساء في الفنون؟ وأكثر من ذلك، عليكَ أن تعرفَ أنَّ ابنة أختي متزوّجة من إنسانٍ غاب.

كلّ ما تحتاجه هو رحلة لمدّة ساعة عبر منطقتَي جورج تاون وتشاينا تاو، والتبختر على مهل أمام البيت الأبيض، وفينيكس هاوس وبلير هاوس[1]، ونُزل المخدِّرات المحليّ من أجل أن تصبحَ الرّسالة واضحة جدّاً. أنْ تكونَ في روما القديمة، أو في أمريكا في يوم عاديّ، فأنت إمّا مواطن أو عبد، أسد أو يهوديّ، مذنب أو بريء، مرتاح أو غير مرتاح. وهنا، في المحكمة العليا للولايات المتّحدة الأمريكيّة، بين الأصفاد وموادّ تنجيد الكرسيّ الجلديّ المنزلقة فإنَّ الطريقة الوحيدة التي أمنع فيها نفسي من إخراج قذارتي على نحو شائنٍ على الأرض اللعينة هو أن

(١) أحياء معروفة في واشنطن، إحدى سماتها انتشار المتشرّدين والمخدِّرات. (م)

أنحني إلى الخلف حتّى أشكّلَ زاوية في وضع يفتقد إلى الراحة داخل غرفة التحقيق، لكنّه بالتأكيد جيِّد إذا ما قِيس بازدراء المحكمة.

أجراسُ العمل داخل المحكمة تخشخش مثل مركبات الجليد ذات الأجراس، موظّفو المحكمة يسيرون إلى داخل الغرف اثنين اثنين كخيول جرٍّ حليقة تسير من دون مركبة، يربطهم ببعضهم حبُّ الله والوطن، تتقدّمهم امرأة فخورٌ تشبه عارضات بادفايزر[1]، ترتدي وشاحاً فاقعَ الألوان زيَّنته كتابات تشبه قوس قزح على ملء صدرها. نقرَتْ على كرسيّ، تريدني أن أستقيمَ في جلستي، لكنّني، وبسبب طبيعتي الأسطوريّة المتمرّدة على القوانين المدنيّة، مِلتُ، على نحوٍ مُتحدٍّ، بجسدي أكثرَ فأكثر أبعدَ من ظهر الكرسيّ، في معارضة حمقاء، حتّى ارتطمتُ بالأرض بسقطة مؤلمة في عجزي، فما كان منها إلاّ أن أسلَتْ مفتاح الأصفاد أمام وجهي، وبذراع ثخينة لا شعر عليها رفعتني، دافعةً كرسيّ قريباً من الطاولة حيث أستطيع رؤية انعكاس صورة بذلتي وربطة عنقي على سطح الطاولة اللامع بلون الليمون الطازج وخشب الماهوني. لم أرتدِ بذلةً قبل الآن، والرّجل الذي باعني إيّاها قال لي «ستبدو كما تبدو دائماً، أضمنُ لك ذلك»، لكنَّ الوجهَ في الطاولة، المُحدّقَ فيَّ، يبدو وجه أيِّ رجل أعمال يلبس بذلةً، بقصّة شَعر زنجيّة فيها جدائل على رأس أصلع، رجل أفريقيٌّ يعمل في وكالة، لا تعرف اسمه، ولا تذكر وجهه. رجل يبدو مثل... يبدو مثل مجرم.

«عندما تبدو في مظهر حَسَن، ستشعر بأنّك حَسَن». هكذا أيضاً وعدني رجلُ المبيعات. وضمَنَه لي، لذلك عندما أعود إلى المنزل سوف أسأله أن يعيدَ لي الـ ١٢٩ دولاراً لأنّني لم أحبَّ الطريقة التي بدوتُ فيها، والطريقة التي شعرتُ بها، وأنا ألبس هذه البذلة، لأنّني أشعر أنَّ بذلتي رخيصة وتجلب الحكاك، ومنزوعة عند الدرزات.

(١) فتيات يظهرن في دعايات بيرة بادفايزر. (م)

يتوقَّع رجالُ الشرطة منك، في معظم الأوقات، أن تكونَ شاكراً لهم، سواء كانوا للتوّ دلُّوك إلى مكان مكتب البريد، أم ضربوك وأنت على المقعد الخلفيّ لسيَّارة الدوريَّة، أم، كما في حالتي، لم يقيِّدوك بالأصفاد، وأرجعوا لك سيجارة الحشيش وأدوات التحشيش، وزوّدوك بقلم الرّيشة، هديَّةِ المحكمة العليا التقليديَّة. لكنّ هذه الشرطيّة كانت ألقى نظرة شفقة على وجهِها منذ بداية الصباح عندما التقَتني هي ورفاقها عند أعلى درجات المحكمة الدستوريَّة العليا الأربع والأربعين العالية، وتحت مثلَّث البناء المنقوش عليه **العدالة للجميع تحت القانون**. وقفوا ملتصقين ببعضهم، يحدِّقون بعيون نصف مغمضة إلى شمس الصَّباح، تذروهم الرياح بغبار أزهار الكرز المتساقطة، ويسدُّون طريق دخولي البناء. كلُّنا كنَّا نعرف أنَّها تمثيليَّة مصطنعة، عرض الدقيقة الأخيرة الخالي من المعنى لسلطة الولاية. الوحيدُ الذي لم يكن مشتركاً في المزحة كان كلباً من نوع «السباينيل»، كان رسنه المسحوب يطنُّ وراءه. التصقَ بي، وبدأ يشتمُّ حذائي وبنطالي بابتهاج، ويحكُّ مكان تلاقي قدميَّ بأنفه الرَّطب، وبعدها جلس إلى جانبي بكلِّ طواعية وذيله يضرب الأرض في زهو. اتُّهمتُ بجريمة شنيعة، إذ كان اعتقالي بتهمة امتلاك الماريهوانا في ملكيَّة فدراليَّة يشبه اتِّهامَ هتلر بالسَّلب، أو اتِّهامَ شركة نفطٍ متعدِّدة الجنسيَّات، مثل الشركة البريطانيَّة، برماية النفايات بعد خمسين عاماً من تفجير مصافي النفط وإراقة السموم والانبعاثات وحملات الدعايات الماكرة المخزية. لذلك، نظَّفتُ غليوني بطَرقَتين عاليتي الصوت على طاولة الماهوني، مسحتُه ورميتُ الفضلات العالقة على الأرضيَّة، حشوتُ وعاءَ الغليون بأوراق الحشيش، ومثل قائد جماعة رماة عظيم أشعلتُ سيجارة الجنديّ الهارب الأخيرة، وبكلِّ طواعية أشعلتْ لي الشرطيَّةُ غليوني بقدّاحتها (البيك)، وأخذتُ أكثرَ السحباتِ روعةً في تاريخ تدخين الحشيش. استدعوا كلَّ مَن صُوِّر جانبيّاً على نحو عنصريٍّ،

كلُّ مَن رفض الإجهاض، كلُّ مَن حرق العلم، كلُّ مَن أخذ بالتعديل الخامس للدستور، واطلبوا منهم أن يمثلوا أمام محكمة ثانية لأنّني انتشيتُ في أرفع محكمةٍ على الأرض. حدَّق الموظَّفون فيّ بدهشة. أنا قرد محاكمة سكوبس[1]، الحلقة الضائعة لتطوّر القوانين الأفريقيَّة الأمريكيّة. أستطيع سماع كلب «السباينيل» يئنُّ في الممرّ، يضرب ببراثنه على الباب، في حين أنفخُ سحابةً من الدخان على هيئة انفجار نوويّ باتّجاه الوجوه المنقوشة على الإفريز في السّقف. حمورابي، موسى، سليمان - تلك التعاويذ الإسبانيّة، المعرّقة بالمرمر، حول الديمقراطيّة واللّعب النظيف-محمّد، نابوليون، تشارلمان، وصبيٌّ من اليونان القديمة بثوبه الفضفاض، كلُّهم يقفون فوقي، يوجِّهون نظراتهم الحجريَّة الحكيمة إليَّ في الأسفل. أتعجّبُ فيما إذا كانوا ينظرون إلى أولاد سكوتزبورو[2] وإلى آل غور الابن بالازدراء نفسه.

كونفوشيوس فقط بدا بارداً وهادئاً، بثوبه الساتان الصينيّ الرياضيّ بأكمام طويلة، وحذاء الكونغ فو خاصّته، ولحية شاولين سيفو والشاربين. رفعتُ الغليون عالياً فوق الرؤوس وعرضتُ عليهم نَفَساً، أطولُ الرّحلاتِ تبدأ بسحبة حشيش واحدة...

قال: «أطولُ الرّحلاتِ هي لاو-تسو».

وأنا قلت: «كلُّ شعرائك الفلاسفة الملعونين يبدون سواءً بالنسبة لي».

---

(١) محاكمة شهيرة لمدرّس علوم في الولايات المتّحدة (١٩٢٥)، جون سكوبس، الذي سيق إلى المحكمة لما اعتبر مخالفة لقانون ولاية تينيسي لأنّ روايته لنظرية داروين في التطوّر تخالف قصص العهد القديم. (م)

(٢) تسعة مراهقين سود اتّهموا بغتصاب امرأتين من البيض في العام العام ١٩٣١، في الولايات المتّحدة. (م)

رحلةٌ هي الأخيرة في الدّرب الطويلة لتطوّر القضايا المتعلّقة بالتمييز. أفترضُ أنَّ باحثِي الدستور وعلماء الإحالة الثقافيّة سيتجادلون حول مكاني في خطِّ التاريخ، وسيخمّنون عُمرَ غليوني بالأشعَّة الكربونيَّة، ويقرّرون فيما إذا كنتُ انحدرُ مباشرةً من دريد سكوت[١]، ذلك اللغز الملوَّن الذي عاش كعبد في ولاية حُرّة. كان رجلاً بالقدر الكافي بالنسبة لزوجته وأولاده، بالقدر الكافي بِالنسبة للدّستور، لأنَّه في عينَي المحكمة كان ببساطة مُلكيَّةً، حيواناً أسودَ بقدمين «بلا حقوق تلزم الأبيضَ باحترامها»، وسيتأمّلون في المذكّرات القانونيَّة والاتّهامات عبر مخطوطات أوراق ما قبل الحرب، وسيقرّرون فيما إذا كانت نتيجة هذه القضيَّة توافق أو تعارض قضيّة *بليسي ضدّ فيرغسون*[٢]، وسوف يطوفون المزارع والمشاريع والقصور المبنيَّة على طراز قصر تيودور في الضواحي، يحفرون أقنيةً يبحثون فيها عن آثار أشباح التمييز العنصريّ في الماضي، في حجارة النّرد المتحجّرة، وفي عظام الدومينو، ويمسحون الغبار عن الحقوق المتحجّرة والوثائق المدفونة في مجلّدات رسميَّة مقيَّدة، وسيصفونني حرفيّاً بـ «متحدّر من جيل سابق من الهيب هوب لايمكن التنبؤُ بأفعاله» في عروق لوثر كامبيل «لوك سكايووكر»[٣]، رجلِ الشوارع الأسود ذي الأسنان المتباعدة، الذي قاتل من أجل حقّه في محاكاة الرَّجل الأبيض بالطريقة نفسها التي كان يعاملنا بها هذا الرَّجل الأبيض لسنوات. لذلك، لو كنتُ في الطرف الآخر من القضيَّة لكنتُ انتزعتُ قلمَ الحبر السَّائل من يدِ رينكويست، رئيس المحكمة السابق،

(١) عبد أسود شهير، حصل على حرّيّته في المحكمة العليا في العام ١٨٥٧. (م)

(٢) قضيّة في المحكمة العليا، في العام ١٨٩٦، أيّدت حقَّ الولايات في إقرار قوانين تجيز الفصل العنصريّ في بعض الأماكن العامّة. (م)

(٣) لوثر كامبيل ممثل أمريكيّ أسود، وليوك سكايووكر شخصيّة في فيلم «حرب النجوم» الشهير. (م)

وكتبتُ الرَّأيَ المعارضَ الوحيدَ، مُصرِّحاً على نحو قطعيّ بأنَّ «أيُّ رجل شوارع أسود لعين يوقِّع تحت اسم (أنا مثارٌ جدّاً) لا حقَّ له عند الرَّجل الأبيض، وأيّ رجل يرقص البريك ويستحقّ حذاءه البوما، غير ملزم باحترامه».

احترق الدخان داخل حنجرتي. «العدالة للجميع تحت القانون»، صرختُ على لا أحد، هذه شهادةٌ على قوّة هذا الحشيش، وعلى الدستور الهزيل. في أحياء كالحيّ الذي ترعرعتُ فيه، الأماكن الفقيرة في الأفعال والغنيَّة في الخطابة، كان زملاء الحيّ يردِّدون: «أفضِّلُ أن يحاكمني اثنا عشرَ، على أن أموتَ ويحملني ستّة». إنَّها حكمة، كلمات لأغنية راب تتكرَّر غالباً، رمية حجر كمحاولة أخيرة، ومعادلة صعبة في ظاهرها، لكن في جوهرها تعني، في أحيائنا، أن تطلقَ النار أوّلاً، أن تضعَ ثقتكَ بالمدافع عن الشّعب، وتكون شاكراً أنّك لاتزال تحافظ على صحّتك. لا أمتلك حكمة الشّارع تلك، لكن بالنسبة لمعرفتي لا نتيجة لأيّ استئنافٍ في المحكمة، فأنا لم أسمع قطُّ عن صاحب متجر عند زاوية، جلف، يأخذ جرعة من شراب الشعير ويقول «أفضِّلُ أن يحقّقَ معي تسعة على أن يحكم عليَّ واحد». الناسُ قاتلوا وماتوا في سبيل أن تصلَ إلى شيء من «العدالة للجميع تحت القانون»، المعلَن عنها على نحو بهيج على البناء في الخارج، لكن سواء كنتَ بريئاً أم مذنباً، معظم الآثمين لا يصلون إلى هذا الحدّ، فاسترحامهم في المحكمة نادراً ما يتفوَّق على استغاثة أمٍّ باكيةٍ إلى رحمة الربّ أو على رهن عقاريّ ثانٍ، أو منزل الجدَّة، ولو صدَّقتُ مثل هذه الشعارات لكان واجباً عليَّ القول إنَّ لديَّ أكثر من مشاركة العدل، لكنّني لا أمتلك. عندما يشعر الناس بالحاجة إلى زخرفة بناء أو تجمُّع سكنيّ بعبارة «*Arbeit Macht Frie*»[1]،

(١) بالألمانيّة بالأصل: يجعلك العمل حرّاً. (م)

أو «أكبرُ مدينة صغيرة في العالم» أو «أسعدُ مكانٍ في الأرض» فإنّها إشارة إلى عدم وجود الأمان. عذرٌ مُختَرَعٌ للاهتمام بمكاننا وزماننا المُحدَّدَين. هل حصل ذلك مع رينو في نيفادا؟ إنّها أقذرُ مدينةٍ صغيرة في العالم، وإذا كانت ديزني لاند حقّاً هي أسعدُ مكان على الأرض فإنّك إمّا ستحافظ على الأمر سرّاً، أو سيكون ثمن الاعتراف دخلاً حرّاً، ولكن ليس كدخل سنويٍّ لكلِّ فردٍ في أمّة الدول الأفريقيّة جنوب الصحراء الكبرى، مثل ديترويت.

لم أكن أشعر بهذه الطريقة دائماً. في نشأتي، كنتُ أظنُّ أنَّ كلَّ مشكلات أمريكا السوداء يمكن أن تُحلَّ لو كان عندنا شعار، شعار بليغ[1] *Liberté, egalité, fraternité*، شعار يمكن أن نلصقه على البوّابات المزخرفة بالحديد، التي تزقزق دائماً، أو نطرّزه على معلّقات المطبخ ورايات الاحتفالات، إنّه مثل كلِّ الفولكلور الأفريقيِّ الأمريكيِّ وقصّات الشَّعر، يجب أن يكونَ بسيطاً، عميقاً تماماً، نبيلاً، وعلى نحو ما مساواتيّ. بطاقة دعوة لكلِّ العِرق الذي لم يكن عنصريّاً على السَّطح، لكن كان مفهوماً تماماً من هؤلاء بأنّه أسود جدّاً جدّاً. لا أعرف من أين يأتي الشبّانُ الصِّغار بمثل هذه الأفكار، ولكن عندما يشير أصدقاؤك كلّهم إلى آبائهم بأسمائهم الأولى فإنَّ إحساساً بأنَّ شيئاً ما لا يمضي على نحو صحيح تماماً، ثمّ ألنْ يكونَ أمراً لطيفاً في أوقات نوبات الغضب السريعة تلك، والأزمات، بالنسبة لعائلات الزنوج المنهارة أن يجتمعوا حول موقد النار يحدّقون في رفِّ المستوقد، وأن يعبّروا عن ارتياحهم للكلمات المهمّة المنقوشة على مجموعة من الأطباق التذكاريّة اليدويّة الصنع، أو للقطع النقديّة الذهبيّة المحدودة الانتشار، التي سبق واشتروها من مُخبِرٍ في وقت متأخّر من ليلة أمس ببطاقات ائتمان منتهية الصلاحية بطبيعة الحال؟

---

(١) بالفرنسيّة بالأصل: حرّيّة، مساواة، أخوّة، وهو شعار الثورة الفرنسيّة. (م)

الإثنيّات الأخرى لديها شعارات، «لم نُحتَلّ، ولا يمكن احتلالنا» هو نداءٌ في قوميّة تشيكاسو[١]، مع أنّه لم يكن مطلوباً في طاولات قمار الكازينو، ولا في القتال مع الكونفيدراليين في الحرب الأهليّة. *الله أكبر*، *شيكاتا غا ناي*، *أبداً مرة ثانية*، *خرّيجو هارفارد سنة ٩٦*، *الحماية والخدمة*. تلك هي أكثر من مجرّد تحيّات أو أقوال مبتذلة. إنّها رموز لإعادة التنشيط. طاقة لغويّة تزيد من قوّة حياتنا، وتربطنا ببعض كمخلوقات إنسانيّة لها أدمغة متشابهة، وبشرة متشابهة، وأحذية متشابهة. ماذا يقولون في حوض البحر المتوسط[٢]؟ *Stecca faccia, stecca razza*. كلُّ عِرق عنده شعار. ألا تصدِّقونني؟! هل تعرفون ذاك الشّاب ذا الشَّعر الأسود، الذي يعمل في الموارد البشريّة؟ الرَّجل الذي يتصرَّفُ كأبيض، يتحدَّثُ كأبيض. ولكن، لا يبدو أنّه بخير تماماً؟ اصعدوا إليه واسألوه لماذا يلعب حرّاسُ المرمى المكسيكيُّون بطَيش، أو اسألوه إذا ما كانت سندويشة التاكو الموضوعة في الخارج هي آمنة للأكل. هيّا اذهبوا. اسألوه، حثّوه على الكلام، وامسحوا على قفا جمجمته الهنديّة المسطَّحة، وشاهدوا كيف يستدير قائلاً *¡Por La Raza-todo! ¡Fuera de La Raza-nada!* (كلُّ شيءٍ من أجل العِرق! ولا شيءَ خارجه).

عندما كنتُ في العاشرة أمضيتُ ليلةً طويلةً تحت لحافي مُتَّخذاً من المكان جُحراً لي، أحضنُ الدبَّ فان شاين، الذي كان ممتلئاً بإحساس مبهم باللُّغة ودوغمائيّة نقديّة. كان أكثر دببة الدُّمى قدرةً على الفصاحة، فكان ناقدي الأقسى. في الظلام الحالك لكهف الوطواط الحريريّ، ذراعاه القصيرتان الصفراوان اللتان بالكاد تتحرَّكان، كانتا تصارعان من

---

(١) قبيلة هنديّة تعيش في أمريكا الشماليّة، كان لديهم حكومة مستقلّة، ألغيت في العام ١٩٠٦. (م)

(٢) بالإيطاليّة بالأصل: الوجهُ نفسه، العِرقُ نفسه. (م)

أجل الحفاظ على ضوء الكشّاف عندما كنّا معاً نحاول اختصار العِرق الأسود في ثماني كلمات أو أقلّ. محاولاً أن أستفيدَ من معرفتي المنزليّة باللُّغة اللاتينيّة، كنتُ أخترعُ شعاراً، ثمّ أدفعه إلى ما تحت أنفه البلاستيكيّ على شكل قلبٍ من أجل الموافقة. محاولتي الأولى: *أمريكا السوداء*[1]: *Veni, vidi, vici-* دجاج *مقليّ!* قلعتْ أذني فان شاين، وأغلقتْ عينَيه القاسيتين البلاستيكيتين بخيبة أمل[2] *Semper Fi, Semper* . *Funky*، رفعتُ شعره البوليستريّ، وعندما بدأ يضربُ ببراثنه الفراش في غضب، وينتصب على قدميه الصفراوين القصيرتين كاشفاً عن أنيابه ومخالبه الدُبيّة، حاولتُ أن أتذكّرَ ما كان ينصحنا به كتيّب كُشافة الأطفال أن نفعله عندما يهدِّدنا دبٌّ كرتونيٌّ يشربُ خمراً كان سرقه من البوفيه «إذا قابلتَ دبّاً غاضباً فابقَ هادئاً، تحدَّث بصوت لطيف، ارفع جذعك، تضخَّم، واكتب جُملاً بسيطة واضحة راقية باللُّغة اللاتينيّة».

Unum corpus, una mens, una cor, unum amor

جسدٌ واحد، عقلٌ واحد، قلبٌ واحد، حبٌّ واحد.

ليست شعاراً سيّئاً. ويبدو جميلاً مثل لوحة سيّارة رأيتُها مكتوبة بأحرف متّصلة على حواف ميدالية الشرف التي حصلت عليها في حرب الأعراق. لم يكن فان شاين يكره الشعار، لكن من طريقة تجعُّد أنفه قبل أن يغرق في نومه، أمكنني القول إنّه أحسّ أنّ شعاريَ كان يتضمَّن تفكيراً جماعيّاً بالتحديد. و.. ألم يكن السُّود يتذمَّرون من الإشارة إليهم بالمتراصّين كليّاً؟ لم أدفن أحلامه بأن أخبرَه أنّ السُّودَ كلَّهم يفكِّرون حقّاً كذلك. إنّهم لا يعترفون بهذا. لكن، كلُّ شخص أسود يظنُّ أنّه أفضل من أيّ شخص أسودَ آخر. وأنا لم أتلقَّ أيّ جواب من الجمعيّة الوطنيّة لتقدُّم

(١) باللاتينيّة بالأصل: أنا جئتُ، شاهدتُ، غزوتُ. (م)

(٢) باللاتينيّة بالأصل: دائماً مخلص. (م)

الملوَّنين، أو من الرَّابطة المدنيَّة للزنوج، وبذلك تكون العقيدة السَّوداء موجودةً فقط في رأسي، تنتظر، بنفاد صبر، حركةً ما، وأمَّة ما، وشعاراً ما، طالما أنَّ العلامة التجاريَّة أصبحت كلَّ شيءٍ هذه الأيَّام.

ربَّما لا نحتاج إلى شعار، كم مرَّة سمعتُ أحدهم يقول «أيُّها الزنجيُّ، أنت تعرفني جيِّداً، شعاري هو...»؟ لو كنتُ ذكيَّاً لاستخدمتُ لغتي اللاتينيَّة. اِدفعْ عشرة دولارات للكلمة، وخمسة عشر دولاراً إذا كانت مفردةً من خارج الحيِّ، أو كنتَ تريدني أن أترجم «لا تكرهِ اللاعب، اكرهِ اللُّعبة». ولو أنَّ جسد الإنسان هو معبده فلسوف أتحصَّلُ على مال كثير. أفتحُ متجراً صغيراً في البوليفارد، ويصبح لديَّ طابور طويل من زبائن الوشم، الذين كانوا حوَّلوا أجسادهم إلى أماكن عبادة غير طائفيَّة: صلبان عَنخ المصريَّة، وطيور السانكوفا الغانيَّة، صلبان تقاتل من أجل مساحة على البطن مع آلهة الشَّمس عند الآزتك، ومجرَّات تطلق على نفسها اسم نجمة داوُد، وشخوص صينيَّة على أشكال عجول محلوقٍ وبرُها، وأعمدة فقريَّة، صرخات صينيَّة على أحبَّاء ماتوا يظنُّون أنَّ معناها «ارقدي بسلام أيَّتها الجدَّة بيفرلي»، لكنَّها في الحقيقة تعني «لا يوجد وصل، ولا اتفاقيَّة تبادل تجاريّ!» أيُّها الرَّجل، ربَّما يكون ذلك قمَّة السعادة. ستكون أسعاري مرتفعة كأسعار السجائر، وقد يأتون إليَّ في كلِّ ساعات الليل، ويمكن أن أجلسَ خلفَ نافذة سميكة مصنوعة من زجاج الحديد المصقول، ولدَيَّ واحد من تلك الصناديق المنزلقة التي يستخدمها سُعاة محطات الوقود. ربَّما أفتح الدُّرجَ، وأفعل كما يفعل سجينٌ في سجنه، أمرِّرُ قائمة الطلبات في السجن، فيمدُّني عملائي السرِّيون بالموافقات. كلَّما كان الرَّجلُ صلباً كانت كتابته اليدويَّة أنيقةً، وكلَّما كان قلبُ المرأة رقيقاً كان التعبيرُ عنيفاً. «أنتم تعرفونني»، ربَّما يقول أحدهم، «شعاري هو...»، وتنهال الاقتباسات من شكسبير وسكارفيس وصفحات الإنجيل، ومن حِكَم

باحات المدارس وبديهيّات العصابات المكتوبة في كلّ وسط، من الدّم إلى المِكحال، كلّها تنهال إلى داخل الدُّرج، وسواء خربشتُ ذلك على منديل بارٍ مجعّد أم على صحن ورقيٍّ مُلطّخ بصلصة الشواء مع سلطة البطاطا، أم كان صفحةً مُزّقت بعناية من مذكّرات سريّة محفوظة منذ ذلك الهياج الذي حصل في قاعة اليافعين، فإنّي إذا أخبرتُ شيئاً عنها فستكون إذاً نهايتي *Ya estuvo* (مهما كان معناها)، لذلك كنتُ سآخذ هذا العمل على محمل الجدّ، فهؤلاء هم أشخاص، عبارةُ «حسناً، إذا وضعتَ مسدساً في رأسي...» بالنسبة إليهم ليست جملةً نظريّة، فإذا أقحم أحدُهم صورة فكّ حيوان حديديٍّ بارد إلى رمز «الين واليانغ» الموشوم على معبدك، وعشتَ لتخبرَ عن ذلك، فإنّك لست في حاجة إلى أن تقرأ كتاب «آي جينغ» كي تُقدّرَ التوازنَ الكونيَّ للوجود، وقوّةَ الوشم المرسوم على مؤخّرة امرأة، لأنّه ماذا يمكن لشعاركَ أن يكونَ غير هذا «كلّ ما يمضي يعود... *Quod circumvehitur, revehiture*».

عندما تكون حركة الأعمال بطيئة، سيمرُّون عليَّ ليُظهروا لي أعمالي اليدويّة. الأحرف الإنكليزيّة القديمة ستتلألأ في ضوء الشارع، مضبوطة الإملاء على بنياتهم العضليّة المتعرّقة. عندما يتكلّم المالُ تهرب التفاهات[1]... *Pecunia sermo, somnium ambulo*. عبارات حالات النصب في اللُّغة تلمعُ حول رقابهم، فثمّة شيء خاصّ حول تكسير لغة العلم والرومانسيّة للأمواج المتراكمة على شحوم جسدٍ صديقة. قضيبٌ منتصب.*Austerus verpa* ... كن عضوَ عصابة أو ستتعرَّض للمضايقات... *Criptum vexo velcarpo vex*. إنّها نَزعة جوهريّة غير جوهريّة. يدخل الدّم، يخرج الدّم... *Minuo in, minuo sicco*. الرّضا

(١) كلُّ المقاطع الأجنبيّة في هذا المقطع هي باللاتينيّة، والراوي يترجم معناها في السياق.(م)

الناجم عن النظر إلى شعارك في المرآة، والتفكير في أنَّ أيَّ زنجيّ ليس لديه جنون عظمة هو مجنون... *Ullus niger vir quisnam est non insanus ist rabidus* هو شيءٌ كان ليقوله يوليوس قيصر لو كان أسودَ. تصرَّف وفاقاً لعمرك، وليس وفاقاً لمقاس حذائك... *Factio vestri aevum, non vestri calceus amplitude*. وإذا قرَّرتْ أمريكا المتضخِّمة في عدد سكّانها أن تصنعَ شعاراً جديداً فأنا جاهزٌ للعمل، فلديَّ شعارٌ أفضل من شعارها[١] *E pluribus unum*.

Tu dormis, tu perdis... إذا غفوتَ فإنَّك ستَخسر.

أحدهم أخذ الغليون من يدي، وقال: «تعالَ أيُّها الرَّجل، لقد فرغتِ القذارة من غليونك. حان وقت إعداد الكعك يا صديقي». إنَّه هامبتون فيسك، محامٍ وصديقي القديم، بهدوء، نفخ بعيداً ما تبقى من دخان الغليون، وبعدها غطَّاني بغيمة مضادَّة للفطريَّات من ملطِّف الجوّ. أنا مُنتشٍ جدّاً ولا أستطيعُ الكلام، لذلك حيَّينا بعضنا بإيماءات إيجابيَّة تفيد بالسؤال عن الأحوال، وتشاركنا ابتسامة معروفة، فكلانا يتشارك رائحةً يدرك مغزاها، النسيم الاستوائيّ، الرَّائحة اللعينة نفسها التي نستخدمها من أجل إخفاء الدليل عن أهالينا، فرائحة المنزل تكون كرائحة أسوأ أنواع المخدِّرات، وإذا ما دخلت الأمُّ المنزل، وركلت خفَّي الرّياضة خاصَّتها، واشتمّت عبير قرفة التفَّاح أو الفراولة أو الكريما، فإنَّها ستعرف أنَّنا كنَّا ندخِّن، أمَّا إذا كانت رائحة المنزل مثل رائحة أقذرِ أنواع المخدِّرات، فعندها، وبسبب رائحة الصنَّة، ستقع اللائمة على «العمّ ريك وجماعته»، أو على أناس بديلين. لن تقولَ شيئاً، ستكون تعبةً جدّاً كي تفكِّرَ في احتمال أنَّ طفلها الوحيد مدمنٌ على الماريهوانا، وستأملُ أن تزولَ المشكلة، ببساطة.

---

(١) باللاتينيّة بالأصل: «وحدة تشكّلت من عدة قوميّات». (م)

ليس من اختصاص هامب المرافعة في قضايا أمام المحكمة الدستوريّة العليا، فهو محامٍ من المدرسة التقليديّة يدافع عن مجرمين. عندما تتّصل بمكتبه فإنّكَ دائماً ما تُوضَع على الانتظار، ليس لأنّه مشغولٌ، أو لأنّه ليس ثمّة سكرتيرة تردُّ على الهاتف، أو لأنّك اتّصلتَ به في الوقت ذاته حين قام أحمق آخر، كان شاهد إعلانه على مقعد موقف الحافلات، بالاتّصال به، أو لأنّ رقمه ليس من الأرقام المجانيّة التي لا تُغرّم المتّصل بها، وينحتها الأشخاص المأجورون على مرايا الحديد المصقول أو تُكتبُ على زجاج نوافذ المقاعد الخلفيّة لسيّارة الشرطة، السبب فقط هو أنّه يجب الاستماع إلى جهاز الردّ الآليّ خاصّته: عشرُ دقائق من تلاوة انتصاراته القانونيّة ودعاويه الفاسدة.

«أنتَ تتّصل مع مجموعة فيسك، أيّ مؤسّسة يمكن أن تحصي الاتّهامات، لكنّنا نستطيع هزيمة هذه الاتّهامات. ليس مذنباً-قاتل. ليس مذنباً-إنّها قيادة تحت تأثير الكحول، ليس مذنباً-اعتداء على ضابط شرطة، ليس مذنباً-انتهاك جنسيٌّ، ليس مذنباً-إساءة لطفل، ليس مذنباً-إساءة لعجوز، مرفوض-سرقة، مرفوض-تزوير، مرفوض-عنف عائليّ (أكثر من ألف قضيّة)، مرفوض-اتّصال جنسيّ مع قاصر، مرفوض-تشغيل طفل في نشاط مخدّرات، مرفوض-اختطاف...»

يعرِفُ هامب أنّ أعظم اليائسين من المتّهمين هو فقط مَن يمتلكُ الصبرَ على أن يستمعَ إلى سلسلة الاتّهامات اللعينة تلك، التي تكاد تشمل كلّ قانون عن الجريمة في القانون الجزائيّ لمقاطعة لوس أنجلس، أوّلاً بالإنكليزيّة ثمّ بالإسبانيّة ثمّ باللغة التاغالوغيّة[1]، وهؤلاء هم الناس الذين يحبُّ أن يمثّلهم. بائسو الأرض، هكذا يسمّينا، أناسٌ أفقرُ من أن يستطيعوا تحمّل تكلفة (الكيبل)، وأغبى من أن يعرفوا أنّهم لم يخطئوا

(١) من اللغات المستخدمة في جزر الفيلبين، وفيها تأثر باللغتين الإنكليزيّة والإسبانيّة. (م)

في شيء. «لو طلبني جان فالجان لمثّلته» يحبُّ القول دائماً، ويضيف «عندها سيكون طول رواية *البؤساء* ستّ صفحات فقط. مرفوض-سرقة رغيف خبز».

جرائمي ليست مذكورة في القائمة على جهاز الردّ الآليّ، وفي استدعائي إلى محكمة الولاية، وتماماً قبل أن يسألني القاضي تقديم أجوبتي، قرأ قائمة الاتّهامات الشنيعة الموجّهة ضدّي. ادّعاءات في المحصلة تتّهمني بكلّ شيء، من تدنيس أرض الوطن إلى التآمر من أجل إثارة المشاكل في أحسن الأحوال، عندها وقفت مشدوهاً أمام المحكمة محاولاً أن أكتشفَ ما إذا كانت هناك حالة بين «مذنب» و«بريء». لِمَ هاتان الحالتان هما احتمالايَ الوحيدان؟ فكّرتُ، لماذا لا توجد احتمالات مثل «ولا واحدة منهما» أو «كلاهما»؟

بعد فترة صمت طويلة، واجهتُ منصّة القاضي أخيراً، وقلتُ: «سيّدي القاضي، دفاعي هو أنّني إنسان». من أجل هذه الكلمة تلقّيتُ ضحكةً نصف مكبوتة من القاضي وتنبيهاً بسبب ازدراء المحكمة، لكنّ هامب خفّض فترة سجني، تماماً قبل أن يقدّمَ مرافعة البراءة بالنيابة عنّي، وهي مرافعة شبه ساخرة، طالباً تغيير مكان المحاكمة، مقترحاً نورينبيرغ أو سالم في مساشوسيتس كأماكن بديلة، نظراً لخطورة الجرائم، وبما أنّه لم يقل لي شيئاً، فتخميني هو أنّ نتائجَ ما كان يفكّر في أنّه، على نحو واضح، قضيّة بسيطة عن سخافة مدينة أنموذجيّة للسُود. فجأةً قضت عليه، فالتمس الموافقة على رفع القضيّة إلى المحكمة الدستوريّة العليا في اليوم التالي تماماً.

لكن، تلك أخبار قديمة، فأنا الآن في واشنطن العاصمة، أتدلّى من نهاية ثوب المحكمة، منتشي الذاكرة والماريهوانا، وفمي جافٌّ، وأشعر كأنّني استيقظت للتوّ في الحافلة رقم ٧، مخموراً بعد ليلة تافهة من البهجة في حفلة صاخبة، ومن ملاحقة النساء المكسيكيّات عند رصيف

شارع سانتا مونيكا، أنظر إلى النوافذ في الخارج وأفكّر في خدر، بتأثير الماريهوانا، في أنّني أضعتُ موقفي، وليس لديَّ فكرة عن مكاني، أو لماذا ينظر كلُّ شخصٍ إليَّ، مثل هذه المرأة في صفّ المحكمةِ الأماميّ، تتّكئ على الدرابزين الخشبيّ، ووجهها مليءٌ بالعقد من الغضب، في وقت تشير فيه بأصابعها الطويلة، النحيلة، ذات الأظافر المدرَمة باتّجاهي. للمرأة السّوداء يدان جميلتان، ومع كلِّ حركة من يديها، اللتين تشبهان زبدة الكاكاو اللعينة، في الهواء تصبح يداها أكثرَ أناقة. إنّهما يدا شاعر، يدا أحدِ أولاء الشعراء المعلّمين من ذوي الشّعر الطبيعيّ والأساور النحاسيّة، الذين يقارِنُ شعرُهم الغنائيُّ كلَّ شيء بالجاز، الولادة مثل الجاز، محمّد علي مثل الجاز، فيلادلفيا مثل الجاز، الجاز مثل الجاز، كلُّ شيء مثل الجاز، إلاّ بالنسبة إليّ. بالنسبة إليها أنا أُشبهُ استيلاءً معدَّلاً للموسيقا الأنغلو-سكسونيّة على الموسيقا السّوداء. أنا بات بون بوجه أسودَ يغنّي نسخة أضعفَ من أغنية فات دوميون «أليس ذلك مخجلاً». أنا كلُّ نغمة من موسيقا الروك آند رول البريطانيّة المفعَمة التي نُقرت على الأوتار منذ نغمة البيتلز المدويّة التي افتتحت أغنية «الليلة نهار صعب». لكن، ماذا عن أغنية بوبي كالدويل «ما الذي لا تريد فعله لأجل الحبّ» وجيري ماليغان، وفرقة «ثيرد باس»، وجانيس جوبلن؟ أريد أن أصرخَ فيها. ماذا عن إيريك كلابتون؟ انتظر، سأسحبُ جملتي الأخيرة، ملعون إيريك كلابتون. ظهر صدُرها العامر فجأة، تخطّت الحاجز، شقّت طريقها أمام رجال الشرطة، واندفعت باتّجاهي وإبهامها يشير على نحو يائس إلى ما يجول في خاطرها «ألا ترى كم هو أمرٌ طويل الأجل، ورقيق، ومضيء، ومكلف على نحو مجنون ما أنتَ فيه؟ أيُّها الملعون، ستعاملني كملكة!» وخلفها شالٌ مطبوع عليه توقيع توني موريسون يتدلّى مثل ذيل طائرة ورقيّة.

هي الآن في وجهي تبَربرُ بهدوء، ولكن بكلام غير مترابط، عن

كبرياء السُّود، قوارب العبوديَّة، تسوية السُّود في العام ١٧٨٧م، رونالد ريغن، ضريبة الرؤوس، العرض العسكريُّ في واشنطن، أسطورة تمريرة الظهير الربعيِّ في كرة القدم، كيف أنَّ حتَّى الخيل ذات الرداء الأبيض لجماعة كوكلوكس كانت عنصريَّة، والأكثر تأكيداً، كيف أنَّ عقولَ «*الشبَّان الصغار السُّود*» الطيِّعة، التي ما برحت تتزايد بوفرة، يجب أن تُحمَى. وعجباً، إنَّ عقلاً لشابٍّ صغير برأس رطب يربِّت بكلتا يديه على خلفيَّة معلِّمته، ووجهه مدفون في منطقة ما بين فخذيها، بالتأكيد يحتاج إلى حارس شخصيّ، أو على الأقلّ، إلى واقٍ حقيقيٍّ من الأمراض الجنسيَّة.

صعدَ إلى الأعلى من أجل استنشاق الهواء، ناظراً إليَّ متوقّعاً منِّي شرحاً عن سبب كره معلِّمته لي. ومن دون أن يحصل على إجابة استدار الطالب إلى حيث الرطوبة الدَّافئة لمكانه السَّعيد، إنَّه ينسى كثيراً الفكرة النمطيَّة بأنَّ الذكورَ السُّودَ لا يذهبون إلى الأسفل هناك. ماذا عسايَ أقول له؟ «هل تعلم كيف هو الوضع في لعبة (الأفعى والسلَّم)، عندما تكاد تصل إلى خطِّ النهاية، ويعطيك نردُك ستة، بعد أن تقطع كلَّ تلك المسافة، يأخذك منزلقٌ أحمرُ مائلٌ من المربَّع سبعة وستِّين إلى المربَّع رقم أربعة وعشرين؟».

«نعم، يا سيِّدي»، أجاب بأدب.

«حسناً»، قلتُ وأنا أفركُ رأسه الشبيه بالمطرقة ذات الرأس الكرويّ «أنا في ذلك المنزلق الأحمر الطويل».

صفعَتْني المعلِّمة-الشَّاعرة بقوَّة على وجهي. أنا أعرف، مثل كلِّ شخص هنا، كم تريدني أن أشعرَ بالذَّنب. تريدني أن أظهرَ بعض النَّدم، أن أتحطَّمَ في دموعي، أن أوفِّر على الموقف بعض المال، وإحراجها بأنَّها تشاركني سوادي. أنا، انتظرتُ أيضاً من ذلك الإحساس الأليف

الغامر بالذنب الأسود أن يحنيني على ركبتيّ. ذُلّني بعباراتك الفارغة حتّى أنحني بتوسُّل كبير لأمريكا، معترفاً بذنوبي، والدّمعُ يملأ عينيّ، ذنوبي ضدّ الملوّنين وضدّ البلد، استعطف تاريخي الأسود المتكبّر من أجل الغفران، لكن لا شيء من هذا موجود. فقط طنين مكيّف الهواء، بالإضافة إلى نشوتي، وهي، يرافقها عناصر الأمن إلى مقعدها في الخلف، والولد الصغير يلحقها ممسكاً شالها من أجل حياة عزيزة، والوخزة على خدّي التي كانت تأملُ أنّها ستشعرني خزي النّدم للأبد، كانت ذَوَتْ بطبيعة الحال، واكتشفتُ أنّني غير قادر على استحضار أيّ وخزةِ ذنبٍ واحدة.

هذا هو المزعج في الأمر، أنْ أكونَ خاضعاً للمحاكمة لبقيّة حياتي، ولأوّل مرّة على الإطلاق لا أشعر بالذنب. ذلك الذنب الذي رافقني دائماً، الذنب أنّي زنجيٌ أسودُ مثل فطيرة التفّاح التي تُباع جاهزةً، أو مثل كرة السلّة التي يلعبون بها في السجن، قد انطوى أخيراً، وأشعر كما لو أنّني رجلٌ أبيضُ، الآن بعد أن تخلّصتُ من هذا العار العنصريّ الذي يجعل طالباً يضع نظّارتين على عينيه، وفي الصفّ الأوّل في الجامعة، يخشى تناول الفروج المقليّ في القاعة المخصّصة لتناول الغداء في الجامعة. كان ذلك «التنوّع» الذي تصخب به الجامعة في بياناتها الرنّانة، ولكن لم يكن ثمّة ما يكفي من المساعدات الماليّة إلى هذا العالم، التي لو توافرت لكانت جعلتني أستمتعُ بمصّ عظام ذلك الفرخ في تلك القاعة، وأمام الصفّ بأكمله. لم أعد الآن جزءاً من الذنب الجمعيّ الذي يمنع عازف التشيللو على الكرسيّ الثالث، والسكرتيرة الإداريّة، وعامل المخزن، والفتاة التي ليست جذّابة حقّاً ولكنّها ببساطة سوداء جميلة، من إظهار الاحتفال في بداية عمل يوم الاثنين وإطلاق الرّصاص على كلّ أبيضَ لعين في المكان. إنّه ذنبٌ أجبرني أن أغمغمَ «ذنبي السيّئ» لكلّ تمريرةِ كرةٍ خاطئة، لكلّ سياسيٍّ يخضعُ لتحقيق فيدراليّ، لكلّ كوميديٍّ

أسودَ، بصوت ونظرة مدهوشة، ولكلّ فيلم أسودَ صُنع منذ العام ١٩٦٨م، ولكن لم أعد أشعر أنّي مسؤولٌ بعد الآن. والآن، أفهمُ أنَّ الوقتَ الذي لا يشعر فيه الناس السُّود بالذنب هو عندما نفعل شيئاً خاطئاً فعلاً، لأنَّ ذلك يريحنا من عدم الانسجام الإدراكيّ لكوننا سوداً وبريئين، وبطريقة ما تصبح فكرة الذهاب إلى السجن مسكِّناً، بالطريقة نفسها عندما تصبح لفظة زنجيٌ بالعاميَّة مسكِّناً، والتصويت للجمهوريِّين مسكِّناً، والزواج من أبيض مسكِّناً، وإن كان مسكِّناً مؤقّتاً.

غير مطمئن لكوني مرتاحاً جدّاً، أقومُ بمحاولة أخيرة لأكونَ على وفاق تامٍّ مع شعبي. أغمضتُ عينيّ، وضعتُ رأسي على الطاولة ودفنتُ أنفي العريض في انحناءة ذراعي، ركَّزتُ في أنفاسي، رميتُ كلَّ الراياتِ وكلَّ الجعجعات، غربلتُ من خلال نفسي الطويل سوادَ أحلام اليقظة حتَّى جرفتُ الصورةَ الأرشيفيَّة الواخزة لصراع الحقوق المدنيَّة، أمسكتُها بعناية من طرفها الحسّاس، وأخرجتُها من علبتها المقدَّسة، ورميتُها عبرَ العرباتِ المُسنَّنة والبوّابات النفسيّة أمام المصباح الموجود في رأسي الذي يومض بالفكرة المحترمة الطارئة، وأدرتُ عارضَ الصُّور، لم يكن من حاجة لأركِّز، المذبحة الانسانيّة دائماً مصوَّرة ونتذكّرها بصورة ذات دقَّة عالية، الصُّور واضحة كالكريستال، دائماً محروقة داخل ذكرياتنا وفي شاشة التلفزيون البلازما. حلقة الكلاب النابحة في احتفاليَّة شهر التاريخ الأفريقيّ الأمريكيّ[1]، خراطيم الإطفاء المتدفِّقة، نزُّ الدَّم العقيقيّ في قصَّات شعر الدولارين، الدَّم الذي لا لونَ له، المتدفِّق على الوجوه، يلمع بالعرق وضوءِ أخبار الأمسيات، تلك هي الصُّورُ التي تشكِّلُ أنانا العليا الجمعيَّة على شريط سينمائيّ ١٦مم. لكن اليوم أنا بكامل عقلي،

(١) احتفالية تذكّر السّود بتاريخ الشتات الأفريقيّ وبثقافتهم، يحتفَل به في الولايات المتحدة وكندا في شهر فبراير، وفي بريطانيا في شهر أكتوبر. (م)

ولا أستطيعُ التركيز. بدأت تتبعثر صُور الفيلم داخل رأسي، وانقطع الصوت، والمحتجُون المتساقطون مثل قطع الدومينو في بلدة سيلما في آلاباما بدوا وكأنهم زنوج «كيستون» ينزلقون على قشرة موز الإجراءات الإيجابيّة، ويسقطون في الشوارع، كتلة متشابكة من السيقان والأحلام. والسّائرون في واشنطن يصبحون جثث زومبي للحقوق المدنيّة، مائة ألف قويّ يمشون بإيقاع موحّد وهم نائمون باتّجاه مركز التسوُّق، يمطُون تصلُّبهم وأصابعهم التائقة للحمم، رأس الزومبي يبدو مرهقاً من ارتفاعه فوق الموتى، في كلّ مرّة يريد أحدهم أن يشيرَ إلى ما ينبغي على الناس السُّود فعله وما لا ينبغي عليهم فعله، ما يمكن أن يملكوه وما يُمنع عليهم تملُّكه. هو لا يعرف أنّ آلة التسجيل تعمل، وتحت لهاثه يعترف أنّه لو كان تذوّق جرعة الشراب غير المحلّي الذي قُدِّم في ساعة الشّاي المثلّج على طاولات الغداء المفصولة في الجنوب، فحسب، لكان أوقف كلّ هذه الأشياء بخصوص الحقوق المدنيّة. قبل المقاطعات، والضرب، والقتل. وضع علبةً من صودا الحمية على الجدار الخفيض. «مع الكوكا، تتحسّن الأمور» قال «هذا هو الأمر الحقيقيّ!».

ومع ذلك، لا أشعرُ بالذّنب، فإذا كنتُ حقّاً أتحرّك إلى الخلف جارفاً معي كلّ أمريكا السّوداء، فإنّني لن أستطيعَ تقديم اهتمام أقلّ من ذلك. هل هو خطئي أنّ المنفعة الوحيدة الملموسة لبلوغ حركة الحقوق المدنيّة هي أنّ الناس السُّودَ ليسوا خائفين كالكلاب كما يفترض بهم أن يكونوا؟ لا، ليس خطئي.

نهضتْ مسؤولة الأمن في المحكمة العليا، طرقت بمطرقتها، وبدأت تلاوة دعاء المحكمة *«القاضي المحترم، رئيس المحكمة، مع القضاة المرافقين للمحكمة الدستوريّة العليا في الولايات المتّحدة»*.

سدّد هيمبتون ضربة إلى قدمي منبّهاً، فنهضنا وباقي الحضور في

إجلال كهنوتيّ، في حين كان السّادة القضاة يدخلون قاعة المحكمة، محاولين بأقصى جهدهم أن يظهروا بمظهر القضاة النزيهين، بقصّات شعورهم التي تعود إلى زمن أيزنهاور، وبملامح خالية من الشعور تقول «يوم جديد، دولار جديد». أمرٌ سيّئ أنّك من المستحيل ألاّ تتخلّى عن غرورك وأنت تلبس رداءً أسودَ حريريّاً، هذا ما ينطبق على القاضي الزنجيّ الذي نسيَ، بسبب من شروده، أن يخلعَ ثوبه «الروليكس» البلاتينيّ ذا الـ٥٠٠٠٠ دولار. أعتقد أنّني لو زاولتُ عملاً أفضل من مراقب دوام لكنتُ أنيقاً كرجل ملعون، أيضاً.

انصتوا، انصتوا، انصتوا..

لا أعرف في هذه اللحظة، بعد خمس سنين من القرارات والمراجعات والتأجيلات وجلسات الاستماع السرمديّة، إن كنتُ أنا المدّعي أو المدافِع. كلُّ ما أعرفه هو أنَّ القاضي ذا الوجه النكد، وبآلة قياس الزمن خاصّته التي تعود إلى ما بعد الحقبة العرقيّة، لا يتوقّف عن النظر إليّ، وعيناه اللامعتان مثبتتان عليّ في تحديقة غير المسامِح، لأنّني أحبطتُ نفعيّته السياسيّة. جحظ بعينيه مثل طفل صغير يزور حديقة الحيوانات لأوّل مرّة، وأُحبط عندما مشى أمام قفص اتّضح أنّه قفصُ زواحف فارغ، وأخيراً وقف عند السّياج، وصرخ «ها هي ذي!».

ها هي ذي *Chamaeleo africanus tokenus*[1] مختبئة في الخلف بين الشجيرات، قدماها النحيلتان تحكمان الإمساك بأوراق العدل بخدَر، وبهدوء تقضم أوراق الباطل. «بعيد عن العين، بعيد عن الذّاكرة» هو شعار الرّجل العامل الأسود، لكن الآن كلُّ البلد يمكن أن يرى هذا الشّعار. أنوفنا كلُّها مضغوطة في الزُّجاج في دهشة من أنه قادر على أن

(١) باللاتينيّة بالأصل: الحرباء الأفريقيّة، نوع من السحالي. (م)

يموّه لون جلده الأسود أمام ألوان العلم الأمريكيّ الأحمر والأبيض والأزرق، لمدّة طويلة من الزّمن.

«ننصح كلّ الأشخاص الذين لديهم أعمال أمام المحكمة الموقّرة، المحكمة الدستوريّة العليا للولايات المتّحدة، بالاقتراب والإصغاء، لأنّ الجلسة تُعقَد الآن، حمَى الله الولايات المتّحدة، وهذه المحكمة الموقّرة!»

ربَّتَ هامب على كتفي مذكِّراً إيّاي بألاّ أرهقَ القاضي ذا الشَّعر الأزغب، أو الجمهور، في الأمر الذي يتولاّه. هذه هي المحكمة العليا، وليست محكمة الشّعب، ولست مضطرّاً إلى أن أقومَ بشيء، ولست في حاجة إلى نسخٍ من إيصالات تنظيف الملابس، أو تقارير الشرطة، أو صورة لورم فيّ أسناني. هنا، المحامون يناقشون والقاضي يسأل، وأنا ببساطة أسترخي وأستمتع بنشوتي.

فتح القاضي الأوّل ملفَّ القضيّة. نجح سلوكه الغرب-أوسطيّ في تخفيف التوتُّر داخل المحكمة «سوف نستمع في أوّل مناقشة هذا الصباح إلى القضيّة رقم ٠٩-٢٦٠٦...». صَمَتَ، فركَ عينيه، بعدها هدَأ من روعه وأكملَ «في القضيّة رقم ٠٩-٢٦٠٦ بين «أنا»[1] Me ضدَّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة»، لم يكن ثمّة غضب، فقط قهقهة، وتدوير للعيون مرافق لبعض الصراخ «مَن يظنُّ ابنُ الملعون هذا نفسه؟» اصطكّت أسنانه. أعترفُ بذلك، *«أنا» Me ضدّ الولايات المتّحدة* فيها شيء من تعظيم الذّات. ولكن، ماذا عسايَ أقول؟ أمّا Me فهي «أنا» حرفيّاً، منحدر، وغير فخور بذلك من عائلة «مي» Mee في كنتاكي، واحدة من أوائل عائلات السُّود التي استقرّت في جنوب غرب لوس أنجلس،

---

(١) هنا لعبة لفظيّة في اسم البطل، فهو من عائلة «مي» وهي تعني بالإنكليزيّة ضمير المتكلّم «أنا» (م)

وأستطيع تتبُّع جذوري، في رحلة طويلة، حتّى أوّل مركب هرب من القمع في الجنوب، حافلة المشرّدين المبعدين. ولكن، عندما وُلِدتُ قرّر والدي، وفاقاً لتعاليم محرّفة انتهجها المضيفون اليهود الذين عمدوا إلى تغيير أسمائهم، وأولئك الرّجال السود الغاضبون الكسالى الذين كانوا يحسدون المضيفين، قرّر أن يبترَ اسمَ العائلة متخلّياً عن حرف (e) الأخير غير المستخدم، مثلما ألغى جاك بيني بنيامين كابلسكاي، وألغى كيرك دوغلاس دانييلوفيتش، وكما ألغى جيري لويس دين مارتن، وماكس بير ألغى شيملينغ، وفرقة ثيرد باس ألغت العِلم في أغنيتها، وسامي ديفيز الابن ألغى اليهوديّة بكلّيتها. هو لم يكن ليسمح لحرف صوتيّ لا قيمة له أن يلغيَني كما فعل معه. كان أبي يحبُّ القول إنّه لم يجعل لقبي (إنكليزيّاً) أو (أفريقيّاً) بل هو جعله (واقعيّاً)، لذلك وُلدتُ وأنا في كامل طاقتي متجاوزاً ماسلو[1]، والصفَّ الثالث الابتدائيّ، والمسيح.

لمعرفته أنّ أكثر نجوم السينما قبحاً، وأكثرَ متشرّدي البِيض، وأغبى المفكّرين، هم غالباً أكثر الأعضاء المحترمين في مهنهم المختارة، فإنّ هامب، محامي الدّفاع، الذي يبدو كالمجرم، وبكلّ ثقة، وضعَ عود الأسنان خاصّته على المِقرأة، ومرّر لسانه على أحد قواطع أسنانه الملبَّس بالذّهب، وفردَ ثوبَه الأبيض كأسنان الأطفال، القفطان الفضفاض ذا الصدريتين، على جسده كبالون منتفخ بالهواء الحارّ، وبناءً على ذوقك في الموسيقا، فإنّ بياضَ ثوبه سيتناسبُ أو يتعارض مع تسريحة شَعره المزغبر، المشابهة لتسريحة شَعر كليوباترا، أو مع سواد جلده كما بدا بعد أن صرَعَهُ مايك تايسون بالضربة القاضية من الجولة الأولى. توقّعتُ منه أن يخاطبَ المحكمة بالجملة التالية: «زملائي القوّادين، زميلاتي

(١) عالم نفس أمريكيّ (١٩٠٨-١٩٧٠)، تحدّث في الحاجات الإنسانيّة. (م)

القوّادات، ربّما تكونون سمعتم أنّ موكّلي غير شريف، لكنّه أمرٌ عاديٌّ بالنسبة إليهم أن يصفوه بهذه الصفة، لأنّ موكّلي محتال». في عالم تتضمّن فيه الأنشطة الاجتماعيّة عروضَ التلفزيون وملايين الدولارات، ليس ثمّة كثير من المنسيّين أمثال هامبتون فيسك، أولاء المحامين الخيريّين الذين يؤمنون بالنظام والدستور، ولكن مَن يستطيع رؤية الفجوة بين الواقع والخيال، ومع أنّي لا أعرف ما إذا كان يؤمن بي حقّاً أو لا يفعل، لكنّي أعرف أنّه عندما يبدأ بالدّفاع عمّن يتعذّر الدّفاع عنه، فلن يكون هناك فرقٌ في معرفتي أو عدمها، لأنّه رجلٌ شعارُ بطاقته هو «من أجل الفقراء، كلُّ يوم هو يوم جمعة اعتياديٌّ».

بالكاد تلفّظ فيسك بجملة «هل يمكنني أن أطلبَ من المحكمة الموقّرة» حتّى تحرّك القاضي الأسود بكرسيّه إلى الأمام قليلاً. ربّما لم يلحظ ذلك أحد، لكنّ صريرَ مُدوّر كرسيّه دلّ على ذلك، ومع كلّ إشارةٍ إلى بعض المقاطع الغريبة في فصل الحقوق المدنيّة، وإلى قضيّة سابقة مشابهة، كان القاضي يتحرّك بنفاد صبر، ما جعل كرسيّه يصدر صريراً أعلى وأعلى وهو ينقل وزنه من ردف مؤخّرته المُصابة بالسكّر إلى الردف الآخر. يمكنك أن تفهمَ الرّجل، ولكن لا تستطيع فهم ضغط دمه، والعرقُ النابض بغضب في منتصف جبينه يفضحه، إنّه يرمقني بتلك النظرة الخارقة الحمراء المجنونة التي نسمّيها هناك في موطننا نظرة شارع ويلوبروك. وشارع ويلوبروك، هو الزقاق الرّابع، حيث فَصَل نهرُ ستيكس بلدةَ ديكنز، في ستينيّات القرن الماضي، إلى جانبين، جانب السّود وجانب البيض، ولكن الآن، ما بعد حقبة الأبيض، وما بعد أي رجلٍ بقطعَتَي نقدٍ عند احتكاكهما مع بعضهما تطيران، يكمن الجحيم في كلا جانبَي الشارع. ضفّتا النّهر خطيرتان، وبينما أنت تقف عند أيّ طرفٍ للمعبر منتظراً أن تتغيّر الإشارة يمكن لحياتك أن تتغيّر، ويمكن لأيّ عابر سبيلٍ عندنا ينتمي إلى لونٍ بشرةٍ معيّنة أو عصابةٍ ما، أو أيٍّ من مراحل

الحزن الخمس، أن يُخرجَ مقياسَه من جهة المسافر على متن مركبة ذات مقعدين، ويرمقك بنظرة قاضي المحكمة العليا الأسود تلك، ويسألك «من أين أنت، أيُّها الأحمق؟»

الجواب الصحيح هو طبعاً «لستُ من أيّ مكان». لكن أحياناً لا يسمعونك بسبب الضجّة، أو الصياح، أو المحرّك غير الكاتم للصوت، أو جلسات التوكيد الخلافيّة، أو سؤال وسائل الإعلام التحرّريّة لك عن أوراق اعتمادك، أو العاهرة السّوداء المتواطئة التي تتّهمك بالتحرُّش الجنسيّ. في بعض الأحيان، جملة «لستُ من أيّ مكان» ليست إجابة جيّدة بما يكفي، ليس لأنّهم لا يصدقونك، فكلُّ شخص لا بدَّ أنّه من مكان ما، ولكن لأنّهم لا يريدون تصديقك. والآن، بعد أن فقد هذا القاضي ذو الوجه المفتول، الجالسُ على كرسيّه المتحرّك ذي الظهر العالي، قشرةَ اللطافة الأرستقراطيّة، هو لا يختلف عن رجل عصابةٍ يتنقّل أعلى وأسفل شارع ويلوبروك، يجلسُ في المقعد الأماميّ لسيّارته، يهدِّد بسلاحه الآخرين، فقط لأنّه يملك واحداً.

لأوّل مرّة، طوال خدمته الطويلة في المحكمة الدستوريّة العليا، كان لدى القاضي الأسود سؤال، وهو الذي لم يقحم نفسه في قضيّة قبل الآن، لذلك لم يعرف كيف يفعل ذلك، نظرَ إلى القاضي الإيطاليّ طالباً الإذن، وعلى مهل رفعَ يدَه السمينة بأصابعها المنتفخة كأصابع السيجار، في الهواء، لكنّه كان حانقاً جدّاً لينتظرَ الموافقة، فقال متعجّلاً «أيُّها الزنجيُّ، هل أنتَ مجنون؟» بصوت عالي الطبقة بالنسبة لرجل أسودَ في حجمه، والآن قامت يده، على نحو خالٍ من الموضوعيّة والاتّزان، بضرب الطاولة بعنف، حتّى إنَّ الساعة المزخرفة الضخمة المطعَّمة بالذّهب، والمتدلّية من السقف فوق رأس القاضي الأوّل، بدأت بالتأرجح إلى الأمام والخلف، ثمّ تحرّك القاضي الأسود قريباً جدّاً باتّجاه مكبِّر الصوت صارخاً داخله، ومع أنّني أجلس على بُعد بضع أقدام منه،

إلاّ أنَّ اختلافاتنا تبعدنا عن بعضنا سنين ضوئيّة. طلب أن يعرفَ كيف لرجل أسودَ في هذا العصر أن ينتهكَ المبادئ المقدَّسة للتعديل الدستوريِّ الثالث عشر باقتنائه عبداً، كيف قمتُ، عن سابق تصوُّر وتصميم، بتجاهل التعديل الرابع عشر، وكيف أجادلُ في أنَّ التمييزَ العنصريَّ يجمع الناس معاً. مثل كلِّ أولاء الناس الذين يؤمنون بالنظام، يريد أجوبةً. هو يريد أن يصدِّقَ أنَّ شكسبير هو من ألَّف كلَّ كتبه، وأنَّ لينكولن قاتلَ في الحرب الأهليَّة من أجل تحرير العبيد، وأنَّ الولايات المتَّحدة شاركت في الحرب العالميَّة الثانية لإنقاذ اليهود والحفاظ على أمن العالم من أجل إرساء الديمقراطيَّة، وأنَّ المسيحَ بعد ظهوره الثاني عائدٌ من جديد. لكن، أنا لستُ أمريكيّاً متفائلاً في وجه الشدائد، وعندما فعلتُ ما فعلت، لم أكن أفكِّرُ في الحقوق غير القابلة للتحويل، ولا في التاريخ الفاخر لشعبنا، فعلتُ ما نجح في نهاية الأمر، وإذا كان قليلٌ من العبوديَّة والتمييز العنصريِّ قد جرح أحداً ما، فليكن كذلك.

في بعض الأحيان، عندما تكون منتشياً، كما هو وضعي الآن، فإنَّ الحدَّ الفاصل بين الفكر والكلام يصبح غير واضح، ومحكوماً بالطريقة التي كان فيها القاضي الأسود يرغي ويزبد بكلامه. قلتُ آخر قطعة لي بصوت عالٍ «... فليكن كذلك»، فإذا به يقفُ وكأنَّه يريد القتالَ. علقَتْ بصقة في أعلى لسان هذا القاضي، في الأماكن البعيدة حيث تعلَّم في كليَّة الحقوق في ييل، فصرخ رئيسُ المحكمة باسمه دهِشاً، ما جعل القاضي الأسود يستجمع نفسه ويرتمي إلى الخلف على كرسيِّه، بالعاً ريقَه، إذا لم يكن كبرياءه، «تمييز عنصريٌّ؟ عبوديَّة؟ لماذا أيُّها العاهرُ ملعونُ الوالدين. أنا أعرف أيُّها الملعونُ أنَّ والديك ربَّياك على أحسن ما يكون! لذلك، دعنا نبدأ هذا الحفلَ المعلَّق!».

القَذارة التي تجرفُها

١

أفترضُ دائماً أنَّ المشكلة تكمن في أنّني لم أنشأ على معرفة أيّ شيء أفضل، فوالدي (كارل يونغ، تغمَّدتْ روحَه الرَّحمة) كان عالم اجتماع حَظِيَ ببعض الشهرة، فهو، كمكتشف «سايكولوجيا التحرُّر»، والممتهن الوحيد لهذا الاختصاص (حسب علمي)، كان يحبُّ التجوُّل حول المنزل مُرتدياً زيَّ المختبر، وهو المشهورُ بأنّه «صندوق سكينَر للتجارب النفسيَّة»، في حين أكون أنا، فأر المختبر الأسود الزنجيُّ، شاردَ الذهن، أتلقَّى تعليمي في المنزل، في توافق تامّ مع نظريَّة بياجيت[1] المتعلِّقة بالتطوّر المعرفيّ. لم تكن تغذيتي جيِّدة، وكانت تُوصَف لي مثيراتٌ شهيَّة. كذلك لم أكن أُعاقَب، ولكن كنت محروماً من استجاباتي الطبيعيَّة. ولم أكن محبوباً، لكنَّني نشأتُ في جوّ من ألفة محسوبة، ومستويات كثيفة من الإبداع.

عشنا في ديكنز، مجتمع غيتو في الضواحي الجنوبيَّة من لوس أنجلس. ترعرعتُ كغريب حقّاً، كما يبدو عليه الأمر، في مزرعة ضمن المدينة. وديكنز، التي أُنشئت في العام ١٨٦٨، بدأت عهدها كمجتمع زراعيّ، مثل معظم بلدات كاليفورنيا، عدا آيرفن، التي أُنشئت كأرضٍ

(١) جان بياجيت (١٨٩٦-١٩٨٠)، عالم نفس سويسريّ، كتب في طبيعة وتطوّر الذكاء البشريّ. (م)

مُفرّحَةٍ للجمهوريِّين البيض الأغبياء السمينين، بالإضافة إلى مَنْ يحبُّهم من الكلاب الصغيرة واللاجئين من شرق آسيا. كان دستور المدينة الأصليُّ يشترط أنَّ «ديكنز ستبقى خالية من الصينيِّين والإسبان من كلِّ الألوان واللهجات، والقبّعات، ومن الفرنسيِّين وذوي الرؤوس الحمراء ومحتالي المدينة، ومن اليهود غير الماهرين». ومع ذلك، فإنَّ المؤسّسين، بحكمتهم المحدودة إلى حدٍّ ما، اشترطوا أيضاً أن تكونَ الخمسمئة أكر، المحيطة بالقناة إلى الأبد، منطقةً يُطلَق عليها وصفُ «زراعيَّة مناسبة للسكن». وهكذا، فإنَّ منطقتي السكنيَّة فرعٌ من ديكنز، مساحته عشرة كيلومترات مربّعة، كانت معروفة على نحو غير رسميٍّ بالمزارع الوليدة. وأنت ستعرفُ أنّكَ دخلتَ منطقةَ المزارع لأنَّ أرصفةَ مشاةِ المدينة، وكلَّ شيء، من إطارات سيّارتك، إلى مسجّلتها، إلى شجاعتك في السياقة، إلى سجلِّ التصويت المتطوِّر، كلّها ستختفي في الهواء المثقَل برائحة روث الأبقار، وإذا كانت الريح تهبُّ في الاتجاه الصحيح فإنَّها ستختفي في الهواء المثقَل برائحة الحشيشة الجيِّدة. والرجال البالغون يحرّكون أقدامهم على دوّاسات درّاجاتهم الهوائيَّة على مهل، وينطلقون عبر الشوارع التي سدَّتها قطعانٌ وأسرابٌ من مختلف أنواع طيور المزارع، من الدجاج وحتَّى الطواويس. يقودون درّاجاتهم دونَ استخدام أياديهم المشغولة بعدِّ كوماتِ الفواتير الصغيرة، وينظرون إلى الأمام بما يكفي ليرفعوا حواجبهم وأفواههم الفضوليَّة، متسائلين: «ما الأخبار؟ مرحباً»، وعجلات عرباتهم تتوقَّف عند الشجرات في الردهة الأماميَّة، والأسيجة التي تعطي المنازل، بطرازها الأقرب إلى مزرعة تربية الخيل، لمسةً من الموثوقيَّة الرائدة، التي تناقض حقيقة أنَّ كلَّ نافذة، وكلَّ مدخل، وكلَّ باب أنيق، كلّ أرلاء محصَّن بقضبان وأقفال أكثر من قضبان وأقفال مخزنٍ في سجن. المواطنون الأكبر سنّاً، هم في الرواق الأماميِّ مع الأطفال ذوي السنوات الثماني، الذين كانوا

قد جرَّبوا كلَّ شيءٍ بطبيعة الحال. يجلسون جميعهم على الكراسي الشاشيَّة المتداعية، ينجُرون بمِدياتهم النابضيَّة، منتظرين أن يحصلَ شيءٌ ما، كما يحدثُ دائماً.

على مدى السنوات العشرين التي عرفته فيها، كان أبي عميداً مؤقَّتاً لقسم علم النفس في كلّيَّة «ويست ريفرسايد كوميونتي». بالنسبة إليه، كانت نشأته كابن سائس إصطبل في مزرعة خيول في ليكسينغتون، كنتاكي، وعمله كمزارع، أمراً يبعث فيه الحنين إلى الماضي. وعندما خرج من هناك باتِّجاه الغرب ليشغل وظيفة مدرِّس، كانت فرصة العيش في مجتمع أسود، وتربية الخيل، أمراً جيِّداً إذ اختاره، حتَّى وإن لم يكن قادراً حقّاً على تحمُّل الرهن العقاريّ أو أجور الصيانة.

ربَّما لو كان عالـمَ نفسٍ للحيوانات، لكانت عاشت الخيول والأبقار لأكثر من عمر ثلاث سنوات، ولربَّما كانت ديدان البندورة أضحت أقلَّ. لكنَّه، في صميم قلبه، كان أكثر استمتاعاً بحريَّة السُّود من التحكُّم بالحشرات الضارَّة، وبتحسين مملكة الحيوان. وفي بحثه عن فتح أقفال الحرّيَّة الماديَّة كنتُ أنا بالنسبة إليه آنّا فرويد، دراسة الحالة الصغيرة الخاصَّة به. وعندما لا يكون مشغولاً بالتدريس، كان يضاعف تجارب علم الاجتماع عليَّ، عاداً إيّايَ المجموعة الضابطة ومجموعة الاختبار. ومثل أيِّ طفل زنجيّ «بدائيّ» محظوظ بما يكفي لبلوغ مرحلة العمليّات، وصلتُ إلى إدراك أنّني عشتُ تنشئةً قذرةً، وأنّني أبداً لن أكونَ قادراً على نسيانها.

أفترضُ لو أنَّ أحداً وضع في حسبانه عجز لجنة الأعراق عن مراقبة منهجيّات أبي في تربية الأطفال، فإنَّ بداية هذه التجارب كانت بريئةً بما يكفي. في أوَّل عقد من القرن العشرين، قام عالما السلوك واتسون وراينر بمحاولة لإثبات أنَّ الخوفَ سلوكٌ مُكتسَب بالتعلُّم. قاما بتعريض «آلبرت الصغير» ذي تسعة الأشهر لمثيرٍ حياديٍّ، مثل فئران بيضاء وقرود وحزم

من أوراق الصحف المحترقة. في بداية الأمر، لم يكن الطفل، موضوع التجربة، مضطرباً بسبب سلوك القوارض والقرود واللّهب، ولكن بعد أن زاوج واتسون بين الفئران وضجّة صاخبة غير معقولة، ولعدّة مرّات، ومع مرور الوقت، فإنّ «آلبرت الصغير» طوّر خوفاً ليس من الفئران فحسب بل من كلّ شيءٍ يملك فرواً. وعندما كان عمري سبعة أشهر وضع أبي في مهدي الشبيه بالسلّة أشياءَ مثل ألعاب سيّارات الشرطة، وعلباً باردةً من بيرة بلو ريبون، وأزرار ريتشارد نيكسون الخاصّة بالتخييم، ونسخة من مجلّة الإيكونوميست، ولكن بدلاً من أن يريحني من هذه الجلبة الصامّة للآذان، فإنّني تعلّمتُ أن أخافَ المنبّهات التي كان يعرضها أبي، فقد كان يصاحب تقديمها لي إخراجه مسدّساً من عيار ٣٨ وإطلاقه رشقات من الرصاص على نوافذ سقف بيتنا وهو يصرخ: «أيُّها الزنجيُّ، عُدْ إلى أفريقيا!»، بصوت عالٍ بما يكفي لكي يكون أعلى من صوت الستيريو ذي النظام رباعي الصوت، وهو يصدح بأغنية «آلاباما، بيتي الحبيب» في غرفة المعيشة. حتّى هذا اليوم لستُ قادراً على المكوث ومشاهدة أكثر سلسلات الجريمة على التلفزيون بساطة، فلديّ صلة روحيّة مع نيل يونغ، وفي أيّ وقت قد أعاني فيه من اضطرابات النوم فإنّني لا أستمع إلى أصوات عواصف المطر المسجّلة، ولا إلى صوت تكسُّر الأمواج، بل إلى أشرطة ووترغيت.

هذه تقاليد الأسرة من الجيل الأوّل إلى الجيل الرابع، فقد كان يربط يدي اليمنى خلف ظهري، وبذلك أكبر كي أصبح أيسرَ اليَد، أيمنَ الدماغ، متّزناً. كنتُ في الثامنة من عمري عندما أراد أبي أن يختبرَ «تأثير المتفرّج» كما يسري على «المجتمع الأسود». كرّر تجربة كيتي غينوفيس المشينة، وفيها، أنا، الشابُّ البالغ سابقاً أقوم بدور السيّدة غينوفيس المنحوسة، التي، في العام ١٩٦٤، سُرقت واغتُصبت وطُعِنت حتّى الموت في شوارع نيويورك اللامبالية، فعلت ذلك مع صرخاتٍ كتاب

علم النفس ١٠١ ، طلباً لمساعدةٍ تجاهلتها حشود المتفرّجين والمقيمين في المنطقة. وعليه، يكون «تأثير المتفرّج» هو كالتالي: كلّما ازداد عدد الناس حواليك من أجل تقديم المساعدة فإنّه على الأرجح لا أحد سيقدّم لك المساعدة. وأبي، افترضَ أنَّ ذلك لا يسري على الناس السُود، العِرق المحبُّ الذي يعتمد نجاة أيِّ واحد منهم على مساعدة الآخر له وقت الشدائد. لذلك جعلني أقفُ في أكثر تقاطعات المنطقة ازدحاماً، تتدفّق الدولارات من جيوبي، وآخر صرعات الأسلاك الإلكترونيَّة وأكثرها لمعاناً تلتصق بأذنيّ، وسلسة الهيب هوب الذهبيَّة الثقيلة تتدلّى من رقبتي، وعلى نحو غير قابل للتوضيح، مجموعة من مفارش أرضيَّة سيارات الهوندا سيفيك المفصَّلة حسب الطلب، تغطّي ساعدي مثل منشفة النادل. وبينما تنهمر الدموع من عينيّ قام أبي بسرقتي، ألقاني أرضاً على مرأى من تجمُّع للمشاهدين الذين لم يستمرُّوا في مشاهدتهم طويلاً. عمليَّة السلب لم تتطلَّب أكثر من لكمتين على الوجه عندما تقدَّمت الجموع، ليس من أجل مساعدتي، بل من أجل مساعدة والدي، فساعدوه في رفس مؤخّرتي، وبكلِّ ابتهاجٍ شاركوا في ضربات أكواع ورميات المصارعة الحرَّة التي نشاهدها على التلفاز. إحدى النساء حملتني ببراعة، وثمَّ، وفي لحظة تذكُّر للماضي، وعلى نحو رحيم، لوَتْ عنقي من الخلف. عندما استعدتُ وعيي رأيتُ أبي يتفحّصها وبقيَّة المهاجمين. كانت وجوههم لاتزال متعرِّقة، وصدورهم لاتزال تعلو وتهبط نتيجة مساعيهم في الغيريَّة، وآذانهم كانت، هكذا تخيّلتُ، تدوي، مثل أذنيّ، بصرخات عالية الطبقة، وبضحكاتهم المسعورة.

«كم كنتم راضين بأنانيَّتكم؟»

لم نكن كذلك	راضين على نحو ما	راضين جدّاً

١ ٢ ٣ ٤ ٥

في الطريق إلى المنزل وضع أبي ذراعاً مواسيةً حول كتفيَّ المتألّمَتين، وقدَّم محاضرةَ اعتذارٍ حول فشله في أن يضعَ في حسبانه «تأثير المحاكاة».

ثمَّ جاء الوقت الذي أراد فيه اختبار «الخنوع والطاعة عند جيل الهيب هوب». لا بدَّ أنّني كنتُ في العاشرة عندما أجلسني والدي أمام المرآة واضعاً قناعَ هالوين لرونالد ريغن على رأسه، ومعلّقاً بدبوس زوجاً قديماً من إشارات خطوط الطيران الجويّ «ترانز وورلد إيرلاين» المميَّزة بجناحين على رداء المختبر خاصَّته، معلناً عن نفسه بأنَّه «رمز سلطة الأبيض». «الزنجيُّ في المرآة هو زنجيٌّ غبيٌّ» صار يشرح لي بذلك «الصوت الأبيض» الصارخ المتخم الذي يستخدمه الكوميديُّون الزنوج، وهو يلصق مجموعة من الأقطاب الكهربائيّة إلى صدغَيّ، والأسلاك تقود إلى لوحة مفاتيح ذات منظر مشؤوم، مليئة بالأزرار والمؤشّرات ومقياس فولتاج من النوع القديم.

«ستسأل الولدَ في المرآة مجموعة من الأسئلة حول تاريخه الزنجيِّ المفترَض، من الورقة الموجودة على الطاولة، فإذا أخذ السؤال الخطأ، أو فشل في الإجابة في عشر ثوان، فستضغط الزرَّ الأحمرَ ناقلاً صدمة كهربائيّة ستزداد شدَّةً مع كلِّ إجابةٍ خاطئة».

كنتُ أذكى من أن أتلمَّسَ الرّحمةَ، فتلمُّسي الرحمةَ هنا لن يكونَ إلاَّ تذمُّراً ممَّا استحققتُ الحصولَ عليه بسبب قراءتي مجلّة الرسوم الهزليّة الوحيدة، التي كنتُ حصلتُ عليها في حياتي: باتمان العدد ٢٠٣، *إفشاء الأسرار المثيرة لكهف باتمان*، إحدى النسخ البالية تلك بغلافها المهترئ، التي كان أحدهم رماها في فناء المزرعة فأخذتها ورمَّمتُها من أجل أن تصلحَ للقراءة مثل قطعة أدبٍ جريح. كانت أوّل شيء أقرؤه عن العالم الخارجيّ، وعندما أخرجتها من أجل قراءتها، في أثناء استراحة

من دراستي المنزليّة، صادرها والدي. ومنذ تلك اللحظة، عندما أقفُ موقفَ الجاهل شيئاً، أو أكون أمضيت يوماً سيّئاً في المنطقة، فإنَّ أبي سيرمي غلافَ كتاب الرسوم الهزليّة الممزّق في وجهي «هل ترى، لو لم تكن أضعتَ عُمركَ في قراءة هذا الهراء لكنتَ أدركتَ أنَّ باتمان لن يحميَك أو يحميَ شعبَك».

قرأتُ السؤال الأوّل.

«قبل إعلان استقلالها في العام ١٩٥٧، ما المستعمرتّان اللتان كانت تتكوّن منهما دولة غانا في أفريقيا الغربيّة؟».

لم أعرف الجواب. أصختُ السمع إلى هدير صرخة سيّارة باتمان النافثة للّهب عند الزاوية، لكنّني لم أسمع سوى صوت ساعة التوقيت الخاصّة بوالدي وهي تتكُ بانقضاء الثواني. صررتُ على أسناني، ووضعتُ إصبعي فوق الزرّ الأحمر، وانتظرتُ نهاية الزمن المسموح.

«الجواب هو: توغولاند وغولد كوست».

وبكلّ انصياع، وكما توقّع والدي، ضغطتُ الزرّ. استقامَت الإبرة على لوحة التأشير، وكذلك عمودي الفقريُّ، في حين كنتُ أشاهد نفسي في المرآة أرقصُ رقصةً بهلوانيّة لمدّة ثانية أو ثانيتين.

يا يسوع!!

«كم فولتاً هذا؟» سألتُ ويداي ترتجفان على نحو لا أستطيع فيه التحكُّم بهما.

«موضوع التجربة يسأل فقط الأسئلة المدرَجة على الورقة» قال أبي ببرود. وعندما وصل أمامي من أجل أن يديرَ لوحةَ التأشير السّوداء عدّة طقّاتٍ إلى اليمين، أصبح المؤشّر الآن متوقّفاً عند xxx. «الآن، اقرأ السؤال التالي، رجاءً».

بدأتُ أعاني تشوّشاً في الرؤية، شككتُ في أنَّ منشأه جسديٌّ- نفسيٌّ.

ولكن، رغم ذلك كان كلُّ شيء يبدو مُشوَّشاً مثل صورة فيديو غير شرعيٍّ، ذي الدولارات الخمسة، ترتعش على شاشة مسطَّحة، ومن أجل قراءة السؤال التالي كان عليَّ أن أقرِّبَ الورقة المرتجفة نحو أنفي.

«من بين الـ ٢٣٠٠ طالب في الصفّ الثامن، الذين تقدّموا إلى فحص القبول في ثانويّة ستوفيسانتس، أرفع ثانويّات نيويورك العامّة، كم طالباً أفريقياً- أمريكياً نال علامة عالية كافية كي يكونَ مؤهّلاً للقبول؟».

عندما انتهيتُ من القراءة، بدأ أنفي ينزفُ، قطرات دم حمراء تسيل من فتحة أنفي اليسرى وتسقط على الطاولة في فواصل زمنيّة منتظمة مدّة الواحد منها ثانية. متحاشياً ساعة التوقيت خاصّته، بدأ والدي العدَّ التنازليّ. نظرتُ إليه في ريبة، من الواضح أنّه كان قد قرأ صحيفة *ذا نيويورك تايمز* عند الإفطار. يُعدُّ لتجربة اليوم من خلال البحث في العلف العرقيّ فوق طبق كريسبي الأرز، مقلّباً صفحةً تلوَ صفحة بسرعة وغضب، ما جعل زوايا الصحيفة الحادّة تفرقع وتطقطق وتضرب بقوّة في هواء الصباح.

ماذا كان ليفعل باتمان لو دخل المطبخ بسرعة وشاهد أباً يكهرب ابنه لمنفعة العِلم؟ لماذا، ربّما كان سحب حزام أدواته، وأخرج منه بعضاً من القنابل المسيلة للدموع تلك، وحينما يختنق أبي بالدخان، كان سيخنقه هو بيديه، متظاهراً أنَّ ثمّة حبلَ وطواطٍ يكفي ليلفّه حول رقبته السمينة، وبعدها سيحرق كُرَتَي عينيه بمشعل الليزر، مستخدماً كاميرا صغيرة جدّاً ليأخذَ بعض الصور لأجيال باتمان القادمة، ثمّ يسرق سيّارة أبي الكلاسيكيّة التي كان يقودها في رحلاته إلى مناطق البِيض، من نوع كارمانن غيا، ذات اللون الأزرق والسقف القابل للطيّ، ومفاتيحها على شكل هيكل عظميّ. هذا ما كان سيفعله باتمان، لكن أنا الذي كنت ولا أزال مهووساً بباتمان، كنت أستطيع فقط أن أفكّرَ بمنهج الأسئلة

المتفاخرة. كمثال، كم طالباً أسودَ حصل على اختبار القبول؟ متوسِّط قياس الصفّ في ثانويّة ستويفيسانت هذه؟

لكن هذه المرّة، وقبل أن تحطّ قطرة الدّم العاشرة على الطاولة، وقبل أن يتمكّنَ والدي من اجتراح الجواب (السّابع)، ضغطتُ الزرّ الأحمرَ، الإدارة الذاتيّة لتهشيم العَصب، صعقة كهربائيّة متزايدة لفولتاج كهربائيّ يمكن أن تخيفَ ثور[1]، وتعطّلَ قدرةَ صفّ كاملٍ مخدّر بطبيعة الحال، فقط لأنّني في هذه اللحظة كنت فضوليّاً أيضاً، أردت أن أرى ماذا يحدث عندما تورثُ العلمَ صبيّاً أسودَ في العاشرة من عمره.

ما اكتشفته هو أنّ عبارة «أفرغَ أحدُهم أمعاءَه» استعمالها مغلوط، لأنّ العكس كان صحيحاً، فأمعائي أفرغتني. كان ارتداداً للبراز على نحو يُقارَن بإفراغ التاريخ. دانكيرك. سايغون. نيو أورلينز. ولكن على نحو مغاير للبريطانيّين، والرأسماليّين الفيتناميّين، والمواطنين الفائضين في مدينة نينث وورد بولاية نيو أورلينز، فإنّ شاغلي أمعائي لا مكان يذهبون إليه. فالأجزاءُ المتحرّكة من موجة الخراء والبول النتنة، التي لم تستقرّ بين ردفي وخصيتيّ جرت إلى أسفل رجلي واتّحدت في بركة داخلَ حذائي الرياضيّ، وحولَه. ووالدي، الذي لم يكن يريد إعاقة سلامة تجربته، ببساطة أغلق أنفه بأصابعه، وأشار لي بأن أتابع. أشكرُ السّماءَ، عرفتُ جوابَ السؤال الثالث «كم عدد الغرف في وو-تانغ؟»، لأنّه لو لم أعرف لكان دماغي بلون شجرة الدردار، أو لكان بقوام آجرّ الشواءِ في الخامس من أيلول.

انتهى تطوُّر سلسلة الصدمات الكهربائيّة في طفولتي بعد ذلك بعامين، عندما حاول أبي أن يكرّرَ دراسة العالمَين كينيث ومامي كلارك

---

(١) Thor، إله البرق والرعد عند الشعوب الجرمانيّة القديمة. (م)

في إدراك اللون على الأطفال السُّود، مُستخدمَين دمىً بيضاء وسوداء. صيغة والدي، بالطبع، كانت أكثر ثوريّة بقليل، فالتجربة على صبيٍّ هي أكثرُ معاصَرةً. ففي حين وضع الزّوجان دميتين ملائكيّتين بالحجم الطبيعيّ، تلبسان حذائَين منخفضَي الكعب، دمية بيضاء ودمية سوداء، أمامَ طلّاب مدارس، وسألاهم أن يختاروا أيّاً منهما يفضّلون، فإنَّ أبي وضع أمامي مجسَّمَي دمىً متقنة الصنع وسألني «ما هو العنوان الاجتماعيُّ والثقافيُّ الذي تختاره، يا بني؟».

المجسَّم الأوّل الذي انتبهتُ إليه كان مجسَّمَ كين وماليبو باربي في ثياب السباحة، يحملقان ويضعان أدواتِ التنفُّس من تحت الماء على نحو ملائم، ويستمتعان بحمّام بيت الأحلام. أمّا المجسّم الثاني فكان لمارتن لوثر كينغ الابن، ومالكوم إكس، وهارييت تيوبمان، ودمية «ويبل» بيضويّة الشكل بلون بنّيّ، كانوا يهربون، كلُّهم، عبر بستانٍ كثيفٍ من قطيع كلابِ الرعي الألمانيّة المصنوعة من البلاستيك، ويتقدّمون فريقَ إعدام مسلَّح يتألّف من نخبةٍ ترتدي الأثوابَ البيضاءَ المميّزة لجماعة الكوكلس كلان[1]. «ما هذا؟» سألتُ مشيراً إلى حلية عيد ميلاد، بيضاء صغيرة تدور ببطء فوق المستنقع، تلمع تحت الأضواء مثل كرة ديسكو في شمس ما بعد الظهر.

«إنّها نجمة الشمال، إنّهم يجرون باتّجاه نجمة الشمال، باتّجاه الحرّيّة».

التقطتُ مجسّماتِ مارتن ومالكوم وهارييت مضايقاً أبي بالأسئلة «ما هذه الأشكال المتراخية؟» مارتن لوثر الكينغ الابن، بدا جيّداً، زاهياً ببذلته السوداء اللامعة والضيّقة، في حين تلتصقُ بإحدى يديه نسخةٌ من

(١) منظمات أخويّة في أمريكا، لايزال بعضها ناشطاً، تؤمن بالعنصريّة، وبالتفوّق الابيض، وتمتلك تاريخاً سيّئاً متعلّقاً باضطهاد السّود. (م)

سيرة غاندي، وميكروفون باليد الثانية. كان مالكولم مجهَّزاً بعُدد مشابهة، لكنَّه كان مرتدياً نظّارتين، وبيده زجاجة مولوتوف محترقة، كانت تُذيب يدَه ببطء. أمّا لعبة «ويبل» المبتسمة، مجهولة العِرق، فكانت تبدو، على نحو مثير للشكّ، مثل نسخة صبيانيّة عن والدي، بقيتْ وفيّةً لشعارها الدعائيّ من خلال الدوران وعدم السقوط، سواء توازنت على نحو متقلقل في راحة يدي، أم لاحقها فرسان التمييز الأبيض. كان ثمّة شيء ما غريب مع الآنسة تيوبمان مع ذلك، فقد كانت ترتدي كيسَ خيشٍ مخيطاً يناسب جسمها، ولا أتذكّر أنّ أيّاً من كتب التاريخ المبسّط التي قرأتها أن أتت على ذِكر امرأةٍ تُدعى موسى على شكل تمثال صغير له شكلٌ كشكل السّاعة الرمليّة، أبعاده ٣٦-٢-٣٦، وشَعرٌ حريريٌّ طويل، وحاجبان منتوفان، وعينان زرقاوان، وشفتان شهيّتان، وثديان مستدقّان.

«أبي، أنت دهنتَ باربي باللون الأسود».

«أردتُ أن أحافظَ على قسط من الجمال، فأُنشِئ خطاً من الكياسة، بحيث لا تتمكّن من القول إنّ دمية باربي أجمل من الأخرى».

باربي، فتاة المزرعة، لها خطٌّ خارجٌ من ظهرها. سحبتُه. «الرياضيّات صعبة، دعنا نذهب للتسوُّق»، قالت بصوت حاسم كصوت أغنية. أرجعتُ الأبطالَ السُّودَ إلى الأسفل على طاولة المطبخ، وهم يحرّكون أطرافهم بحيث يستعيدون وضعيّات الهروب.

«أختار كين وباربي».

فقد والدي موضوعيّته العلميّة وأمسك بي، من قميصي، وصار يصرخ «ماذا؟ لماذا؟».

«لأنّ لدى الناس البيض إكسسوارات أفضل. أقصد... انظر. عند هارييت تيوبمان مصباح غاز، وعصا للمشي، وبوصلة، في حين عند

كين وياربي عربة يجرُّها حصان، وزورق سريع! حقّاً لا توجد مقارنة بينهما».

في اليوم التالي، أحرق والدي كلَّ «اكتشافاته» في الموقد. حتّى عندما كان يدرِّس في المعهد كان بقاؤه مرتبطاً بما ينشر من دراسات، فإمّا ينشر أو يفقد عمله. وعدا أنّه لم يُخصَّص له مكان لركن سيّارته، مكتوب عليه اسمه، أو حتّى التقليل من واجبات عمله، كنتُ أنا تجربة اجتماعيّة فاشلة بالنسبة إليه. ولدٌ لاقيمة له إحصائيّاً، حطَّم آماله فيَّ وفي العِرق الأسود. لقد جعلني أقوم باستدارة في كتاب أحلامي. فتوقَّف عن تسمية حصَّتي من اكتشافاته بـ «التعزيز الإيجابيّ»، وبدأ يشير إليها بـ «النكوص»، وفي حين لم يتوقَّف قطُّ عن الدَّفع قُدماً «بالتعلُّم من الكتب»، فإنّه لم تمضِ فترة طويلة بعد هذا حتّى اشترى لي رفشيَ الأوّل، ومِذراتي الأولى، وماكينة جزّ صوف الغنم خاصّتي الأولى، فأرسلني إلى الحقول بضربة على قفايَ، واقتباس بوكر تي. واشنطن الشهير، معلّقاً على ثياب العمل خاصّتي، من أجل التشجيع، «أخفِض دَلوَكَ أينما تكون».

إذا كان ثمّة جنّة تستحقُّ الجهد الذي يبذله البشر من أجل الوصول إليها، فإنّني عندها آمل، من أجل والدي، أن تكونَ فيها مجلّة علم نفسٍ سماويّة. واحدة تنشر نتائج التجارب الفاشلة، لأنَّ التسليم بالنظريّات غير المثبتة بالدليل، وبالنتائج السلبيّة، لا يقلُّ أهميّة عن نشر الدراسات التي تثبت أنَّ النبيذ الأحمر هو دواء لجميع الأمراض، كما ندَّعي دائماً.

ذكرياتي عن والدي ليست كلّها سيّئة، فتقنيّاً كنتُ ولداً وحيداً، وأبي، مثل الكثير من الرجال السُّود، كان لديه كثيرٌ من الأولاد، فمواطنو ديكنز كلُّهم كانوا أولاده. وفي حين لم يكن بارعاً جدّاً في التعامل مع الخيل، فقد كان معروفاً في المحيط بالزنجيِّ الهامِس. ففي

أيّ مكانٍ «أضاع فيه أحدُ الزنوج عقلَه الملعون»، فوق شجرة أو على شفا كارثة في الطريق السريع، ويحتاج إلى تهدئة، فإنّ نداءه سيصل إلى والدي. عندها ينتزع والدي إنجيله المقدَّسَ في علم النفس الاجتماعيّ خطّة *التغيير*، وهو كتابٌ ألّفه بينيس، وبيني، وروبيرت تشين، وهذا الأخير هو عالمُ نفسٍ أمريكيٌ-صينيٌ لم يحظَ بأيّ تقدير على نحو مثير للشفقة، ولم يلقَه أبي قطُّ، لكنّه يدّعي دائماً أنّه معلّمه الخاصُّ. معظم الأولاد يستمعون إلى حكايات ما قبل النوم وحكايات الجنيّات، أمّا أنا فكان يجب عليّ أن أنامَ وأنا أقرأ فصولاً عناوينها مثل «المنفعة من نماذج بيئات الأنظمة للممارسين»، ووالدي ليس شيئاً إنْ لم يكن ممارساً. لا أستطيع تذكُّر وقتٍ لا يأخذني معه إلى همسه الزنجيّ، وحينما يقود في الطريق يتفاخر بأنَّ كثيراً من أفراد المجتمع الأسود مثله:

«كلّ شيءٍ إلاّ الخذلان»

«كلُّ شيءٍ إلاّ الهزيمة»

وعندما نصل، كان يجلسني على سطح شاحنة صغيرة مجاورة، أو يوقفني في أعلى زقاق دامبستر، ويعطيني ورقاً مُسطَّراً أصفرَ، ويخبرني أن أدوِّن ملاحظات. ووسط ضجيج الصفّارات اللامعة والصراخ والزجاج المكسور، الذي كان يتفتّتُ على مهل تحت حذائه المصنوع من جلد الغزال، كنتُ أخاف عليه. لكنَّ أبي كان لديه أسلوبٌ في حلّ أيّ مشكلةٍ لا يمكن حلُّها. كان وجهه حنوناً وعابساً، وراحة يده مقلوبة وكأنّها حاضنة تمثال يسوع الصغير. كان يمشي باتجاه مخبول ما يمسك سكّيناً بيده، وبؤبؤا عينَيه قد توسّعا حتّى صارا بحجم ذرّتين، وقد أثقله ربع الغالون الذي شربه من الكونياك من ماركة هينيسي أوك، ودزّينة من البيرة الخفيفة، متجاهلاً زيَّ العمل المصبوغ بالدّم، والملطّخ بالسائل الدماغيّ والبراز. كان يحضن هذا الشخص وكأنّه يرحِّب بصديق قديم. كان الناس

يظنّون أنَّ غيريّته هي التي تجعله قريباً جدّاً. لكن، بالنسبة لي، كان صوته هو الذي يتغلّب عليه، صوت من طبقة الباص، عميقٌ كصوت دو ووب، أحد أصوات موسيقا البوب. كان أبي يتحدّث بلغة موسيقيّة ونغمة منخفضة رنّانة تجعلك تتسمّر في مكانك مثل مراهقة تلبس جواربَ قصيرةً وتستمع إلى فرقة فايف ساتينز وهي تغنّي «في سكون الليل». ليست الموسيقا ما كانت تهدّئ الوحشَ الشرسَ بل صوت والدي المخدِّر، صوت يتميَّز بأسلوب في تهدئة الغاضبين، وجعلهم يتحرَّرون من قلقهم ومخاوفهم.

عندما كنتُ في المدرسة الابتدائيّة، تعلّمتُ من فكرة أنَّ مذاقَ الرُّمان يتسبَّب لك بالدموع، ومن الطريقة التي تحوّل فيها شمس الصيف برتقالنا الدمويَّ الأفريقيَّ إلى اللون الأحمر، ومن حالة أبي عندما يصبح أرعنَ في أيِّ وقتٍ يتحدَّث فيه عن ملعب فريق دودجر، وعن عنب زينفاندل الأبيض، وعن شروق الشمس الأخضر اللامع الأخير، الذي كان شاهده من على ذروة جبل ويلسون، من كلِّ هذا تعلّمتُ كم أنَّ كاليفورنيا هي مكان خاصّ. وإذا تأمّلت فيها فإنَّ العديد من الأشياء التي جعلت القرن العشرين مكاناً محتملاً للعيش، كانت قد اختُرِعَت في مرآب كاليفورنيا: كمبيوترات آبّل، لوح الكتابة الإلكترونيّ، موسيقا راب العصابات. الفضل يعود في هذا إلى عمل أبي كزنجيٍّ هامس. لقد كنتُ موجوداً في ما سأرويه لكم: عند السّاعة السّادسة في صباح غيتو بارد ومظلم، وبعد بناءين من مكان سكننا، كارل غارفيلد، ويُدعى أيضاً «كيلو جي»، وهو يهلوس نشوانَ بغنائيّة ألفرد تينيسون الكئيبة، خرج من الكراج مندفعاً، ينظر شذراً إلى ردائه المصنوع من فرو الخلد، وغليون القنّب يتدلّى من رؤوس أصابعه. كنتُ تقريباً في العاشرة من عمري عندما تسلّق بجهد سرير سيّارته الشاحنة من نوع تويوتا، بعددِها ومحرّكها الأصفر السريع. وكان مقطعا الكلمة (تو) TO و (تا) TA قد مُحيا بحيث أصبحت ماركة

السيّارة عند ذيلها فقط (يو) YO، ويبدأ يراجع قصيدته بصوت عال، قصيدتَه الخماسيّة على وزن إيامبك[1]، يقرؤها متداخلةً ببعضها، تقطعها رصاصات من مسدّسه الـ ٣٨، وتوسُّلات أمّه إليه كي يدخل.

هجومُ الزنجيّ ذي البشرةِ البيضاء[2]

نصفُ لِيتر، نصفُ لِيتر،
نصفُ لِيتر إلى الأمام
وكلُّهم في درب الموت
ركب الثمانمئة فارسٍ إنكليزيٌّ قديم.
إلى الأمام، أيُّها الزنجيُّ ذو البشرةِ البيضاء!
قال «اهجموا من أجل الدَّم».
إلى داخل وادي الموت
ركب الثمانمئة فارسٍ إنكليزيٌّ قديم...

عندما وصل فريق شرطة الأسلحة والتكتيك الخاصّة، في نهاية الأمر، إلى مسرح الأحداث، محتمين وراء أبوابِ سيّارة الدوريّة، ووراء شجراتِ الجمّيزة، وممسكين ببنادقهم الهجوميّة إلى صدورهم، لم يستطع أحدهم أن يتوقّف عن الضحك، واستمرُّوا في ذلك طويلاً قبل أن يقوموا بالحركة الأخيرة.

فلا سببَ يحدوكَ أن تفعلَ شيئاً

(١) من التفعيلات الشهيرة في القصيدة باللغة الإنكليزيّة. (م)

(٢) القصيدة هنا محاكاة ساخرة غير دقيقة أو موزونة، لقصيدة هجوم فرقة الخيّالة The Charge of Light Brigade، وهي قصيدة سرديّة للشاعر الإنكليزيّ ألفرد تينيسون نشرها في العام ١٨٥٤، وتتحدّث عن بسالة القوات البريطانيّة في إحدى المعارك. (م)

سوى أن تطلقَ رصاصَك:

الزنوج إلى يمينهم

الزنوج إلى يسارهم

الزنوج أمامَهم

مُشتّتون ومرتبكون

تفرّقهم الشرطة والقذائف الجوفاء

وعندما يسقط رجلُ العصابةِ وسيّارته

أولاء الذين أحسنوا الرّمي

تقدّموا عبرَ شدقَي الموت

عائدينَ من جوف الجحيم

هذا كلُّ ما تبقّى منهم

ما تبقى من الثمانمئة فارسٍ إنكليزيٍّ قديم...

وعندما قام والدي، الزنجيُّ الهامسُ -بابتسامته البهيجة الممتدَّة على كامل وجهه-باتّخاذ طريقه أمام حاجز الشرطة، وضع ذراعه الملفوفة بكمِّ سترته الصوفيّة حول تاجر المخدّرات المنهار، وقال بضع كلماتٍ شديدة العمق في أذنيه. وَمَضَ كيلو جي. بوضوح مثل متطوّع على خشبة مسرح أخرسه منوِّمٌ مغناطيسيٌّ هنديٌّ. وبعدها، وبكلِّ هدوء ونيّة طيّبة، سلَّمَ سلاحه. اقترب رجال الشرطة من أجل عمليّة إلقاء القبض عليه، لكنَّ أبي طلب منهم أن يبقوا في الخلف، مشيراً إلى كيلو أن ينهي قصيدتَه، حتّى إنّه شاركه نهاية كلِّ شطرٍ منها، مدَّعياً أنّه يعرف الكلمات.

متى كان لضيائهم وصوتهم أن يخبوَا

آهٍ من حماس القتال الذي أبدُوه

وكلُّ العالمِ اللعينِ ينظرُ متعجِّباً
تحيَّة احترامٍ لهجوم الزنجيِّ ذي البشرةِ البيضاء
وزجاجة بيرة «الثمانمئة فارسٍ إنكليزيٍّ قديم» فارغة الآن!

اختفت عربات وسيَّارات الشرطة مع غشاوة الفجر، تاركين والدي، شبيه الإله، وحيداً وسط الشارع يستمتع بإنسانيَّته. وبكلِّ ثقةٍ، التفتَ نحوي، وقال: «هل تعرف ماذا قلتُ لأجعلَ هذا المعتوه ابن العاهرة يخفض سلاحه؟».

- «ماذا قلتَ له يا أبي؟».

- «قلتُ يا أخي، عليك أن تسأل نفسك سؤالين: مَن أكون؟ وكيف أؤكِّد ذاتي؟ هٰذا هو العلاج الأساسيُّ في جوهر الإنسان. أنت تريد أن تجعلَ العميلَ يشعر بأهميَّته، أن يشعرَ بأنَّه، أو أنَّها، قادر على التحكُّم في مجرى الأمور. تذكَّر هذا الهراء».

أردتُ أن أسأله لِمَ لمْ يتكلَّم قطُّ معي بالنَّغمة المطمئِنة نفسها التي يستخدمها مع «عملائه»، لكنَّني كنتُ أعرفُ، فبدلاً من الجواب، كنتُ سأتلقَّى لسعةً من حزامه، وعمليَّة علاجي حينها ستتطلَّب «ميكروكروماً»، وبدلاً من أن يُقدِّم لي تبرير، سأحصلُ على حكم يمتدُّ حتَّى خمسة أسابيع، ولا يقلُّ عن ثلاثة، من التأمُّل اليونغيِّ النشط. في البعيد، تهرب بعيداً عنِّي مثل مجرَّةٍ لولبيَّةٍ بعيدة، كانت الصفَّارات الحمراء والزرقاء تدور بصمت، ولكن بذكاء، تضيء سديمَ خطِّ الصَّباح البحريِّ مثلما تضيء الأضواء القطبيَّة الشماليَّة قلبَ مدينةٍ ما. تحسَّستُ بإصبعي ثقباً أحدثَته رصاصةٌ في لحاء الشَّجرة، وفكَّرت في أنَّني، ومثلما دفنَ الحلزون نفسَه في عشرة بيوتٍ، عميقاً في جذع الشجرة، لن أغادرَ هذه المدينة، وأنَّني سأذهب إلى الثانويَّة المحليَّة، وأتخرَّج في الصفوف

المتوسّطة، أحمق جديد بسيرة ذاتيّة من ستّة أسطر حافلة بالأخطاء الإملائيّة، وأسافر جيئةً وذهاباً بين مركز العمل وموقف سيّارات نادي التعرّي ودروس امتحانات الخدمة العامّة. وسأتزوج ماربيسا ديليسا داوسون، جارتي العاهرة، وحبّي الأوّل والأخير، وأضاجعها، ثمّ أقتلها. وسأنجب أطفالاً، وسأهدّدهم بالكليّة العسكريّة، وأعدُهم أنّني لن أدفعَ كفالاتِهم في حال أُلقي القبضُ عليهم. وسأكون أنموذج الزنجيّ الذي يلعبُ البلياردو في نادي التعرّي، ويخونُ زوجته مع الفتاة الشقراء الكسول من مخازن تريد جونز في جادّات ناشنال وويستوود. وسأتوقّف عن التنكيد على والدي بالسؤال عن أمّي الغائبة، معترفاً في نهاية الأمر بأنّ الأمومة، مثل الثلاثيّة الفنيّة، مبالغ في تقديرها. وبعد فترة من إشباع نفسي ضرباً لأنّني لم أرضع من ثدي أمّ قطّ، أو لم أُنهِ قراءةَ *ملك الخواتم*، و*الفردوس*، و*دليل المسافر إلى المجرّة*، مثل كلّ أبناءِ الطبقة المتوسّطة في كاليفورنيا، سأموت، أخيراً، في غرفة النوم نفسها التي تربّيتُ فيها، وأنا أنظرُ إلى الأعلى حيث شقوق الجصّ في السقف، التي كانت وما تزال هناك منذ زلزال عام ١٩٦٨. لذلك فإنَّ أسئلةً مثل «مَن أكون؟» و«كيف يمكن أن أكون ذلك الشخص؟» لن تخصّني لأنّني بالفعل عرفتُ الجواب، مثل كامل أبناءِ بلدة ديكنز، كنتُ ابن أبي، نِتاج بيئتي، ولا شيء أكثر. ديكنز أنا، وأنا كنتُ والدي. والمشكلة هي أنّ الاثنين اختفيا من حياتي، أوّلاً أبي، ومن ثمّ بلدتي الأمّ. وفجأةً، لا يعود لديَّ فكرة عمّن كُنتُ، ولا فكرة كيف أؤكّد ذاتي.

٢

الجانبُ الغربيُّ من المدينة أيُّها الزنجيُّ! ماذا؟

٣

القوانينُ الثلاثة الأساسيَّة في عالم مجتمعات الغيتو المادّيّ هي كالتالي: الزنوجُ الذين في وجهك ينزعون إلى أن يبقّوا في وجهك، ثمَّ لا يهمُّ أين موقعُ الشمس في السماء لأنَّ الوقتَ هو دائماً «الثامنة وقَفَا قِرد، وخِصيتا قِرد إلاّ ربع»، والقانونُ الثالثُ هو أنَّك في أيِّ وقتٍ تحبُّ أن تصيبَك رصاصة فإنَّك ستكون على نحو أكيد تقفل عائداً إلى منزلك في أثناء استراحة شتاء، أو في منتصف الطريق في سنتك الدراسيَّة الأولى في الجامعة، تمتطي فرساً في طريقك إلى موعد مع أبيك من أجل اجتماع مفكِّري دونات دُم دُم، في فترة ما بعد الظهر، وهم مجموعة المفكِّرين المحلّيِّين، حيث هو وبقيَّة علماء أبناء المنطقة سيعرضون عليك عصيرَ التفّاح، ولفافاتِ القرفة، والعلاجَ النفسيَّ للمتحوّل جنسيّاً. (ليس لأنَّ أباك يظنُّكَ شاذاً، لكن لأنَّه قلقٌ من تأخُّرك إلى ما بعد الحادية عشرة ليلاً، وأنَّ مفردة «مؤخّرة» غير موجودة في قائمة مفرداتك».

إنَّها ليلة باردة، وأنتَ تهتمُّ بشؤونك الخاصَّة، تتذوَّق آخر رشفة من مخفوق الفانيليا خاصّتك عندما تصل إلى مجموعة من المحقِّقين يتحلَّقون حول الجثَّة. تترجَّل. تتقدَّم خطوة، وتعرف الحذاء، أو كُمَّ القميص، أو قطعةً من الحليّ. كان والدي ممدَّداً، وخدُّه ملتصقٌ بالأرض، عند تقاطع الطرق. عرفتُه من قبضة يده المنتفخة، ومن مفاصل أصابعه البارزة نحو الأعلى، ومن عروق ظهر يده التي لا تزال منتفخةً

ومليئةً. هتكتُ مسرح الجريمة عندما أزلتُ الضمادة عن شعره الأفريقيّ الأشعث، وسوّيتُ ياقة قميصه (الأكسفورد) المجعَّدة، ونظّفتُ خدَّه من الحصى العالقة به. وكما ذكر تقرير الشرطة فإنَّ هتكي مسرحَ الجريمة كان رديئاً جدّاً، عندما غرستُ يدي في بركة الدَّم حول جسده، وفوجئتُ أنّه كان دماً بارداً. لم يكن حارّاً، يعكّره الغضب الأسود والإحباط على مدى الحياة من عِرقنا، وإن كان رجلاً فيه بعض الجنون ولم يصبح قطُّ ما كان يظنُّ أنّه هو.

«أنتَ الابن؟».

رمقني المحقّق بنظرة من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ. حاجبه يتجعَّد، وعيناه ترمشان إلى الأمام والخلف من هيئة محدَّدة إلى هيئة محدَّدة أخرى، وخلف هذه الابتسامة المتكلِّفة الرافضة كنتُ أستطيع، على الأغلب، أن أشاهدَ دماغه يتنقَّل مستكشفاً ملامحي: ندباتي، طولي، بُنيَتي، مع بعض المعلومات عن المجرمين المطلوبين المؤرشَفة في رأسه.

«نعم، أنا هو».

«هل أنت شخصٌ مهمٌ؟».

«ماذا؟».

«أقول هذا لأنَّ الضابطين المتورّطين قالا إنَّه حينما انقضَّ عليهما كان يصرخ ويقول، وأنا هنا أقتبس حرفيّاً، «إنّني أحذِّركما، أنتما أيُّها المزعجان، يا مَن تغرقان في التفاصيل، النماذج السلطويّة البدائيّة، أنتما لا تعرفان مَن يكون ابني!»».

مَن أنا؟ وكيف يمكن أن أكونَ ذلك الشخص؟

«لا، لستُ شخصاً مهمّاً».

من المفترض أن تبكي عندما يموت أبوك، وأن تلعنَ النظام، لأنَّ

والدك مات بأيدي رجال الشرطة. وأن تنوحَ لكونك من الطبقة المتوسّطة وطبقة الملوّنين، في قسم شرطة لا يحمي إلاّ الناس البِيض ونجوم السينما من كلِّ الأعراق، مع أنّني لا أستطيع تذكُّر أيَّ أمريكيٍّ من أصل آسيويٍّ بين هؤلاء. لكنّني لم أبكِ. ظننتُ أنَّ موته كان حيلة، حيلة أخرى في مشروعه المتقَن لتربيتي تبعاً لميثاق العِرق الأسود، ولكي يلهمني أن أقومَ بشيء لنفسي. كنتُ، تقريباً، أتوقَّع منه أن ينهضَ، وأن ينفضَ عن نفسه الوسخَ ويقول «هل رأيتَ أيُّها الزنجيُّ، إذا حصل هذا لأذكى رجل أسود في العالم، فقط تخيَّل ماذا كان ليحدثَ مع غبيٍّ مثلك. فقط لأنَّ العنصريَّة ماتت، هذا لا يعني أنّهم لا يطلقون النار على الزنجيِّ في الحال».

الآن، لو كنتُ أملك خياراتي لما كان اهتمامي أقلَّ حول كوني أسودَ. وحتّى اليوم، عندما تصل استمارات الإحصاء السكّانيّ في البريد، وتحت سؤال «العِرق»، أتفحّص الاحتمالَ الذي يذكر «أعراق أخرى»، فأكتب تحته بكلِّ فخر «من أبناء كاليفورنيا». بالطبع، وبعد شهرين، سيأتي موظّف الإحصاء، ويظهر عند بابي، ويلقي نظرة واحدة عليَّ، ثمَّ يقول: «أنتَ أيُّها الزنجيُّ الأحمق، كرجل أسودَ، ماذا يجب عليك أن تقول لنفسك؟»، كرجل أسودَ لا شيء لديَّ لأقوله لنفسي. لذلك، نحتاج إلى شعار، لو كنّا نملكه لكنتُ رفعتُ قبضتي وهتفت بها، وصفقتُ البابَ في وجه الحكومة. ولكن، ليس لدينا واحد، لذلك سأغمغم بالاعتذار، وأخربش أحرفي الأولى على صندوق مكتوب عليه «أسودُ، أفريقيٌّ-أمريكيٌّ، زنجيٌّ، جبان».

لا، أيُّ إلهام قليل في حياتي لا يأتي من إحساس بفخرٍ عِرقيٍّ؛ إنّه ينبثق من التوق القديم نفسه، توق أنتج رؤساء عظماء ومدّعين عظماء، ولَّدَ قادة صناعة وقادة فرق كرة قدم، ذلك الحنين الأوديبيُّ الذي جعل الرجال يقومون بكلِّ أنواع الهراء، الذي من باب أولى ألاّ نقومَ به، مثل

اختبارات كرة السلّة، ومثل ملاكمة أحد أبناء الجيران، لأنَّ في أسرتنا، نحن لا نبدأ بأيِّ هراء، ولكنّنا بالتأكيد ننهيه. وأتحدّث هنا عن أكثر الحاجات أهميَّة فقط، حاجة الطفل إلى أن يسعدَ والده.

كثير من الآباء يربُّون تلك الحاجة داخل أبنائهم عبر تلاعب شهوانيٍّ مع بداية الطفولة؛ يعبِّرون عن حبِّهم لأولادهم بتدوير لعبة الطيَّارة، وأكواز الآيس كريم في الأيَّام الباردة، ورحلات الحضانة الأسبوعيَّة إلى «سالتون سي»، وإلى متحف العلوم، تلك الألعاب السحريَّة المستمرَّة التي تخلق فيها قطعة دولار نقديَّة من الهواء. وكذلك الألعاب الذهنيَّة في البيت المفتوح، التي تجعلك تظنُّ أنَّ معجزة المشهد من الطابق الثاني لقصر من طراز تيودور مُطلٌّ على السهول، إنْ لم يكن على العالم، سوف تكون ملكك في الحال. كلُّ هذه الأشياء مهمَّة لتخدعنا من أجل أن نصدِّقَ أنّه من دون الحماية التي يقدِّمها الآباء فإنَّ حيواتنا الباقية لن تكون إلاَّ حياة تافهة، وبلا جدوى. ولكن، بعد ذلك، في مرحلة البلوغ، وبعد عدَّة حوادث تصيبك وأنت تركض داخل منطقة الرمي في لعبة كرة السلّة، أو وأنت تخبِّط في منتصف الليل، وأنت ثملٌ، فوق أعلى رؤوسنا، وتلهثُ بسبب تعاطيك المخدِّرات التي تنفثها في وجوهنا، وبهارات هالابينيو التي نتشاركها ونضعها على شفاهنا لأنّنا قلنا كلمة قذرة. عندما تحاول أن تأخذَ دورَ الأب تصل إلى إدراك أنَّ الدقَّة الجامدة والحيل التي تنفِّذها في أثناء غسل السيَّارة ليست إلاَّ نوعاً من الدعاية الأبويَّة. خدع ومحاولات إخفاء دوافعهم الجنسيَّة المتناقصة. الأجر الراكد الباقي بعد دفع الضرائب، وعدم قدرتهم على العيش على نحو جيِّد كما توقَّع آباؤهم من قبلهم. الحنين الأوديبيُّ لإسعاد الأب فعَّالٌ جدّاً إلى درجة أنّه يؤثِّر أيضاً حتّى في المنطقة التي أعيش فيها، حيث الأبوِّة عند معظمهم تحدث في أثناء الغياب. لذلك، حتّى الآن، يجلس الأطفال، بكلِّ إحساس بالواجب، عند النافذة في الليل ينتظرون عودة

الأب إلى المنزل. بالطبع، كانت مشكلتي أنَّ أبي موجود في المنزل دائماً.

بعد أن تمَّ تصوير مكان الحادث، وأُجريت المقابلاتُ مع الشهود، وسُرِدت النكاتُ التي تتَّخذ من الموت موضوعاً، من دون أن يهتزَّ لي جفن، أمسكتُ جسدَ أبي المنخَّل بالرصاص، من تحت إبطيه، وسحبته من عقبَي قدمَيه حتّى قَطَعَ حدَّ الطباشير، واستمررتُ في سحبه عبر الإشارات المعلَّمة باللون الأصفر، الدالَّة على أماكن أعقاب الرصاصات، وعبر تقاطع الطرقات، وموقف السيَّارات، والأبواب الزجاجيّة المزدوجة. أجلستُ والدي إلى طاولته المفضَّلة، وسألتُ النادلَ أن يقدِّم لنا «طلبه المعتاد»، قطعتَي شوكولاتة مثلَّجة مع كأس حليب، ووضعتُ الطلبَ أمامَه. ولما كان قد وصل متأخِّراً خمساً وثلاثين دقيقة، وميْتاً، فإنَّ الاجتماع كان بطبيعة الحال قد بدأ، يقوده فوي شيشاير، شخصيَّة تلفزيونيَّة آفلة، وصديق سابق لوالدي، ورجل حريص جدّاً على ملء فراغ القيادة. كانت هناك لحظة إحراج قصيرة، فمفكِّرو دُم دُم، الشكّاكون، كانوا ينظرون إلى فوي ذي البنية الممتلئة مثلما كانت أمّتنا، لا بدَّ نظرت إلى آندرو جونسون بعد اغتيال لينكولن.

أسرعتُ في شرب رواسب مخفوق الحليب خاصَّتي مصدراً صوتاً عالياً، وهي طريقة الإشارة إلى المعركة التي كان يفضِّلها والدي.

يجب على ثورة دونات دُم دُم أن تستمرَّ.

أسّس والدي حركة مفكِّري دونات دُم دُم[١] منذ زمن بعيد عندما لاحظ أنَّ امتياز محالَّ دونات دُم دُم المحلّيَّة كان مجالَ العمل الوحيد

---

(١) Dum Dum ماركة محلّات تجاريّة في لوس أنجلس، وأماكن أخرى في العالم، تقدّم الدونات، وهي نوع من معجنات الحلويّات شائعة في الولايات المتّحدة. (م)

غير اللاتينيّ، أو يملكه السُود، الذي لم يُحرَق أو يُنهَب في أعمال الشغب. في الواقع: أمضى اللصوص وضبّاط الشرطة ورجال الإطفاء على حدٍّ سواء، الساعات الأربع والعشرين وهم يقودون سيّاراتهم ليتزوّدوا بالكعكاتِ الصغيرة المحلّاة، وأقراصِ القرفة، وعلى نحو مثير للدهشة عصيرِ الليمونادة الطيّب، في الوقت الذي كانوا فيه يشتبكون مع الحريق الهائل، ومع الإرهاق، ومع طواقم الأخبار المزعجين، الذين يسألون أيَّ شخص عبر ميكروفون يمتدُّ على طول الذراع «هل تعتقد أنَّ المظاهرات ستغيِّر أيَّ شيء؟».

«حسناً، أنا على التلفزيون، أليس كذلك، أيّتها العاهرة؟»

عبر سنوات وجودها كلّها، لم تُسرَق محالُّ دونات دُم دُم قطُّ، أو يُسطَ عليها، أو تُقذَف بالبيض، أو تخرَّب ممتلكاتها، وواجهات أبنية هذه المحالِّ بقيت حتّى هذا اليوم خالية من فنون الغرافيتي، ومن المزعجين، والمتسوّقون لا يوقفون سيّاراتهم في المنطقة التي تعوق السير، وراكبو الدرّاجات الهوائيّة يتركون درّاجاتهم غير مقفلة، فلا خطر عليها، يجمعونها بأناقة داخل موقف خاصٍّ مثل سيّارات الكروزر الهولنديّة عندما يوقفها أصحابها في محطّة قطارات أمستردام. ثمّة شيء هادئ، وفي معظم الأحيان رهبانيّ، فيما يخصُّ محالَّ الدونات داخل المدينة. إنّها نظيفة. ساطعة. والموظفون فيها دائماً عاقلون ومحترمون. ربّما تكون الإضاءةُ المخفيّة هي السبب، أو الديكور الزاهي الذي صُمّم تدرُّج ألوانه ليكون رمزاً لخشب القيقب، مُعرَّقاً برذاذ قوس قزح. أيّاً كانت الأسباب، فإنَّ والدي كان يدرك أنَّ محلَّ الدونات هو المكان الوحيد في ديكنز حيث يحسن الزنوج التصرُّف. يمرِّر الناس فيه الكريمة التي لا تحتوي على الحليب، أمّا الغرباء فإنّهم يشيرون بأدب إلى أنفك، ويؤدُّون الإشارة العالميّة «رشَّ السكَّر البودرة من وجهك». في ٧,٨١ ميلاً مربّعاً من مجتمع السُود المتبجّح، فإنَّ الـ ٨٥٠ قدماً مربّعاً الخاصّة

بمحلّ دونات دُم دُم كانت المكان الوحيد في «المجتمع»، حيث يمكن لأحدنا أن يختبر الجذور اللاتينيّة للكلمة، وحيث يتمكّن المواطن من الاستمتاع بالجَمعات الاعتياديّة. بعد ظهر يوم أحد ماطر، ولم يكُ مضى وقت طويل على مغادرة النُخب ووسائل الاعلام للمكان، طلب والدي مشروبه المعتاد. جلس إلى الطاولة القريبة من جهاز الصرّاف الآليّ وقال بصوت عال، من دون أن يوجّه حديثه إلى أحد «هل تعلم أنّ مصاريف المنزل تكلّف الأبيضَ ١٤٩.١١٣ دولاراً كلّ عام، والأمريكيّ ذا الأصل اللاتينيّ ٦٣٢٥ دولاراً، والأسودَ ٥٦٧٧ دولاراً؟».

«هل تقول الصدق؟».

«وما هو مصدر معلوماتك، أيُها الزنجيُ؟».

«مركز أبحاث بيو».

أبناء العاهرات من هارفارد إلى هارلم يحترمون مركز أبحاث بيو، ويستمعون إلى هذا الكلام. أصحاب المؤسّسات المهتمُون استداروا من على كراسيهم البلاستيكيّة التي تصدر صوت صرير، بقدر ما يستطيعون، ليعطوا محالّ الدونات تلك كراسيَ دوّارة يدور محورها ستّ درجات فقط في كلّ اتجاه. طلب أبي من المدير أن يعتّم الإضاءة. شغّلتُ المسقِط الضوئيَ الموجود فوق رأسه، وزلقتُ الشفّاف على الزجاج، ومعاً مددنا عنقَينا باتجاه السقف حيث كان يلمع مخطّط مكتوب عليه «تفاوت الدَّخل كما يقرّره العِرق»، يحلّق فوق الرؤوس مثل كتلة من السحب الإحصائيّة السّوداء اللعينة، تهدّد بالإمطار على عَرضنا الجمعيّ.

«كنتُ أعجبُ ماذا يفعل ذلك الزنجيُ الصغير في محلّ دونات مع مُسقط ضوئيّ لعين فوق الرؤوس».

الشيء التالي الذي كانت الناس تعرفه، هو أنّ والدي، مدعوماً بمخطّط دورة الاقتصاد الجمعيّ هناك، مع رسم تخطيطيّ لميلتون

فريدمان هنا، كان يسهِّل عقدَ ندوةٍ مرتجلة عن شرور إلغاء الرقابة الماليّة والعنصريّة المؤسّساتيّة. وكيف أنّ مؤسّسات كينيسيان لم تكن محبوبة جدّاً من جانب البنوك ووسائل الإعلام، الذين تنبّؤوا بمعظم الانهيار الماليّ الأخير، إلاّ الاقتصاديّين السلوكيّين الذين عرفوا أنّ السوق لا يتأرجح بمعدّلات فائدة قيمة البضائع والخدمات المنتجة في العام، بل أكثر، بالطمع والخوف والوهم الماليّ. تطوّر النقاش بحيويّة، بأفواههم المتخمَة بالمعجَّنات، وشفاههم المكسوّة ببقايا جوز الهند، استنكر أنصار دونات دُم دُم تحرير الفائدة المنخفضة، وجرأة شركة الكيبل اللعينة في تحميلها لنا رسومَ تأخيرٍ لعدم دفع الرسوم حالاً في شهر تموز من أجل خدمات لا تستوجب الضريبة حتّى شهر آب. إحدى النساء، خدّاها ممتلئان، إلى حدّ الانفجار، بحلوى الماكارون، سألتْ والدي «كم هو دخلُ الصينيّين؟».

«حسناً، الصينيُّون لا يكسبون أكثر من السكّان الآخرين».

«اللوطيُّون أيضاً؟» صرخت مساعدة المدير «هل أنتَ متأكّد من أنّ الصينيّين يكسبون أكثر من اللوطيّين؟ لأنّي سمعتُ أنّ اللوطيّين يملؤون أيديهم بالمال النقديّ».

«حتّى اللوطيّون. لكن تذكّري، الرجال الآسيويُّون لا يملكون نفوذاً».

«وماذا عن الشاذّين من الرجال الصينيّين؟ هل أنجزتَ تحليل انحدار حول العِرق والتوجُّه الجنسيّ؟». هذا التعليق المتبصّر جاء من فوي شيشاير، وهو رجل يزيد أبي من العمر عشر سنوات، يقف دائماً إلى جانب حوض الماء ويداه في جيبه، ويرتدي سترة صوفيّة حتّى لو كانت درجة الحرارة في الخارج ٧٥ درجة. هذه كانت حاله قبل المال وقبل الشهرة. وإلى وقت قريب كان أستاذاً مساعداً في الدراسات المدنيّة في كلّيّة برنيتوود في جامعة كاليفورنيا، ويعيش في لارشمونت مع باقي

النخبة المتعلّمة في لوس أنجلس، ويمضي أوقاتاً في ديكنز يقوم بأبحاث ميدانيّة من أجل كتابه الأوّل: *المدنيّة السّوداء: تعنُت الفقر في المناطق الأفريقِيّة-الأمريكيِة والملابس الفضفاضة.* «أعتقد أنَّ اختباراً لمجموع المتغيّرات المستقلّة الحاصلة على الدخل يمكن أن تنتج عنه معاملات تكافؤ مثيرة للاهتمام. بصراحة لن تفاجئني القيم الناتجة بحدود ٧٥ بالألف».

على الرغم من موقفه المتعجرف، إلاّ أنَّ أفكار فوي راقت لأبي على الفور، ومع أنَّ فوي كان قد وُلِد وترعرع في ميتشيغان، فإنَّ أبي لم يكن، في الغالب، يجد شخصاً في ديكنز يعرف الفرق بين تحليل اختلاف البيانات وتحليل التباين. وبعد استخلاص المعلومات فوق صندوق الدونات ذي الثقوب، وافق الجميع-السكّان المحليُّون، بمن فيهم فوي-على الاجتماع بانتظام، وهكذا ولِد مفكّرو دونات دُم دُم. ولكن، أينما كان والدي يشهد أيّ فرصة لتبادل المعلومات، وتأييد العامّة، والاستشارة الجماعيّة، فإنّ فوي كان يشهد انطلاقة منتصف العمر إلى الشهرة. بدأت الأمور بينهما ودِّيّة بما فيه الكفاية. كانا يضعان الاستراتيجيّات ويطاردان النساء معاً. ولكن، بعد بضع سنين، أصبح فوي شيشاير مشهوراً، ووالدي لم يحصل على الشهرة قطُّ. لم يكن فوي مفكّراً عميقاً، لكنّه أفضل تنظيماً من والدي الذي كانت نقطة قوّته هي نقطة ضعفه الأسوأ، كان خارج زمنه، فحين كان أبي يؤلّف نظريّات غير مفهومة وغير قابلة للنشر، رابطاً بين استعباد السُّود ونظريّة اللعبة والتعلُّم الاجتماعيّ، كان فوي يَظهر في برنامج حوار تلفزيونيّ، ويقابل مشاهير الدرجة الثانية، وشخصيّات سياسيّة، ويكتب مقالات للمجلاّت، ويعقد اجتماعات في هوليود.

في إحدى المرّات، وحينما كنت أشاهد والدي يجلس بعيداً إلى مكتبه وهو يدوّن شيئاً ما، سألته من أين جاءت أفكاره، استدار إلى

الوراء، وقال، ولسانه مثقل بتأثير الويسكي الإسكوتلندي، «السؤال الصحيح، ليس من أين جاءت الأفكار، بل إلى أين تذهب!».

«إذاً، إلى أين تذهب؟».

«الفاسقون، أبناء العاهرات، أمثال فوي شيشاير يسرقونها، ويصنعون ثروات ليست صغيرة من وراء قذارتك، ثمَّ يدعونك إلى حفل العشاء، وكأنَّ شيئاً لم يحدث».

الفكرة التي سرقها فوي من والدي كانت فيلم كرتون، من تلك الأفلام التي تُعرض صباح السبت، حاز على جائزة، وعنوانه «القطط السُّود وأولاد يامين»، عَرضٌ انتشر في كلِّ العالم، ودُبلج إلى سبع لغات، وفي منتصف عقد التسعينيّات الأخير جنى فوي منه ما يكفي من المال ليشتري منزل الأحلام في التلال. لم يذكر والدي أيَّ شيء بهذا الخصوص على العلن، ولم يكن يواجه فوي قطُّ في لقاءاتهما، لأنَّ شعبنا، كما صاغها، «في حاجة ماسَّة إلى كلِّ شيء إلاَّ المشاعر المريضة». وفي السنوات اللاحقة، عندما كانت لوس أنجلس قد نبذت فوي الذي كان دائماً هارباً من بلدته الصغيرة، وبعد أن كان قد أضاع تمويله على عادة المخدِّرات، وعلى سلسلة من نساء لوس أنجلس بوجوههنَّ النمشة، ولغتهنَّ المزدوجة، حُرِم من بقايا ما كان له في شركة الإنتاج، وكان لديه كلُّ شيء ما عدا منزله وسيَّارته، اللذين حجزت عليهما دائرة الإيرادات الداخليّة بسبب التهرُّب من الضرائب. بقي والدي صامتاً. وعندما وضع فوي مسدَّساً في رأسه، ولم يكُ يملك فلساً، ومضطرباً، اتَّصل ليسأل أبي أن يهمسَ له بسبب جزعه من الانتحار. حافظ والدي على سريَّة العلاقة بين الطبيب والمريض. لم يتحدَّث عن التعرُّق الليليّ، والأصوات، وتشخيص اضطرابات الشخصيَّة النرجسيَّة، والأسابيع الثلاثة من العلاج النفسيِّ في المستشفى. وفي الليلة التي توفِّي

فيها والدي الملحد بإخلاص، صلّى فوي له، وخَطَب، وضمّ جسده الميت إلى صدره، وبعدها تصرّف وكأنّ الدّم على قميصه الأبيض اللمّاع ماركة هوغو بوس هو دمه الخاصّ. كان يمكنك أن ترى في وجهه، أنّه على الرغم من خطبته، وكلماته الشجيّة حول موت والدي الذي يمثّل ظلم السُّود، فإنّه، في أعماقه، كان سعيداً لرحيله، فأسراره ستكون بأمان بوفاة والدي، وربّما لأنّ أحلام روبسبير الفانتازيّة الخاصّة به، حول أنّ مفكّري دونات دُم دُم هم العَوَض الأسود بالنسبة لليعقوبيّين، ستتحقّق.

وحينما تناقش مفكّرو دونات دُم دُم في كيفيّة الانتقام، أرجأتُ الاجتماع بأن سحبتُ جسدَ والدي من أمام مبرّد الماء، ثمّ وضعتُ جثّته على ظهر حصاني، وجهه إلى الأسفل، وهو يجلس على عجيزة الحصان، مثلما نشاهد في أفلام رعاة البقر، ذراعاه وقدماه تتدلّيان في الهواء. حاول الأعضاء في البداية إيقافي، إذ كيف أجرؤ على تحريك الشهيد قبل أن تتسنّى لهم فرصة التقاط الصور معه. بعدها أخذت الشرطة دورها فأغلقت الشوارع بسيّاراتها، بحيث لا أستطيع المرور. صرختُ، وشتمتُ. رسمتُ خطّ منطقتي عند التقاطع، وهدّدتُ كلّ واحد يقترب مني برفسة من حافر حصاني على جبينه. في النهاية، ذهب النداء إلى الزنجيّ الهامس، لكنّ الزنجيّ الهامس كان ميتاً.

مفاوض الأزمات، النقيب الشرطيّ، موراي فلوريس، كان رجلاً عمل مع أبي في كثير من قضايا الهمس الزنجيّ، كان يعرف كيف يؤدّي عمله على نحو جيّد، وليس من باب مجاملة الموقف. وبعد أن رفع رأسَ والدي لينظر إلى وجهه، بصق على الأرض بقرف، وقال «ماذا عسايَ أقول؟».

«يمكنك أن تخبرني كيف حدث ذلك».

«كان الأمر عن غير قصد».

«وماذا تعني بغير قصد؟».

«على نحو غير رسميّ، أعني أنّ أباك توقّف بسيّارته خلف سيّارة ضابطين بملابس مدنيّة، أوروسكو وميدينا، اللذين كانا قد توقّفا عند إشارة المرور يتحدّثان مع امرأة متشرّدة، وبعد تغيُّر الإشارة من الأخضر إلى الأحمر لعدّة مرّات، ترجّل والدك من سيّارته والتفّ من حولهما، وصار يصرخ بصوت عالٍ، فما كان من الضابط أوروسكو إلاّ أن حرّر مخالفة مروريّة، وحذّره تحذيراً شديداً، فقال أبوك...».

««إمّا أن تعطيني المخالفة أو تعطيني المحاضرة، ولكن لا تستطيع إعطائي الاثنتين». لقد سرق العبارة من بيل راسل».

«تماماً، أنت تعرف والدك، قام الضابطان بفعل استثنائيّ، سحبا سلاحَيهما، وأبوك ركض مثل أيّ شخص عاقل، أطلقا عليه أربع رصاصات في الخلف، وتركاه ميتاً عند التقاطع. أنت الآن تعرف ماذا حدث، لذلك عليك فقط أن تسمحَ لي بأن أقوم بعملي، عليك أن تدعَ النظام يحمّل الرجلين المسؤوليّة. لذلك أعطِني الجثّة فحسب».

سألتُ النقيب فلوريس سؤالاً كان أبي قد سألني إيّاه عدّة مرّات: «هل تعلم كم مرّة، في تاريخ قسم شرطة لوس أنجلس، أُدين ضابطٌ بجريمة قتل في أثناء أداء الخدمة؟».

«لا».

«الجواب هو ولا مرّة. لذلك، لن يتحمّل أحد أيّ مسؤوليّة، وسآخذه».

«إلى أين؟»

«سوف أدفنه في الفناء الخلفيّ. قم بما يجب عليك فعله».

لا أعتقد أنّني كنت قد شاهدت شرطياً ينفخ في صفّارته قبل ذلك الوقت، ليس في حياتنا الواقعيّة، ولكنّ النقيب فلورنس نفخ في صفّارته المطليّة بالنحاس الأصفر مشيراً إلى باقي الضبّاط وفوي ومحتجّي دونات دُم دُم بالابتعاد. فُكَّ الحصار وقدتُ بنفسي كلَّ حركة بطيئة من مسيرة الجنازة باتجاه ٢٠٥ جادّة بيرنارد.

كان حلم والدي الدائم أن يمتلك ٢٠٥ جادّة بيرنارد بأكملها. «بانديروسا» هكذا كان يسمّيها «الزراعة بالمشاركة، تبنّي تنقُّل الأعراق، والاستئجار لغاية الملكيّة هو للسذّج»، هكذا كان يحبُّ أن يقول وهو يستغرق في التفكير لوقت طويل في كتب الاستثمارات المتعلّقة بالقروض العقاريّة التي لا تتطلّب دفعة مقدّمة، ويبدأ بالكبس على آلته الحاسبة وهو يتخيّل سيناريوهات القرض العقاريّ «دراستي هي... ستكون عشرين ألفاً ميسّرة كرسوم إنشاء القرض... يمكننا أن نقدّم جواهر أمّك رهناً من أجل خمسة أو ستة آلا... حتّى في وجود عقوبة الاسترداد المبكّر لأموال صندوق دراستك في الكليّة، فإنّنا لو قدّمنا المبلغ نقداً الآن فستكون ملكيّة المنزل قاب قوسين أو أدنى».

لم تكن هناك أيّ دراسات، بل عناوين يصرخ بها وهو تحت (دوش) الحمّام يمصُّ في علكة عمرها تسعة عشر عاماً (زميلته من أيّام الجامعة)، كان يخرج رأسه المبلّل خارج الباب من خلال البخار، ويسأل عن رأيي في «تحليل الزنوج»، أو يقول جملتي المفضّلة «أنا في وضع جيّد. إذاً، أنت في وضع جيّد»، ولم يكن أصلاً توجد جواهر، فأمّي، موديل الأسبوع للجمال في مجلة «جيت»، لم تكن تلبس حلياً في الصورة على الصفحة الممزّقة من المجلّة المهترئة والملصقة على لوح سريري الأماميّ. كانت، في الصورة، تظهر بقصّة شعر متواضعة، وفخذين مليئتين، وشفتين تلتمعان بأحمر الشفاه، تتسكّع خلف منصّة الغطس بثوب بحر (بيكيني) ذهبيّ لامع. كلُّ ما عرفته عنها، كانت معلومات

السيرة الذاتيّة المختصرة والمدوّنة في الأسفل، على الزاوية اليمنى للصورة. «لوريل ليسكوك، طالبة من كي بيسكين، فلوريدا، تستمتع بركوب الدرّاجات، والتصوير، والشِّعر». في وقت لاحق من حياتي سأقتفي أثر الآنسة ليسكوك، التي أصبحت مساعدة محامٍ، تعيش في أطلنطا. تذكّرت والدي كرجل لم تقابله قطُّ، لكنّه، وبعدَ أن صوّرها صورة واحدة في سبتمبر ١٩٧٧، غمرها بوعود الزواج، والشِّعر المخدِّر، وصور «كوداك إنستاماتيك» لقضيبه المنتصب. وبالنظر إلى أنَّ مدّخرات كلِّيتي بلغت ٧٢.٢٣٦ دولاراً، في معظمها من المبلغ الذي حصلتُ عليه يوم حفلة «ميتزفا»[١]، التي حضرها عدد قليل من الناس، وإلى أنَّ كلاًّ من مخطوط أبي ومجموعة جواهر أمّي، لم يكن موجوداً أصلاً، فستظنُّ أنّنا، أبداً، لن نملك المنزل. لكنَّ الحظَّ ضرب ضربته بسبب موت والدي على أيدي الشرطة، والمليونَي دولار قيمة التسوية غير المشروعة التي حصلت عليها أخيراً، فإنّنا، أنا وأبي، بمعنى من المعاني، اشترينا المزرعة في اليوم نفسه.

للوهلة الأولى، يبدو شراؤه هذه المزرعة المشهورة يحمل معنىً مجازيّاً إذا ما نظرنا إلى عمليّتَي البيع. ولكن، وفق ما تضمَّنته نتائج حملة التفتيش السنويّة المبكرة والسريعة، التي قامت بها «إدارة كاليفورنيا للغذاء والزراعة»، أن تطلق على هذه المزرعة؛ الواقعةِ في ٢٠٥ جادّة برنارد، وتقدَّر مساحتها بثمانية آلاف متر مربّع، قطعةِ الأرض الخصبة هذه المواجهة لهذا الجانب من سطح القمر، والقائمة في أكثر أحياء اليهود الزنوج رداءة للسمعة في مقاطعة لوس أنجلس، وما تحتويه من عربة مقطورة من طراز وينيباغو تشيفتاين فارغة من الداخل، واتّخذت مكاناً لحظيرة متهدِّمة مزدحمة أشبه بخمٍّ للدجاج يسري عليه قانون السكن،

---

(١) حفلة يقيمها الزنجيُّ اليهوديُّ عندما يبلغ الثالثة عشرة، ويُهدى نقوداً. (م)

وتعلوها دوّارة لتحديد اتجاه الريح، صدئة جدّاً، حيث لن يكون بمقدور رياح سانتا آنا، ولا ظاهرة النينو، ولا الإعصار الذي ضرب ولاية ويسكينسن الأمريكيّة وامتدّ على مساحة ٨٣ ميلاً، أن يقتلعها من مكانها. هذه المزرعة التي تضمُّ بستاناً يحتوي على شجرَتَي ليمون غزتهما ذبابة الفاكهة المتوّسطيّة، وثلاث خيول، وأربعة خنازير، ومعزاة بساقين حافرها الخلفيُّ ليس إلاّ دواليب لعربة تسوُّق، واثنتي عشرة قطّة شريدة، وقطيع مواشٍ من بقرة واحدة، ووجود دائم لسحابات من الذباب الذي يطير فوق بركة صيد سمك قابلة للتوسُّع، كوَّنتها غازات المستنقعات المسيَّلة وفضلات الفئران المتخمِّرة، هذه العربة المقطورة التي فُكَّ عنها الرهن في اليوم نفسه الذي قرَّر فيه والدي أن يطلبَ من الشرطيِّ السرّيِّ إدوارد أوريسكو أن يزيح سيَّارته، من نوع فورد موديل كراون فيكتوريا، عن الطريق بدلاً من سدِّ المعبر، مع الأموال التي استدنتها لقاء التسوية الماليَّة التي قدَّرتها المحكمة بمليونَي دولار أمريكيٍّ كتعويض عن إعاقة سير العدالة الشائن الذي حصل في قضيَّة والدي؛ أن تطلق على هذه السخافة التي يسمُّونها قطعة أرض، ويعمل فيها مزارعون زنوج يقطنون في مراكز المدينة، ولا ينطبق عليها قانون مساعدة الدولة؛ أن تطلق عليها اسم مزرعة لهو أمرٌ بمنزلة الخروج عن حدود المعنى الحرفيِّ لكلمة مزرعة. ولو أنَّنا، أنا وأبي، كنَّا أسَّسنا، جيمس تاون بدلاً من بيلغريمز، لنظر الهنود إلى صفوف الذرة والبرتقال الصينيِّ الذاوية والملتوية، والشبيهة بالمتاهة، وقالوا: «اليوم، انتهت حلقة بحث زراعة الذرة لأنَّكم أيُّها الزنوج لن تنجزوها».

عندما تترعرع في مزرعة وسط مجتمع غيتو، فإنَّك ستدرك أنَّ كلَّ ما كان يقوله والدك دائماً، في أثناء الأعمال الروتينيَّة المنزليَّة الصباحيَّة، صحيح: يأكل الناس القذارة التي تجرفها لهم. مثل الخنازير، كلُّنا نحشر رؤوسنا في الحوض، وبينما لا تؤمن الخنازير بالله، ولا بالحلم

الأمريكيّ، ولا بأنّ القَلَم أقوى من السيف، لكنّها تؤمن بالعلف، بالطريقة اليائسة نفسها التي نؤمن فيها بصحيفة يوم الأحد، وبالإنجيل، وبإذاعة السُود، وبالصلصة الحارّة. في غالب الأوقات، في أيّام عطلته، كان يدعو أهالي المنطقة لمشاهدتي وأنا أعمل. وعلى الرغم من أنّ المزارع كانت مخصَّصة للزراعة، إلاّ أنّ معظم الأسر كان قد هجر نمط زراعة تمليح الأرض للمساحة الآكريّة الممتدّة في الأفنية الخلفيّة، التي أصبحت بامتياز ملعب كرة سلّة بمقاساته الحقيقيّة، أو مضمارَ تنس، أو ربّما كوخاً عند الزاوية. ومع أنّ أسراً قليلة لا تزال تحافظ على مزارع تربية الدجاج، وربّما تربّي بقرة، أو تدير مدرسة للفروسيّة مخصَّصة للشبّان المعرَّضين للخطر، فإنّنا كنّا الأسرة الوحيدة التي تحاول الاجتهاد في الزراعة. نحاول أن نجني أموالاً نقديّة من الوعد المنسيّ لمرحلة ما بعد الحرب الأهليّة. أربعون أكراً من الأرض، وأحمق، «هذا الزنجيُّ الصغير لن يكون مثل بقيّة زنوجكم». كان والدي يصيح من البهجة وإحدى يديه على قضيبه، والثانية تشير إليّ «ولَدِي سيصبح زنجيَّ النهضة، غاليليو هذا العصر الخارج من هذه الأمّة الملعونة»، وبعدها كان يفتح زجاجة عصير، مخرجاً الأكواب الورقيّة، ومكعبات الثلج، وشراب الصودا بشرائح الليمون. ومن الرواق الخلفيّ سيشاهدونني أجمع الفراولة أو أبذر الفاصولياء، أيّاً كان الفصل اللعين. القطن كان الأسوأ. تغاضى عن الانحناء والأشواك، ودندنة روحانيّات بول روبنسون التي كان يعزفها بصوت عالٍ بما يكفي لتغطّي موسيقا أسرة لوبيز الريفيّة القادمة من المزرعة المجاورة، أو تغاضى عن كون زراعة القطن وريّه وحصاده كانت عمليّة كاملة من إضاعة الوقت، لأنّ شراب الجِن الوحيد كان كأس بولّيسترين من شراب الشركة الكنديّة «سيغرام» في يده، فإنّ حصاد القطن كان مسألة مقرفة لأنّها تجعل أبي يحنُّ إلى وطنه. ثمل عاطفيٌ يملؤه الجِن والتفاخر بأنواع العصائر. كان يتباهى أمام أبناء منطقتنا

السُّود كيف أنّني لم أقضِ نهاراً ألعب بصندوق الرمل. وبدلاً من ذلك، كان يقسم، أغلظ الأيمان، أنَّ خنزيرة تُدعى سوزي كيو هيَ مَن ربَّتني ورَعَتني، وأنّني كنتُ الخاسرَ دائماً في تنافس الأخوَّة «خنزير صغير ضدّ زنجيٌّ صغير» من أجل مضاهاة خنزير عبقريٍّ اسمه سافوا فير.

كان أصدقاء أبي يشاهدونني أقطف كيسات القطن من الجذور الجافة، وينتظرونني كي أطيح بهَرَم أورويل الاجتماعيّ، وهكذا أؤكِّد على تربيتي المرتبطة بالخنازير.

١ ـ كلُّ ما يتحرَّك على اثنتين هو عدوّ.

٢ ـ كلُّ ما يمشي على أربعة أقدام، أو ستَّة أجنحة، ويحمل مسدَّساً، هو صديق.

٣ ـ الخنزير لن يلبس البنطلون القصير في فصل الخريف، وعلى نحو أقلّ في فصل الشتاء.

٤ ـ الخنزير لن يُمسَك وهو نائم.

٥ ـ الخنزير لن يشرب شراباً محلّىً ببودرة النكهة.

٦ ـ كلُّ الخنازير خُلقت متساوية، لكنَّ بعضها ليس كذلك.

لا أذكر أنَّ والدي كان يقيِّد يدي اليمنى خلف ظهري أو يعتني بي داخل حظيرة الخنازير، لكنّي حقّاً أذكره وهو يدفع سافوا فير، ويداه فوق بعضهما بعضاً على الجزء الخلفيّ من عجيزتَي الحيوان السمين، دافعاً إيّاه إلى المنحدر الخشبيّ، ومن ثمّ إلى داخل المقطورة. كان والدي آخر شخص على الأرض يستخدم إشارات يدَيه في السواقة. استدار عند المنعطف ببطء، وهو يحاضرني متحدِّثاً عن أنَّ الخريف هو أفضل وقت لذبح خنزير، لأنَّ الحشرات أقلّ، ولأنَّ اللحم يُحفظ لوقت أطول في الخارج، فمتى جمَّدته فستبدأ قيمته الغذائيَّة بالتلاشي. حَللتُ الإبزيم، ومثل أيّ ولد يرتفع فوق المقاعد والمساند الهوائيَّة انحنيت فوق

المقعد مواجهاً خلفيَّة السيَّارة، أنظر من نافذتها الخلفيَّة الصغيرة، إلى سافوا فير، المحكوم عليه، مشقوق الحافر، العبقريّ، وهو يشتكي بصوت عال مثل عاهرة تزن أربعمئة باوند، طوال الطريق إلى المسلخ. «أنت حقاً ربحت في لعبة (الأربعة تربح) الأخيرة، لا بدَّ أنَّك تلوتَ تعويذة لعينة». «لقد أنهيتُ المعركة»، «أنا الفائز»، يا لك من ابن عاهرة». عند إشارات المرور كان والدي يمدُّ يده خارج النافذة ويلوي ذراعه: اليد باتجاه الأرض وراحة اليد باتِّجاه المقطورة، «يأكل الناسُ القذارة التي تجرفها لهم!»، كان يصرخ مع موسيقا الراديو، وفي الوقت نفسه، يبدِّل الحركة، ويقود، ويشغِّل الغمَّازات، ويشير بيديه، ويستدير نحو اليسار، ويغني دائماً مع إيللا فيتزجيرالد، ويقرأ عناوين صحيفة *لوس انجلس تايمز* التي تتحدَّث عن أفضل المبيعات، وكلُّ ذلك في وقت واحد.

يأكل الناسُ القذارةَ التي تجرفها لهم.

أحبُّ أن أقول «إنَّني دفنتُ والدي في الفناء الخلفيّ، وفي ذلك اليوم، أصبحتُ رجلاً»، أو أيَّ شيء من ذلك الهراء الأمريكيِّ المثير للسخرية، لكنَّ كلَّ ذلك حصل في ذلك اليوم الذي ارتحتُ فيه. لم يعد هناك من محاولة لأن أبدوَ غير متعاون كما كان والدي يقاتل من أجل مساحة ليركن فيها سيَّارته في سوق المزارعين، منفجراً في وجه أرامل بيفرلي هيلز اللاتي كنَّ يصررنَ على حقِّ سيَّاراتهنَّ المغلقة الفاخرة، في الوقوف، من خلال حشر سيَّاراتهنَّ الضخمة في المساحة المشار إليها بلافتة **السيَّارات العائليَّة فقط.** *أنتِ أيَّتُها العاهرة المفرطة في المداواة، إذا لم تُخرجي تلك السيَّارة القديمة اللعينة خارج مساحتي، فأقسم بالله إنَّني سوف ألكمكِ في وجهكِ الذي تعلوه طبقة الكريم، مضادّ الشيخوخة، وعلى نحو دائم سأقلب الخمسمئة سنة من امتياز البِيض، والخمسمئة ألف دولار من الجراحة التجميليَّة.*

يأكلُ الناسُ القذارة التي تجرفها لهم. وأحياناً، عندما أتوقّف، وأنا أمتطي حصاني عند نافذة أحد المطاعم التي تقدّم خدمة البيع وأنت في سيّارتك، أو أنظر دَهِشاً إلى رجال في عربة سقفها متحرّك، من خارج البلدة، يحملقون بعيون غير مصدِّقة ما تراه، ويشيرون بأيديهم إلى راعي بقرٍ زنجيّ على حصان يرعى ماشيته في حقول تملؤها النفايات، وفوقها تسير أسلاك الكهرباء التي تمتدُّ كبرج إيفل بمحاذاة جادّة ويست غرينليف، فإنّني أفكّر في كلّ الهراء الذي كان والدي يحشوه في أسفل حلقي مرّة بعد مرّة حتّى أصبحتْ أحلامه أحلامي. وأحياناً، وبينما أنا أجلخ حديدة المحراث، وأجزُّ صوف الغنم، أشعر وكأنَّ كلّ لحظة في حياتي ليست لي، بل هي إحدى حالات استرجاعه هو للماضي. لا، أنا لا أفتقد والدي، لكنّني نادمٌ فحسب لأنّني لم أمتلك الجرأة لأسأله ما إذا كنت حقّاً قد أضعت مرحلتي الحسيّة الحركيّة، ومرحلة ما قبل العمليّات في حياتي، بيدٍ مربوطة خلف ظهري. أن تبدأ حياتك وأنت في حالة إعاقة. اللعنة على كوني أسودَ. حاول أن تتعلّم الزحف، أو ركوب الدرّاجة، أو غَطّ عينيك كلتيهما وأنت تلعب لعبة الاستخفاء، وابنِ نظريّة لها معنى. كلُّ ذلك بيد واحدة.

٤

الآنَ لن تجدَ ديكنز-كاليفورنيا على الخريطة، لأنّها بعد خمس سنوات من وفاة والدي، وبعد سنة من تخرُّجي في كلّيتي، فَنَت، أيضاً. لم يكن ثمّة توديعٌ صاخبٌ عند المحطّة. لم تودّعنا ديكنز إثرَ ضربة مدوّية مثلما حصل مع ناغازاكي وسودوم وغومورا، ومع أبي. أُزيلَت بهدوء مثل كلّ تلك المدن التي اختفت من خرائط الاتّحاد السوفييتيّ في أثناء الحرب الباردة، حادثٌ ذرّي جرّاء حادثٍ ذرّي. لكنّ اختفاء مدينة ديكنز لم يكن حادثاً، كان جزءاً من مؤامرة سافرة أدارتها المجتمعات المحيطة، مجتمعات الكراجات التي تتّسع لسيّارتين، التي يزداد غناها، وذلك من أجل الحفاظ على قيم ملكيّتها في ارتفاع، وعلى ضغط دمها في هبوط. عندما ضربت طفرة الإسكان، في القسم المبكر من القرن، فإنّ كثيراً من مناطق متوسّطي الدخل المجاورة في مقاطعة لوس أنجلس خضعت لنقل ملكيّة العقارات، وحالاً أصبحت بلاد الطبقة العاملة اللطيفة حافلة بالأثداء المزيّفة، والشهادات الجامعيّة المزيّفة، ومعدّلات الجريمة، وزراعة الأشجار والشعور، وعمليّات شفط الدهون والكولسترول. في السّاعات المبكرة من الليل، وبعد أن اجتمعت مجالس المجتمع، وجمعيّات ملّاك المنازل، وأقطاب البنوك العقاريّة، معاً، وصاغوا أسماء تصفُ أهالي المنطقة غير الموصوفين، فإنّ أحداً ما سيثبّت إشارةً زرقاءَ كزرقة البحر المتوسّط، كبيرة لامعة فوق عمود

الهاتف، وعندما ينقشع الضباب، سيصحو القاطنون في الشقق، الذين أصبحوا فجأةً من الطبقة العليا، ليكتشفوا أنّهم يعيشون في كريست فيو، مرتفعات لاسيينغا، أو في ويسديل، مع أنّه لم يكن ثمّة مظاهر طبوغرافيّة مثل قمم، أو مناظر طبيعيّة، أو مرتفعات، أو وديان يمكن اكتشافها على مدى عشرة أميال. هذه الأيّام، أبناء لوس أنجلس الذين كانوا يرون أنفسهم مقيمين في الجوانب الغربيّة والشرقيّة والجنوبيّة يشنُّون حرباً قانونيّة مطوّلة حول ما إذا كانت أكواخهم الريفيّة السّاحرة، من ذات غرفتَي النوم، موجودة داخل حدود بيفرليوود أو هي متاخمة لبيفرليوود.

خضعت ديكنز لمختلف أنواع التحوُّل. ففي صباحٍ كانت فيه السّماء صافية في المنطقة الوسطى الجنوبيّة، استيقظنا لنجدَ أنَّ المدينةَ لم يُعَد تسميتها، لكنَّ اللافتة التي تقول مرحباً بك في مدينة ديكنز كانت قد اختفت. لم يكن هناك أيُّ إعلانٍ رسميّ، أو مقالة في جريدة، أو حتّى إشارة في أخبار المساء. لم يهتمّ أحد. على نحو ما، ارتاح معظم «الديكنزيّين» كونهم ليسوا من منطقة محدَّدة، فذلك أعفاهم من إحراج جواب «مِن ديكنز» عندما يُسأل أحدُهم في دردشة عابرة «من أين أنت؟»، وتشاهد بعدها ذلك الشخص يتراجع على نحو دفاعيّ مبتعداً عنك قائلاً «أنا آسف لهذا، لا تقتلني!». بعدها، سرت إشاعة أنَّ المقاطعة ألغت دستورنا بسبب الفساد السياسيّ المحلّيّ المنتشر على نحو لا يمكن إنكاره، وأُغلقت مراكز الشرطة والإطفاء، وعندما تتّصل بما يُفترض أنّه مبنى البلديّة ستجيبك مراهقة بذيئة اللسان اسمها ريبيكا، لا، *لا يوجد زنجيٌّ اسمه ديكنز يعيش هنا! لذلك لا تتّصل إلى هنا بعد الآن!* حُلَّ مجلسُ مدرسة المدينة المستقلُّ، ومحرِّكات البحث في شبكة الإنترنت أصبحت تشير فقط إلى «ديكنز، تشارلز جون هوفمان»، وإلى منطقة كثيرة الجفاف في تكساس سُمِّيت على اسم شخص أحمقَ غير محظوظ، ربّما مات، أو ربّما لم يمت في آلامو.

في السنوات التي تلت وفاة والدي، كان أبناءُ المنطقة ينظرون إليّ على أنّني الزنجيُّ الهامس التالي، أتمنّى لو أستطيع القول إنَّ استجابتي لنداء الواجب كانت بعيدة عن الشعور بالفخر العائليّ والاهتمام الجمعيّ، لكنّني كنت أقوم بهذا العمل لأن لا حياة اجتماعيّة لديّ، فالهمسُ الزنجيُّ أخرجني من المنزل بعيداً عن الحصاد والحيوانات، فقابلت أناساً مثيرين للاهتمام، حاولت أن أقنعهم أنّهم مهما كانوا أبطالاً، أو مهما كان لديهم أغاني آر.كيلي، فإنّهم لن يستطيعوا الطيران. عندما كان والدي يقوم بهمسه، لم يكن الأمر يبدو صعباً جدّاً، ولسوء الحظّ لم يباركني بصوته الجهوريّ، صوت طبقة الباص، وكأنّه قادمٌ من سيّارة رفاهية تجاريّة. أمّا أنا فقد كنتُ أصرخ على نحو شديد الاحتشام، وأملك كلَّ جذّيّة الكلام لدى أكثر أعضاء فرقة الأولاد خاصّتي خجلاً، الشابّ النحيف، الذي يتحدّث بنعومة، الشخص الذي تراه في تسجيل الفيديو للموسيقا، يجلس في المقعد الخلفيّ في السيّارات ذات الغطاء القابل للطيّ، ولا يحصل على الفتاة أبداً، أقرب ما يكون إلى العزف المنفرد، لذلك اقتنيتُ مايكرفوناً. هل سبق وهمستَ خلال المايكرفون؟

وإلى أن اختفت المدينة، لم يكن عبءُ العمل شديداً جدّاً، فكنتُ ألعبُ دورَ مفاوض الأزمات بين شهر وآخر، مزارع يقوم بهمس بسيط كعمل جانبيّ. ولكن، مُذ مُحيت ديكنز وجدتُ نفسي في ثوب النوم، مرّة في الأسبوع على الأقلّ، أقفُ عاريَ القدمين في ساحة دار شقّة مزدوجة، والمايكروفون بيدي، أبحلقُ إلى الأعلى في أمٍّ شديدة الاضطراب، بشعرها المكويّ في جزء منه، وهي تدلّي ابنَها من إفريز شرفة الطابق الثاني. عندما كان والدي يقوم بعمله في الهمس، كانت ليالي الجمعة هي الأشدُّ ازدحاماً. في كلّ يوم مأجور يُغمَر بجحافل من الفقراء، ثنائيّي الأقطاب، الذين يقضون يومهم كلّه في مكان واحد، ويكبرون مُتعَبين وغير هانئين بعرض التلفزيون في ساعته الأساسيّة،

العرض القذر على نحو مشهور، هؤلاء يعزلون أنفسهم عن أفراد الأسرة السمينين المرتبطين بالأريكة، بين صناديق منتجات تجميل شركة آفون غير المبيعة، مُطفئين مذياع المطبخ الذي يضخُّ أغنيةً تلو أغنية، مُمجّدين فضائل ليالي الجمعة التي تقضيها خارجاً في النادي تطلب زجاجات شامبانيا وزنوجاً وكرزاً، مُلغياً بعدَها مواعيدَ اليوم التالي بكلِّ ما فيه من ضير العناية الصحيّة بالجسد، وحلّاق التجميل الثرثار الذي، بعد سنين من العمل في تجميل الرؤوس، لا يعرف إلاَّ نوعاً واحداً من قصّات الشعر، المصبوغة والشعر فيها على جنب، سوف يختارون يوم الجمعة ذاك، «يوم فينوس»، إلهة الحبّ، والجمال، والفواتير غير المدفوعة، ليُقدموا على الانتحار، أو القتل، أو كليهما. ولكن، وفاقاً لمشاهداتي، يميل الناس إلى المفاجأة يوم الأربعاء، منتصف الأسبوع، يوم سان جوجو وغريس-غريس، وأكثر الأفكار ضبابيّة كما يُقال. سوف أضغط الزناد، ومع صريخ عالٍ من الآراء الثاقبة للأذن، فإنَّ الميكروفون سوف يطنُّ في سكون الحياة. نصف أفراد القبيلة غير المختارة ينتظرون منّي أن أقولَ الكلماتِ السحريّة وأنقذ اليوم، والنصف الآخر ينتظر أن يطيرَ برنس الحمّام كي تظهر الأثداء المحتقنة بالحليب.

في بعض الأحيان، أفتتح طقوسي ببعض الفكاهة، فأنزع مزقة ورق من مغلّف ورق أسمر، وفي أفضل حالات تقمُّصي لمضيف عرض بعد الظهر المروّج للأخبار المثيرة، أعلن «عندما يتعلّق الأمر بكوبي جوردان كريم ليبرون مايوذر الثالث ذي ثمانية الأشهر، أنا لستُ الأب... لكنّني أتمنّى لو كنتُ مكانه»، وأضيف أنني لا أبدو تماماً كوالد الطفل الحقيقيّ، والأمُّ سوف تضحك، وتُسقط الطفلَ مع حفّاضاته إلى ذراعيَّ المنتظرتين.

لا تمضي الأمور عادةً بهذه البساطة، ففي معظم الأحيان تتردّد أغنية نينا سيمون «ميسيسيبي اللعينة» يائسة في هواء الليل، فيصبح التركيز

صعباً. الكدمات الأرجوانيّة العميقة في الوجه والذراعين. الرداء الوبريُّ يسقط أخيراً على نحو مثير من على الكتفين كاشفاً عن أنَّ هذه المرأة ليست إلاَّ رجلاً، رجلاً بأثداء مستحدثة هرمونيّاً، بشعر عانة حليق، ووركين متناسقين على نحو مفاجئ، وتلويحة التهديد بمفكٌ الحديد للآخَر تحت البلوزة الضخمة وقبعة البيسبول المائلة إلى الجنب. ربّما كان رجلاً، أو مسترجلاً فحسب. لكن، في كلتا الحالتين هو، أو هي، يتقدّم على نحو ممسوس باتجاه سقيفة السيّارات مُهدِّداً بأن يسحقَ جمجمتي إذا ما قلتُ أيَّ كلام خطأ. الطفل الرّضيع ملفوف بالأزرق لأنَّ الأزرق هو لأولاد عصابات كريب[1]، وسيكون إمّا سميناً جدّاً أو نحيفاً جدّاً، يصرخ برئتيه الصغيرتين، بصوت عالٍ حتّى تتمنّى أن تخرسه، أو يكون أسوأ من ذلك، هادئاً جدّاً إلى درجة أنّك في ظلِّ هذه الظروف تعتقد أنّه لا بدّ ميت بطبيعة الحال. وعلى نحو دائم، ينسلُّ صوت نينا سيمون في خلفيّة الأحداث مع تلاطم الستائر كالأمواج من خلال الأبواب الزجاجيّة المنزلقة والمفتوحة. أولاء، هنَّ النساء اللاتي حذّرني والدي منهنّ، النساء المدمنات على المخدّرات، اللاتي يجلسنَ في الظلام، مفلسات وملتاعات، يدخنَّ السيجارة وراء الأخرى، والهواتف مضغوطة على آذانهنّ، وجاهزة للطلب السريع لإذاعة كي إيرث ١٠١ إف إم، محطّة الأغاني القديمة، وبذلك يستطعنَ طلبَ أغاني نينا سيمون أو أغنية فرقة شريلز «هذا مكرّس للشخص الذي أحبُّه»، والمعروفة أيضاً تحت اسم «هذا مكرّس للزنوج الذين يضربونني بغباء ثمَّ يرحلون». «ابقَ بعيداً عن العاهرات اللاتي يعشقنَ نينا سيمون، ولديهنَّ ميولٌ شاذّةٌ تجاه صديقاتهنَّ المقرّبات»، كان أبي يقول، ويكمل «إنّهنَّ يكرهنَ الرجال».

(١) اسم لعصابة من عصابات لوس أنجلس، سيرد ذكرها دائماً في الرواية مع أسماء عصابات أخرى مثل بلادز وغيرها. (م)

وهَو يتأرجح، رسم الطفل الرضيع بكعبَي قدميه الصغيرتين، دوائرَ طواحين هواء في الجوّ، ضخمة على شكل قطع مكافِئ، كرمية بيسبول سريعة. وأنا أقفُ هناك تعلو وجهي تعابير بلهاء لا معنى لها. زنجيٌّ هامسٌ بلا أسرار أو أشياء حلوة يهمس بها. يهمس الجمهور بأنّني لا أعرف ماذا أفعل، وأنا فعلاً لا أعرف.

«أنت لا تتوقّف عن إضاعة الوقت، ستتسبّب في مَكتل الطفل».

«تقصد مقتل».

«أيّاً كان أيُها الزنجيُّ، قل شيئاً فحسب».

يعتقدون، جميعهم، أنّني، بعد وفاة والدي، ذهبتُ إلى الكليّة وتخصّصتُ في علم النفس، وأنّني عدتُ كي أكملَ عمله الجيّد. لكن، لم يكن لديَّ اهتمامٌ بنظريّة علم التحليل النفسيّ، ولطخات الحبر، والظرف الإنسانيّ، وإعادة شيء ما إلى المجتمع. ذهبتُ إلى جامعة كاليفورنيا في رفرسايد لأنّه كان لديها قسمُ دراساتٍ زراعيّة محترم، وتخصّصت في علوم الحيوان مع أحلام بتحويل أرض أبي إلى مَفرَخَة، حيث يمكنني بيع النعام لكلّ فنّاني الراب في بدايات الثمانينيّات، بسلسلة أغانيهم المذاعة، الجولة الأولى من بثّ الأغاني هي مسوّدة الخيارات، وصانعو الأفلام عالية الميزانيّة، متلهّفون لاستثمار المال، الذين بعد أن يطيروا في رحلة الدرجة الأولى لأوّل مرّة في حياتهم، ويضعون الصفحات مطويّة الزوايا عند صفحات القسم الماليّ للمجلّة، التي توزّع داخل الطيّارة، في أحضانهم، ويقولون لأنفسهم «اللعنة، لحم النعام بالتأكيد هو المستقبل!» يبدو وكأنّه أمرٌ لا يحتاج إلى تفكير. شريحة لحم النعام المغذّية، التي صدّقت عليها إدارةُ الغذاء والدواء، تُباع بعشرين دولاراً للرطل، الرّيش بخمسة دولارات لكلّ نعامة، وتصل قيمة الجلد

البنّيّ المجعّد إلى مئة دولارٍ لكلّ نعامة. لكنّ المالَ سيكون إلى جانبي في بيع المربّين للزنوج محدثي النعمة، وذلك لأنَّ الطائرَ -في المتوسّط- ينتجُ نحو ٤٠ رطلاً من اللحم الصالح للأكل، ولأنَّ أوسكار وايلد ميت، ولا أحد يعتمر قبّعاتٍ من ريش الطيور بعد الآن، إلاّ الرجال الذين يتغاوون في ملابس النساء بعد أن تجاوزوا الأربعين من العمر، وعازفو بوق التوبا البافاريّون، المتمثّلون بشخصيّة ماركو غرافي، والحسناوات اللاتي يُراهنّ في ديربي كينتاكي وهنّ يرتشفنَ شراب الجلاّب مع النعناع، اللاتي لن يصدّقنَ السُّود، حتّى لو كنتَ تبيعهنّ سرّ البشرة الخالية من التجاعيد، ولا تهرم، وفوقها قضيب بتسعة إنشات. كنتُ أعرفُ تماماً أنّه من المستحيل تربية هذه الطيور، ولم أملك رأسمالاً للبدء. لكن، دعوني أقُلْ إنَّ برنامجَ الزراعة الصغيرة في كليّة رفرسايد-جامعة كاليفورنيا في سنتي الجامعيّة الثالثة، كان يفتقد بضعة أبحاث عن الحيوانات التي تسير على قدمين، لأنّه، وكما يقول تاجر المخدّرات، «إذا لم تفعلها، فإنَّ غيركَ سيفعلها»، وصدّقوني عندما أخبركم ذلك، حتّى هذا اليوم إنَّ عشّ بيض الطيور المتصدّع والمهجور، هو ضربة نجاح بالنسبة لمفلس في سان غابرييل ماونتينز.

«لا أعرف ماذا أقول».

«ألم تتخصّص في علم النفس كما فعل أبوك؟».

«كلُّ معرفتي، معلومات قليلة عن تدجين الحيوانات».

«اللعنة، زواجك من هذه الحيوانات هو الذي جعل الأمر يسوء بالنسبة لتلك العاهرات، لذلك من الأفضل لك أن تقولَ شيئاً لهذه العِجلة».

في الاختصاص، درستُ علوم المحاصيل الزراعيّة وإدارتها، لأنَّ

البروفيسور فيرلي، مدرّستي في مادّة «مقدّمة إلى هندسة الزراعة»، قالت إنّني مزارعٌ بطبيعتي. وبذلك، يمكن أن أكونَ جورج واشنطن كارفر[1] التالي إذا أردتُ ذلك. كلّ ما كنتُ أحتاج أن أفعله هو أن أشغَلَ نفسي وأجدَ نظيرَ الفستق خاصّتي، بوُقُولِيَ الخاصّة. قالت ضاحكةً، واضعةً بذرة فول خضراء في راحة يدي، ولكنْ أيّ شخص كان قد ذهب إلى تيتوز تاكوس وتذوّق ملءَ كوب من الفول المكسيكيّ المجفّف المدهّن والكريميّ المغطّى بطبقة نصف إنش من جبنة شيدار الذائبة، كان ليعرف أنّ الفولَ بطبيعة الحال وصل إلى كماله الجينيّ. أتذكّر وأتساءل: لماذا جورج واشنطن كارفر؟ لماذا لا يمكن أن أكونَ غريغور ماندل[2] التالي؟ أو التالي لأيّ شخص كان قد اخترع تقنيّة زراعة البراعم الحديثة، ومع ذلك هل يتذكّر أحد الكابتن كانغارو، التالي للسيّد غرين جينز؟ لذلك، قرّرتُ أن أتخصّص في حياة النبات التي كانت ذات أهميّة ثقافيّة بالنسبة لي: البطّيخ والحشيش، في أفضل الأحوال أن أعيشَ من الزراعة، إلاّ في ثلاث أو أربع مرّات في السنة، أشدُّ فيها الفرسَ إلى العربة، وأمشي متمهّلاً في ديكنز، أبيع سِلعي، وأغنية «ووتر ميلون مان» لفرقة مونغو سانتا ماريو تصدح مباشرةً من المسجّلة. هذه الأغنية، وهي تطرق المسافات البعيدة، عُرف عنها أنّها توقف استراحة دوري ألعاب كرة السلّة الصيفيّ، وتوقف مزحة الأولاد الذين يرنّون جرس بابك ويهربون، وتنهي مبكراً الماراثون الهولنديّ الثنائيّ، وتجبر النساءَ والأطفالَ أن

(١) عالم زراعة أمريكيّ (١٨٦٤-١٩٤٣)، طوّر أنواع هجينة من البقوليّات وفول الصويا والبطاطا الحلوة. (م)

(٢) أبو علم الوراثة، عالم نمساوي (١٨٢٢-١٨٨٤)، وجاءت المقارنة مع كارفر، لأنّ ماندل هو الأعظم، والأوّل في علم وراثة النبات. (م)

ينتظروا عند تقاطع كامبتون وفايرستون آخرَ رحلة لحافلة نهاية الأسبوع إلى سجن مقاطعة لوس أنجلس من أجل اتّخاذ قرارات صعبة.

مع أنّه ليس من الصعب تربيته، وكنتُ أبيعُه للناس لسنوات، فإنّ الناس مازالوا يُجنُّون عندَ رؤيتهم البطِّيخ المربّع، ومثلَ ذلك الرئيسِ الأسود، أنت، ربّما تعتقد أنّه وبعد فترتين من النظر إلى رجل يلبس بذلة يناقش حال الأمّة، أنّكَ ستعتاد البطيخ المربّع، ولكنّك على نحو ما لا تفعل ذلك أبداً. الأشكال الهرميّة رائجة البيع أيضاً، وقبل عيد الفصح مباشرة أبيع بطِّيخاً على شكل أرنب العيد، وهو شكل غيَّرتُه أنا ورائيّاً، فإذا دقَّقتَ النظر فإنّه يمكنك تهجئة *ليحفَظْنا* يَسوع مرسومة على خطوط البطِّيخ. وتلك البطِّيخات لا تبقى في العربة، لكنَّ مذاقها هو الذي يجعلك تعود إليها. فكِّر في أطيب بطِّيخ كنتَ تذوَّقته في حياتك. والآن، أضف مقداراً من اليانسون والسكَّر البنيّ. بذور تقاوم أن تبصقها لأنّها تبرِّد فمك مثل البقايا الحلوة الأخيرة لمكعَّب ثلج مغطّى بالكولا، ذائب على رأس لسانك. لم يسبق لي أن شاهدت هذا المشهد، لكنّهم يقولون إنّهم كانوا يأكلون من بطِّيخي ويُغمَى عليهم مباشرةً. وعناصر الإسعاف الذين انتهوا للتوّ من عمليّات إنقاذ تمَّ فيها إنعاش زبائن كادوا يغرقون في بركة ماء زرقاء ارتفاعها ستة إنشات في الفناء الخلفيّ، لا يسألون أبداً عن ضربة الشمس أو عن التاريخ المرَضيّ بأمراض القلب للأسرة. وجوههم مغطّاة بآثار حمراء لزجة نتيجة رحيق عمليّة الإنعاش عن طريق الفم، وخدودهم معبَّأة بكَلَف بذور سوداء، وهم يتوقَّفون عن لعق شفاههم بما يكفي ليسألوا: «من أين جئتَ بهذا البطِّيخ؟». أحياناً، عندما أكون في منطقة غير مألوفة لي، أبحث عن نعجة شاردة في الجانب اللاتينيّ من جادّة هاريس، توقفني مجموعة من الأولاد الصغار خرجوا للتوّ من مدرستهم اللاتينيّة، ورؤوسهم حليقة الشعر حديثاً، تلمع تحت

أشعّة الشمس، فيهزّون كتفي، ويقولون مع انحناءة تبجيل[1] Por la sandía... gracias.

لكن حتّى في شمس كاليفورنيا، لا يمكنك زراعة البطّيخ طوال العام، فليالي الشتاء أبرد ممّا يظنُّ الناس، وعشرون رطلاً من البطيخ تحتاج عمراً كي تنضج، وهي تمتصُّ النترات من التربة وكأنّها كوكائين الصوديوم. إذاً، الماريهوانا هي دعمي الأساسيُّ، فأنا نادراً ما أبيعها مباشرة، فالحشيشة ليست محصولاً يُباع نقداً، لكنّه أقرب إلى مال الغاز. بالإضافة إلى ذلك، لا أريد لأولاد العاهرات أن يجروا فوق حقلي في منتصف الليل. أحياناً، وأنا أربّتُ بيدي على بِطّيخة وزنها ثمانية باوندات، أُفاجَأ بزنجيٍّ يتمدّد فوق مرجي، مغطىً بالأوساخ والعشب، يضحك على نحو هستيريٍّ، وقدماه متشابكتان مع إطار درّاجة هوائيّة كان قد نسيَ كيف يقودها، ويحتفظ -بكلِّ فخر-بسيجارة الحشيش التي لم يسقطها أبداً، ويسألني: «ماذا يُدعى هذا الهراء؟».

«تُدعى أتاكسيا»، سأجيبه.

في ساحة رقص الاحتفال، في البيت، توقّفتْ لا غيغل، التي أعرفها منذ السنة الدراسيّة الثانية، أخيراً عن التحديق باستمرار في مرآتها الصغيرة، في وجه تحبُّه لكنّهالم تعد تدركه تماماً. استدارت نحوي وسألتْ ثلاثة أسئلة... مَن أنا؟ ومَن هو هذا الزنجيُّ الذي يلصق لسانه في أذني ويحكُّ مؤخّرتي؟ وما هذا الشيء اللعين الذي أدخّنه؟ والأجوبة عن أسئلتها هي: بريدجيت سانشيز «لا غيغلز»، زوجك، وهذا حشيش اسمه بروستوباغنوسيا[2]. أحياناً يتساءل الناس مستغربين لماذا أنا أملك دائماً أرفع أنواع الماريهوانا. لكنّنا يمكن أن نخفّفَ من أيِّ فضول شكّاك بِهزِّ

---

(١) بالإسبانيّة بالأصل: بسبَبِ البطّيخ... شكراً لك. (م)

(٢) دائماً للحشيش أسماء مختلفة عند الراوي، ولكلّ اسم معنى، وهنا كلمة=

الكتفين وقول شيء مسلٍ مثل «حسناً، إنّي أعرف بعض الأولاد البيض...».

أسحبُ نفَساً من سيجارة الماريهوانا، وأزفره. مذاقُ الحشيشة ذات الرّائحة السيِّئة هو دائماً طيِّبٌ، وغيمةُ الدخان الرطبة بخيوطها الناعمة ورائحتها مثل رائحة المدِّ الأحمر عند شاطئ هانتينغتون، والسّمك الميت، والنوارس المشويَّة بحرارة الشمس، سوف تجعل أيَّ امرأةٍ تتوقَّف عن تدوير طفلها. أعرض عليها لفّةَ حشيش، من الجانب الرَّطب، فتومئ برأسها. إنّها كراهية الإنكليز، نزعة للتوّ طوّرتها، لكن لا ينبغي أن تعرف هي بذلك. فأيّ شيءٍ يسمح لي بالاقتراب منها هو أمرٌ جيِّدٌ. أتقدَّم بهدوء، وأتسلَّق العريشة المغطّاة بالعاج، أو أتوقَّف عند كتفين زنجيَّتين كبيرتين، وأضع نفسي في متناول الذراعين، وبذلك أستطيع لمسها. أتلمَّسها بالتقنيَّات نفسها التي استخدمُها مع فرس أصيلة في المدرسة بعد يوم عملٍ ودراسةٍ في ترويض الخيل وجعلها تعدو في الحقول. أفركُ أذنيها، أنفخُ في منخريها، أدلِّكُ مفاصلها، أمشِّط شعرها، أمرِّر رائحة الماريهوانا بين شفتيها المزمومتين والمعوزتين. عندما تعطيني الولدَ أهبط السلالم نحو تصفيق الحشد المنتظر، أودُّ أن أفكِّرَ بأنَّ غريغور ماندل، وجورج واشنطن كارفر، وحتّى والدي، سيكونون كلّهم فخورين. وأحياناً، وبينما هم مقيَّدون إلى عربة المستشفى، أو تواسيهم إحدى الجدَّات الذَّاهلات، سوف أسألهم «لماذا يوم الأربعاء؟».

=بروستوباغنوسيا prostopagnosia تعني أذى عقليّاً يؤدي إلى عدم تمييز الوجوه أو الناس المقرَّبين. والكلمة السابقة أتاكسيا ataxia تعني عدم القدرة على التحكم بحركات الجسم. (م)

٥

ضربَ تلاشي ديكنز بعض الأهلين أكثر من غيرهم، لكنَّ المواطنَ الذي احتاج خدماتي أكثر من غيره كان الرجل العجوز هوميني جينكينز. عانى هوميني بعض الاضطراب العقليّ، لكنَّ والدي لم يعالجه قطُّ. ولا أعتقد أنّه ربّما ظنَّ أنَّ فقدانه ما تبقّى من شعر أبيض في ماضي العمّ تومز سيكون خسارةً عظيمةً بالنسبة لأهل الحيّ. لذلك، كان الأمر عائداً إليّ في «أن أقوم بخطوتي تجاه هذا الزنجيّ الأحمق»، وأخمّنُ أنَّ هوميني كان، بمعنىً من المعاني، تجربتي الأولى في الهمس الزنجيّ. لا أستطيع أن أحسبَ كم من مرّة وجب عليّ أن ألفّه ببطانيّة لأنّه كان يحاول الانتحارَ بأن يدفعَ أحدَ رجال عصابات الزنوج ليطلقَ عليه النارَ، وذلك بأن يرتديَ الأحمرَ في الأحياء الزرقاء، أو الأزرقَ في الأخرى الحمراء، أو يصرخ في الأحياء السمراء[1] «¡yo soy el gran pinche mayate! ¡Julio César Chávez es un puto!». كان يتسلّق أشجارَ النخيل، ويقرأ أسطراً من قصّة طرزان على المحلّيين «أنا طرزان، وأنتم شانيكوا!». وعندها، كان ينبغي عليّ أن أترجّى كلّ امرأةٍ في الحيّ كي تخفضَ سلاحَها، وأن تهدّئ من روع هوميني من خلال عقد زائفٍ مع أحد استوديوهات السينما المقفلة منذ زمن بعيد، مع بعض مكافآتِ الغِناء مُذخّرةً ببيرة

(١) بالاسبانيّة بالأصل: «أنا أسودٌ سيّئ! وخوليو سيزار شافيز لعين!». (م)

ولوز مَدخّن. في أحد أعياد الهالوين، انتزع أسلاكَ جرس الباب من حائط غرفة معيشته ووصلها إلى خصيتَيه، وعندما عمد الأطفالُ المبتهجون بالعيد إلى رنّ جرس باب منزله، فإنّهم بدلاً من أن يحصلوا على الحلوى والصورة التذكاريّة، حصلوا على صرخات مدوّية استمرّت حتّى نجحتُ في الوصول، مقاتلاً بين الحشد الساديّ للعرّابات الجنيّات والأبطال الخارقين، وأبعدتُ إصبع الفتاة، المتشبّهة بشخصيّة هالك الأخضر، ذات السنوات الثمان، عن جرس الباب بحيث تسنّى لي الوقت لأقنعَ هوميني بأن يرفعَ بنطاله ويرخي ستائر النافذة.

وبما أنّها عاصمة جرائم القتل في العالم، فإنّ ديكنز، أبداً، لم تتميّز بتجارة سياحيّة. لكن، في بعض الأحيان، تقف مجموعة من طلّاب إحدى الكليّات، الذين يقومون برحلة سياحيّة في لوس أنجلس لأوّل مرّة، عند التقاطع المزدحم، لزمن طويل بما يكفي لتصوير فيديو مهتزّ، مدّته عشرون ثانيةً، بكاميرا يدويّة، وهم يقفزون إلى الأعلى وإلى الأسفل، ويزعقون صارخين مثل رعاع مجانين «اقتلونا، فنحن في ديكنز، كاليفورنيا. ماذا تعرفون عن ذلك أيُّها الحمقى؟»، وينشرون لقطات عن رحلتهم السافاري المحلّيّة على الإنترنت. ولكن، عندما أُزيلت كلُّ اللافتات المكتوب عليها **مرحباً بك في ديكنز**، لم يعد هناك حَجَر بلارني لتقبّله، ومختلسو النظر المدنيُّون توقّفوا عن القدوم. أحياناً، كان يزور ديكنز متفرّجون حقيقيُّون، معظمهم معمّرون ومتقاعدون، كانوا يجوبون الشوارع بسيّارات المعيشة خاصّتهم، ذوات رخص التحرّك خارج الولاية، وهم يبحثون عن الرابط الأخير لهم مع شبابهم. تلك الأيّام الذهبيّة، عندما كان السياسيُّون في حملاتهم يعِدوننا دائماً بأن يُعيدوننا إلى أمريكا التي كانت قويّة، ومحترمَة، وأرضَ الأخلاق والفضيلة والغاز الرخيص. كان سؤالك لأحد المحلّيّين «عذراً، هل تعرف أين أجد هوميني؟» مثل سؤال أيّ مُغنٍّ متبطّل تافه، إن كان يعرف الطريقَ إلى سان خوسيه.

وهوميني جينكينز هو آخر عضو حيٍّ في مسلسل «الأوغاد الصغار»[1]، الجماعة المتهوّرة من أولاد الشوارع الذين بقَوا، من أيّام صخب العشرينيّات، وحتّى فترة سياسة ريغان الاقتصاديّة في الثمانينيّات، أولاداً يلعبون دور رجال الشرطة، حمقى، ولهم كروش، هاربين من المدارس سبعة أيّام في الأسبوع، ومرّتين أيّام الأحد، في عرض فيديو ما بعد الظهر، وعروض ما بعد الدراسة التلفزيونيّة في كلّ العالم. ٣٥٠ دولاراً كان أوّلَ أجرٍ أسبوعيٍّ محترَم وقَّعتْ عليه استوديوهات هال روش مع هوميني، في منتصف الثلاثينيّات، ليكون البديل الجاهز لتوماس باكويت. صرف هوميني شيكه الأوّل، وبدأ معه رحلة عمله بلعب أدوار ثانويّة: الأخ الصغير الصامت الذي يجب أن يُعتنَى به، في الوقت الذي تكون فيه الأمُّ في الخارج تزور البابا في السجن، الطفل الملوّن الجالس على مؤخّرة بغل هارب. كان يقوم بدور قارئ الملاحظات القصيرة للإعلانات الموسميّة غير المهمّة، من خلف بناء المدرسة. مقدّماً الأطفال الرضّع المتكلّمين، الرجال المتوحّشين من بورنو، ومقاطع غناء فقاعات صابون ألفالفا الفرديّة مع تدوير مبالغ فيه لمقلتَي عينَيه، وعلامته التجاريّة، مهللاً بالفرحة. عدم استخدام القدرات الحقيقيّة للونه الأسود الملوّث بالسخام، جعل الأمر مقدوراً عليه، مع معرفته أنّه ذات يوم وسريعاً سيتقدّم خطوةً ليصبح حذاءَ جنّي مجعّدِ أصابع القدم، كبير القياس، للأطفال الزنوج الذين سبقوه. آخذاً مكانه الصحيح في هيكل الآلهة الحكيمة لفارينا وستيمي وباكويت، وناقلاً ميراثَ التمييز العنصريّ للصعاليك بقبّعاتهم المستديرة إلى خمسينيّات القرن العشرين. لكنَّ حقبة الدمية السّوداء الإنسانيّة، وعرضَ البكرة الواحدة في السينما، كان قد

(١) سلسلة أفلام قصيرة كوميديّة (١٩٢٢-١٩٤٤) أخرجها عدّة مخرجين، وهي من إنتاج هال روش، اشتهرت كذلك باسم «عصابتنا»، وتروي مغامرات مجموعة أطفال. (م)

ذوى قبل أن يحينَ دور هوميني، فهوليود كان لديها كلُّ السَّوادِ الذي تحتاجه في نِصف البياض الموجود عند هاري بيلافونتي وسيدني بواتييه، وفي الزنوجة المفرّخة لجيمس دين، وفي استدارة خلفيّة مارلين مونرو العريضة والمتحدِّية للجاذبيّة، والجاهزة للجنس كما هي فينوس.

عندما وجدوا منزله، كان هوميني يحيّي أنصاره بابتسامة بوليدينت العريضة، وإشارةِ النجاح بأصابعه المهتزّة، والمصابة بالالتهاب. يدعوهم إلى شراب خليط الفواكه، وإذا كانوا محظوظين، إلى شرائح من البطّيخ خاصّتي. أشكُّ في أنّه أخبر قاعدة المعجبين به، المعمّرين، بالقصص نفسها التي شاركَنا إيّاها.

من الصعب أن أخبرَ كيف بدأت علاقة الحبّ بيني وبين ماربيسا ديليسيا داوسون. هي أكبر منّي بثلاث سنوات، وكنتُ أعرفها طوال عمري، فقد كانت تقيم في المزارع كلّ حياتها، وأمُّها تدير مزرعة التدريب على الفروسيّة، ومدرسة البولو طوال الأربع والعشرين ساعةً في فناء بيتهم الخلفيّ. كانوا ينادونني كلّما نقصهم حصانٌ للقفز، أو من أجل أن أسدَّ مكانَ شخصٍ رابع في لعبة البولو. لم أكن جيّداً في أيٍّ منهما، لأنَّ الخيولَ من سلالة «أبالوزا» لا تتميَّز بالقفز الجيِّد، كما أنَّ استخدام اليد اليسرى في البولو كان ممنوعاً. في سنٍّ أصغر، كنّا، أنا وماربيسا وبقيّة الأولاد في الحيّ، نمرُّ إلى منزل هوميني بعد المدرسة، فما الذي يمكن أن يكون ألطف من مشاهدة *الأوغاد الصغار* مع وغد صغير؟ في تلك الأيّام، كان جهاز التحكُّم عن بُعد للتلفاز هو صرخة والدك «شون! دون! مارك! أحدٌ منكم، يا أبناء العاهرات، لينزل إلى الأسفل هنا ويغيّر هذه القناة الملعونة»، وكان البحث عن أفضل صورة لمحطّات تتطلّب توليفاً عالي الدقّة، مثل المحطّة ٥٢ أو محطّة تلفزيون كي بي إس كورونا، لوس أنجلس، على هوائي أذنَي الأرنب التقليديِّ المهترئ الأبيض والأسود المتحرّك بكلّ طقّاته، يتطلّب لمسةَ جرّاحٍ للأوعية

الدمويّة. كان الأمر يستغرق مدى الحياة من أجل أن تتدبّر بالحيلة مجموعة من الكمّاشات الرصاصيّة من أجل الإمساك بعقدٍ معدنيّة قصيرة وغليظة، باحثاً عن الزوايا التي يمكن أن تنتج القطعة الصغيرة من طوق تغيير القناة، أو الاحتفاظ بالبعدين الأفقيّ والعموديّ. ولكن، عندما تظهر شارة بداية المسلسل مترافقة مع الدندنة الثملة للأبواق في أغنية فيلم *عصابتنا* على الشاشة، كنّا نستقرُّ حول هوميني ذي الشعر الرماديّ، وحول وشائع المدفأة، مثل عبيد أطفال متجمّعين حول العمّ ريموس وناره.

«أخبرنا قصّة أخرى أيُّها العمُّ ريموس، نقصد هوميني».

«ألا أخبركم دائماً عن ذلك الزمن عندما ضاجعتُ دارلا في موقع تصوير حلقة «نادي كارهِ النساء والرجال»، في أثناء حفل لمّ الشمل العشرين؟»

لم أدرك الأمر في ذلك الوقت، لكنَّ هوميني كان مثل أيِّ طفل نجم لا يزال يقف في شفق مصباح «كليفل» لمهنةٍ فقدت بريقها منذ عهد بعيد، كان مجنوناً تماماً، وكنّا نظنُّ أنّه مضحكٌ وهو يحاول مضاجعة التلفاز مع كلِّ لقطةٍ تظهر فيها دارلا وهي تعرض سروالها الداخليَّ المخرّم. «في الحياة الواقعيّة لم يكن فَرج هذه الفتاة نحيلاً كما هو في الأفلام»، ضارباً حوضه بعنف في الشاشة، صارخاً «هذا من أجل ألفالفا، وميكي، وبوركي، وتشابي، وفروغي، وباتش، ووالي تلك العاهرة المتكبّرة، وبقيّة العصابة!» وقاطعاً نداءَ خصيتيه المتورّمتين جرّاء ضغط عنيف متزايد. لا حاجة للقول إنّه كان ثمّة غضب عند هوميني ناتج عن عدم كونه مشهوراً، كما يظنُّ أنّه ينبغي أن يكون.

عندما لم يكن يستغرق في ذكريات غزواته الجنسيّة، كان هوميني يحبُّ أن يتفاخرَ بأنّه يجيد أربع لغات، لأنّهم كانوا يصوّرون كلَّ مشهد

أربع مرّات، مرّة بالإنكليزيّة، ومرّة بالفرنسيّة، ومرّة بالإسبانيّة، ومرّة بالألمانيّة. في المرّة الأولى التي أخبرنا فيها عن هذا الأمر، ضحكنا عليه في وجهه، لأنّ كلّ ما فعله معلّمه الخاصّ، باكويت، كان أن ابتسم ابتسامته الناعمة بأسنانه المتباعدة وقال «حَسَناً، بانكي» بطريقة طفل زنجيّ بفم عاجيّ، كما أنّ «حسناً، سبانكي» هي «حسناً، سبانكي» في أيّ لغة لعينة.

في إحدى المرّات، كانت تُعرض على التلفاز واحدة من أفضل حلقات المسلسل بالنسبة لي، وهي حلقة «ماش والحليب»، ومن أجل أن يؤكّد تفاخره، أخفض هوميني صوتَ التلفاز تماماً عند مشهد اجتماع العصابة حول طاولة طعام الإفطار في مدرسة بليك هيل الداخليّة، حيث كان الشرطيُّ العجوز اللطيف ينتظر في مثواه الخلفيّ. والأمُّ في المدرسة الداخليّة، متجعّدة البشرة وسريعة الاهتياج ككلب من نوع شاربي، تبصق وتهسهس على الأطفال الذين كان أحدهم، وبعد أن تعب من الأعمال الروتينيّة الصباحيّة، يهمس في أذن ولد صغير آخرَ كلاماً لا نحتاج إلى سماعه، لأنّنا سمعناه مليون مرّة.

«لا تشرب الحليب»، قلنا بصوت عال.

«لماذا؟»، قال الولد ذو الشّعر الكتّاني.

«إنّه فاسد»، همسنا في انسجام مع المشهد.

لا تشرب الحليب. ارفضه. وهوميني فعل ذلك، مُدبلِجاً تحذيرَ كلّ وغد من الأوغاد الصغار بعدّة لغات.

"No bebas la leche. ¿Porqué? Está mala."

"Ne bois pas le lait. Pourquoi? C'est gate."

"Trink die Milch nicht! Warum? Die ist schlecht."

لا تشرب الحليب. لماذا؟ إنّه فاسد[1].

كان الحليبُ فاسداً لأنّه، في الحقيقة، كان جِصّاً باريسيّاً مسيَّلاً لم يتماسك بعد، ليتكشَّف للمشاهدين ذلك داخل المشهد الكوميديّ. ونجوميّة الطفل أفسدت هوميني. في بعض الأحيان، وبعد تعديل مفاجئ من أجل تصويب سياسيّ، كان يضرب بقدمه ويعبس «أنا كنتُ في المشهد! لقد حذفوني! سبانكي يجد مصباح علاء الدين، يفركه ويقول «أتمنّى لو كان هوميني قرداً، أتمنّى لو كان هوميني قرداً!» انظروا وتفحّصوا، أنا قِرد لعين».

«قِرد؟»

«قِرد مُقلنَس، لأكون دقيقاً. ومنهجي في تمثيل دور القرد ضَرَبَ تجارة حشيش الشوارع. يا حبيبي! وأنا أمرُّ عند رجل يبيع المشروبات الخفيفة يقضي وقتاً مع سيّدته الهرمة، يغمض عينيه، وينحني من أجل بعض الحبّ، فتراني هي، تنقسم بيننا، وتطبع تلك الحمقاء قبلةً رطبة على شفتيَّ القِردِيَّتين، كان هذا يجعلهم يتدحرجون في الممرّات. «رجل في مصباح» أطول مساحة تمثيل لي في مشهد. قاتلتُ كلَّ قوى الشرطة اللعينة، وفي نهاية المشهد أنا وسبانكي أكلنا طعاماً قذراً، وركضنا عبر كامل البلدة اللعينة، ودعوني أخبركم أنَّ سبانكي كان، دون أيِّ شكٍّ، ألطفَ ولدٍ أبيض لعين، يا لبهجة تلك المشاهد».

كان من الصعب تحديد ما إذا كان قد تحوّل فعلاً إلى قرد حقيقيّ، أو أنَّ استوديوهات هال روش، غير المعروفة بمؤثّراتها الخاصّة الباهظة، قد فتحت للتوّ كتاب الطبخ الخالد للقوالب الكلاسيكيّة الأمريكيّة، وتحوّلتْ إلى وصفة الخطوة الواحدة، من وصفات خِداع الزنوج: ١-

(١) بالأصل وردت بالترتيب، بالإسبانيّة والفرنسيّة والألمانيّة والإنكليزيّة. (م)

أضف ذيلاً فحسب. أياً كانت الحالة، إذا جمعنا قصاصات الشريط السينمائيّ التي تظهر فيها العنصريّة في التمثيليّات الهزليّة، الخاضعة للرقابة، على أرض غرفة المونتاج، فسيتّضح أنَّ هوميني لم يكن سوى بهلوان زنجيّ في مسلسل *الأوغاد الصغار*. عمله السينمائيّ كان اختصاراً وافياً للمغامرات غير المرئيّة، حيث غرقَ في كلّ تلك الأشياء البيضاء: البيض المقليّ من جانب واحد، الرسم، كتل زلابيّات الطحين. مُقَلُ العيون المنتفخة من الخوف، ومن فرط إفراز الدرقيّة، وأحياناً رؤيةُ شبح في منزل مهجور، أو جماعةٍ من السُود للتوّ تعمَّدوا من روح الشبح، يرتِّلون ويمشون وهم نيام في الغابة المحليّة، كثيفة الأشجار، أو قميصِ نوم أبيض ينتفخ على نحو مخيف على حبل الغسيل مثل شبحٍ جالبٍ للنحس تكاد تُنفَخ فيه الحياة. كلُّ ذلك زرع الرعب في قلب هوميني، وحوَّله إلى أمهقَ أبيضَ، وفجَّر أفريقيَّته إلى حصص من الخوف الممتدّ الفظيع، وأرسله راكضاً بسرعة إلى داخل سبخة أشجار خلال سياج خشبيٍّ أو نافذةٍ بزجاج سميك. كان معذَّباً لافتقاره البراعة، ولأنَّ الله كان دائماً يلاحقه بأفعاله التي كانت مثل لسعات برق لم تتوانَ يوماً عن لسع مؤخِّرته التي غطَّاها ببنطال ذي حمَّالتين.

في حلقة «بصراحة، يا بين فرانكلين»، وبعد أن مضغ الكلبُ بيتي الأنموذجَ الأوّليَّ للطيَّارة، مَن غير هوميني سيتطوَّع ليكون طيَّارة الورق الخاصَّة بسبانكي ذي النظارتين؟ كنسرٍ مخيطٍ يفرد جناحيه على عَلم بيتسي روس الضخم، لا يلبس شيئاً سوى بنطال خدم بالٍ، وقبَّعة ثلاثيَّة الزوايا يخرج من تاجها قضيب معدنيٌّ، وملصَق معلَّق إلى رقبته مكتوب عليه بحبر سائل: هذه هي الأوقات التي تُختبَر فيها أرواح الرجال-ناثان هيل. ارتفع هوميني عالياً في السماء، سنجاب أسود يبحر عبر المطر اللاسع والرياحِ الهوجاء، وسيلِ صواعق البرق. كان هناك صوت رعد، تبعته غيمة الشرارات، وسبانكي يجرِّب المفتاح الهيكليَّ المكهرَب اللامع

المعلَّق بخيط طيَّارة الورق. كاد يقول «وجدتها» قبل أن يُقاطع على نحو خشن من فوق، حيث التصق هوميني بأغصان الشجرة، كركام رماديّ محترق، والدخان يتصاعد من كلّ فتحة فيه، وعيناه وأسنانه امتلأت بالفوسفور إلى الأبد، وهو يلقي أطول حوار في حياته المهنيَّة «يا للفرحة! لقد اكتئفتُ التهرباءَ حقّاً».

مع تقُّدم الزمن، ودخول تلفزيون الكيبل، وألعاب الفيديو المنزليَّة، وصَدْرِ ميلاني برايس اللافت للنظر عندما كانت في الصفّ الثامن، الذي كانت تحبُ أن تكشفه وهي تقوم بخلع ثيابها عند نافذة غرفة النوم في الوقت نفسه الذي يُبَثُّ فيه *الأوغاد الصغار*، توقَّف أفراد العصابة، واحداً تلو الآخر، عن زيارة هوميني بعد المدرسة، حتَّى بقينا أنا وماربيسا آخر المغادرين. لستُ متأكِّداً من سبب بقائها، فقد كان لديها صدرها الخاصُّ بفتاة في الخامسة عشرة كي تكشفه، وأحياناً كان الأولاد الأكبر سنّاً يقفون عند الباب ويطلبون منها أن تخرجَ من أجل الحديث، لكنَّها كانت دائماً تنتظر حتَّى ينتهيَ عرض *الأوغاد الصغار*، تاركةً أولادَ المنزل في سقيفة هوميني. مع ذلك، كنتُ معجباً بفكرة أنَّ ماربيسا كانت تحبُّني. ولكن، كنتُ أعرف أنه ربَّما كان شعور الشفقة والإحساس بالأمان هو سبب بقائها معي من الثالثة والنصف وحتَّى الرابعة، وهي تمضغ حبَّات العنب وتتفرّج على أفراد العصابة وهم يقومون باستعراضات الفناء الخلفيّ المتنوّعة، يمثِّلون أدوار أولاد ملوَّنين في السابعة من أعمارهم، بأصوات خشنة، ويرقصون الرقص النقْري. ما الأذى المحتمَل من ولد مزارع في الثالثة عشرة من عمره يتعلَّم في منزله، ومن زنجيٍّ متقاعد؟

«ماربيسا».

«نعم».

«امسحي ذقنك، إنَّه مبلَّل».

«دعني أقُلْ لك، إنّه ليس مبلَّلاً كما تقول، إنّه مذاق هذا العنب الطيّب، هل حقّاً زرعته وربّيته بنفسك؟».

«نعم».

«لماذا؟»

«واجبٌ منزليٌّ».

«أبوك مجنون».

أفترض أنّ هذا هو ما أحببته في ماربيسا أوّل الأمر، تلقائيّتها غير الخجولة. أظنّني أحببتُ ثدييها أيضاً، مع أنّني، كما كانت تقول في أيّ وقت تضبطني أبحلق فيهما، ما كنتُ لأعرف ما أفعل بهما في حال تسنّى لي نصف هذه الفرصة. في نهاية المطاف، إغراء الأولاد الأكبر سنّاً بأموال المخدِّرات وعدد الحيوانات المنويّة تفوّق على سحر صوت ألفالفا الرنّان وهو يغنّي، معتمراً قبّعة راعي البقر، أغنية «المنزل عند المدى». ولوقت طويل، لم يكن هناك سوايَ، وهوميني، والعنب، لذلك لم أندم قط على رفضي عروض التلصّص على الفناء الجانبيّ مع أصدقائي. كنتُ دائماً أتخيّل أنّه إذا ما استمرّت ماربيسا في أكل عنبي، وسال رحيق لعابها على صدرها العامر، فعاجلاً أو آجلاً ستحفر الحلمتان المنتصبتان داخل البقع المبلَّلة في قميصها.

يا للأسف، لم أكن قد رأيتُ ثدياً ثلاثيَّ الأبعاد قبل عيد ميلادي السادس عشر، عندما استيقظت في إحدى الليالي لأجد تاشا، وهي إحدى «مساعدات التدريس» عند أبي، تجلس على حافة سريري، عارية، تفوح منها رائحة عفن ما بعد الجنس، وخمر الزبيب، وتقرأ لنانسي تشودورو بصوت عال: «الأمّهات نساء، بالطبع، لأنّ الأمّ هي والدةٌ أنثى... يمكننا أن نتحدّث عن رجل «يقوم بدور الأمومة لطفل» إذا كان هو الشخص الذي يقوم بالرعاية الأساسيّة لهذا الولد، أو يتصرّف

على نحو ما كما المربِّية، لكنَّنا أبداً لن نتحدَّث عن امرأة تقوم «بأبوَّة» طفل». وحتَّى هذا اليوم، وفي أيِّ وقت أكون فيه وحيداً، فإنَّني أداعب نفسي، مفكِّراً في ثدي تاشا، وحول كيف أنَّ عِلمَ تأويل النصوص الفرويديَّ لا ينسحب على ديكنز، وهي مكان، في الأغلب، الطفل فيه هو مَن يرفع الوالدين، حيث عقدتا أوديب وألكترا هما عقد بسيطة لأنَّ الأبناء أو البنات أو الآباء البديلين أو أولاد العمومة اللاهين، لا يهمُّ، أو أيَّ شخص، هو ينكح شخصاً آخر، والغيرة من القضيب ليست موجودةً لأنَّ الزنوج مكتفون من مسألة القضيب هذه.

لا أعرف السبب بالتحديد، لكنَّني كنتُ أشعرُ بأنَّني أدين لهوميني بسبب كلِّ فترات ما بعد الظهر تلك التي قضيناها أنا وماربيسا في منزله، فثمَّة شيء ما متعلِّق بجنونه الذي انبغى عليه أن يعيشه، والذي أبقى عليَّ عاقلاً إلى حدٍّ ما. ففي أحد صباحات الأربعاء العاصفة، منذ نحو ثلاث سنين، وفي أثناء غفوة ما بعد الظهر المستحقَّة، سمعتُ صوت ماربيسا في منامي. «هوميني» كان كلَّ ما قالته، وبعد زحفي إلى الخارج وجدتُ لافتةً ملصقة على باب هوميني الشبكيِّ ترفرف مع النسيم. مكتوب عليها بعجالة «*أنا في الخلف*» بأسلوب خطِّ الأوغاد الصغار التقليديِّ، متعرِّج، ولكن مفهوم على نحو مفاجئ. الخلف، كان غرفة مخلَّفات هوميني التذكاريَّة. غرفة إضافيَّة صغيرة ١٥×١٥ كانت في أحد الأيَّام متخمَة بما تكشَّف من كنوز وتقديرات سلسلة أفلام *عصابتنا* وصور شخصيَّاته وملابسهم. لم يكُ ثمَّة ذكريات كثيرة باقية. في معظمها، كانت أشياء مثل زيِّ الدرع الذي كان يرتديه سبانكي في حلقة «شكسبير المرتعش»، وهو يلقي مناجاة مارك أنطونيو تحت حاجز من الأسلحة البلاستيكيَّة، وخصلة شعر لشخصيَّة ألفالفا، والقبَّعة ذات الذيل التي كان يعتمرها باكويت عندما أدار الغرفة الكبيرة لنادي سبانكي، فجمع «مئات آلاف الدولارات» في حلقة «حماقات عصابتنا في العام ١٩٣٨»، ومحرِّك إطفاء الحريق

المتحرّك ذي السلالم المصنوعة من الحديد الخردة، الذي استخدمه لاستعادة جين من الولد الغنيّ بمحرّك إطفاء الحريق الحقيقيّ، والآلات الموسيقيّة: الكازو، والفلوت، وآلة الملاعق الموسيقيّة التي شكّلت معاً صوت الريح والأجزاء الإيقاعيّة لحلقة «العصبة الفضيّة الدوليّة». كلُّ تلك الكنوز إمّا رُهنت أو بيعت في المزاد.

كما كان مُعلناً، هوميني كان حقّاً «في الخلف»، عارياً تماماً، ومعلّقاً من عنقه إلى الجسر الخشبيّ، وعلى بُعد قدمين منه كرسيٌّ قابل للطيّ مكتوب عليه «محجوز»، وعلى مقعد الكرسيّ نسخة عن إعلان مسرحيّة «تحيّة الجمهور»، وهي مسرحيّة من فصل واحد من اليأس. والأحبولة، كانت حبلاً مطاطيّاً مشدوداً إلى حدّه الأخير، بحيث لو كان يرتدي حذاءً من قياس أكبر من ٨ لكانت أصابع قدميه لامست الأرض. تلوَّن وجهه بلون أزرق عميق. شاهدته يتلوّى ليحصل على الهواء، وكانت لديَّ الرغبة في جعله يموت، ولكن لم أدعه يموت.

«اِقطع قضيبي، واحشره في فمي»، صار يرغي بكميّة الهواء المتبقُية في رئتيه.

على ما يبدو، الاختناق يجعل القضيب منتصباً، وعضوه الأسمر نما بسرعة مثل غصن من عشب أبيض الزهر متجعّد لشعر عانة أشيب، على نحو صادم. ومثل دوّامة عتيقة، كان يركل حوله بجنون بسبب محاولته حرق نفسه، وبسبب قلّة الأوكسجين الواصل إلى دماغه المصاب بالزهايمر أصلاً. ملعون هو قيد الرجل الأبيض، هوميني جينكينز كان قيدي، وأنا أخبط علبة الكيروسين والقدّاحة من يده. مشيتُ، لم أركض، عائداً إلى المنزل لأبحث عن مقصّ الحديقة، وبعض كريمات الجلد، مستغرقاً في وقتي اللطيف، لأنّي كنتُ أدرك أنّ النماذج البدائيّة للزنوج العنصريّين، مثل أبناء بيبي، في الكوميديا الكرتونيّة، لا يموتون.

إنَّهم يتضاعفون، ولأنَّ رائحة الكيروسين المرشوق على قميصي مثل رائحة مشروب «زيما» الكحولي، بل أكثر من ذلك، لأنَّ والدي قال مرَّة إنَّه لا يجزع عندما يحاول أحد أبناء الحيِّ شنق نفسه، لأنَّه «من أجل استمرار حيواتهم، الناس السُّود لا يعرفون كيف يعقدون عقدة حبل من أجل أيِّ عمل لعين».

قطعتُ تصوير مشهد الإعدام الذاتيِّ الميلودراميِّ لهذا الشخص، وأنزلته، على مهل، إلى الأرضيَّة ذات السجَّاد السميك المحبوك بحرير الرايون، وعاملتُ رأسه النحيل برفق، وهو، ملأ تحت إبطي بالمخاط والدموع، وأنا أفرك، بالكورتيزون، رقبته المتقرِّحة من حكِّ الحبل، وصرتُ أقلِّب في إعلان العرض المسرحيِّ. في الصفحة الثانية، ثمَّة إعلان تصوير لصاحبنا، الذي كان ولداً حينها، وهو يسترخي مع الإخوة ماركس على تجهيزات الفيلم الذي لم يعرض «يوم بين حلبات السباق»، هو تتمَّة لفيلم «يوم في حلبات السباق»، والإخوة ماكس يجلسون في الخلف على كراسٍ في مواجهة المخرج، والكراسي معلَّمَة بالكلمات: غروتشو، تشيكو، هاربو وزيبو. في النهاية البعيدة لصفِّ الفريق، ثمَّة كرسيّ عالٍ مكتوب على ظهره ديبريسو، وعليه يجلس هوميني، ذو السنوات الستّ، يضع رجلاً على رجل، وشارب غروتشو أبيض كثيف مرسوم فوق شفته العليا. موقَّع على الصورة: *إلى هوميني جينكينز، غنمة شفارتزي في العائلة. مع أجمل التحيّات من الإخوة ماركس: غوتشو، كارل*، سكيد *وآخرين*. وتحت هذا الكلام سيرة هوميني، قائمة حزينة من تقديراته الهزيلة التي تقرؤها وكأنَّها رسالة انتحار:

هوميني جينكينز (هوميني جينكينز)- هوميني سعيد لأنَّه قام بأداء عرضه المسرحيِّ الأوَّل وآخر قطعة فنيَّة منجَزَة على مسرح ذخائر «باك رووم». في العام ١٩٣٣ وضع هوميني، ولأوَّل مرَّة، أفريقيَّته البريَّة وغير المهذَّبة في استخدام مفيد عندما قدَّم شخصيَّة الرضيع البدائيِّ المنتحب

والمهجور في الفيلم الأصليّ كينغ كونغ. بقي حيّاً قرب جزيرة الجمجمة، ومن حينها تخصّص في تصوير الأولاد السُّود الذين تمتدُّ أعمارهم من الثامنة وحتّى الثمانين، وأهمّ مشاركاته: *الجمال الأسود*، بدور ولد الإسطبل (لم يقدَّر عليه)، حرب *العوالم*، بدور ولد الورق (لم يقدَّر عليه)، *كابتن بلض*، بدور ولد الكوخ (لم يقدَّر عليه)، *تشارلي شان ينضمُّ إلى الكلان*، بدور ولد الحافلة (لم يقدَّر عليه). كلُّ فيلم صوِّر في لوس أنجلس بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٦٤، بدور ولد شوشاين (لم يقدَّر عليها). أدوار متنوّعة أخرى، كأدوار: الولد المراسل، الولد بيل، ولد الحافلة، ولد البلياردو، ولد المنزل، ولد الصندوق، الولد الأنموذج، ولد خدمة التوصيل، لعبة الولد (في فيلم خاصّ بالذكور)، ولد المهمَّة، ودوره المميَّز، ولد الفضاء المهندس، في الفيلم الحاصل على الأوسكار *أبوللو* ١٣. هو يتمنَّى أن يشكرَ معجبيه العديدين الذين دعموه على مدى السنين، يا لها من رحلة طويلة وغريبة، كانت رحلته.

لو كان ذلك الرجل العجوز العاري، المنتحب، وهو في حضني، قد وُلد في مكان آخر، لنقُل مثلاً، في أدنبرة، فلربَّما كان رُفِّع إلى رتبة فارس «انهض يا سِير هوميني ديكنز، سِير جيغ بو، سِير بو زو». لو كان يابانياً وخطَّط لإنقاذ الحرب، الوهم الاقتصاديّ، في فرقة شونين نايف، لكان عندها من المحتمَل أن أصبح من ممثِّلي الكابووكي الثمانينيِّين أولاء، وعندما يدخل إلى الفصل الثاني من الدراما الراقصة كيو نينغيو، ستتوقَّف المسرحيَّة تبجيلاً، في حين يقدِّمه مذيع الحفل ضمن استعراض موسيقيّ عظيم مع مكافأة من الحكومة «مؤدِّياً دور المحظيَّة أوغوروما، دمية كيوتو، هوميني، الكنز الوطنيُّ الحي، كوكوجين جينكيز الثامن». لكنَّ سوءَ حظِّه جعله يُولد في ديكنز، كاليفورنيا، وفي أمريكا هوميني ليس مَصدَراً للمجد: إنّه الإحراج الوطنيُّ الحيُّ، علامة العار على الميراث الأفريقيّ الأمريكيّ، شيء ما يجب استئصاله، بلاء أصابنا من

السجلّ العرقيّ، تماماً مثل الممثّل الرديء بلهجته السّوداء الزائفة، واستعراض آموس آند آندي، وانهيار ديف شابيل، والناس الذين يقولون «يوم الفالانتايم» بدلاً من «يوم الفالانتاين».

قرّبتُ فمي من أذن هوميني ذات الطيّات الشمعيّة.

«لماذا يا هوميني؟».

لا أستطيع القول إنّه فهمني. فقط، كانت هناك ابتسامة الممثّل المسرحيّ، بيضاء لؤلؤيّة عريضة ومتذلّلة. ابتسم في وجهي بانشداه خالٍ من التعبير. على نحو ما، كان جنوناً كيف أنّ الممثّلين الأطفال لا يظهرون أيّ تقدُّم في العمر، هناك دائماً مظهر يرفض أن يكبر في العمر، ويميّزهم كشبّان إلى الأبد، في حال لم يُنسَوا. فكّر في خدَّي غاري كوليمان، وأنف شيرلي تيمبيل الأفطس، غُرّة إدي مونستر المثلّثيّة، صدر بروك شيلدز المسطّح، وابتسامة هوميني جينكينز المهتاجة.

«لماذا يا سيّدي؟ لأنّه عندما اختفت ديكنز اختفيتُ أنا، ولم أعد أحصل على رسائل إلكترونيّة من المعجبين، ومنذ عشر سنين لم يزرني أحد، فلا أحد يعرف أين يجدني. أنا، فقط، أريد أن أشعرَ بأنّني موجود. هل هذا كثيرٌ على زنجيٍّ أسودَ هرم، يا سيّدي؟ أن أشعر بأنّني موجود؟».

هززتُ رأسي نافياً. لكن، كان لديّ سؤال آخر.

«ولماذا أيّام الأربعاء؟».

«ألا تعرف؟ ألا تذكر؟ كانت تلك آخر خطبة ألقاها والدك في اجتماع مفكّري دونات دُم دُم. قال إنّ الغالبيّة العظمى من ثورات العبيد كانت في أيّام الأربعاء، لأنّ أيّام الخميس كانت، على نحو تقليديّ، أيّامَ الجَلْد. ثورةُ عبيد نيويورك، مظاهرات لوس أنجلس، ثورة السُّود المخطوفين في سفينة *إميستاد*، كلُّها هراء». قال هوميني ذلك، وابتسم ابتسامة عريضة

على نحو متبلِّد، امتدَّت من أذنه إلى أذنه الأخرى، مثل أخرس يتكلَّم من بطنه. «هذا حالنا مُذ وطئتْ أقدامنا هذا البلد أوَّل مرَّة. أحدهم يُجلَد، أو يقف ويرقص مرحاً، في حال اقترف أحدهم خطأ أو لم يقترف. لذلك، لماذا لا نجعل الأمر يستحقّ، وتقوم بعمل ما في يوم الأربعاء الأحمق مادمتَ ستُضرَب يوم الخميس، أليس ذلك صحيحاً، يا سيِّدي؟».

«هوميني، أنت لستَ عبداً، وأنا بالتأكيد لستُ سيِّدك».

«سيِّدي»، قالها، وبعدها تبخَّرت الابتسامة من على وجهه، ثمّ هزَّ رأسه بتلك الطريقة المثيرة للشفقة التي يقوم بها الناس الذين تظنُّ أنَّك أحسن منهم عندما يمسكونك تفكِّر في أنَّك أحسن منهم. «أحياناً عليك، فقط، أن تقبل نفسك، وتتصرَّفَ وفاقاً لذلك. أنا عبد. هذه حقيقتي. إنَّه الدور الذي وُلدتُ من أجل أن أؤدِّيه. عبدٌ تصادف أنَّه ممثلٌ أيضاً. لكن، كونك أسود ليس منهجَ تمثيل. يمكن لِلي ستراسبيرغ أن يعلِّمك كيف تكون شجرة، لكن لا يمكنه أن يعلِّمك كيف تكون زنجيّاً. هذه هي الصلة بين الحرفة والغاية، ونحن لن نناقش هذا الموضوع مرَّة ثانية. أنا عبدك مدى الحياة. هكذا هو الأمر».

بعدم قدرته على التمييز بين المجازيَّة والحرفيَّة في عبارة «أنا أدين لك بحياتي، سأكون عبدك»، فقد هوميني عقله في النهاية، وكان لزاماً عليّ أن أنقله إلى المستشفى حالاً، أتَّصل بالشرطة وأطلب له وحدة العناية العقليّة. لكن، في إحدى المرَّات، وفي أثناء زيارة ما بعد الظهر إلى بيت مسنِّي العائلات في هوليود المهمَلين والمنسيِّين، جعلني أعده بألاَّ أضعَه في منظَّمات أو جمعيَّات المعوزين، لأنه لا يريد أن يُستغلَّ مثلما حصل مع أصدقائه القدامى: سليكر سميث، وشاتانوغا براون، وبيلا مكويني «مامي»، الذين سعوا إلى الظهور في فيلم أخير قبل أن

يتوجّهوا إلى تلك الغرفة الخضراء في السماء، ويؤدُّوا اختبار تمثيل من على أسرَّة موتهم من أجل طلّاب سينما مبتدئين من البرنامج المطوّل في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس، ناظرين إلى أن يتبعوا نجماً، حتّى لو كان ذاوياً أو خرفاً، بمشاريعهم النهائيّة الحاصلة على الموافقة.

في صباح اليوم التالي، الخميس، استيقظتُ على هوميني، يقف في فناء بيتي الأماميّ، عاريَ الصدر وحافيَ القدمين، مربوطاً إلى صندوق البريد إلى جانب الطريق، يلحُّ في أن أجلده. لم أعرف مَن أوثق يديه، لكنّني أعرف حقّاً أنَّ هوميني أوثق يديَّ أنا.

«سيِّدي».

«توقَّفْ هوميني».

«أريد أن أشكرك لإنقاذك حياتي».

«أنت تعلم أنّني أفعل أيَّ شيء لأجلك، عملك في فيلم *الأوغاد الصغار* جعل طفولتي محتملة».

«هل تريد أن تجعلني سعيداً؟».

«نعم، أنت تعرف ذلك».

«إذاً، اضربني. اضرب كلَّ إنش في حياتي السّوداء الرخيصة. اضربني، ولكن لا تقتلني، سيِّدي. اضربني بالقدر الذي يجعلني أشعر بما أفتقد إليه».

«أليست هناك طريقة أخرى؟ ألا يوجد شيء آخر يجعلك سعيداً؟».

«أعِد ديكنز».

«أنت تعرف أنَّ هذا مستحيل، عندما تختفي المدن، فإنّها لا ترجع».

«إذاً، أنت تعرف ماذا ستفعل».

يقولون إنَّ الأمر استلزم ثلاثةً من معاوني نقيب الشرطة كي يخلِّصوه

منّي، لأنّي جلدتُ حتّى القذارة الخارجة من ذلك الزنجيّ. كان أبي ليقول إنّني أعاني من «ردّ فعل انفصاليّ»، وهذا ما كان يعزو إليه هزائمي. يفتح المجلّد الأوّل من *دليل تشخيص وإحصاءات الأمراض العقليّة*، كتابه المقدّس في الأمراض العقليّة القديم، إلى درجة أنّه كان يعرّف المثليّة الجنسيّة بـ«شذوذ الشهوة»، ويشير إلى صفحة «ردُّ الفعل الانفصاليّ»، ثمّ يمسح نظّارتيه ويبدأ يشرح لنفسه على مهل «ردُّ الفعل الانفصاليُّ، مثل خَرقٍ للحَلقة النفسيّة، عندما يختبر العقل زيادة في طاقة التوتُّر، وهذا الهراء، فإنّه سينطفئ، فقط أطفئ إدراكك وسوف تنسى. أنت تفعل لكنّك غير مدرك أفعالك. لذلك، كما ترى، وعلى الرغم من أنّني لا أتذكّر أن أخلعَ فكّك...».

أحبُّ أن أقولَ إنّني صحوتُ من حالة شرودي، وتذكّرتُ، فقط، أزيز جروحي اللاذع، في حين كان هوميني يمسح بلطف على كتفي المثقل بالسحجات التي تسبّب بها رجال الشرطة، بِقطع قطنٍ مغطّسة ببروكسيد الهيدروجين. لكن، طالما أنا حيٌّ فلن أنسى أبداً صوتَ حزامي الجلديّ، وأنا أستلّه من بنطالي الجينز، صوتَ صفير ذلك السوط ذي الوجهين، البنّي والأسود، وهو يقطع الهواء، ثمّ يمطر بقوّة مع قصف رعد عظيم ليحقنَ الجلد على ظهر هوميني، السعادة المغلّفة بالدموع، والشكر الذي أظهره لي وهو يزحف، ليس بعيداً عن مكان الجلد، بل إلى داخله؛ يَنشد إنهاء قرونٍ من الغضب المكبوت، وعقودٍ من الخنوع غير المكافَأ بعناقه لي عند ركبتَي، ورجائه لي أن أضربه على نحو أشدّ، وجسده الأسود مرحِّباً بثقل وأزيز جَلْدي، وهو يصرخ بنشوة التذلُّل. لن أنسى هوميني أبداً وهو ينزف في الشارع، ومثلَ أيِّ عبد في التاريخ، يرفض توجيه الاتّهامات. لن أنساه أبداً وهو يمشي باتّجاهي، وهو مفعم بالاحترام، طالباً من الناس الذين احتشدوا حولنا ألاّ يحاكموني، لأنّه، في نهاية الأمر، مَن سيهمس في أذن الزنجيّ الهامس؟

«هوميني».

«نعم، سيِّدي».

«ماذا كنتَ ستهمس في أذني؟».

«كنتُ سأهمس بأنَّ تفكيرك محدود جدّاً، لأنَّ إنقاذ زنجيٍّ من ديكنز من جانب زنجيٍّ يحمل بوقاً لن ينجح أبداً، وبأنَّك يجب أن تفكِّر على نحو أفضل ممَّا كان أبوك يفعله. أنت تعرف العبارة التي تقول «ألا يمكنك رؤية الغابة من خلال أشجارها»؟».

«بالطبع».

«حسناً، يجب أن تتوقَّف عن رؤيتنا كأفراد، لأنَّك الآن، لن ترى المزرعة من خلال الزنوج».

٦

يزعمون «ليس من السهل أن تكون قوّاداً»، حسناً، ولا امتلاكُ عبدٍ هو أمرٌ سهلٌ. مثل الأطفال، والكلاب، وحجر النرد، والسياسيِّين المفرطين في الوعود، وعلى ما يبدو مثل العاهرات، العبيد لا يفعلون ما تطلبُ منهم فعله. وعندما يكون عبدُك الأسود الذي بلغ من العُمر، تقريباً، ثمانين عاماً غريبةً، حائزاً ربّما خمسَ عشرةَ دقيقةً جيِّدةً من العمل على نفسِه والاستمتاع بسخافة لأنّه يُعاقَب، فإنّك لن تحصلَ حتّى على الكثير من امتيازات الزراعة التي تراها في الأفلام. لستُ آسفاً، فليس هناك أيٌّ من أغاني الحقول التي تصدح «اهبط يا موسى»، وليس من صدر أسودَ طريٍّ أستكين إليه في راحة، ولا منفضة ريش، ولا أحد يقول «سآتيك في الحال»، ولا عشاءات خياليّة مفعمة بالشمعدانات ذوات الشُّعب مدعومة بأفخاذ الخنازير المطليّة، وكومات الملاعق المليئة بالبطاطا المهروسة وأكثر الخضر صحيّة المظهر، التي عرفها الجنس البشريُّ. أنا لم أخُض أيَّ تجربة ثقة لاشكَّ فيها بين سيِّدٍ وعبده. أنا، فقط، ملكتُ رجلاً أسودَ هرماً وذاوياً يعرف شيئاً واحداً: المكان الذي هو فيه، فهوميني لا يعرف كيف يصلح عجلة العربة، أو كيف يَعزِق صفَّ المزروعات في الحقل، أو كيف يحمل حِملاً، أو كيف يرفع حزمة كبيرة، لكنّه يعرفُ كيف يحني ركبتَيه احتراماً، ومن السّاعة الواحدة ظهراً وحتّى الواحدة والربع ظهراً، أو نحو ذلك، يصرُّ على

ارتداء قطعتَي لباس حريريّ مكوّنتين من الأخضر الزمرُديّ والزهريّ، ويحمل مصباح غاز على طول يده، ويقف جامداً في فناء منزلي الأمامي كتمثال الفارس الذي يُوضع في المرجة في أثناء مباريات الفروسيَّة، وبالحجم الطبيعيّ. وفي أوقات أخرى، يحبُّ أن يعملَ كمدوسة للأقدام، فعندما تحرّكه روح العبوديّة، يجلس على أطرافه الأربعة عند أقدام حصاني أو عند قاعدة شاحنة «البيك أب»، ويبقى هناك حتّى أخطو على ظهره من أجل أن أقومَ برحلة غير مرغوب فيها إلى متجر الخمور أو إلى مزاد دواجن أونتاريو. ولكنّ عمل هوميني في الغالب يتركّز في مراقبتي وأنا أعمل، في حين هو يقضم حبّات خوخ بوربانك التي تتناسب حموضتها وحلاوتها مع ثخانة الجلد، وقد استغرق منّي الأمر ستّ سنوات حتّى أحصلَ على مذاقها المناسب، ثمّ يقول متعجّباً «اللعنة يا سيّدي، هذه الخوخات تجعلني جيّداً، هل قلت لي إنّها يابانيَّة؟ حسناً، عليك أن تدخلَ في قفا غودزيلا، لأنَّ لديك موهبة عظيمة في الزراعة مثل ابن عاهرة».

لذلك، صدّقوني، عندما أخبركم أنَّ العبوديَّة الإنسانيَّة هي تعهُّد محبِط، ليس لأنّي آخذُ على عاتقي العناية بأيّ شيء، بل لأنَّ هيمنتي على هذا العبد المكتئب سريريّاً كنتُ قد أُجبرتُ عليها. ولنكن صريحين: حاولت أن «أحرّر» هوميني مرّات لا تُحصى، وإخباره ببساطة أنّه حرٌّ، ولكنّه أمرٌ لا طائل منه. في إحدى المرّات، وأقسم على ذلك، كدتُ أتخلّص منه، ونحن في جبال سان برنادينو، مثل كلب غير مرغوب به، لكنّني بعدَها رأيتُ نعامة تائهة على ريش ذيلها ثمّة مُلصق ترويجيٌّ ضخمٌ لفرقة فارسايد، وعندها فقدت أعصابي. حتّى إنّني كلّفتُ هامبتون أن يسحب لي بعض أوراق تحرير العبيد المكتوبة باللهجة السّائدة في عصر النهضة الصناعيَّة، ودفعت ما يقرب من ٢٠٠ دولار من أجل كتابة عقد على مخطوطة قديمة وجدتها في مكتبة قرطاسيّة في بيفرلي هيلز، لأنّه،

كما يبدو، لا يزال الأغنياء يستخدمونها. ما هي الغاية؟ مَن يعلم؟ ربَّما في حالة النظام المصرفيّ، عليهم أن يرجعوا إلى خريطة الكنز.

«إلى مَن يهمُّه الأمر» مكتوب على العقد «بموجب وثيقة التحرير هذه، أحرِّرُ، أعتقُ، أطلقُ سراح، وأطردُ، ومن دون أيِّ مقابل، وعلى نحو دائم، عبديَ هوميني جينكينز، الذي أمضى في خدمتي ثلاثة أسابيع، نظراً إلى أنَّ هوميني متوسِّطُ البُنيةِ ولونِ البشرة، والذكاء. إلى كلِّ مَن يقرأ هذه الوثيقة، هوميني جينكينز هو الآن رجلٌ حرٌّ من لونه. تشهد يَدِي على ذلك، في يومنا هذا، السابع عشر من أكتوبر سنة ١٨٣٨». لم تنجح الحيلة، فقد أنزل هوميني، ببساطة، بنطاله، ثمَّ تبرَّز على نباتات الجيرانيوم خاصَّتي، وبعد أن انتهى، مسح قفاه بصكِّ حرِّيَّته، ثمَّ أرجعه إليَّ.

«متوسِّط الذكاء؟»، سأل وهو يرفع حاجبه البنيّ «أوَّلاً، أنا أعرف في أيِّ سنةٍ نحن. ثانياً، الحرِّيَّة الحقيقيَّة هي أن يكونَ لك الحقُّ في أن تكونَ عبداً». رفع بنطاله، ثمَّ انزلق إلى مزروعات استديوهات ميترو- غولدوين ماير الخاصَّة به. «أعرف أن لا أحدَ قذراً أجبرني، لكنْ هنا عبد لن تتخلَّصَ منه أبداً، يمكن للحريَّة أن تقبِّلَ قفاي الأسود العائد إلى حقبة ما بعد الحرب».

كان ينبغي على العبوديَّة أن تكون مفيدةً بالنسبة لشخص يعالج كلَّ أنواع الكرب النفسيّ، لذلك أحياناً، وبعد يوم حارٍّ في نزع قرون الماعز وتسليك شبك السياج الشائك، حينما أكون مرتاحاً في الخلف عند الشرفة، أشاهد الغسق وهو يبعثر الضباب الدخانيَّ الأحمرَ الثقيل عبر سماء أسفل المدينة، كان هوميني يأتي من الخارج ومعه إبريق من الليموناده الباردة، ربَّما كان شيئاً مُرضياً مشاهدةُ تكثيف البخار وتقطيره النازل على جانبي الإبريق من ماركة تابروير، في حين كان يملأ كأسِي

على مهل، ويلقي جاهداً قِطعَ الماء المثلّج ثمّ يحرّك المروحة لإبعاد الذبابِ والحرارة عن وجهي. في الجوّ البارد، وأجواء أغاني موسيقا الراب الثوريّة القادمة من ستيريو السيّارة، كنت أشعر بلفحة الهيمنة المنعشة التي وَجَبَ على الكونفدراليّة العقاريّة أن تشعرَ بها. اللعنة، لو كان دائماً متعاوناً، لكنتُ انطلقتُ في فورت سامتر، أيضاً.

في أحد أيّام الخميس، بالمصادفة، لكنّها مصادفةٌ مقصودةٌ، رمى هوميني الإبريق في حضني، مرسلاً إليّ رسالة غير دقيقة، مثل كلب يحكُّ نفسه عند الباب الشبكيّ، مشيراً إلى أنّه حان وقت القيام بعمل ما.

«هوميني».

«نعم سيّدي؟» قال بكلّ أمل، وهو يحكُّ مؤخرته.

«هل اخترتَ طبيباً؟»

«بحثتُ في الإنترنت، المعالجون كلُّهم بِيض. يقفون في الغابة، أو في مقدّمة رفّ الكتب، يحدّثوننا عن العمل الواعد، والاكتفاء الجنسيّ، والعلاقات الصحيّة. كيف حدث ولم تشاهد صورهم مع أطفالهم الذين حقّقوا أكثر من المراد في تحصيلهم، أو تشاهدهم يضاجعون شركاءهم حتّى تحقيق النشوة؟ أين الدليل في مذاق الجنس؟».

انتشرت بقعة البلل على بنطالي حتّى حضني وركبتَي. قلتُ «حسناً، اصعد إلى الشاحنة».

على نحو غريب لم يبدُ على هوميني أنّه اهتمّ بأنّ كلّ النساء الساديّات اللاتي يغرينَك ولا يؤذينَك في نادي الاختبارات الجنسيّة الساديّة في الجانب الغربيّ من المدينة، اللاتي تعاقدتُ معهنّ أن يشاركنَني عقوباتي، كنّ جميعهنّ نساءً من البِيض. غرفة الباستيل كانت حجرة التعذيب المفضّلة لديه، هناك امرأة عارية إلاّ من قبّعة الحرب الأهليّة الاتّحاديّة، الخليلة دوروثي، امرأة سمراء بِبياض شاحب، تقلب شفتيها اللتين حمّرتهما بأحمر شفاه ماركة مايبيلين، على نحو يجعل

سكارليت أوهارا تشعر بالعار، وتربط هوميني بحزام إلى عجلة وتجلده بسخافة. كانت توثق أعضاءه التناسليّة بأداة غريبة الشكل، وتطلب معلومات سريّة حول تحرُكات قوّات الجيش الاتّحاديّ، وحول قوّة التسليح. بعد ذلك بفترة، أدخلت الآنسة دوروثي رأسَها في الجزء المغطّى من الشّاحنة، ورسمت قبلة على خدّ هوميني، وسلّمتني الإيصال. عند المثتي دولار في الساعة، بالإضافة إلى «نفقات نثريّة عِرقيّة»، بدأت القذرةُ تضيف إلى الفاتورة. أوّل خمسة «زنوج» و«رجال سود» و«أطفال الإسفلت» و«الرجال المهجّنين السود» من دون مقابل. بعد ذلك، هناك ثلاثة دولارات لكلّ صفةٍ لفظيّة مستخدمة، وكلمة «زنجيّ» بكلّ أشكالها المتنوّعة واشتقاقاتها بعشرة دولارات لكلّ صوت عال، ولا نقاش في كلّ ما ذُكر. ولكن، بعد تلك الجلسات بدا هوميني سعيداً جدّاً حتّى إنّ الأمرَ استحقّ دفعَ كلّ هذا المبلغ. ومع أنّ سعادة هوميني ليست سعادتي، وليست سعادة للمدينة، لكنّني لم أستطع أن أفكّر في طريقة لاسترجاع ديكنز إلاّ بعد إحدى أمسيات الربيع الدّافئة، على غير العادة، ونحن عائدان من نادي التعذيب.

وجدنا نفسَينا، أنا هوميني، عالقَين عند النقطة ١١٠ على الطريق السريع، ننتقل من مسرب إلى مسرب بنفاد صبر. كنّا قد أبلينا حسناً حتّى وصلنا إلى الامتداد بين تقاطعي ٤٠٥ و١٠٥، وبدأتْ حركة المرور تُبطئ. كانت لدى والدي نظريّة تقول إنّ الفقراءَ هم الأفضل في قيادة السيّارات لأنّهم لا يستطيعون تحمُّل تكاليف التأمين على السيّارات، وعليهم دائماً أن يقودوا بالطريقة التي يعيشونها، بعناية واحتراس. كنّا عالقَين في زحمة العربات القديمة غير المؤمَّن عليها، التي أكلها الصدأ، والسيّارات عديمة الفائدة، وكلُّها سيّارات لا تسير بسرعة أكثر من ٤٥ ميلاً في السّاعة، وحاجبات الرّيح فيها ترفرف في الهواء مثل أكياس القمامة. كانت قوى هوميني قد بدأت تخور نتيجة انتشائه المازوخيّ، وذكرياته، إنْ لم يكن من ألمه في أثناء جلسة التعذيب. وهذه الآلام،

كانت بطبيعة الحال تختفي عند كلّ مخرج في الطريق. لكز كدمةً في ذراعه، وسأل نفسه من أين جاءت هذه الكدمة، عندها انتزعتُ كيس مخدّرات من (تابلوه) السيّارة، وعرضتُ عليه سحبة حشيش دوائيّة.

«هل تعرف مَن كان مُدخِّنَ حشيش؟» قال، رافضاً أخْذَ سيجارة الحشيش «إنّه أحد الأوغاد الصغار، سكوتي بيكيت».

كان سكوتي أحد الأوغاد الصغار بعينَين واسعتين، اعتاد أن يمشيَ مع سبانكي، يرتدي سترةً من نسيج عريض وقبّعة بيسبول مائلة على جنب، لكنّ الولد الأبيض كان جميلَ الوجهِ وخالياً من العواطف، ولم يستمرّ طويلاً. «آه، نعم؟ وماذا عن سبانكي؟ هل كان مدمن مخدّرات؟».

«لا، لم يكن سبانكي مدمنَ مخدّرات، بل كان يضاجع العاهرات، هذا ما كان يفعله سبانكي».

أنزلتُ النافذة. ما زلنا نتحرّك ببطء، ورائحة دخان الماريهوانا النتنة تعلق في الهواء على نحو غير بريء. تقول الأسطورة إنّ الأوغادَ الصغار، مثلَ أيّ عرض لمسرحيّة *ماكبث*، ملعونون، لأنّهم كلّهم ماتوا قبل أوانهم ميتات فظيعة.

عضو العصابة	العمر	سبب الموت
ألفا ألفا	٤٢	أطلق على وجهه النار ٣٠ مرّة (طلقة لكلّ حبّة نمش) في قتال على مبلغ مال.
باكويت	٤٩	بسبب سكتة قلبيّة.
ويزر	١٩	في تحطّم طائرة تدريب عسكريّة.
دارلا هود	٤٧	وفاقاً لهوميني، ضاجعها حتّى الموت. في الحقيقة، ماتت بالتهاب الكبد.

تشوبسي أوبسي	٢١	كان لديه شيء ثقيل على قلبه. حبٌّ غبيٌّ متبادَل مع مس كرابتري، و٣٠٠ رطل من الدهن على هيكل طوله ٥ أقدام.
فروغي	١٦	داسته شاحنة.
بيتي، الكلب ذو الدائرة حول عينه	٧	ابتلع ساعة المنبّه.

تلوّى هوميني في مقعده، وتأفّف من آثار الضرب الحمراء التي لا تزال منتفخةً على ظهره متعجّباً كيف لم ينزف. اللعنة، ربّما كان عليّ تركه يموت، أو كان ينبغي عليّ أن أدفعه إلى خارج السيّارة على طريق هاربور السريع المتصدّع بالإسفلت الزيتيّ. ولكن، بِمَ سينفع هذا؟ وصلت حركة المرور إلى حالة توقّف تام. سيّارة جاغوار، أحد الموديلات البشعة الأمريكيّة، انقلبت على الطريق السريع. المسافر فيها ذو القبّعة العالية لم يُصبْ بأذىً، استند إلى السياج المنصّف يقرأ رواية ذات غلاف كرتونيّ من النوع الذي تلحظه عينك فقط في متاجر كتب المطارات. سيّارة هوندا-سيدان، كانت صُدمت في خلفيّتها، هي وسائقها، كانا كلاهما مسحوقَين ويدخّنان، وكانت السيّارة مستلقيةً وسط المسرب تنتظر أن يتمّ حملها، تباعاً، مع سيّارت أخرى، إلى مقبرة السيّارات. سيّارة جاغوار يبدو اسمها مثل صاروخ: نوع إكس جي-إس إكس جي٨، إي. سيّارات الهوندا تبدو مثل سيّارات صمّمها الدبلوماسيّون رافضو الحرب، والإنسانيّون. سيّارة أكورد، سيّارة سيفيك، سيّارة إنسايت. خرج هوميني من السيّارة من أجل أن يفكّ اشتباك السيّارات، ملوّحاً بيده مثلما هو دائماً، رجل مجنون، فصل بين السيّارات وفاقاً لألوانها، ليس الألوان المدهونة بها بل درجة ألوان

سائقيها «إذا كنتَ أسودَ فارجع إلى الخلف! أبيضَ فإلى اليمين، بنيّاً فذُرْ في المكان، أصفرَ فالحقِ البيضَ وابتهجْ. إذا كنتَ أحمرَ، فسرعة قصوى إلى الأمام! أمّا أسمرَ مصفرّاً، فالسرعة الكاملة!» وإذا لم يدرك اللون بعينيه، فإنّه يسأل السائق أيّ لون هو. «تشيكانو! أيُّ لون هذا؟ أنت لا تستطيع الدخول في السباق فحسب يا بنَ العاهرة! هل أنت عاهر؟ سأحصل على قضيبك هنا أيُّها العاهر! أنت، التزم المسار، أيُّها الزنجيُّ، وابقَ فيه! ادخل حيث يلائمك!».

مع قدوم الشرطة ومشعّات الطريق، وتحرُّكِ السيّارات بحرّيّة، تسلّق هوميني الشّاحنة عائداً، ينفض الغبار عن يديه وكأنّه فعل شيئاً «هكذا تقوم بهذا العمل القذر. سانشاين سامي علّمني ذلك. كان يقول دائماً «الوقت لا ينتظر أحداً، لكنَّ الزنوجَ ينتظرون أيَّ شخص يدفع لهم خمسة وعشرين بنساً بقشيشاً»».

«ومَن يكون سانشاين سامي هذا؟».

«لا تهتمّ بمَن يكون سانشاين سامي. أنتم أيُّها الزنوج الجُدد، لديكم رؤساء سود، ولاعبو غولف سود. أمّا أنا، فلديَّ سانشاين سامي. الوغد الصغير الأصليُّ، وأقصد بالأصليِّ أوّل واحد على الإطلاق. ودعني أخبرك، عندما أنقذ سانشاين سامي العصابة من الورطة المستحيلة، تلك كانت قيادة نزيهة».

هبط هوميني في مقعده، وشبك يديه خلف رأسه، ونظر إلى خارج النافذة، وإلى ماضيه. قلّبتُ محطّاتِ المذياع، وجعلت صوتَ إذاعة مباراة فريق رودجر يملأ الصمت. هوميني، افتقد تلك الأيّام الطيّبة وسانشاين سامي، وأنا افتقدتُ فين سكلي، صوت الموضوعيّة العذب، مستحضراً أيّامَ اختبار المواهب الرياضيّة. وبالنسبة إلى متعصّب للبيسبول مثلي فإنَّ الأوقات الجميلة كانت تلك الأيّام التي سبقت تعيين ضارب

الكرة المحدَّد في دور البيسبول النهائيّ، وقبل الستروئيدات والمتسكّعين في الجزء الخارجيّ لملعب البيسبول، وقبّعات البيسبول التي تجثم على غير هدى فوق رؤوس المشجّعين، تطير مع كلّ كرة يفوّتها رجلُ تلقّي الكرة في الفريق تحت شمس اللهو الوطنيّ. كنّا هناك، أنا وأبي، وفمانا مليئان بنقانق الدودجر، وبشراب الصودا. اثنان من المشجّعين السُّود المتبطّلين، نشارك لهيب حرارة الأمسية الصيفيّة مع الفراشات، ونشتُم الفريقَ القابع في المركز الخامس في الدوريّ، ونتوق إلى كلّ تلك الأيّام الجيّدة مع اللاعبين: غارفي، سي، كوفاكس، داستي، دريزديل، لازوردا. بالنسبة لهوميني، كلُّ يوم يستطيع فيه أن يشخّصَ البدائيّة الأمريكيّة هو يوم جيّد، وكأنَّ هذا يعني أنّه لا يزال حيّاً، فأحياناً حتّى الزنجيُّ المحتفل وهو يلعب لعبة صهريج الماء المنزليّ يفتقد الاهتمام والعناية. وهذا البلد الذي هو طالبُ المرحلة الثانويّة اللوطيّ، والبغل الذي يتشبّه بالأبيض، وإنسان النياندرتال الذي ينتف مكانَ التقاءِ حاجبَيه باستمرار، مثل هذا البلد يحتاج إلى شخص مثله. يحتاج إلى شخص ما يرمي كرة البيسبول إليه، يؤدّي حفلَ المثليّين الجنسيّين، يعتدي على زنجيّ، يحتلُّ، يمنع. أيُّ شيء، مثل البيسبول، يحافظ على البلد على نحو مستمرّ يتجمّل عند المرآة أكثر من النظر في حقيقته في المرآة، وتذكّرِ أين دُفنت الجثث. في تلك الليلة خسر الدودجر ضربتهم المستقيمة الثالثة. جلس هوميني في مقعده، وصار يفرك زجاجَ السيّارة الذي كساه الضبابُ فجأةً.

«ألم نصل إلى المنزل بعد؟»، سألَني.

كنّا في منتصف المسافة بين إل سيغوندو وطريق روزكرانس ذي الاتّجاه الواحد. واختلط عليّ الأمر: كان ثمّة لافتة تقرأ عليها **ديكينز-المخرج التالي**. هوميني، يفتقد تلك الأيّام الجميلة، وأنا أفتقد والدي عندما كان يقود بنا عائداً من معرض الولاية في مدينة بومونا، وهو

يلكزني بمرفقه كي أستيقظ، في حين يبثُّ المذياعُ حلقة ما بعد مباراة الدودجر، وأنا أمسح النوم عن عينيَّ في الوقت المناسب كي أشاهد اللافتة **ديكينز-المخرج التالي**، وأعلم عندها أنّنا عدنا إلى الوطن. اللعنة، لقد أضعتُ اللافتة، وما هي المدن حقّاً سوى لافتات وحدود اعتباطيّة؟

لم تكن لتتكلّف هذه اللافتة، بلونَيها الأخضر والأبيض، الكثيرَ: ورقة ألمنيوم قياس ٦٠-٨٠ إنش، ساريتين معدنيّتين بطول ستّ أقدام، بعض مخاريط المرور ومشعّات، سترتين عاكستين برتقاليّتين، علبتي طلاء بخّاخ، زوجين من القبّعات الصلبة وسهرة طوال الليل. وبفضل نسخة حمّلتها من الإنترنت لكتاب *دليل أجهزة مراقبة المرور الموحّدة*، كانت لديَّ مواصفات تصميم أيّ شيء، من الظلال المناسبة للون الأخضر (درجة اللون بانتون ٣٤٢)، إلى الأبعاد الدقيقة (٦٠-٣٦ إنش)، وقياس الخط (٨)، ونوع الخط (هايوي غوثيك)، وبعد ليلة طويلة من الطلاء، وتقطيع الإعلان حسب القياسات، وطباعة عبارة **مقاولات سانشاين سامي** بالورق الحريريّ على أبواب الشاحنة، بالطلاء سريع الإزالة، جلسنا، هوميني وأنا، في الخلف في مواجهة الطريق السريع. وبصرف النظر عن صبِّ الإسمنت وانتظاره حتّى يجفّ فإنّ نصْبَ لافتة للتحكُّم بحركة المرور، لا يختلف كثيراً عن زراعة شجرة. بدأتُ العمل تحت أضواء عوارض الطريق السريع. نظّفت المكان من أوراق اللبلاب، وحفرت الحُفر، وزرعت اللافتة، في حين كان هوميني مغمىً عليه في المقعد الأماميّ للسيّارة، وهو يستمع إلى أغاني الجاز على غيتار كلون.

ومع ارتفاع الشمس فوق الجسر العلويّ لطريق إل سيغوندو، كانت تبدأ رحلات المرور اليوميّة. ووسط صفير السيّارات، وهدير محرّكات حوّامات المرور التي تحوم فوق الرؤوس، وأصوات صرير غيارات سرعات الشاحنات، جلسنا، هوميني وأنا، في المسار الآمن نقدّر قيمةَ ما قمنا به. كانت اللافتة مماثلة تماماً لأيّ «لافتة للتحكُّم بالمرور»

يشاهدها أيٍّ منّا في أثناء رحلته اليوميّة. استغرق إنجازها بضع ساعات، لكنّني شعرتُ وكأنّني مايكل أنجلو يبحلق في الكنيسة السيستينيّة بعد أربع سنوات من العمل المضني، أو مثل بانكسي بعد أن أمضى ستة أيّام يبحث في الإنترنِت عن أفكار يسرقها، وثلاث دقائق من تخريب الرصيف من أجل تنفيذ هذه الأفكار.

«سيِّدي، اللافتات هي أشياء فعّالة. تقريباً، تشعر وكأنَّ ديكنز موجودة هناك، في الضباب الدخانيّ، في مكان ما».

«هوميني، ما الذي يشعرك بالتحسُّن، أن تُجلَد، أو تنظر إلى تلك اللافتة؟».

فكّرَ هوميني للحظة. «شعور الجَلد جميلٌ على الظهر، لكنَّ اللافتة شعورها جميل في القلب».

عندما وصلنا إلى المنزل ذلك الصباح، فتحتُ فوراً علبة بيرة تناولتها من فوق طاولة المطبخ، وأرسلتُ هوميني إلى بيته، ثمّ التقطتُ أحدث نسخة من *دليل توماس* من على رفّ الكتب. على مساحة قدرها ٤,٠٨٤ ميل مربّع، الكثيرُ في مقاطعة لوس أنجلس، مثل قاع المحيط، لا يزال في جزء كبير منه غير مُكتشَف. ومع أنّك في حاجة إلى درجة متقدّمة في الهندسة لتفهم صفحاته التي تزيد عن ٨٠٠ صفحة، فإنَّ كتابَ *دليل توماس إلى مقاطعة لوس أنجلس* هو دليل ساكاغاوا المجلَّد بسلك لأيِّ مكتشِفٍ جَسور يحاول أن يبحرَ في هذا الامتداد الحضريِّ الأجرد. حتّى في أيّام تقنيّة نظام تحديد المكان العالمي GPS ومحرّكات البحث، فإنّه موجود في الكرسيّ الأماميّ في أيِّ سيّارة أجرة، وشاحنة قَطْر، وسيّارة شركة، وحتّى رجل العصابات الذي يخالف قانون توقُّف الإشارة الحمراء في كاليفورنيا، ويموت جرّاء ذلك، ستجد نسخةً من الكتاب في (تابلوه) سيّارته. تركتُ الكتابَ مفتوحاً. اعتاد والدي، كلَّ عام، أن

يجلبَ إلى البيت *دليلَ توماس* الجديد، وأوّل شيءٍ أقوم به هو فتح الصفحتَين ٧٠٤-٧٠٥ وتقريب الخريطة إلى موقع ٢٠٥ جادّة بيرنارد. أن أعثرَ على منزلي في ذلك المجلّد الضخم كان يهبط بي إلى الأرض بطريقة ما، يجعلني أشعر أنّ العالم كلّه يجبُني. لكن موقع ٢٠٥ جادّة بيرنارد، يقبع في قسم لا اسم له، ملوّن بلون الخوخ، في شوارع متشابكة تحيط بها طرق سريعة من كلّ جانب. أردتُ أن أبكي، فمن المؤذي أن تعرف أنّ ديكنز قد نُفيَت إلى العالم السفليّ لمجتمعات لوس أنجلس غير المرئيّة. حصون الأقليّات، السرّيّة للغاية، مثل النبلاء ومثل الشوارع التي لم يكن لديها أو لم تحتج قوائم *دليل توماس*، أو الحدود الرسميّة، أو لوحات الإعلانات الرخيصة لتعلن «أنت الآن تدخل...» أو «أنت الآن تغادر...»، لأنّه عندما يخبرك الصوت داخل رأسك (الصوت الذي أقسمتَ بأغلظ الأيمان ألاّ يكونَ متحيّزاً أو عنصريّاً) أن تنزل الستارة على النوافذ وتقفل الأبواب، فستعرف أنّك للتوّ قد دخلت الأدغال أو شوارع العصابات، وأنّه عندما تتنفّس من جديد، تكون قد خرجتَ. رسمتُ علامةً زرقاءَ، ورسمتُ خطوطاً عريضة ملتوية لبلدتي، بقدر ما أتذكّرها، وخربشتُ ديكينز بأحرف دودجر الزرقاء على مساحة الصفحتين ٧٠٤-٧٠٥، ورسماً توضيحيّاً لإشارة الخروج، كنت للتوّ قد أضفتُها. لو تملّكتني الشجاعة في أحد الأيّام فسأنصب لافتتَين إضافيتين. فإذا وجدت نفسك مندفعاً جنوباً عند النقطة ١١٠ على الطريق السريع، ومضيت بسرعة أمام لافتتَين ملطّختَين مكتوب عليهما **انتبه لانخفاض أسعار المنازل** و **تحذير: أمامك جرائم سُود ضدّ سُود**، فستعلم حينها إلى مَنْ يعود الفضل في التحذيرات على جانب الطريق.

مفكّرو دُونات دُم دُم

٧

يوم الأحد الذي تلا نَصب اللافتة، أردتُ أن أعلنَ رسمياً خطّتي لإحياء مدينة ديكنز، إذ لا يوجد مكان أنسب لذلك من الاجتماع التالي لمفكّري دونات دُم دُم، وهو أقرب ما لدينا إلى التمثيل الحكوميّ.

إحدى السخريات الكثيرة المؤلمة للحياة الأفريقيّة-الأمريكيّة أنَّ كلّ تجمُّع تافهٍ مختلّ الوظيفة يُطلَق عليه اسم «وظيفة»، والوظائف السّوداء لا تبدأ أبداً في الوقت المحدَّد، لذلك من المستحيل أن تحدِّدَ مقياس الوصول متأخِّراً على نحو عصريٍّ من دون أن تُتاحَ لك فرصة تفويت الحدث بمجمله. انتظرتُ حتّى وصلتْ مباراة الرايدرز إلى استراحة منتصف المباراة وأنا غير راغبٍ في الجلوس حينما أعدُّ الدقائق.

منذ وفاة والدي تحوّل مفكّرو دونات دُم دُم إلى مجموعةِ مبهورين بالنجوميّة. رجال سود من الطبقة الوسطى من خارج بلدتنا، وأكاديميُّون يجتمعون كلَّ شهرَين، أو مرّتين في الشهر ليتملّقوا المشهورَ على نحوٍ ما فوي شيشاير. وبقدر ما تقدِّر أمريكا السّوداء أبطالها الساقطين، كان من الصعب معرفة ما إذا كانوا أكثر تأثُّراً بمرونته، أو معرفة كيف أنّه لا يزال يقود سيّارة كلاسيكيّة من نوع مرسيدس ٣٠٠ إس إل موديل ١٩٥٦، على الرغم من تطوُّرات حياته. ومع ذلك، كانوا يحومون حوله، آملين إقناعه بقدرتهم على رؤية مجتمع أسود محتاج، لكنّهم إذا ما خلعوا

غماماتهم العِرقيّة للحظة، فسيدركون أنّه أصلاً لم يعد ثمّة مجتمع أسود بل لاتينيٌّ بمعظمه.

كانت الاجتماعات تتألّف في غالبيّتها من الأعضاء الذين يظهرون كلّ أسبوعَين، يتجادلون مع الأعضاء الذين يأتون كلّ شهرين، حول ما تعنيه كلمة bimonthly[1] بالتحديد. دخلتُ متجر الدونات، تماماً، في الوقت الذي كانت فيه آخر نسخة من نشرة *ذا تيكر*، وهي تطوير عصريٌّ للإحصاءات المتعلّقة بديكنز، تُمرَّر بين الموجودين.

وفيما أنا جالس في الخلف، إلى جانب فطائر التوت، قرّبتُ النشرة الورقيّة من أنفي واستنشقتُ رائحة حبر آلة النسخ الزكيّة قبل أن ألقي عليها نظرةً خاطفة. نشرة *ذا تيكر* هي مقياسٌ مجتمعيٌّ كان والدي قد صمّمها لتبدو مثل تقارير مؤشّرات أسهم داو جونز، باستثناء أنّ السلع والأسهم الزرقاء في مؤشّرات البورصة كانت استُبدِلت بالأمراض والصعوبات الاجتماعيّة. كلُّ شيءٍ كان مرتفعاً: البطالة، الفقر، انعدام القانون، معدّل وفيات الرضّع، بقي مرتفعاً. كلُّ شيءٍ كان دوماً في انخفاض: معدّلات التخرُّج، محو الأميّة، سنُّ اليأس المتوقَّعة... أصبح في انخفاض أكثر.

جلس فوي شيشاير تماماً تحت ساعة الحائط. إبّان عشر سنوات، غيرَ كسبه خمسة وسبعين باونداً، لم يتغيّر فوي شيشاير كثيراً. لم يكن يصغر هوميني، عُمْراً، كثيراً، لكنّ شعرَه لم يخطُه الشيبُ قطُّ، ولم يثقب وجهه سوى بضعة تجاعيد بسبب الضحك. على الحائط خلفه، كانت ثمّة صورتان مؤطّرتان بحجم مُلصَق، الأولى كانت لعلبة تشكيلة قِطع دونات منتفخة جداً تبدو في مظهر عصريٍّ، وهي في الصورة، لا تبدو مثل القِطع التي تُدعى معجّنات، الطازجة، المنتفخة، المتكتّلة التي

(١) bimonthly تعني بالإنكليزيّة إمّا كلّ نصف شهر، أو كلّ شهرين! (م)

تنتصب أمام عينيّ في خزانة العرض. الصورة الثانية، كانت صورةً وجهيّةً ملوّنة لأبي، فخوراً، وهو يلبس مشبك ربطة العنق الخاصّ بجمعيّة علم النفس الأمريكيّة، وشعره في تمام تموُّجه. بدأت أسلّي نفسي، فحكمتُ، من خلال الجوّ الجدّيّ في الغرفة، أنّ ثمّة الكثير على جدول الأعمال، وسيمضي وقت طويل قبل أن يصلَ مفكّرو دُم دُم إلى «الشؤون الثانويّة».

أمسك فوي كتابَين، وصار يلوّح بهما أمام المجموعة مثل ساحر يهمُّ بالقيام بخدعة في ورق اللعب، وينادي: *أمسكوا بالثقافة، أيّ ثقافة.* رفع واحداً منهما فوق رؤوس الأشهاد مخاطباً جمهوره بلكنة جنوبيّة موثَّرة متكلّفة، مع أنّه أصلاً من هوليبود هيلز، على طريق غراند رابيدز «في إحدى الليالي، ليس من وقت بعيد» قال فوي «حاولت أن أقرأ هذ الكتاب هوكيلبيري *فين*، لأحفادي، لكنّني لم أستطع تجاوز الصفحة السادسة لأنّ الكتاب مفعمٌ بكلمة زنجيّ، وعلى الرغم من أنّهم أعمق تفكيراً، وجاهزون للقتال، وهم بأعمار الثمانية والعشرة، عرفتُ أنّ صغاري لم يكونوا جاهزين بعد لفهم رواية هوكيلبيري فين مع كلّ مزيّاتها الخاصّة. هذا هو السبب في أنّني استخدمتُ حرّيتي لأعيد كتابة تحفة مارك توين، وحيث توجد مفردة «زنجيّ» البغيضة هذه، بدّلتها بكلمة «محارب»، وكلمة «عبد» بـ«المتطوّع أسود البشرة»».

«هذا صحيح»، صرخ الحشد.

«كذلك طوّرتُ أسلوب جيم في الرواية، فأعدتُ ترتيبَ خطّ الحبكة قليلاً، وأبدلتُ تسمية العنوان إلى *المغامرات الخالية من التحقير، والرحلات الفكريّة والروحيّة لجيم الأفريقيّ-الأمريكيّ ومساعده الشابّ والأخ الأبيض هوكيلبيري فين، وهما يمضيان باحثَين عن وحدة الأسرة السّوداء الضائعة.* ثمّ رفع فوي نسخةً من المجلّد المجدّد من أجل الاختبار. نظري ليس قويّاً، لكنّي كنت أستطيع أن أقسمَ إنّ الغلافَ كان

يُظهر هوكيلبيري فين يقود الحشد إلى أسفل نهر المسيسيبي العظيم[1]، في حين يقف جيم الكابتن الأفريقيُّ-الأمريكيُّ في المقدِّمة ويداه على ركبتيه الضيّقتين، يكشف بتباهٍ عن لحية صغيرة مشذَّبة ومعطف رياضة من قماش صوفيٍّ مُقلَّم من نوع بيربيري، تماماً مثل الذي تصادف أنَّ فوي يلبسه.

لم أكن أحبُّ الذهاب إلى الاجتماعات كثيراً، لكن بعد وفاة والدي، صرتُ أظهر في الاجتماعات دائماً، إلاَّ إذا كان ثمَّة حالة طارئة في المزرعة. وقبل تقليد فوي قائداً للمجموعة، دارَ في الأرجاء بعض الكلام حول استمالتي كي أتصدَّى لمهمَّة القائد، أن أكون كيم جونغ أون وفق مفاهيم مجتمع الغيتو، وفي الوقت نفسه اضطلع بواجباتي في الهمس الزنجيّ. لكنَّني رفضت، معتذراً بادِّعائي أنَّني لا أُلمُّ الكثيرَ عن الثقافة السَّوداء، ذلك أنَّ اليقين الوحيد الذي كنت أعيه حول الحالة الأفريقيَّة-الأمريكيَّة هو أنَّه ليست لدينا مفاهيم لعبارات مثل «حلو جدّاً» و «مالح جدّاً». وفي السنوات العشر الأخيرة، وخلال عدد لا يحصى من الوحشيَّة والازدراء ضدَّ السُّود، والفقراء، والملوَّنين، مثل استفتاءَي كاليفورنيا رقمي ٨ و ١٨٧، واختفاء الرعاية الاجتماعيَّة، وانهيار ديفيد كرونبيرغ، وهبوط مستوى المعنى الجميل للكاتب ديف إيغر، أنا لم أنبس ببنت شفة. وفي أثناء فرز الأصوات لم ينادِني فوي قط باسمي الصحيح، لكن ببساطة صرخ «الخائن!»، ثمَّ نظر إلى وجهي مع ابتسامة خبيثة، وقال «هنا»، ووضع علامة إلى جانب اسمي.

لامس فوي أطراف أصابع يدَيه ببعضها عند مقدّمة صدره، العلامة العالميَّة التي تدلُّ على أنَّ أذكى شخص في الغرفة موشك أن يقول شيئاً.

(١) إشارة إلى تهجير الأمريكيِّين الأصليِّين الشهير إلى غرب نهر المسيسيبي في القرن التاسع عشر. (م)

تكلّم بصوت عالٍ وبسرعة، وازداد خطابه سرعةً وكثافةً مع كلّ كلمة «إنّني أقترح أن نتحرّك للمطالبة بتضمين طبعتي المحترمة سياسياً لكتاب هوكيلبيري فين في كلّ منهاج للقراءة في المدارس المتوسّطة، فجريمة أنّ أجيالاً من الشعب الأسود تقدّمت في العمر ولم تختبر هذا الـ». ألقى فوي نظرةً خاطفةً على غلاف النسخة الأصليّة الخلفيّ «هذا الأثر الكلاسيكيّ الأمريكيّ رائع التصوير».

«أهو «شعبٌ أسود» أم «شعوبٌ سود»؟» عدم إلقائي كلمة لأوّل مرّة منذ سنين جعل كلينا مضطربَين، لكنّني جئتُ لغاية قول شيء ما. لذلك، لماذا لا أحمّي حبالي الصوتيّة. أكلتُ قضمة من إحدى قطع بسكويت أوريو، كنتُ التقطتُها بجرأة خلسةً، «أيّهما أصحُّ قواعدياً؟ لا أعرف». أخذ فوي رشفةً مهذّبةً من الكابتشينو وتجاهلني. هو وبقيّة القطيع غير الديكنزيّ، ينتمون إلى تلك المجموعة الفرعيّة المخيفة من المفكّرين المستذئبين الذين أحبُّ أن أشيرَ إليهم بـ«المستذئبين السُّود». في يومنا هذا، المستذئبون السُّود مثقّفون ومهذّبون، ولكن مع كلّ دورة قمريّة، ورُبع ماليّ، ومراجعة فترة الحكم، ينمو ريشُ أعناقهم، وينزلق إلى طبقات فرائهم الطويلة الممتدّة على الأرض، وأوشحة فرو المِنْك، وتنمو أنيابهم، ويسقطون من أبراجهم العاجيّة وغرف اجتماع شركاتهم، ليجوسوا داخل المدن، بحيث يمكنهم العواء تحت ضوء القمر المكتمل، مع المشروبات وموسيقا البلوز العاديّة. الآن شهرته تلك، إن لم تكن ثروته، تضاءلت، ومستنقع فرص مجتمع الغيتو الضبابيّ للمستذئب الأسود فوي شيشاير هو ديكنز. عادةً، أحاول تجنُّبَ المستذئبين السُّود مهما كلّف الثمن. ليس الخوف من أن أُفكّك فكرياً هو أكثر ما يخيفني، بل هو الإصرار المُتخِم على مخاطبة الكلّ، خصوصاً الناس الذين لا يحتملون، مثل الأخ فلان، والأخت فلانة. اعتدتُ أن أحضرَ هوميني معي إلى الاجتماعات تخفيفاً من الملل، بالإضافة إلى

ذلك، هو ربّما يتفوّه الهراءَ الذي أفكّر فيه. «لماذا أنتم، أيُّها الزنوج، تتكلَّمون على نحو أسود جدّاً؟ عندما تتكلَّمون هنا، تسقطون آخر حرف من أيِّ كلمة بصيغة المصدر، لكن في عروضكم الصغيرة على التلفاز الوطنيّ، تصبحون-يا أبناء العاهرات- مثل كيلسي غرامر وهو يدخل عصا في قفاه». لكنَّه، وبمجرَّد أن سمع الشائعاتِ التي انتشرت بسرعة، وتقول إنَّ فوي شيشاير كان استخدم بعضاً من ملايينه في الملكيّات التي كان قد كسبها على مرّ السنين، في شراء حقوق أكثر الحلقات عنصريَّة في المجموعة الكاملة لسلسلة أفلام *عصابتنا*، وجَبَ عليّ أن أطلبَ من هوميني التوقُّف عن الحضور. كان سيصرخ ويغضب، وسيقاطع كلَّ حركة مع بعض الاستعراضات الدراميَّة «أيُّها الزنجيُّ، أين هي أفلام *الأوغاد الصغار* خاصّتي؟»، ثمَّ سيقسمُ أنَّ أعظم عمل له مسجَّل على تلك الأفلام. وإذا كان الكلام صحيحاً فإنَّه سيكون من المستحيل أن يغفرَ لحارس السُّود مدَّعي الصلاح حرمانَه العالم، إلى الأبد، من أفضل ما يشير إلى التحيُّز العرقيّ الأمريكيّ في الأقراص المدمجة «بلو راي» وصوت الدولبي المجسَّم. ولكنَّ معظم الناس يعرفون أنَّ ملكيَّة فوي شيشاير، الذي يشبه تمساح المجاري، القادر على الفتك بسكاكر بوب روكس وبالصودا، لأكثر أفلام *الأوغاد الصغار* عنصريَّة ليست أكثر من أسطورة موسيقا السُّود.

دائماً سريع في خطواته، ردَّ فوي على وقاحتي بأكلي بسكويت أوريو، بكيس من فطائر كانولي المناسبة للذوّاقة. كلانا كان جيِّداً بما يكفي ليأكل الهراء الذي تقدِّمه محلّات دونات دُم دُم.

«هذا خطِر، الأخ مارك توين استخدم كلمة زنجيّ ٢١٩ مرَّة، ما مجموعه ٦٨ كلمة زنجيّ لكلِّ صفحة».

«لو سألتموني لقلتُ إنَّ مارك توين لم يستخدم كلمة «زنجيّ» بما فيه

الكفاية»، غمغمتُ وفمي ملآن بأربع قطع على الأقل من بسكويت أمريكا المفضّل، ولا أظنُّ أنَّ أحداً فهمني. أردتُ أن أزيدَ في الكلام، مثل أن أقولَ هل تلومُ مارك توين لأنّك لا تملك الصبر والشجاعة على أن تشرح لصغارك أنَّ كلمة «زنجيّ» موجودة؟ وأنّه، وإبّان حياتهم الصغيرة المحميّة، ربّما يناديهم، في يوم من الأيّام، أحدهم بـ «زنجيّ». لن يشيرَ إليهم أحد أبداً بِمفردات ملطّفة للمعنى مثل «سود صغار»، لذلك مرحباً بكم في المعجم الأمريكيّ! أيّها الزنوج! لكنّي كنتُ نسيتُ أن أطلب الحليب كي أغمس فيه البسكويت، ولم تتسنَّ لي الفرصة لأشرح لفوي وجماعته، مغلَقي الأدمغة، أنَّ حقيقة مارك توين هي أنَّ معدَّل الزنجيّ الأسود الخاص بك متفوّق على معدَّل الزنجيّ الأبيض. ولكن لا، زنوج دُم المتّسمين بالأبّهة، هؤلاء أرادوا أن يحرّموا الكلمة، أن يزيلوا البطّيخ، أن يشخروا في الصباح، أن يغسلوا قضيبك في المغسلة، والعارَ الأبديّ لامتلاكك شعرَ عانة بملمس ونسيج العالم السفليّ. هذا هو الفارق بين معظم شعوب العالم المضطهدة وسود أمريكا. لقد أخذوا عهداً على أنفسهم ألاَّ ينسوا، ونحن نريد كلَّ شيءٍ ممحيّاً من سجلّنا، مختوماً، ومرفوعاً إلى الأبد. نحن نريد شخصاً مثل فوي شيشاير ليقدّم قضيّتنا للعالم مع مجموعة من التعليمات، بحيث إنَّ هيئة المحلّفين سوف تتجاهل قروناً من السخرية والنمطيّة والتظاهر بأنَّ الزنوج البائسين والحزينين أمامك يبدؤون من لا شيء.

واصلَ فوي إعلان مبيعاته: «كلمة زنجيّ هي الكلمة الأكثر خسّة وحقارة في اللغة الإنكليزيّة. لا أؤمن بأنَّ أحداً يمكن أن يجادلَ في هذه النقطة».

«يمكن أن أفكّرَ في كلمة أكثر حقارة من كلمة «زنجيّ»». تطوّعت للكلام، وكنتُ قد بلعتُ أخيراً حبّة الشوكولاتة مع الكريمة خاصّتي، وأغمضتُ عيناً، وقبضتُ على بسكويتة كنتُ قد أكلتُ نصفها، وصرتُ

أنظر من خلالها بحيث جعلت القوس البنيّ الغامق المتبقّي من البسكويتة فوق رأس فوي الضخم حتّى بدا القوس كتسريحة رجل أفريقيّ من شركة البسكويت الوطنيّة، نقرأ داخلها كلمة أوريو.

«مثل ماذا؟».

«مثل أيّ كلمة نصفُ فيها أحدهم، مستخدمين صفة أنثويّة: زنجيّة، يهوديّة، شاعرة، ممثّلة، زانية، أو أيّ صفة لعينة. أفضّلُ أن ينادوني زنجيّاً على أن ينادوني «فتاة ضخمة» في أيّ يوم من أيّام الأسبوع».

«أمر إشكاليّ»، غمغم أحدُهم، مذكّراً بالكلمة الشيفرة التي يستخدمها المفكّرون السُود ليصفوا شيئاً ما أو شخصاً ما جعلهم يشعرون بعدم الارتياح، أو بالعجز، وبأنّهم على نحو مؤلم مدركون أنّهم لا يستطيعون الإجابة عن الأسئلة، أو الردّ على حمقى مثلي. «ما هو الشيء اللعين الذي جاء بك إلى هنا إن لم يكن لديك شيء مثمر لتقوله؟».

رفع فوي يديه، طالباً الهدوء «إنّ مفكّري دونات دُم دُم يحترمون كلّ إسهامة. وإلى هؤلاء الذين لا يعرفون، هذا الخائن هو ابن مؤسّسنا» ثمّ تحوّل إليّ مع نظرة شفقة على وجهه «أكمل، أيّها الخائن، قُل ما جئت لتقوله».

في معظم الأحيان، عندما يقدّم أحدهم عرضاً أمام مفكّري دُم دُم، فإنّه مضطرٌ لاستخدام برنامج (بوربوينت)، رزمةِ عروض سلايدات «برنامج أفريقيّ-أمريكيّ» طوّره فوي شيشاير. ليست مختلفة كثيراً عن منتَج ميكروسوفت، إلاّ أنّ الخطوط لديها أسماء مثل تمبوكتو، نهضة هارلم، وبتسبرغ كوريير. فتحتُ غرفة معدّات التنظيف. وهناك، إلى جانب الممسحة والدلاء، كان جهاز عرض الصور الشفّافة القديم ما يزال موجوداً، زجاجه العلويّ مع الورقة الشفّافة الوحيدة كانا متّسخين مثل نوافذ سجن قذرة، ولكنّه لا يزال يعمل.

طلبتُ من مساعد المدير أن يخفضَ الإضاءة، ثمّ يوجّه مخطّطاً إلى السقف الفِلّينيّ، أشرح فيه خطّتي لإعادة ترسيم حدود مدينة ديكنز. شرحتُ كيف أنَّ إشارات الحدود يجب أن تكون مطليّة بتقنيّة الرشّ على الأرصفة، وأنَّ خطوط ترسيم الحدود سيشار إليها بصفّ من المرايا، وأشعة ليزر برأس الدبوس خضراء عالية الطاقة، أو إذا ثبت أنَّ ذلك باهظ التكلفة فيمكن عندها ببساطة السَّيرُ على الاثنَي عشرَ ميلاً من الحدود بخطٍّ من الطلاء الأبيض، من قياس ثلاثة إنشات. سماعي كلمات «السَّير» و«خطوط ترسيم الحدود» تخرج من فمي جعلني أدرك أنّه حتّى لو كنت أقوم بهذا الهراء على بقعة في الحائط، فإنّني أكثر جدّيّة في هذا الأمر ممّا ظننتُ أنّني عليه. نَعَم، «أنا أعيدُ مدينة ديكنز».

ضحكٌ. موجات وصرخات من الضحك الأسود العميق، من النوع الذي يتوق إليه مالكو المزارع الطيّبون في أفلام مثل ذهبَ *مع الريح*. ضحكٌ مثل الذي تسمعه في غرفة خلع الملابس بعد مباراة كرة سلّة، في كواليس حفلات الراب، وفي الغرف الخلفيّة لقسم الدراسات الأفريقيّة الذي يحضره طلّاب القسم البِيض كليّاً في جامعة ييل، بعد أن تجرّأ محاضرٌ ضيفٌ ذو شعر مجعّد أن يشيرَ إلى أنَّ ثمّة صلة بين فرانز فانون والفكرة الوجوديّة، ونظريّة الأوتار في الفيزياء، وموسيقا جاز بيبوب. عندما هدأ صوت الكورس الساخر أخيراً، أزال فوي دموع الضحك من عينيه، وأنهى ما تبقّى من فطيرة الكانولي، وانطلق بسرعة ليقفَ خلفي، وأدار صورة والدي باتجاه الحائط، وبهذا وفّر على أبي إحراج مشاهدة ابنه يدنّس ذكاء الأسرة.

«أنت تقول إنّك ستعيد ديكنز؟»، سأل فوي كاسراً الجليدَ بين السؤال والجواب.

«نعم».

«نحن، وأنا أظنُ أنّني أتحدّث بلسان معظم المجموعة، لدينا سؤال واحد، لماذا؟».

المؤلم هو أنّني توقّعت من كلّ واحد أن يهتمّ، لكنّ أحداً لم يفعل. عدتُ إلى مقعدي، واضطربت بعد ذلك، وأنا في حالة نصف استماع إلى الخطب المعتادة عن انحلال الأسرة السّوداء، وعن الحاجة إلى الأعمال السّوداء، منتظراً فوي أن يقول جملته: «وأشياء من هذا النوع» التي تعني «روجر، أنهِ الاجتماعَ» لينتهي معه التواصل الفكريُّ الأسود.

«... وأشياء من هذا النوع».

وأخيراً، انتهى الاجتماع. وفي حين كان الجمع يُفضُّ، كنت أفتح آخر بسكوتة أوريو عندما، من الخارج ومن اللامكان، خطفَتها يدٌ سوداء بجلدٍ قاس، وأدخلتها داخل فمٍ صامت.

«قدّمتَ ما يكفي لكلّ العِرق، أيُّها الزنجيُ؟».

بخصلات شعر مستقيمة مثبّتة على حلقات ورديّة ومجمّعة تحت قبّعة استحمام تكشف ما بداخلها، وأقراط ضخمة تتدلّى من كلتا الأذنين، بدا خاطفُ البسكويتة يشبه بلانش أو مادج، أكثر منه عضو العصابة سيّئ الصيت المعروف بِاسم كانغ كوز (على الرغم من أنّ اسمه يكتب كينغ king، لكنّه يُلفظ كانغ). وبصمت، بصمت مطبق، لعنتُ كوز وهو يمدُّ لسانه فوق أسنانه بحوافها المعدنيّة، ويمسح بقع الشوكولاتة الصغيرة الجيّدة من على جسر أسنانه.

«هذا ما كان يقوله معلّمي لي عندما كنتُ أمضغ علكةً وهراءً من هذا القبيل «لقد قدّمت ما فيه الكفاية لكلّ الصفّ»».

«دون شكٍّ، أيُّها الزنجيُ».

في كلّ الوقت الماضي الذي عرفت فيه كوز، لم أجرِ معه أيَّ محادثة حقيقيّة سوى «دون شكّ، أيُّها الزنجيُ»، ولم يفعل غيري سوى ذلك،

لأنّه، حتّى وهو في منتصف العمر، رجل حسّاس، وإذا تلفّظت بشيء خاطئ، فسوف يُظهر للعالم مقدار حساسيّته من خلال البكاء في جنازتك. لذلك، لا أحد يشاركه الحديث، وفي أيّ وقت يتحدّث معك، بغضّ النظر عمّا يقول، سواء كنتَ رجلاً، امرأةً، طفلاً، فإنّك ستجعل صوتَك رقيقاً قدر الإمكان، وتجيب: «دون شكّ، أيُها الزنجيُّ».

بدأ كانغ كوز يحضر اجتماعات مفكّري دونات دُم دُم بإخلاص مُذ قام والدي بالهمس الزنجيّ في أذن أمّه عند مسارات قطارات الميترو. يداها كانتا مقيّدتين بحبل قفز، وكذلك قدماها، وربطت نفسها إلى قضبان السكّة، وهي تصرخ «عندما تقع عاهرة بيضاء في مشكلات، هي آنسة غير متزوّجة في محنة! عندما تقع عاهرة سوداء في مشكلات، فإنّها تغشّ في الرعاية الاجتماعيّة، وهي قيدٌ على المجتمع. كيف لم يتصادف أنّكم قابلتم آنسة سوداء؟ رابونزيل، رابونزيل[1]، مُدّي ضفيرتكِ!» كانت تصرخ بصوت عالٍ جدّاً حتّى إنّ أصوات احتجاجات انتحارها كانت أعلى من صوت ناقوس إنزال بوّابة العبور في محطّة القطارات، وأعلى من صوت البوق المدوّي عند نداء اللاعبين عند الخطّ الأزرق في لعبة الهوكي على الجليد. كانغ كوز، كان اسمه وقتها كورتيس باكستر، وأذكر كيف أنّ الرياح التي هبّت نتيجة مرور أحد القطارات نفخت دموعَ كورتيس على جانبَي وجهه، في حين كان أبي يحمل أمّه بين ذراعيه. أذكر كيف كانت مسارات السكّة الحديديّة الصّدئة تطنّ، ولا تزال ساخنة الملمس.

إذاً، قدّمتَ ما يكفي لكلّ العِرق.

كبر كورتيس حتّى أصبح كانغ كوز، رجل عصابة يحظى باحترام

---

(١) إشارة إلى حكاية ألمانيّة، تمدّ فيها البطلة ضفيرة شعرها لسحب حبيبها. (م)

كبير، لدماغه ولشجاعته البطوليّة. عصابته، متعقّبو ورق لفّ السجائر، كما كان اسمها، كانت أوّل عصابة تلقّت تدريباً في مجال الرعاية الصحيّة، فعندما يحصل إطلاق نار في أثناء عمليّة مبادلة، ترى حاملي النقّالات يخلون المصابين كي يعالَجوا في أحد المستشفيات الميدانيّة التي أنشئت خلف الخطوط الأماميّة للمعركة. أنت لا تعرف حقّاً إن كنت ستحزن أو ستتأثر. لم يمضِ وقت طويل بعد ذلك الابتكار حتّى قدّم طلباً إلى عضويّة الناتو. *كلُّ شخصٍ آخر هو عضو في الناتو، فلماذا أعضاء عصابات كريب ليسوا كذلك؟ هل ستخبرني أنّنا لم نُطرد من إستونيا؟*

دون شكٍّ، أيُّها الزنجيُّ.

«أريد أن أتحدَّث معك في بعض الموضوعات».«دون شكٍّ أيُّها الزنجيُّ».

«لكن ليس هنا».

أمسَكَني كوز من كمِّ قميصي ورافقني إلى الباب، ومنه إلى داخل ليلة من ليالي رواية «كلب أسرة باسكيرفيل». كان دائماً أمراً صادماً أن يتحوَّل النهار إلى ظلام من دونك. توقَّفنا من أجل أن نسمح للضباب الرطب والصمت أن يلفحا وجهينا. أحياناً، يكون من الصعب التحدُّث عمّا هو أكثر سرمديَّة، أو أكثر تحيُّزاً، أو أكثر تمييزاً، أو عن الاجتماعات اللعينة. حرَّك كوز قبضته نصف تحريكة، وتفحَّص أظافر يده الملوَّنة. بعدها، رفع أحد حاجبيه المنقوشين بصعوبة، وابتسم.

«أوَّل شيء هو إعادة ديكنز. اللعنة، ماذا سيقول بقيَّة الزنوج من خارج المدينة، أنا تماماً مع هذا الهراء. ولم نكن وحدنا، أنا وأنت، هناك، فمفكِّرو دُم دُم، أبناء ديكنز، لم يضحكوا. لذلك، ابدأ بهذا أيُّها الرجل، لأنَّك إن أمعنتَ التفكير قليلاً فستتساءل: لماذا لا يستطيع الناس السُّود امتلاك مطاعم صينيَّة خاصَّة بهم؟».

«دون شكٍّ، أيُّها الزنجيّ».

ثمَّ قمتُ بشيء لم أفكِّر يوماً أنّني أستطيع فعله، فتورَّطتُ في محادثة مع كانغ كوز، لأنّه كان يجب عليّ أن أعرف، حتّى لو كلّفني ذلك حياتي، على أقلّ تقدير، ما هي الدمغة التي تميِّزني، في حين كلُّ أبناء الحيّ الزنوج «أبناء عاهرات تماماً».

«يجب عليّ أن أسألك سؤالاً، كانغ كوز».

«نادِني كوز، كوز».

«حسناً كوز، لماذا تحضر تلك الاجتماعات؟ ألا ينبغي عليك أن تكون هناك في الخارج تبيع المخدِّرات وتطلق النار على الناس؟».

«اعتدتُ الذهاب إلى هناك من أجل الاستماع إلى والدك. لتتغمَّد روحه بالرحمة. ذلك الزنجيُّ أثَّر فيّ على نحو عميق، للحقيقة. لكنّي الآن أذهب أفقط لأتأكَّد من أنَّ مفكِّري دُم دُم الزنوج هؤلاء لا يفكِّرون حقّاً في أن يخطوا خطوة واحدة في الحيّ كي ينشروا أشياء يفترض أنّها أسرار، وهكذا. بتلك الطريقة أستطيع على الأقل أن أزوِّد أولاد الحيّ بملاحظةٍ مساعِدة تشبه إنذار بول ريفير ربّما. أوّلاً، إذا جاؤوا بسيّارات اللاند كروزر. ثانياً، إذا جاؤوا بسيّارات المرسيدس الكلاسيكيّة. عليّة القوم جاؤوكم! عليّة القوم جاؤوكم!».

«مَن القادم هناك؟». كان فوي مَن سأل. انتهى الاجتماع، هو والمستذئبون السُّود الآخرون تكدَّسوا داخل سيّاراتهم، يجهِّزون أنفسهم للطواف في المدينة. لم يكلِّف كورتيس باكستر «كانغ كوز» نفسه عناء الإجابة على فوي. ببساطة، استدارَ على كعب حذائه، ومشى مشية القوّاد باتجاه الليلة الضبابيّة، يميل في مشيته باتّجاه اليمين مثل بحّار ثمل يعاني التهاب أذن داخليّة. صرخ في وجهي «فكِّر في مطاعم الصينيّين، واحصل على بعض النساء، فأنت متوتِّر جدّاً».

«لا تستمع إلى ذلك الرجل. متعة المرأة مبالغ في تقديرها».

حينما كنت أفكُّ وثاق حصاني، وأمتطيه، فتح فوي زجاجتين تحتويان على أقراص دواء، وأفرغ ثلاثة أقراص بِيضاً في راحة يده.

«صفر فاصلة صفر صفر واحد» قال، ثمّ خضَّ الأقراص داخل يده ليتأكّد من أنّني رأيتهم. زولوفت وليكسابرو.

«ما هي الجرعة؟».

«لا، يا معدّلات نيلسِن اللعينة، أبوك كان يعتقد أنّي معتوه ومكتئب، أنا في الحقيقة هو أنا، يبدو الأمر كذلك بالنسبة إليك، أيضاً».

تظاهر أنّه يعرض عليّ الأقراص، قبل أن يضعها بكلّ لطف على لسانه، ويغسلها بجرعة كبيرة من قارورة فضيّة تبدو باهظة الثمن. منذ أن توقّفت رسوم الكرتون خاصّته عن البثّ في التلفزيون، كانت لدى فوي سلسلة من البرامج الحواريّة الصباحيّة. كلّ فشل متعاقب يبدأ بثّه أبكر وأبكر في الصباح. وكما تُظهر عصابة بلادز Bloods ارتباطها بشعارها، باستبدالها حرف c لأنّه الحرف الاستهلاليّ لاسم عصابة كريب Crip، بالحرف K، (مثل تغيير الحرف c إلى k في الكلمات Cap'n Crunch Cereal «حبوب ماركة كابتن كرانش» إلى Kap'n Krunch Kereal)، فإنّ فوي أيضاً يُظهر انتماءه للعصابات عن طريق تبديل استبدال كلمة (حقيقة) fact (بِأسود) black، فقد أجرى مقابلات مع كلّ واحد من قادة العالم، وصولاً إلى الموسيقيّين الميتين في برامج عناوينها مثل *الأسود*، *والنشر*، *والطوطم الأسود*. آخر صرعاته كان منتدى لسباق سخيف مسموح للعموم يُدعى *فقط السُّود، سيّدتي* يُبَثُّ في الخامسة في صباح كلّ اثنين. مَن سيكون مستيقظاً عند الساعة الخامسة صباحاً في كلّ أنحاء العالم سوى زنجيّين اثنين، فوي شيشاير وخبير التجميل خاصّته.

من الصعب وصف رجل يرتدي ما يحتمل أنّه يكلّف ٥٠٠٠ دولار

بين بذلة وحذاء وإكسسوارات. لكن، كلَّما اقتربتَ منه في ضوء الشارع تتكشَّف لك حقيقته؛ رجل أشعث غير مرتَّب، ريالته شاطَّة، وغير نظيف، قميصه مُجعَّد يفتقد النشاء، مؤخَّرة بنطاله، من الأسفل، المجعَّدة تماماً بنيَّة بسبب الوسخ، وكأنَّه للتوِّ قد خرج من مشاجرة، حذاؤه بالٍ، وتفوح منه رائحة عصير نعناع عفنة. سمعتُ مرَّة مايك تايسون يقول «فقط في أمريكا يمكن أن تكون مفلساً وتعيش في قصر».

أغلق فوي قارورته ثمَّ حشرها داخل جيبه. الآن، وبما أنَّ لا أحد ينظر، انتظرته كي يقوم بكلِّ عمليَّة تحوُّل الاستذئاب. نمو الأنياب والمخالب. تساءلتُ إن كان شَعْرُ المستذئبين أزغبَ. لا بدَّ أنَّه كذلك، صحيح؟

«أعرف ما الذي تسعى إليه».

«وما الذي أسعى إليه؟».

«أنت الآن في سنِّ أبيك عندما مات، وأنت لم تقل أيَّ هراء في الاجتماعات لمدَّة عشر سنوات. لماذا اخترتَ هذا اليوم لتتحدَّث فيه عن هذا الهراء المتعلِّق بإعادة ديكنز؟ لأنَّك تحاول أن تستردَّ دُم دُم، تسترجع ما بدأه والدك».

«لا أظنُّ ذلك. أيُّ منظَّمة تقدِّم محاضرات حول أخطار مرض السكَّر في متجر دونات، لا أستمتع بعرضها أبداً».

ربَّما كان ينبغي عليَّ أن أشاهدها. والدي كانت عنده قائمة نقاط يحدِّد فيها ما إذا كان أحدهم قد فقد عقله، أو لم يفعل. كان يقول إنَّ ثمَّة إشارات تدلُّ على الانهيار العقليّ، غالباً ما يخطئ في أنَّها قوَّة شخصيَّة. العزلة. تقلُّب المزاج. أوهام العظمة. وبعيداً عن هوميني، الذي كان، مثل واحدة من رقاقات الخشب الأحمر، التي تشاهدها في متحف العلوم، كتاباً مفتوحاً، أنا وحدي أعرف كيف تموت شجرة في الداخل،

ولكنّني أجهل حال الأشخاص. فالشجرة نوعاً ما تنطوي على ذاتها، والأوراق تصبح مبقّعة، وأحياناً يصيبها تآكل وشقوق في القشرة، والأغصان ربّما يكون أحدها جافاً، والآخر رطباً، أو إسفنجياً عند اللمس، لكنّ أفضل طريقة هي أن تنظرَ إلى الجذور. الجذور هي ما يثبّت الشجرة في الأرض، يحفظها في كرة غزل القذارة هذه. وإذا ما تآكلت تلك الجذور وغطّاها البوغ والفطر، حسناً... أنا أذكر، عندما نظرتُ إلى جذور فوي، زوجين من الأحذية المجنّحة، بنّيّين باهظين، كانا باليَين ومغبرَّين. لذلك، بالنظر إلى الإشاعات الدائرة حول زوجته التي تطلب الطلاق، والإفلاس، وبرامجه التلفزيونيّة معدومة التعليقات، ربّما كان ينبغي عليّ أن أعرف.

«سأبقي عيني عليك». قال وهو ينزلق في سيّارته «مفكّرو دونات دُم دُم هم كلُّ ما تبقّى لي. لن أدعك تقضي عليّ». أطلق الزمّور لي مرّتين من بوق سيّارته إشارة للوداع، ثمّ ذهب. اندفعت سيّارته المرسيدس بينز إلى أسفل جادّة إل سيلو، متخطّية سرعة الصوت وهي تطير أمام كوز الذي كان يتبختر بخطىً بطيئة لا يمكن إخطاؤها، حتّى من مسافة بعيدة. إنّها لا تحصل غالباً. لكن، مرّةً، في ليلة زرقاء من ليالي عصابات كريب، قال أحدُ مفكّري دونات دُم دُم شيئاً مبتكراً، مثل «مطاعم الصينيّين السُّود» و«نساء».

«دون شكّ، أيّها الزنجيُّ»، قلتُ بصوت عالٍ.

ولأوّل مرّة كنتُ أعنيها.

٨

مضيتُ في عمليّة رسم الحدود بالطلاء، ليس لأنَّ تكلفة الليزر باهظة جدّاً، مع أنَّ مؤشّر الليزر، بالكثافة التي أرغبها، كان سعره بضع مئات من الدولارات لكلّ قطعة، ولكن لأنّني وجدتُ أنَّ الطلاءَ أنسبُ للتأمّل. لطالما كنت أحبُّ التكرار في أعمالي، فالصيغة التي من خلالها أعيد مراراً وتكراراً حفظ الإضبارات وتعبئة المغلّفات كانت تبدو لي طريقة مؤكّدة على الحياة. وكنت، دائماً، أخلق عاملَ مصنع جيّداً، أو موظّفَ تسلُّم وتسليم، أو كاتبَ سيناريو في هوليود. وفي أيّام المدرسة، في أيّ وقت وجب عليَّ فيه أن أفعل شيئاً، مثل حفظ الجدول الدوريّ، كان أبي سيقول إنَّ مفتاحَ القيام بمهمّات مملّة هو ألاّ تفكّرَ كثيراً في ما تقوم به، بل في أهميّته. وعلى الرغم من ذلك، عندما سألته ما إذا كانت العبوديّة أقلّ خطراً نفسياً فيما لو كانوا فكّروا فيها بأنّها «بَسْتَنة»، ردَّ عليَّ بعضّة شرّيرة كانت ستجعل كونتا كونتي يَجفل.

اشتريتُ كميةً كبيرةً من طلاء البخِّ الأبيض، وآلة رسم الخطوط، وهو النوع الذي يُستخدَم من أجل رسم خطوط الياردات وخطوط المخالفات في ملاعب الكرة. وقبل أعمالي الصباحيّة الروتينيّة، عندما كانت حركة المرور خفيفة، سحبتُ نفسي إلى الموقع المراد، وأسّستُ ورشة عمل في منتصف الطريق، ورسمتُ الخطَّ. وغير مهتمّ باستقامة الخطّ، ولا بملابسي، وضعتُ الحدودَ. كانت علامة على عدم فعاليّة

جماعة مفكّري دونات دُم دُم أنّ أحداً لم يكن لديه أدنى فكرة عمّا أقوم به، ومعظم الناس الذين لا يعرفونني ظنّوا، مخطئين، أنّني فنّانُ أداءٍ مثلاً، أو أنّني شخصٌ مجنون. وبالنسبة للصفة الأخيرة، كانت ردّة فعلي عليها هادئة.

ولكن، بعد بضعة آلاف من الياردات من الخطوط البيضاء والمتعرّجة، أصبح واضحاً ما أقوم به لكلّ ديكنزيٍّ يزيد عمره عن العاشرة. وبلا دعوة، وقفتْ مجموعة من المراهقين المتهرّبين من دوامهم، أو من المشرّدين، حرّاساً على الخطّ، ينزعون الأوراق والمخلّفاتِ عن الطلاء الجاف، ويبعدون راكبي الدرّاجات الهوائيّة وعابري الطريق، كي لا يلوّثوا الحدود. وفي بعض الأحيان، عندما أكون قد تقاعدتُ عن العمل لنهاية اليوم، أعود في الصباح التالي فأجد أحداً غيري قد أكمل ما كنت توقّفت عنده، ماداً خطّي بخطوط من صنعه، وغالباً بألوان مختلفة. أحياناً، لم يكن الخطُّ بادياً كخطٍّ على الإطلاق، بل نقاطاً من الدم، أو سلسلةً غير منقطعة من رسوم الغرافيتي التي تبارك جهودي AceBoonakathe WestSideCrazy 63rdstgangsta، أو قوسَ قزح بعرض ثلاث أقدام وطول أربعمئة قدم، مثبّت بواقيات ذكريّة ذهبيّة، كما في حالة الزاوية التي تواجه مركز الأزمات للمكسيكيّين في لوس أنجلس، الخاصّ للسّود وغير المثليّين، وأيّ شخص آخر يشعر بأنّه محروم من الرعاية الصحيّة المجانيّة، وغير مدعوم، أو تستغله عروض محطّات الكيبل. وفي منتصف الطريق، إلى الأسفل من جادّة فيكتوريا حيث يبدأ جسر إل هارفارد بقطع الجدول، قام أحدُهم بقطع خطّي بأن طبع عليه إشارة مثل تلك التي تدلُّ على المسافات الأرضيّة ورديّة اللون. لا أزال لا أملك أيّ فكرةٍ عمّا يعني هذا، لكن ما أحاول قوله هو أنّ مع كلّ المساعدة لم يأخذ وقتاً طويلاً إنهاءُ رسم الحدود. ورجال الشرطة، والكثير منهم يعرفني من عملي ومن بطّيخي، غالباً ما كانوا يرافقونني

وهم في سيّارات دوريّاتهم، يتفقّدون حدودي من أجل الدقّة بالمقابلة مع الإصدارات القديمة *لدليل توماس*، لذلك لم أكن أهتمُّ بالمضايقات حسنة النيّة للضابط منديز.

«ماذا تفعل؟».

«أنا أبحث عن مدينة ديكنز الضائعة».

«من خلال رسم خطٍّ أبيض على طول منتصف شارع لديه، بطبيعة الحال، خطّان أصفران في منتصفه؟».

«أنتِ تحبّين الكلب الأجرب الذي يظهر في فناء دارك الخلفيّ، بقدر ما تحبّين الجرو الذي كنت حصلتِ عليه في عيد ميلادكِ».

«إذاً، يجب عليك أن تلصق إعلاناً»، قالت وهي تعطيني أنموذجاً لإعلان كتبته بسرعة على ظهر ملصق عن شخص «مطلوب».

المفقود: البلدة الأمّ.

هل رأيت مدينتي؟

الوصف: يعيش فيها سُودٌ وبنيُّون، وبعضهم يتحدَّث لهجة سامو. بلدة لطيفة. تردُّ عليك فقط حين تناديها باسم ديكنز.

الجائزة تحصل عليها في الجنّة.

إن كانت لديك أيُّ معلومات، يُرجى الاتصال بالرقم ١-(٨٠٠)

ديكنز

قدّرتُ مساعدتها، وثبّتُّ النشرة على أقرب غرفة هاتف، مُستخدِماً من أجل ذلك علكة كنتُ أمضغها. بالنسبة لأولاء الذين يتطلّعون إلى العثور على الشيء الذي أضعته، فإنَّ قرار أين تضع منشورك اليدويَّ هو واحد من أصعب القرارات التي ستقرّرها في حياتك. اخترتُ مكاناً بين

منشور لحفلة العمّ جام العسكريّة في مركز فيتيرانس «العمُّ جام يريدكم! لتقاتلوا وتتهرّبوا من لوس أفغانستان، كاليفورنيا، الله أكب... موعد فتح البار من ٩-١٠ مساءً!» وإعلانٍ عن عمل غامض يدفعون لك فيه ١٠٠٠ دولار في الأسبوع، والعمل في منزلك! أملتُ من الذي ألصق هذا الاعلان، كائناً مَن كان، أن يكون قد اتّصل بالموارد البشريّة، لأنّني، على نحو جدّيّ، شككتُ في أنّهم يستطيعون تحصيل ٣٠٠ دولار في الأسبوع، مع العلم أنّهم لا يعملون من المنزل.

استغرق الأمر نحو ستّة أسابيع من أجل إنهاء رسم الحدود، ولصق الإعلانات. وفي النهاية، لم أكن متأكّداً من أنّني أنهيته، لكن كان أمراً ممتعاً أن تشاهد الأولاد يقضون أيّام عطلتهم يطوفون في المدينة وهم يتابعون خطواتهم بعناية، ويمشون مشية متأنّية على الخطّ، متأكّدين من أنّهم لم يفوّتوا إنشاً إلاّ وداسوا عليه. في بعض الأحيان، كنتُ أصادف عضواً مسنّاً من أعضاء المجتمع يقف في منتصف الشارع غير قادر على عبور الخطّ الأبيض الوحيد، وتعلو وجهه نظرات الحيرة وهو يسأل نفسه لماذا يشعر بقوّة حيال جانب ديكنز للخطّ، وكأنّه جانب مضادٌّ للجانب الآخر، فثمّة براز كلاب غير مكتشَف هنا كما هو هناك، وزرع غير أخضر هنا كما هو هناك. الزنوج كانوا مشتّتين، ولكن لسبب ما كانوا يشعرون أنّهم ينتمون إلى هذا الجانب. ولِمَ كلُّ هذا مع أنّه ليس إلاّ خطّاً؟

لا بدّ لي من الاعتراف أنّه، في الأيّام التي تلت رسمي له، أنا أيضاً، كنتُ متردّداً في عبور الخطّ، لأنّ الطريقة الممزّقة التي أحاط فيها بما تبقّى من المدينة ذكّرتني بخطوط الطبشور التي رسمتها الشرطة حول جثّة والدي. لكنّي، حقّاً، أحببتُ حيلة الخطّ. التكافل الاجتماعيّ الذي مثّله. وفي حين لم أُعِد إنشاءَ ديكنز من جديد حقّاً، فإنّني تمكّنتُ من عزلها. ومجتمع مدموج مع مصحّة للمجذومين لم يكن بدايةً سيّئةً.

أجرة الركوب المطلوبة

أو

فنُّ ركوبِ الحافلة وإصلاحِ العلاقات

٩

توقظكَ الرائحةُ أحياناً في منتصف الليل. شيكاغو، لديها راديو «ذا هوك»، وديكنز، على الرغم من خطِّ حدودها المطليّ حديثاً، لديها الرائحة النتنة. جوٌّ خانقٌ لا لون له من الكبريت والقذارة، حارقٌ للعيون، مولودٌ في مصافي نفط ويلمينيغتون ومعمل معالجة مجاري لونغ بيتش. الرائحة النتنة، التي تنقلها الريح المهيمنة داخل البلاد، تجتمع فيها الأدخنة اللاذعة مع رائحة الكسالى القذرة، المتبطّلين العائدين إلى منازلهم من السهر في الحفلات على شاطئ نيوبورت، منقوعين بعرَقهم، ومشروب التيكيلا، وغالونات كولونيا دراكار نواه المبالغ بها. يقولون إنّ الرائحة النتنة تخفض معدّل الجريمة ٩٠ بالمئة، لكن عندما تصفعك الرائحة حتّى توقظكَ في الثالثة صباحاً، فإنّ أوّلَ شيءٍ تريد القيام به عندها هو قتل مصمّم الموضة غاي لاروش.

في إحدى الليالي، بعد نحو أسبوعين من رسمِيَ الحدود، كانت الرائحة النتنة قويّة جدّاً، ولم أستطع معاودة النوم. حاولتُ أن أنظّفَ الإصطبلات آملاً في أن تزيلَ رائحةُ روثِ الخيل الطازجة الرائحةَ النتنة من منخري. لم تنجح الحيلة، ووجب عليّ أن أغطّي وجهي بقماشة منقوعة في الخلّ من أجل قتل الرائحة. دخل عليّ هوميني يحمل في إحدى ذراعيه بذلتي المبلّلة، أمّا الذراع الأخرى فتحمل وعاءً. كان يرتدي زيّاً يشبه زيَّ خادم إنكليزيّ، كاملاً مع قبّعة وذيل سترةٍ طويل،

وبهيئة ممثل خارج من مسلسل تحفُ *المسرح* الذي أنتجته هيئة الاذاعة والتلفزيون البريطانيّة.

«ماذا تفعل هنا؟».

«شاهدتُ الأضواء، ففكَّرتُ في أنَّ سيِّدي ربَّما يرغب بحفنة من الحشيش وبعض الهواء المنعش في هذه الأمسية».

«هوميني، إنَّها الرابعة صباحاً، لِمَ لَم تنمْ حتَّى الآن؟».

«للسبب نفسه الذي يبقيك صاحياً، تبدو كرائحة قذارة أحد المتشرّدين في الخارج».

«ومن أين حصلت على بذلة التوكسيدو هذه؟».

«في الماضي، في الخمسينيّات، كان كلُّ ممثّل أسود يقتني واحدة، كي يكون جاهزاً في حال طُلب منه تمثيل دور ساقٍ أو كبير خدم، وعندها كان حال الاستوديو يقول «أيُّها الولد، لقد وفَّرتَ علينا للتو خمسين دولاراً، لقد استأجرناك!»».

القليل من استنشاق الماريهوانا على الرِّيق مع بعض الوقت في ركوب الأمواج ليست فكرة سيِّئة، سأكون منتشياً جدّاً حتَّى أقودَ سيَّارتي باتجاه الشاطئ، لكن من شأن ذلك أن يعطيني العذر من أجل رؤية فتاتي لأوَّل مرَّة منذ أشهر، فأمسك ببعض الأمواج، وبنفحة من حبيبتي. يبدو هذا مثل أن تتخلَّص من عبثين بحجر واحد، إذا جاز التعبير. مشى هوميني معي إلى غرفة المعيشة، يَدور بكرسي أبي، ويضرب على مِسند الذراع.

«اِجلس».

حشوت الغليون ببعض أوراق الحشيش، ثمَّ أخذت نفَساً عذباً وطويلاً، وانتشيتُ حتى قبل أن أنفثه. لم يكُ ينبغي أن أترك باب الغرفة الخلفيَّ مفتوحاً، لأنَّ واحداً من العجول، حديثي الولادة، لامعاً، أسودَ، بالكاد عمره أسبوع، ولم يكن اعتاد أصوات ديكنز ورائحتها

بعدُ، كان يتجوّل في الغرفة ويحدّق فيَّ بعينَيه البنيّتين الواسعتين. نفثتُ نفثةَ حشيش في وجهه، ومعاً تمكنّا من الشعور بالضغط يخرج من جسدينا، في حين يقشر السّواد من جلدينا، ويفور الميلانين، ويتبدّد إلى لا شيء، مثلما تذوب مضادّات الحموضة في الماء.

يقولون إنَّ سيجارةً تنقص من عمرك ثلاث دقائق، لكنَّ الحشيش الجيّد يجعل الموت يبدو بعيداً جدّاً.

صدح في الهواء صوتُ إطلاقِ نيران متقطّع، ولحق آخِر تبادل لإطلاق النار في الليل هدير دوران حوّامة الشرطة. تقاسمتُ مع العجل رشفتَي ويسكي من أجل تخفيف التوتُّر، والتصق هوميني بالباب. موكب من سيّارات الإسعاف مضى مسرعاً في أسفل الشارع، في حين كان هوميني يسلّمني لوح الركمجة مثل خادم يسلّم سيّداً إنكليزيّاً محترماً معطفَه. أتؤمنون بذلك أم لا، في بعض الأحيان أغار من وضوح هوميني، لأنّه، على عكس أمريكا، كان قد قلب الصفحة. تلك هي المشكلة مع التاريخ، نحن نحبُّ أن نفكّر فيه ككتاب، بحيث نستطيع قلبَ الصفحةِ والمضيَّ قدماً، لكنَّ التاريخ ليس الورقَ الذي طُبع عليه، إنّه الذاكرة، والذاكرة هي الأوقات، والعواطف، والأغاني. التاريخ هو الأشياء التي تبقى معك.

«سيّدي، فكّرتُ للتو أنّه ينبغي عليك أن تعرفَ أنَّ عيدَ ميلادي في الأسبوع القادم».

عرفتُ أنَّ ثمّة حدثاً جعله لطيفاً جدّاً، ولكن ماذا تتوقّع من العبد الذي لا يريد حرّيته حتّى؟

«حسناً، هذا لطيف. سنقوم برحلة إذاً، أو نفعل شيئاً ما. في الأثناء، هل تقدّم لي خدمة فتضع العجل في الخلف».

«أنا لا أقوم بأعمال المزرعة المتعلّقة بالحيوانات»!

حتَّى عندما لا تشتمّ أيَّ رائحة في الجوّ، عندما تمشي في شوارع مجتمع الغيتو بثياب ربيعيَّة، ولوح الركمجة مدسوس تحت إحدى إبطيك، فإنَّ أحداً لن يتعرَّض لك حقّاً. ربَّما في إحدى المرّات يقوم ولد لصٌّ فضوليٌّ بدراستي، فينظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل ويخمِّن كم سيكسب من مكتب الرهانات إذا أعطاه لوحَ ركمجة قديماً من نوع «تاون آند كانتري». وأحياناً، يوقفني أحدُهم أمام مركز خدمة غسيل الثياب ويحدِّق بعجب في ابن الحيِّ الذي يلبس شخَّاطة مفتوحة، ثمَّ يقرص الطبقة المطاطيَّة الخارجيَّة لجلدي.

«تحقَّق منه، صديقي».

«عمَّ تتكلَّم؟».

«تحقَّق من عمل هذا الشيء الذي تحمله؟».

السَّاعة ٤٣.٥ صباحاً، الحافلة رقم ١٢٥ المتحرِّكة غرباً باتجاه إل سوغوندو أقلعت في الوقت المحدَّد. وأبواب الحافلة الهوائيَّة تأرجحت وهي تنفتح مصدرةً ذلك الصوت الذي أحبُّه. والسَّائقة ترحِّب بي بصوت ودود «أسرع، يا بن العاهرة، أنت تجعل الرائحة تدخل». سائقة الحافلة كانت تظنُّ أنَّنا انفصلنا فقط لأنَّها، منذ سنوات، تزوَّجت باناتشي، مغنِّي راب العصابات ذاك (الآن هو شرطي تلفزيون نصف مشهور، ويسوِّق لشراب شعير). أنجبا أربعة أولاد، وحصل على أمر منعٍ يطلب منِّي البقاء بعيداً عنها وعن الأولاد مسافة تزيد عن خمسمئة قدم، لأنَّني في إحدى المرّات لحقتُ بهم من المدرسة إلى المنزل وأنا أصرخ «أبوكم لا يميِّز بين السَّجع والمرثاة! ويعدُّ نفسه شاعراً».

جلستُ في مكاني المعتاد، المقعد الأقرب إلى درجات الصعود، انحنيتُ إلى الوراء ومددتُ قدميَّ في الممرّ، أسيطر على لوح التزلج ببراعة وكأنَّه درع أفريقيَّة من الألياف الزجاجيَّة، أردُّ عنِّي وابلَ البصاق وقشور البذور والإهانات طالما استطعت.

«تبّاً لك».

«تبّاً لك».

منفيّاً ومُتأذّياً، هرولتُ إلى مؤخّرة الحافلة، وأودعتُ لوح التزلُّج خاصّتي في المقعد الخلفيّ، وتمدّدتُ عليه كدرويش مكسور القلب ينام على سرير من المسامير، في محاولة لاستبدال الألم العاطفيّ بألم جسديّ. تحرّكتِ الحافلة ببطء إلى أسفل روزكرانس، وحُبُّ حياتي الذي لا يمكن تعويضه، ماريسا ديليسا داوسون، تنادي بأسماء المواقف، مثل ضابطٍ للوقت بوذيّ، في حين كان رجل مجنون، يبعد عنّي ثلاثة صفوف من الأمام، يلقي تعويذة الصباح: *أنا سأضاجع تلك العاهرة السّوداء، أنا سأضاجع تلك العاهرة السّوداء، أنا سأضاجع تلك العاهرة السّوداء، أنا سأضاجع تلك العاهرة السّوداء.*

عدد السيّارات في مقاطعة لوس أنجلس هو أكبر من عدد السيّارات في أيّ مدينة في العالم. ولكن، ما لا يتحدّث عنه أحدٌ أبداً هو أنّ نصفَ هذه السيّارات يقبع في كتل نفايات المعادن في مستنقعاتٍ قذرةٍ تمتدُّ على مسافة ياردات من لانكاستر إلى لونغ بيتش. هذه السيّارات الساكنة، جنباً إلى جنب مع لافتة هوليود، وأبراج واتس، وملكيّة آرون سبيلينغ ذات الـ ٥٦٥٠٠ قدم مربّع، هي الإعجازات الهندسيّة في لوس أنجلس، الأقرب إلى المعجزات الهندسيّة القديمة مثل البارثينون، ومعبد أنكوروات، والأهرامات العظيمة، والأضرحة القديمة لتومبوكتو. قطع الأنتيكا الصدئة ذوات البابين أو أربعة الأبواب تقف منيعة أمام الرياح والأمطار الحمضيّة لهذا الزمن. ومثلما هي الحال مع صخور «ستونهينغ»، ليس لدينا أيّ فكرة عمّا تفيد هذه النُصب المعدنيّة. هل هي شهادات على السيّارات الكلاسيكيّة الأمريكيّة الممتازة والجميلة التي تنعم بها أغلفة مجلّات تجارة السيّارات؟ ربّما يتماشى زخرف غطاء

المحرّك وأغطية مؤخّرات السيّارات مع النجوم والانقلاب الشمسيّ الشتويّ. ربّما هي أضرحة، أماكن يستريح فيها العشّاق والسائقون. كلُّ ما أعرفه أنّ كلّ واحد من هذه الهياكل المعدنيّة يعني سيّارةً أقلّ في الطريق وراكباً إضافيّاً في حافلة العار. والعار، لأنّ لوس أنجلس هي مكان للتنقُّل، وهنا يأتي احترام الإنسان لذاته من كيفيّة اختيار إبحارك في هذه المساحة والتنقُّل فيها؛ المشيُ هو أقرب إلى التسوُّل في الشوارع، سيّارات الأجرة هي للغرباء والعاهرات، الدرّاجات الهوائيّة وألواح التزلُّج، وأحذية التزلُّج هي للمجانين والأطفال والأشخاص الذين لا أماكن يذهبون إليها، وكلُّ السيّارات، من سيّارات الرفاهية المستوردة إلى السيّارات المصنّفة بأنّها كماليّة، هي رموزٌ للحالة، لأنّه لا يهمُّ إن كانت رديئة التنجيد أو سياقتها قاسية أو طلاؤها اللعين سيّئ، فركوب السيّارة، أيّ سيّارة، هو أفضل من ركوب الحافلة.

«المتنزَّه!» صاحت ماربيسا، فهرولت امرأة على متن الحافلة، تحمل الكثير من أكياس التسوُّق البلاستيكيّة، وتشبك محفظتها بإحكام إلى جانبها عند مرفقها، وأخذت طريقها إلى آخر الممرّ تمسح المكان من أجل شاغر. أستطيع اكتشاف أيّ قادم جديد إلى لوس أنجلس من بعد ميل. هؤلاء القادمون الجدد يحيّون باقي المسافرين لأنّهم يظنُّون، على الرغم من كلّ الأمثلة المناقِضة، أنّ وجوبَ الركوب في وسائل النقل العامّة هو نكسة مؤقّتة فحسب. وهم الذين يجلسون تحت إعلانات «الجنس الآمن» يبحثون متسائلين من فوق روايات بريت إيستون إيليس خاصّتهم، محاولين اكتشاف السبب في أنّ الملاعين حولهم ليسوا كلُّهم بِيضاً وأغنياء مثل الشخصيّات في الكتاب أمامهم. وهم الذين يقفزون إلى الأعلى والأسفل مثل الفائزين في عروض الألعاب عندما يكتشفون أنّ لمطاعم «إن إن آوت» برغر قائمتَا ساندويش: سريّة، وغاية في السريّة، «فطائر مشويّة بالخردل؟ اخرجوا من هنا». وهم الذين يشتركون في

عروض المايكروفون المفتوح في أندية «لَف فاكتوري». وهم الذين يمشون على طول الرصيف، يحاولون إقناع أنفسهم أنَّ مشهد الجنس المزدوج الذي مثّلوه في حي ريسيدا في لوس أنجلس الأسبوع الفائت هو وسيلة للتقدُّم باتجاه أشياء أفضل فحسب[1] *La pornographie est la nouvelle nouvelle vague*.

كثير من الأهلين يتفاخرون بكلمات أبنائهم الأولى. ماما. بابا. أحبُّك. توقَّف. لا. هذا غير مناسب. أمّا أبي، في الجانب الآخر، فكان يحبُّ أن يتباهى أمامي بكلماته الأولى. لم تكن «مرحباً» أو حتى صلاةً، ولكن إحساساً موجوداً في الفصل الأوّل لكلّ *مدخل إلى علم النفس الاجتماعيّ* كان قد كُتب: *كلُّنا علماء اجتماع*. وأنا أفترض أنَّ أوّل بحث ميدانيّ أجريته كان في الحافلة.

عندما كنت صغيراً، كان نظام الحافلات المحلّي يُدعى م ن س. رسميّاً، هو اختصار من الأحرف الأولى لتعبير منطقة النقل السريع، لكن بالنسبة لأبناء لوس أنجلس الذين كانوا يعيشون في أماكن لا تُطاق مثل واتس، ولابونيتي، وساوث سنترال، الذين كانوا صغاراً جدّاً أو فقراءَ جدّاً لكي يسوقوا، كانت هذه الأحرف ترمز إلى الخطر. وكانت أوّل ورقة علميّة لي، حسب علمي، عن نظام الحافلات، كتبته وأنا في السّابعة من عمري، وعنوانه «اتجاهات جلوس الركّاب وفق العِرق والجنس: التحكُّم بالنسبة للطبقة، والعمر، والازدحام، ورائحة الجسم». وكانت النتيجة تتَّضح في الحال، فإذا اضطررتَ للجلوس إلى جانب شخص ما، فإنَّ الناس ستنتهك المساحة الشخصيّة للمرأة أوّلاً وللسُّود أخيراً. إذا كنت ذكراً أسودَ، فلن يجلسَ أحدٌ، ولا حتّى غيرك من الذكور السُّود، إلى جانبك إلاّ إذا اضطرّ من دون شكّ لفعل ذلك. وعندئذ،

---

(١) بالفرنسيّة بالأصل: البورنوغرافيّة هي الموجة الجديدة. (م)

سوف ينزلق جالساً إلى جانبي بفتور، وسيحيِّيك بأحد ثلاثة أسئلة مُصمَّمة لتحديد مستوى تهديدك:

١ ـ أين تعيش؟

٢ ـ هل شاهدتَ... (مدخلاً حدثاً رياضياً، أو فيلماً يتحدَّث عن السُّود)؟

٣ ـ لا أعرف من أين أنت، أيُّها الصديق، لكن هل ترى هذه السكِّين /السِّلاح/ الطفح الجلديّ المعدي؟ لا تلهو معي، ولا ألهو معك. اتَّفقنا؟

يمكنني القول إنَّه من الطريقة التي تجرُّ ذراعيها بها على الأرض يتَّضح أنَّ أكياسها ثقيلة، وأنَّها بالكاد تحافظ على بقالتها، وعلى أحلامها. وعلى الرَّغم من كونها مُنهكة، وضيقها يتزايد أكثر فأكثر مع كلِّ ارتفاع وانخفاض لترقُّبها المرهِق، فإنَّها فضَّلت أن تقفَ على أن تجلسَ إلى جانبي. إنَّهم يُحيون إلهام لوس أنجلس بأن تكون أبيضَ. حتَّى هؤلاء البيض بيولوجيّاً ليسوا بيضاً تماماً. كرةُ طائرة شاطئ لاغونا بيضاء. حيُّ بيل أير أبيض، وجبةُ الأوماكيز بيضاء، جيف سبيكولي أبيض، بريت إستون إيليس أبيض، الأسماء الثلاثة الأولى بيضاء، خدمة صفِّ السيَّارات بيضاء. افتخرْ بعِرقكَ الأمريكيِّ الأصليِّ، الأرجنتينيِّ، البرتغاليِّ الأبيض. شوربة فو بيضاء، البابارانزي بِيض. مرّةً طُردتُ من عمل التسويق عبر الهاتف، الآن انظروا إليَّ، أنا أبيض مشهور. يقطينة الكالابازا بيضاء. أنا أحبُّ لوس أنجلس. إنَّها المكان الوحيد حيث تستطيع أن تذهبَ لركوب الأمواج، إلى الشاطئ، إلى الصحراء. كلُّ ذلك في يوم واحد أبيض.

تمسَّكت المرأة بوجهة نظرها بدلاً من الجلوس إلى جانبي، ولستُ ألومها، لأنَّه في الوقت الذي وصلت فيه الحافلة إلى جادَّة فيغويرو كان

هناك عدد كبير من الناس على متن الحافلة لم أكن قد اخترتهم ليجلسوا إلى جانبي، أيضاً. ومثل المعتوه الذي يكبس زرّ «طلب التوقُّف»، صرخت المرأة «أوقفي هذه الحافلة، اللعنة! أريد أن أخرج! أين تذهبين؟». حتّى في ذلك الوقت المبكّر من النهار، كان إيقاف الحافلة بين المواقف المعتمدة أمراً يشبه الطلب من طاقم رحلة الصاروخ أبولو المتَّجهة إلى القمر أن يقف عند محلّ المشروبات في طريقه-أمر مستحيل.

«قلتُ أوقفي هذه الحافلة اللعينة، لقد تأخّرتُ عن عملي أيّتها البقرة السمينة العاهرة!».

السّائقون، الحرّاس، قادة معسكرات التركيز، كلُّهم لديهم أساليب إدارة خاصّة. البعض يغنّي للمسافرين، يهدِّئهم بقصائد عصر الجاز الراقي، مثل قصيدة «شاي من أجل الاثنين» وقصيدة «عيد الحبّ المضحك». آخرون يحبُّون الاختباء، ينخفضون في جلساتهم على المقاعد، ويتركون الركّاب الزملاء يديرون الممرّات، وأحزمة الأمان محرّرة في حال نشوء ضرورة للهرب السريع. لم تكن ماربيسا منضبطة، لكنّها أيضاً لم تكن شخصاً يمكن هزيمته. كان عملها الاعتياديُّ اليوميُّ مليئاً بالمعارك، وخطف المحفظات، ومضايقات دفع الأجرة، والتعدّي على الخصوصيّات، والثّمل في الأماكن العامّة، وتعريض الأطفال للخطر، والقِوادة، وزنوج يقفون باستمرار على الخطّ الأصفر حينما تتحرّك الحافلة، وألعاب الرفس، ولن نقول شيئاً عن محاولات القتل في بعض الأحيان. المتحدِّث باسم نقابتها قال إنّ سائق الحافلة في هذا البلد يُعتدى عليه مرّة كلّ ثلاثة أيّام. وثمّة أمران، كانت ماربيسا قد قرّرت منذ وقت طويل أنّها لن تكونهما: رقم إحصائيّ، و«البقرة السمينة» لأحدهم. ولا أعرف كيف حلّت مشكلة المرأة الغاضبة-بكلمة طيّبة، أو بتلويحة التهديد من عصا الزنجيّ المعدنيّة التي تحتفظ بها وراء مقعدها-لأنّني

غرقت في النوم، ولم أستيقظ حتّى وصلنا إلى إل سيغوندو. تردَّد صدى صرختها «الموقف الأخير» داخل الحافلة الفارغة.

أعرف أنّها كانت تأمل منّي أن أخرج من الباب الخلفيّ للحافلة، لكنّها، حتّى في زيّ عمّال النقل الموحَّد، رماديّ اللون، البشع، الذي يعطيها ثلاثين رطلاً وزناً زائداً، كانت لا تزال جذّابة على نحو لا يمكن تفاديه. في الطريق السريع لا يمكنك أن تتوقّف عن النظر إلى كلب يلصق رأسه خارج نافذة سيّارة، وأنا، لم أستطع أن أبقي عينيّ بعيدتين عنها.

«أغلق فمك، إنّك تمسك الذباب».

«هل افتقدتني؟».

«افتقدتك؟ أنا لم أفتقد أحداً منذ توفّي مانديلا»؟

«وهل مات مانديلا؟ بدا الأمر وكأنّه سيبقى حيّاً إلى الأبد».

«حسناً، كلا الحالتين، كما تشاء».

«أرأيتِ، أنتِ تفتقدينني حقّاً».

«أنا أفتقد خوخك اللعين. أقسم بالله، أستيقظ أحياناً في منتصف الليل وأنا أحلم بخوخك اللعين وبالرمّان الريّان. وأنا كدت لا أنفصل عنك لأنّني بقيت أتساءل من أين سأحصل على بطّيخ أصفر لعين مذاقه مثل رعشة جنسيّة مضاعفة».

أعدنا إحياء صداقة طفولتنا ونحن في الحافلة. كنتُ في السّابعة عشرة غير مبالٍ وغرّاً، وهي كانت في الحادية والعشرين، وجميلة إلى درجة تجعل زيّ منطقة النقل السريع الموحَّد بلون الطحالب البنيّة، ذا المقاس الخطأ، يبدو وكأنّه موضة من تصميم بيوتات الأزياء، إذا استثنينا الشارة المطبوعة عليه، لأنّه لا أحد، حتّى جون وين، يمكن أن يزيلَ هذه الشّارة. في ذلك الوقت، كانت تقود الرّحلة رقم ٤٣٩، من وسط المدينة إلى شاطئ زوما، طريق حالما قطعت فيه جسر سانتا مونيكا فإنّه في

معظمه من دون ركّاب، إلاّ من المحبطات والمتسكّعات والأرامل اللاتي يخدمن في بيوت القشّ عند مقدّمة شاطئ المحيط. ركبتُ الأمواج في كلٍّ من فينيس وسانتا مونيكا. معظمها في المحطة ٢٤، وأحياناً في المحطة ٢٠، لا يوجد سبب حقيقيّ، فالأمواج في تلك المحطّتين كانت مقرفة، مزدحمة بالبيض، خلا بعض الأحيان التي أرى فيها راكب أمواج ملوّناً مثلي. على العكس من هيرموسا وريديندو ونيوبورت، التي كانت أقرب إلى ديكنز، كان يهيمن على الأمواج أبناءُ يسوع المستقيمون الذين يقبّلون صلبانهم قبل كلِّ سباحة، ويستمعون إلى أحاديث الراديو المحافظة بعد الجلسات. أعلى الشاطئ، على طول طريق ماربيسا، كان أكثر هدوءاً. الجزء الغربيُّ من المدينة. راديو كلوس إف إم يبثُّ موسيقا «أي سي/ دي سي» و«سلاير». راكبو الأمواج، هياكل عظميَّة مدمنة على المخدرات، تقرصهم أشعَّة الشمس وفرقة «بيت» الإنكليزيَّة، يعقّمون أجسادهم وبثورهم برفقة المتعطِّلين والمتبطِّلين والمتخبِّطين في هذه الاستراحات الرمليَّة الطريَّة.

النهاية الغربيَّة لشارع روزكرانس، حيث تلتقي الطرق المسدودة مع الرمال، هو التناظر الثاني والأربعون بين أجواء المشاركة والعصبيَّة في آن واحد لخط شاطئ مقاطعة لوس أنجلس. من شاطئ مانهاتن إلى الأسفل باتجاه كابريللو، ينادونك زنجيّاً، ويتوقَّعون منك أن تركض. من إل بورتو شمالاً باتجاه سانتا مونيكا ينادونك زنجيّاً ويتوقَّعون منك أن تبدأ عراكاً. أمّا ماليبو وما بعدها فيطلبون الشرطة. بدأت رحلتي في الحافلة تمضي أبعد فأبعد على طول الشاطئ، وبذلك استطعت أن أقضي وقتاً أطول في الدردشة مع ماربيسا. لم نكن حقّاً نلتقي مُذ بدأت تواعد الأولاد الأكبر سنّاً، وتوقفتُ عن تمضية الوقت في منزل هوميني. وبعد ساعتين من تبادل الأحاديث عن حياة الأحياء الفقيرة في ديكنز، وعمّا وصل إليه هوميني من أحوال، وجدتُ نفسي على بعد أميال من المنزل،

أركب الأمواج مع الفقمات والدلافين في مناطق نائية مثل طابانجا، لاس توناس، أماريللو، بلاكار، إيسكونديدو، وزوما. أنجرف إلى شواطئ خاصّة حيث، الملياديريّون المحلّيّون المتقعون بالرطوبة، يحملقون فيَّ وكأنّني حيوان فظّ ناطقٌ، بقصّة شعر أفريقيّة تبدو كشجرة الصفصاف، عندما أمشي عبر أفنيتهم الخلفيّة الرمليّة، أدقُّ على أبوابهم المنزلقة الزجاجيّة، وأطلب استخدام الهاتف والمرحاض. ولكن لسبب ما، لا شخص أبيض لا يركب الأمواج يثق بزنجيٍّ حافي القدمين يحمل لوح ركمجة. ربّما يقولون لأنفسهم إنَّ ذراعيه قويّان جدّاً لحمل جهاز تلفزيون. وإلى جانب ذلك، إلى أين سيجري؟

بعد ركوب أمواج مستحقٍّ في عطلة نهاية أسبوع ربيعيّة، وثقتْ ماربيسا بي بما يكفي لترافقني إلى الحفلة الراقصة الخاصّة بثانويّتي. في حفل تخرُّج لواحد، نشأت علاقة عاطفيّة بين اثنين، وقام والدي حينها بدور المرافق والسّائق. ذهبنا للرقص في ديلونز، وهو مكان لرقص الديسكو. برج متعدِّد الطوابق، يرتاده من هم تحت الحادية والعشرين، تمييزيٌّ مثل أيّ شيءٍ آخر في لوس أنجلس. الطابق الأوّل: للموجة الجديدة، الطابق الثاني: أفضل ٤٠ أغنية روحيّة، الطابق الثالث: موسيقا راغا الأقلُّ تطرُّفاً، الطابق الرابع: رقصات باندا، سالسا، ميرنينغا ولمسة من الباتشاتا، في محاولة عقيمة لسرقة الزبائن اللاتينيّين من حدائق فلورنتين في جادّة هوليود. رفض أبي الصعود إلى ما فوق الطابق الثاني. فاستغللنا، أنا وماربيسا، الفرصة، للتخلّي عنه، والمشي إلى أعلى بيت الدرج، كريه الرائحة في الطابق الثالث، حيث رقصنا مع جيمي كليف والثلاثي آي، ثمّ خيّمنا في الخلف وراء المستمعين نشرب كوكتيل «ماي تاي»، ونقف قريبين قدر الإمكان من طاقم المغنّية كريستي مكنيكول بحيث لا يزعجنا رجال الأمن، نتخيّل أنّنا الأصدقاء السُّود الرمزيّون لنجمة أفلام المراهقين. ثمّ انتقلنا إلى نادي «كوكونات تيزر» لنشاهد فرقة

«ذا بانفلز» حيث نشرت ماربيسا إشاعةً تقول إنَّ أحداً ما اسمه «برينس» كان يضاجع المغنّيَ الرئيس.

جهلي بالمغنّي «برينس» كاد يقضي عليَّ، وتقريباً أجّل قبلتي الأولى إلى وقت لا يعرفه أحد. ولكن في صباح مبكّر، وبعد أن تناولنا وجبة الفطور الممتازة، كنّا في الكبينة الخلفيّة للشاحنة، وانخفضت سرعة السيّارة عند النقطة العاشرة من الطريق السريع حتّى ثمانية أميالٍ في السّاعة، مستخدمين أكياس العلف والبذور كوسائد، ونحن نتناوب المصارعة بلساننا وأصابعنا، نلعب لعبة «مَن ضربته أنعم»، تبادلنا القبل، تقيَّأنا، ثمّ تبادلنا القبل من جديد. «لا تقل قبلة فرنسيّة»، حذّرتني «قُل بصاقاً متبادلاً، وإلاّ فإنّك ستبدو غير خبير».

وبدلاً من أن يبقي عينيه على الطريق، بقي والدي يستدير إلى الوراء، يُنعم النظر بفضول عبر نافذة الشاحنة الصغيرة، ويدوّر عينيه متعجّباً من تقنيّة مداعبتي صدرها، ويسخر من الطريقة المتشنّجة لرأسي عندما يتدلّى كي أقبّلها، ويقوم بالإشارة العالميّة للمضاجعة بأن يرفع يده عن المقود ثمّ يرسم دائرة تمثّل البظر ويدخل إصبعه السبّابة فيها مرّة بعد مرّة. بالنسبة لرجلٍ، مثاله الوحيد على أنّه قام بممارسة الجنس مع أحد ما ليس مسجّلاً في صفّه هو أنا، على نحو محتمل، فإنّ لديه الكثير من الهراء ليتحدّث عنه.

كان مذهلاً كم تطوّرت علاقتنا بين الحافلة ورحلات ركوب الخيل وكبينة الشاحنة الخلفيّة والرحلات على ظهر الحصان إلى مسرح بالدوين. وضعت ماربيسا قدميها على عجلة القيادة وغطّت وجهها بنسخة ممزّقة من كتاب كافكا *المحاكَمة*، ومع أنّني لا أستطيع الجزم بذلك، لكنّني كنت أرغب في الاعتقاد أنّها كانت تخفي ابتسامة. معظم العاشقين لديهم أغانٍ يعدّونها ملكاً لهم، أمّا نحن فكان لنا كتب، مؤلّفون، فنّانون، أفلام صامتة. في عطل نهاية الأسبوع كنّا نستلقي عاريين في مخزن

القشّ، يزيل أحدُنا ريشَ الدجاج عن ظهر الآخر، ونتصفّح مجلّة *لوس أنجلس ويكلي*، فربّما تكون هناك مراجعات لجيرالد ريختر، أو ديفيد هامونز، أو إليزابيث موراي، أو باسكويت، عن متحف مقاطعة لوس أنجلس للفنون، وننقر على الإعلانات ونقول «مهلاً، إنّهم يعرضون رسومنا الزيتيّة المرسومة على القماش». كنّا نقضي ساعات ونحن نبحث في صناديق الأفلام المستعملة في متجر تسجيلات أميبا في جادّة سانسيت، ونسرق نسخة من رواية إيريخ ماريا ريمارك *كلُّ شيء هادئ على الجبهة الغربيّة*، ونقول «مهلاً، لقد سجّلوا نسخة إلكترونيّة جديدة من فيلمنا» ثمّ نضيّع وقتنا في قسم أفلام هونغ كونغ دون شراء أيّ فيلم. كان كافكا عبقريّنا، فقد كنّا نتبادل الأدوار في قراءة كتابَيه *أمريكا والحكايات الرمزيّة* بصوت عالٍ. أحياناً، كنّا نقرأ الكتابين بلغة ألمانيّة مبهمة، ونقوم بترجمات عفويّة للكلمات. وأحياناً، نشغّل الموسيقا مع القراءة، البريك-دانس مع رواية *المسخ* وموسيقا الرقص البطيء، مع كتاب *رسائل إلى ميلينا*.

«تذكرين كيف كنت تقولين إنّني أذكّرك بكافكا؟»

«ليس لأنّكَ أحرقتَ بعضاً من قصائدكَ المقرفة يعني أنّني أعتقد أنّك تشبه كافكا بشكل من الأشكال. الناس حاولوا أن يمنعوا كافكا عن تخريب أعماله، أمّا أنا فقد أشعلتُ أعواد الثقاب لك».

كان جوابها مقنعاً. فُتحت الأبوابُ، واندفعتْ إلى داخل الحافلة رائحة البحر، ورواسب النفط، وذرق النوارس. تردّدتُ عند الدرج السفليّ وتلمّست لوح الركمجة وكأنّ لديّ مشكلة في إخراجه عبر الأبواب.

«كيف هو هوميني؟».

«بخير. حاول قتل نفسه منذ مدّة».

«إنّه مجنون لعين».

«نعم، ولا يزال مجنوناً، هل تعرفين، عيد ميلاده اقترب، ولديَّ فكرة يمكنكِ أن تساعديني فيها». مالت ماريبيسا في جلستها إلى الوراء، وكتابها على بطنها، ما أوحى بأنّها حُبلى في الثلث الثاني من حملها.

«هل أنتِ حامل؟».

«بونبون، لا تتحامق».

رغم غضبها، لم أستطع تمالك نفسي عن الابتسام، لأنّني لم أستطع تذكُّر آخر مرّة نادتني بهذا الاسم، «بونبون». في حين لم يكن أخشن الألقاب، لكنّه من بين كلّ ألقابي، كان اللقب الأقرب لاسم شارع. عندما كنت صغيراً وُصِمتُ بأنّني محظوظ للغاية، فأنا لم أعانِ من أمراض مجتمع الغيتو الأنموذجيّة؛ لم أعانِ قط من أعراض متلازمة هزّ الطفل، أو من الكُساح، أو من القَوباء المنجليّة، أو من الكزاز، أو من السكّري المبكّر، أو من أيّ من تلك الالتهابات. أصاب السُّفاح أصدقائي وتركني وحيداً. على نحو ما، لم تلاحقني الشرطة من أجل وضع اسمي على بطاقة المخيفين، أو تمسك عنقي من الخلف. لم يتوجّب عليَّ أن أعيشَ في سيّارة لمدّة أسبوع. لم يخطئ أحدٌ فيَّ قطُّ، وظنّني ذلك الفاسق الذي أطلق النار، أو اغتصب، أو اختلس، أو حبَّل إحداهن؛ أو انتهك حرمةً ما، أو تهرّب من السداد، أو قلّل احتراماً، أو أهمل، أو حتّى مارس قذارته على أحد الناس. «قدمُ الأرنب»، «الولد النجم»، «ابن العاهرة المحظوظ»، أيّاً من هذه الألقاب لم يلتصق بي حتّى سنّ الحادية عشرة عندما ألزمني والدي أن أدخلَ مسابقة التهجئة المنتشرة في المدينة تحت رعاية نشرة ديكنز الإخباريّة، وهي جريدة توقّفت عن الصدور، ولونها أسود، حيث إنّ إخراج الألوان على صفحاتها كان مقلوباً بين الأبيض والأسود، كما في جملة وافق مجلسُ مدينة هونكي على زيادة

الميزانيّة. وفي الدور النهائيّ، تسابقتُ ضدّ ناكيشيا رايموند. كانت كلمتها هي «التأمُّل في السرَّة» omphaloskepsis، وكلمتي كانت «بونبون» bonbon، وبعد ذلك، وحتّى الليلة التي توفّي فيها والدي، كان اسمي هو: بونبون، *اختر لي رقماً*. بونبون، *انفخ في النرد*. بونبون *تقدَّم لامتحان الخدمة المدنيّة بدلاً منّي*. بونبون، *قبّل ابني الصغير*. نعم، منذ توفّي والدي مال الناس إلى إبقاء مسافة.

«بونبون...» عصرت ماربيسا يديها من أجل أن توقفهما عن الهزّ «أنا آسفة من الطريقة التي عاملتك بها في وقت سابق. عملي اللعين هذا...».

أظنُّ، في بعض الأحيان، أن لا وجود لشيء مثل الذكاء القابل للقياس، وأنّه، في حال كان موجوداً، ليس مؤشراً لأيّ شيء، وخصوصاً بالنسبة للملوّنين. فربّما لا يمكن للحمقى أن يصيروا جرّاحي أدمغة، لكنّ العبقريّ يمكن أن يكون إمّا طبيبَ قلب، أو موظّفَ بريد، أو سائقَ حافلة، سائق حافلة لديه بضعة خيارات لعينة. لم تتخلَّ عن الكتب، لكنّها بعد فترة أنهت علاقتنا القصيرة من أجل طالب مدرسة فاسد، أصبح بعدها مغنّي راب عصابات، جرّها من شعرها نصف الممشّط في الصباح، وبينما هي لا تزال في لباس النوم، أرغمها على مراقبة محلّات الجواهر في «سان فرانسيسكو فامي». لم أتمكّن قط من معرفة سبب عدم استدعائهم الشرطة حال مشاهدتهم أنثى أفريقيّة-أمريكيّة شابّة مشتبهاً بها تمشي بحذر في منتصف متجر تماماً بعد عشر دقائق من فتحه، تحدّق مباشرة في رجال الأمن والكاميرات، في حين تعدُّ خطواتها بصوت عالٍ وكأنّها تحسب المسافة بين أقراط الماس والبروش.

اسودّت عيناها، وهي تستدير نحوي، تختبئ في الظلال مثل وغدة شريرة في فيلم أسود أرادت أن تبالغ في تمثيلها وتقلّل من قدر قيمتها. لم تكن الدراسة الجامعيّة شيئاً يناسبها، لأنّها كانت تفكّر أنّ العمل يحوّل النساء السّوداوات إلى عاملات لا يُستغنى عنهنّ من الدرجة الثالثة أو

الرابعة بأجرٍ ممتاز، ولكن أبداً لن يكنّ في الدرجة الأولى أو الثانية. أحياناً، يكون حَمل امرأة في وقت مبكّر من حياتها أمراً جيّداً، أمراً يضعفك ليجذب اهتمامك، ويقوّم وضعك. وقفت ماربيسا عند الباب الخلفيّ تأكل درّاقة كانت قطفتها من شجرة. الدّم النازف من أنفها ومن شفتها اختلط مع الرّحيق، سال إلى الأسفل، إلى ذقنها، ومن ثمّ إلى قميصها، وإلى حذائها الرياضيّ النظيف. الشمسُ من ورائها حوّلت أطراف شعرها المجعّد غير الممشّط إلى هالة متّقدة من الأطراف المجزّأة، ومن العار. لم تدخل، فقط قالت «لقد سالَ ماء رحمي»، الأمر الذي كسر فؤادي بالطبع. وضعتها في السيّارة، ومن ثمّ قدتُ بسرعة جنونيّة، وهناك أعطوها إبرة مخدّر، في مستشفى مارتن لوثر كينغ الابن المعروف باسم مستشفى «كيلر كينغ»، وكان عملاً ناجحاً. طفل اسمه الأوسط بونبون، استدرار الحليب، رعب قضم الحلمة الذي يعمل كحافز على أن تتقدّم لتحصلَ على إجازة قيادة من الفئة (بي)، يذكّرك، إلى جانب كافكا وغويندولين بروكس وإينشتاين وتولستوي، أنَّ عملك المفضّل هو السياقة، أن تحافظ على حركتك، أن تقودَ حافلتك وحياتك برفق وببطء إلى المحطّة الأخيرة، وتحصل على فترة راحة مستحقّة.

«إذاً، سوف تقدّمين المساعدة من أجل هوميني؟».

«انزل من الحافلة اللعينة، وكفى».

مع ضغطةٍ على زرّ تشغيل المحرّك، هدرت الحافلة بالحياة. همّت ماربيسا بالرحيل. أغلقت الأبواب في وجهي، ولكن ببطء.

«هل تعرفين، كنتُ أنا مَن رسم الخطّ حول ديكنز».

«سمعتُ بعض الهراء حول هذا، ولكن لماذا؟».

«أنا أعيدُ المدينة. أعيدُكِ أيضاً».

«حظّاً موفّقاً في هذا».

تأرجحتُ صعوداً وهبوطاً في شارع أوشين، في الصندوق الخلفيّ القذر لسيَّارة «بيك أب»، مع بعض الأولاد البيض، شعورهم شقراء اللون شعثاء، مظلمين مثلك تقريباً، وجوههم التي لفحتها الشمس مقشَّرة مثل ملصقات «الوكال موشن» القديمة الضخمة الملتصقة بباب السيَّارة الخلفيّ. أحياناً، تشعر أنّك أقرب إلى راكب أمواج أكثر ممَّا أنت عليه حقّاً عندما تحمل على أعلى بطنك لوحَ الركمجة وتحدِّق في الأفق الضبابيّ منتظراً المجموعة التالية. كانوا لطيفين بما يكفي ليعرضوا عليك الركوب، وتردَّ الجميل بالتدخين. تنفخ وتمرِّر، وتحاول أن تحافظ على ذراع الحركة في السيَّارة، في حين تنتشي من حشيش كاليفورنيا. أهذا أنا أم أنَّ أضواء تحذير السيَّارة لم تعد قويّة؟

«ماريهوانا لا تُصدَّق، أيُّها الصاحب، من أين جئتَ بهذه القذارة؟»

«أعرف بعض أصحاب المقاهي الهولنديّة».

١٠

في ذلك اليوم الشتويّ، في ولاية ألاباما التي كانت الخاضعة للفصل العنصريّ، عندما رفضت روزا بارك[1] التخلّي عن مقعدها في الحافلة لرجل أبيض، أصبحت تُعرف بـ«أمّ حركة الحقوق المدنيّة في العصر الحديث». بعد ذلك بعقود، في وقت ما، بعد ظهر يوم موسميّ، في قسم من لوس أنجلس، يفترض أنّه غير خاضع للتفريق العنصريّ، لم يستطع هوميني جينكينز انتظار التخلّي عن مقعده لشخص أبيض. جَدُّ حركة الحقوق المدنيّة، ما بعد فترة التمييز، المعروف باسم «المرابط في مكانه»، جلس في مقدّمة الحافلة، على طرف المقعد المقابل للممرّ، وأجرى فحصاً سريعاً لكلّ راكب جديد. لسوء الحظ، بالنسبة له، ديكنز هي مجتمع أسود بقدر سواد الشّعر الآسيويّ، أسمرُ بقدر ما هو جيمس أسمر. وبعد خمس وأربعين دقيقةً في قسم الوقوف من الحافلة، ومن بين ركّاب الأقليّات، كانت الأقرب إلى شخص أبيض هي امرأة ذات شعر

---

(١) روزا لويس باركس، (١٩١٣-٢٠٠٥). ناشطة أفريقيّة أمريكيّة، طالبت بالحقوق المدنيّة للسّود. في يوم ١ديسمبر ١٩٥٥، وأثناء وجودها في حافلة عامة تقلّها من مونتغيمري إلى كليفلاند، طلب منها سائق الحافلة إخلاء مقعدها، مع غيرها من السّود ليجلس البيض الواقفين تبعاً للقوانين وقتها، ولما رفضت، طلبَ لها الشرطة، ليتطوّر الأمر ويصبح حركة للمطالبة بحقوق السّود المدنيّة. كُرّمت في حياتها ونالت الجوائز وأصبحت رمزاً. (م)

مجدَّل، صعدت إلى الحافلة في شارع بونيسيتيا وهي تحمل حصيرة يوغا.

«عيد ميلاد سعيد هوميني». قالت بابتهاج، وهي تقف تنظر إليه بالأسفل، وتنهمر من وجهها قطرات عَرق اليوغا على كمّ قميصه.

«كيف تصادف أنَّ الكلَّ يعلم أنّه يوم عيد ميلادي؟».

«مكتوب على مقدِّمة الحافلة، بالأضواء الساطعة الكبيرة: الحافلة رقم ١٢٥: كلُّ عام وأنتَ بخير هوميني! يا للفرحة، مثل ابن عاهرة».

«أوه».

«هل حصلت على شيء جيِّد في عيد ميلادك؟»

أشار هوميني إلى الملصقات ذات اللونين الأبيض والأزرق، بحجم علبة سجائر، الملتصقة تحت النوافذ التي تحدُّ الثلث الأماميَّ من الحافلة.

أولويّة الجلوس لكبار السنِّ، والمعوَّقين، والبِيض

Personas Mayores, Incapacitadas y Güeros Tienen

Prioridad de Asiento

«تلك هي هديَّة عيد ميلادي».

اعتادت ديكنز الاحتفال بعيد ميلاد هوميني على نحو جماعيٍّ. لم يكن الأمر مجرَّد استعراضات ومراسم تسليم مفتاح المدينة، بل كان الناس يتجمَّعون خارج منزله يردِّدون كلمات الابتهاج، مسلَّحين بالبَيض، وراميات البازلاء، وكعكات الميرنغ. كانوا يتناوبون على رنِّ جرس باب منزله، وعندما يفتح الباب يصرخون «عيد ميلاد سعيد هوميني!»، ويرشقون وجهه الأسودَ النشوان بالمعجَّنات وبَيض الدجاج. وهو في قمَّة النشوة، كان ينظِّف نفسه، ويبدِّل ملابسه، ويحضِّر نفسه لحلَقة الاحتفال

بالأمنيات السعيدة التالية. ولكن، عندما اختفت المدينة، واختفى معها أيضاً تقليد عيد ميلاده، أصبح الأمر خاصّاً بي وحدي، أطرق باب هوميني، وأسأله عمّا يريد في عيد ميلاده هذا العام. ودائماً، كان جوابه واحداً «لا أعرف، أحضر لي بعض العنصريّة، وسأصبح مستقيماً». وبعدها، ينظر فيما إذا كنت أخفي حبّة بندورة فاسدة أو كيسَ طحين وراء ظهري. *هل يتجوّل بعض الفتيان في الأنحاء، ويرشقون وجهك بالبندورة؟* عادة، كنتُ أشتري له بعض الحليّ الأمريكيّة السّوداء، أو أستأجر ولدين زنجيّين مبهرَجين يعزفان على آلة البانغو تحت شجرةِ الوستارية، أو أشتري له دمية أوباما القرد، أو زوجاً من النظارات التي تنزلق دائماً على جسور أنوف الأفريقيّين-الأمريكيّين والآسيويِّين.

ولكن، لـمّا لاحظتُ أنَّ هوميني ورودني غلن كينغ[1] يتشاركان يوم عيد الميلاد نفسه، وهو يوم الثاني من إبريل، خطر لي أنّه بما أنَّ أماكن مثل سيدونا، آريزونا لديها دوّامات طاقة، وأراضٍ مقدَّسة غامضة، حيث يختبر الزوّارُ تجديد شبابهم وإيقاظ أرواحهم، فإنَّ لوس أنجلس لا بدَّ لديها دوّامات التّمييز. أماكن يشعر فيها الزوّار بشعور عميق من الكآبة والسخافة الإثنيّة. أماكن مثل خطِّ الانهدام على طريق فوثيل السريع، حيث بدأت حياة رودني كينغ، ومعها أمريكا بأفكارها المتعجرفة عن اللعب النظيف، تنهار. والدوّامات العِرقيّة مثل تقاطع فلورنسا والنورماندي، حيث قُذف سائقُ الشاحنة ريجينالد ديني[2] بطوبة تزنُ أربعين أونصة في وجهه، وضُربت معها قرون لعينة من الإحباط. استاد

(١) مواطن أمريكيّ أسود (١٩٦٥-٢٠١٢) اشتهر بحادثة ضرب الشرطة له، التي صورها أحد الهواة في العام ١٩٩١، الأمر الذي أدّى إلى أحداث شغب في لوس أنجلس، مكان الأحداث، بعد تبرئة رجال الشرطة. (م)

(٢) سائق رافعة أبيض، ضربته مجموعة من السّود على أثر أحداث الشغب في العام ١٩٩٢، في لوس أنجلس. (م)

تشافيز رافين، حيث تمزَّقت أحياء من أجيال المكسيكيِّين-الأمريكيِّين، وحيث أُجبر المقيمون فيها على المغادرة، وضُربوا، وتُركوا دون تعويض من أجل إفساح المجال لبناء ملعب بيسبول مع مواقف سيَّارات واسعة ومحالّ «دودجر دوغ». الشارع السابع، بين ميسا ومركز المدينة، هو دوَّامة أيضاً، ففي العام ١٩٤٢، أُوقف خطٌّ طويل من الحافلات عن العمل، عندما خطَتِ الحافلات اليابانيَّة-الأمريكيَّة الخطوةَ الأولى نحو الحجز الجماعيِّ. وحيث لا يكون هوميني سعيداً إلاَّ على متن الحافلة ١٢٥ وهي تمضي في ديكنز، دوَّامة عِرقيَّة بحدِّ ذاتها. مقعده في الجانب الأيمن من الحافلة، ثلاثة صفوف بدءاً من الباب الأماميِّ، حيث مركز زلزال العنصريَّة.

كانت الملصقات نسخاً متطابقةً على نحو جيِّد، ومعظم الناس لم يلاحظوا الاختلافات، وحتَّى بعد أن «تقرأها»، فإنَّ فهمك يخدعك للتفكير في أنَّ اللافتات تقول ما تقوله دائماً **أولويَّة الجلوس لكبار السنّ، المعوَّقين**، فحسب! ومع أنَّها الأولى، فإنَّ شكوى ممارِسة اليوغا لم تكن الوحيدة التي تلقَّتها ماربيسا ذاك اليوم. وما إن خرجت القطَّة السوداء من الحقيبة حتَّى بدأ الجميع بالمواء والأنين، مشيرين إلى الملصقات، مومئين برؤوسهم، ليس لعدم تصديقهم أنَّ المدينة تملك الشجاعة لإعادة تأسيس العزل العنصريِّ العامّ، لكن لأنَّ الأمر استغرق وقتاً طويلاً للقيام به. الشرائح المجانيَّة من كاتو شوكولا باسكين روبينز أوريو، قناني المشروبات الصغيرة الخاصَّة بالطائرات، براندي جي آند بي، وإنكارها اليائس «إنَّها لوس أنجلس، المدينة الأكثر عنصريَّة في العالم، ماذا بمقدورك أن تفعل؟» كلُّ ذلك مضى بعيداً في تهدئة غضبهم فحسب.

«هذا هراء»، صرخ رجل قبل أن يطلب كاتو ومشروباً إضافياً «لأكون صريحاً تماماً، أنا *مُهان*».

«ماذا يعني ذلك، أنا مُهان؟» سألتُ حُبَّ حياتي الذي لا يُعوَّض،

متكلماً معها من خلال مرآة الحافلة البانوراميّة. لم يكن من الصعب إقناع ماربيسا بأن تحوّل الحافلة ١٢٥ إلى مركزٍ دوّارٍ للحفلة. كانت تحبُّ هوميني بقدر ما كنتُ أحبُّه، ونسخة واعدة أولى من رواية بالدوين *غرفة جيوفاني* لم تؤذِ أيّاً منّا. «إنّها حتّى ليست عاطفة، كيف تشعرين عندما تكونين مُهانة؟ إطلاقاً، لم يقل أيُّ مخرج مسرحيٍّ لممثل «حسناً، هذا المشهد يدعو إلى بعض المشاعر الحقيقيّة، الآن اذهبْ إلى هناك وأظهر لي الكثير من الإهانة»!»

حرّكت ماربيسا مقبض تغيير السرعة بيدها الغائرة في قفّاز جلديٍّ من دون أصابع، ببراعةٍ جعلتني أشعر بالتململ وأنا في مقعدي.

«هذا يخبر الكثير إذا جاء على لسان فتى مزرعة قليل الخبرة، لم يعانِ قط من الإهانة في حياته، لأنَّ رأسه عالٍ جدّاً بين الغيوم».

«ذلك لأنّني إذا شعرتُ بالإهانة فإنّني لن أعرفَ ماذا سأفعل. إذا حزنتُ فسوف أبكي، إذا فرحتُ فسأضحك، أمّا إذا كنتُ مُهاناً فماذا سأفعل؟ أصرخ بصوت رزين وصافٍ بأنّني مُهان، ثمَّ أمضي بعيداً وأنا أهدّد بأنّني سأكتب رسالة للعمدة؟».

«حقّاً أنتَ مريض، وتلك اللافتات اللعينة التي وضعتَها جعلتِ السُّود يرجعون إلى الخلف خمسمئة عام».

«وشيء آخر، كيف لم يصادف أن سمعنا أحداً يقول «واو، أنت دفعت الناس السُّود إلى الأمام خمسمئة عام؟ كيف لم يقل أحد ذلك؟»».

«هل تعلم من تكون؟ منحرف عِرقيّاً. تزحف عبر أفنية بيوت الناس الخلفيّة، وتشتمُّ رائحة غسيلهم الوسخ، في حين تستمني وأنت تلبس ثياب رجل أبيض لعين. إنّه القرن الحادي والعشرين اللعين، والناس يموتون، لذلك أحصل على هذا العمل، وأسمح لمؤخّرتك المريضة أن تقودني في حافلة تفريقٍ عنصريٍّ».

«صحيح، إنّه القرن السادس والعشرون، لأنّه بالنسبة لهذا اليوم، أنا دفعتُ الناسَ السُودَ خمسمئة عام إلى الأمام، بعيداً عن أيِّ شخص آخر على الأرض، إلى جانب ذلك، انظري كم هو سعيد، هوميني».

نظرت ماربيسا نحو الأعلى في المرآة، وألقت نظرة خاطفة على رجل عيد الميلاد.

«إنّه لا يبدو سعيداً، يبدو مُصاباً بالإمساك».

كانت محقّة، هوميني لم يكن يبدو سعيداً. وكذلك، لم يكن متهورو الدرّاجات الناريّة، الذين يقفون أعلى منحدرات القفز على ارتفاع خمسين قدماً، يُديرون محرّكات درّاجاتهم ويحدّقون في امتداد الصحراء، وإلى المنخفَض شديد الانحدار، حيث تعيش السحالي الكبيرة، يبدون سعيدين أيضاً. ومع ذلك، عندما يجلس هو كحارس لأحد أعزّ أصدقائه القوقازيّين، يتمسّك بإحكام بالمقعد أمامه، وعلى نحو متوتّر يمسح محيطه مثل غزال انتحاريّ، داخل متنزّه سيرينغيتي، بحثاً عن قطّ برّي سيضحّي بنفسه من أجله، فيجب على أحدنا أن يفهمَ أنّ الأعمال البطوليّة المتحدّية للموت هي مكافأتهم الخاصّة. وبالطبع، عندما صعدت لبؤة بيضاء نادرة إلى الحافلة، في جادّة أفالون، وأسقطت تعرفة الركوب الصحيحة في صندوق جمع الأجرة بكلّ عناية ووضوح، فإنّ هوميني، الغزال الزنجيّ الخجول، كان حينها ينظر في الاتّجاه الخطأ، وواضح من إشارات باقي القطيع أنّ المفترس أصبح على متن الحافلة. الصمت المطبق. الحواجب المرفوعة. الأنوف المتجعّدة. وعندما، أخيراً، التقط عطرَ المرأة، كان الوقت متأخّراً. هي، حامت حوله، تطارد طريدتها من وراء رجل ضخم يرتدي، من رأسه وحتّى أخمص قدميه، ملابسَ لعبة كرة السلّة، ويقرأ في مجلّة رياضيّة. في نهاية المطاف، صرخ نظام إنذار الشيخوخة المبكّر داخل رأس هوميني ذي

الزغب «انظر! عاهرة بيضاء!» وردَّ مثيراً انتباهها «نعم، سيِّدتي»، ومن دون أن يُطلب منه أو يُؤمَر، تخلّى هوميني عن مقعده بسلوك زنجيّ خنوع فيه الكثير من التملُّق، سلوك هو أقلُّ من عرض مقعده وأقرب إلى تسليم إرث، لأنّه بالنسبة إليه، ذلك المقعد، بقدر ما هو قاسٍ وبلاستيكيٌّ وبلون برتقاليٍّ بنيّ، فإنَّه كان حقَّها منذ الولادة، وإشارته كانت ضريبةً، دفعاتٍ متأخِّرةً وطويلة الأمد لآلهة التفوُّق الأبيض، ولو كان عرف طريقةً للوقوف على ركبة محنيَّة لكان فعل.

إذا كانت الابتسامة هي عبوس مقلوب فإنَّ نظرة الرضا على وجه هوميني، وهو ينتقل إلى آخر الحافلة، ما هي إلاَّ استياء مقلوب. أظنُّ أنَّها، في جزء منها، سؤال لماذا لم يحتجَّ أحدٌ على ما فعله. أدركنا الوجه الذي كان يلبسه كقناع من مجموعتنا الخاصَّة. القناع السعيد الذي نحمله في جيوبنا الخلفيَّة، مثل الساطين على البنك، نخرجه عندما نريد أن نسرقَ بعض الخصوصيَّة، أو نقيمَ حاجزاً عاطفيّاً. لقد استغرق كلُّ ما لديَّ من ضبط للنفس كي لا أترجَّى المرأة أن تسمح لي بشرف الجلوس في مقعدي. في بعض الأحيان، أعتقد أنَّ تلك البسمة الخشبيَّة الجامدة لتمثال الهنديِّ هي نتيجة اصطفاء الطبيعة. ذلك أنَّها «نجاة الأحمق»، ونحن هي الفراشات السُّود في صورة التطوُّر الكلاسيكيَّة، ملتصقين بالسّواد، شجرة السخام السّوداء، غير مرئيِّين لمفترسينا. ومع ذلك، نحن هشُّون على نحو ما. مهمَّة الفراشة، داكنة البشرة، أن تُبقي الفراشة البيضاء مشغولة، ملتصقة بالشجرة، بالشِّعر السيِّئ، وموسيقا الجاز، وبالعروض السخيفة لمؤدٍّ واحد حول الفرق بين الفراشات البِيض والفراشات السُّود. «لماذا تطير الفراشات البِيض مباشرة نحو الأضواء، تضرب بعنف الأبوابَ الشبكيَّة. وباقي القرف؟ أنت لا تشاهد أبداً فراشات سود تفعل ذلك. رفرفة غبيَّة» أيُّ شيء من أجل إبقاء الفراشات البيض إلى جانبنا، ومن ثمّ نقلِّل فرصنا في أن نكون أهدافاً للطيور

الجارحة، أو للجيش التطوّعيّ، أو لسيرك الشمس. دائماً ما كانت تزعجني تلك الصور التي تظهر فيها الفراشات البيض ترتفع فوق جذع الشجرة. ما الذي كانت تحاول أن تلمّح إليه تلك الكتب المدرسيّة؟ ذلك، رغم أنّه من المفترض أن تكون أكثر عُرضة للخطر، كانت الفراشة البيضاء لا تزال أعلى في السلّم التطوريّ، والسلّم الاجتماعيّ؟ وبغضّ النظر، أنا أفترض أنّ الفراشة السّوداء لبست وجه هوميني نفسه، المحيّا الذليل المتأصّل في كلّ القشريّات والناس السّود. ردّة الفعل غير الإراديّة، التائقة للإسعاد، تلك التي تُثار في أيّ وقت تدخل فيه متجراً وتسأل «هل تعمل هنا؟» يغيّر الوجه رداءه كلّ لحظة تكون فيها في عملك، ولست في حجيرة المرحاض، يلمع وجه الشخص الأبيض الذي يمشي الهوينى ويربّت على كتفك بتسامح ويقول «أنت تقوم بعمل جيّد. حافظ على مستواك»، الوجه الذي يدّعي معرفة أنّ الرجل الحسن ينال ترقيته، على الرغم من أنّك، وهو، في أعماقكما تعرفان أنّك حقّاً الشخص المناسب، وأنّ الشخص الأنسب هو المرأة في الطابق الثاني.

لذلك، عندما وقف هوميني، مثّل الخانع ذي الكتفين المحدودبين، ولبس ذلك الوجه، شعر جميع مَن في الحافلة، أيضاً، بأنّ إلى جانبهم شخصاً أبيضَ، معرّين سواعدَهم وكأنّهم راغبون بعرض سفعات جلودهم بعد عودتهم من عطلة في الكاريبي، شاعرين شعورَ شخص آسيويّ يسأل «لا، من أين أنت أصلاً؟» كما اللاتينيّون عندما يُسألون عن إثبات الإقامة، والنساء ذوات الأثداء الكبيرة عندما يُسألنَ «إذاً، هل هذان حقيقيّان؟».

لم يمضِ وقت طويل حتّى لاحظت ماربيسا أنّ المرأة البيضاءَ المجهولةَ أتمّت رحلة الدوران في المدينة، التي استمرّت ثلاث ساعاتٍ من إل سيغوندو بلازا إلى نورووك، ثمّ العودة مجدّداً. الأمر الذي جعل الشكوك تساورها، لكن عندئذ كان الأمر متأخّراً، فالحافلة كانت شبه فارغة، ونوبتها كانت قد انتهت تقريباً.

«تعرفها، أليس كذلك؟».

«لا، لا أعرفها».

«وأنا لا أصدِّقك»، فرقعت ماربيسا بعلكتها، وشغَّلت مايكروفون الحافلة، مالئةً الحافلة بسخريتها المضخَّمة «أيَّتُها الآنسة عذراً، السيِّدة ذات شعر الفراولة الأشقر، التي كانت على نحو خارق للطبيعة مرتاحة مع حمولة ركاب الحافلة، بالمعنى الحقيقيِّ للكلمة، زنوجاً ومكسيكيِّين (وبكلمة مكسيكيِّين أقصد كلَّ الناس من وسط أمريكا وجنوبها وشمالها، ومن أيِّ مكان فيها، كان مولوداً فيها أصلاً أم في أيِّ مكان)، الرجاء أن تتحرَّكي إلى مقدِّمة الحافلة. شكراً».

انخفض الغسق عند شاطئ إل بورتو، وبينما كانت المرأة البيضاء تمشي الهوينى أسفل الممر، سكبت أشعَّة الشمس نفسها من خلال الزجاج الأماميِّ للحافلة، وإلى داخلها في خطوط تعمية تدرَّجت ألوانها وتشابكت بين القرمزيِّ والبرتقاليِّ، أشرقت على المرأة مثل فائزة بمسابقة الجمال. لم أكن من قبلُ قد لاحظتُ كم هي جميلة جدّاً، ولم يكن من الصعب التسليم بأنَّ هوميني تخلَّى عن مقعده، ليس لأنَّها بيضاءُ، بل لأنَّها جميلة جدّاً، وتلك الفكرة جعلتني أعيد تقييم حركة الحقوق المدنيَّة برمَّتها. ربَّما لا علاقة للعِرق بالموضوع، وربَّما لم تتخلَّ روزا باركس عن مقعدها لأنَّها تعرف أنَّ الشاب هو من أولاء المتبجِّحين المدافعين، أو أحد أولاء الناس المزعجين، شخص يصرُّ على سؤالك عمَّا تقرأ، ومن ثمَّ، ودون تشجيع، يخبرك عمَّا يقرأ هو، وماذا يريد أن يقرأ، وعمَّا هو نادم لقراءته، وبما سيخبر الناس أنَّه قرأ ولم يقرأ. لذلك، مثل فتيات المدرسة الثانويَّة أولاء، اللاتي يمارسنَ الجنس بعد المدرسة مع رياضيٍّ أسودَ قويِّ البنية في محلِّ الأخشاب، ثمَّ يدَّعينَ أنَّهنَّ اغتُصِبنَ عندما يكشف آباؤهنَّ الأمرَ. ربَّما روزا بارك، بعد الاعتقال، ومظاهرات

الكنيسة غير المنتهية، وكلّ الصحافة، وجب عليها أن تبكي بحجّة التمييز، لأنّ ما كانت ستقوله: «رفضتُ أن أتحرّك لأنّ الرجل سألني عمّا أقرأ» كان السُود سيعدمونها من غير محاكمة.

نظرت ماربيسا إليّ، ثمّ إلى مسافرتها البيضاء الوحيدة، ثمّ إليّ من جديد، وأوقفت الحافلة عند منتصف التقاطع، ثمّ فتحت أبواب الحافلة بكلّ لباقة موظف الخدمة المدنيّة، التي استطاعت حشدها «كلُّ شخص لا أعرفه شخصيّاً، ليخرج من الحافلة»، و«كلُّ شخص» هذه كانت متزلّجة «سكوتر» مع ولدين قضوا الساعات الأربع الماضية في معانقةٍ، مثل حبلَي مطاط معقودين في الخلف، وجدوا أنفسهم فوراً في منتصف شارع روزكرانس، يحملون تذاكر نقل مجانيّة رفرفت سُدى في نسيم البحر. الآنسة راكبة الحرّيّة، كانت تقريباً ستنضمُّ إليهم عندما أغلقت ماربيسا الأبوابَ، مثلما أغلق العمدة والاس مدخل جامعة ألاباما في العام ١٩٦٣.

باسم أعظم الناس الذين وطئت أقدامهم هذه الأرض، أرسم الخطَّ في الغبار، وأرمي القفّاز أمام أقدام الحكم الاستبداديّ، وأقول التفرقة العنصريّة الآن، التفرقة العنصريّة غداً، التفرقة العنصريّة إلى الأبد.

«ما اسمكِ؟»، سألت ماربيسا، وهي تزلق الحافلة شمالاً إلى لاس ميساس.

«لورا جين».

«حسناً، لورا جين، أنا لا أعرف كيف تعرفين هذا المخصّب ذا الرائحة العفنة هنا، لكنّني آملُ أنّكِ تحبّين الاحتفال».

على عكس رحلات الأسعار المخفّضة الرزينة التي تمتدُّ يوماً كاملاً إلى جزيرة كاتالينا، فإنّ حفلة عيد الميلاد القائمة على أربع عجلات، المرتجلة، التي جابت الطريق السريع للشاطئ الباسيفيكيّ، كانت مجانيّة

وتتنقَّل كيفما اتَّفق مثل عاهرة. رحلتنا في الطريق السريع المجانب لخطِّ المحيط اتَّسمت بكلِّ أنواع المتع: بار مفتوح، عبوات كولا، مائدة لعبة «شافلبورد»، مراهنات ألعاب قمار الكازينو التي تألَّفت من رمي النقود، الدومينو، لعبة «صورة ونقش» اسمها «احصل على ما أحصل عليه»، وردهة رقص ديسكو. أدارت الكابتن ماريبيسا دفَّة المركب. شربت وشتمت مثل قرصان غاضب. وأنا شغلت، على نحو مؤقَّت، مكانَ وكيل قبطان أوَّل، وضابط محاسبة، ونوتي، وساقي حانة، ومنسِّق موسيقا. وفي طريقنا، حملنا مزيداً من الركَّاب عندما وقفت الحافلة أمام مطعم «جاك إن ذا بوكس» إلى جانب رصيف ماليبو، حيث كانت تصدح أغنية «خمس دقائق من الذعر». وعندما طلبنا خمسين ساندويشة تاكو، وكميَّة كبيرة من الصلصة، ترك المناوب الليليُّ مكانه وصعد إلى الحافلة ومعه مآزر وقبَّعات ورقيَّة، وكلُّ الأشياء المتعلِّقة. لو كان لديَّ قلم وورقة، ويوجد في الحافلة مرحاض، لكنتُ ألصقتُ لافتة جديدة يُطلبُ إلى كلِّ الشاغلين أن يغسلوا أيديَهم وأدمغتهم قبل أن يعودوا إلى حيواتهم.

بعد سقوط الليل، مررنا أمام جامعة بيبرداين، حيث ضاق الطريق السريع إلى هضبة من خطَّين امتدَّت مثل منحدر زلِقٍ نحو النجوم، ولم يكُ ثمَّة ضوء كثير، لمعان أضواء السيَّارات القادمة فحسب، وإذا كنتَ محظوظاً فسترى مشعلة نار وحيدة على الرمال، وأوراقاً من ضوء القمر تعطي المحيط الهادئ بريقاً مثل لمعان الزجاج البركانيِّ الأسود. على هذا الامتداد من الطريق المتعرِّج نفسه، غازلتُ ماريبيسا لأوَّل مرَّة، قبَّلتها على خدِّها، لم تجفل، الأمر الذي فسَّرته كإشارة جيِّدة.

رغم أنَّ الحافلة الجائلة كانت تتخبَّط في سيرها، إلاَّ أنَّ هوميني كان قد أمضى معظم الرحلة يقف في منتصف ساحة الرقص، يمسك، بغباء، بالقضيب المعلَّق فوق الرؤوس. وبالنيابة، يمسك بتاريخ التمييز

الأمريكيّ، ولكن عند شاطئ بويركو. تمكّنت لورا جين من انتزاعه من عقليّته القديمة بأن صارت تحكُّ حوضَها على نحو منتظم بمؤخّرته، وتلعب بأذنيه. كانت حالتها نزويّة وهي تتبختر حول هوميني، ويدها على رأسه تربّت بلطف. عندما انتهت الأغنية، شقّت طريقها نحو مقدّمة الحافلة، وكان الزغب على شفتها العُلويّة يتقطّر عرقاً. اللعنة، كانت مثيرة.

«حفلة ماجنة».

ضجَّ المذياع بالحياة، وجاء صوت المراسل الإذاعيّ وهو يتحدّث عن موقعه بصوت قلق. خفّضت ماربيسا صوت الموسيقا وقالت شيئاً لم أستطع سماعه، ونفثت قبلةً في الهواء للجمهور، ثمّ أطفأت المذياع. إذا كانت نيويورك هي المدينة التي لا تنام فإنّ لوس أنجلس هي المدينة التي، دائماً، تفقد وعيها عند الأريكة. مررنا أمام ليو كوريللو، رائحة الهيروين بدأت تنسلُّ بنعومة إلى الخارج، عندما اختفى القمر وراء جبال سانتا مونيكا جاعلاً الليل فاحم السّواد. وإذا أصغيت عن قرب، فإنّك ستسمع صوتين خافتين، بتتالٍ واضح، الأوّل هو صوت أربعة ملايين جهاز تلفزيون تعمل بانسجام، والثاني هو صوت أربعة ملايين غرفة نوم شغّالة. غالباً ما يتحدّث صانعو الأفلام والمصوّرون عن فرادة شمس لوس أنجلس، الطريقة التي تمتدُّ فيها عبر السماء، ذهبيّة وحلوة مثل شمس لوحات فيرمر، ومونيه، ومثل عسل الإفطار، كلُّ ذلك في شمس واحدة. لكنَّ أشعّة قمر لوس أنجلس، أو عدم وجودها أصلاً، هو أمرٌ خاصٌ. عندما يهبط الليل، وأنا أقصد هبوطه حقّاً، تنخفض درجة الحرارة عشرين درجةً، ويغطّيكَ ظلامٌ دامس، ويريحك مثلَ عاشق يرتّب السرير، في حين أنت لا تزال راقداً فيه. وتلك اللحظة الوجيزة، بين أصوات أجهزة التلفاز والعودة، هي الهدوء الذي يسبق بدء ساعات عمل أندية التعرّي في إينغليوود، ويسبق تنافر أصوات إطلاق النار في ليلة

رأس السنة، ويأتي قبل سانت مونيكا، وقبل هوليوود، وقبل ويتير، وقبل أن تبحر الحياة ببطء في جاذّات كرين شو. كلُّ ذلك عندما يأخذ أبناء لوس أنجلس وقتهم في الراحة والتأمُّل، ويعود الفضل في ذلك إلى ملأحي آخر الليل في كورياتاون، وساحة ماريانشي، وساندويشات غمس البرغر والبسطرما، ولماربيسا التي تلمِّع الزجاج الأماميّ، وتحدِّق في النجوم. الإطارات بلا ريب تشحذ الإسفلت، والحافلة تتدحرج عبر الستراتوسفير. عندما سمعتْ الصوتَ الثاني، أعطت ماربيسا المجال لموسيقا أكثر، وقبل أن يمضي وقت طويل كان هوميني وجوقة مطعم «جاك إن ذا بوكس»، مرّة أخرى، يرقصون على قدم واحدة في الممرّ، ويغنُّون بصوت عالٍ أغاني توم بيتي.

«أين وجَدَكِ؟»، ماربيسا سألت لورا جين، وعيناها لا تزالان معلّقتين بدرب التبّانة.

«هو استأجرني».

«هل أنتِ عاهرة؟».

«تقريباً. ممثّلة. أعمل بدوام جزئيّ من أجل دفع الفواتير».

«يبدو أنَّ أجزاء وقتك كلّها صعبة حتّى تقومي بمثل هذا الهراء». ركّزت ماربيسا عينيها على لورا جين، وعضّت شفتَها العُلويّة، وحوّلت انتباهها إلى الحفلة السماويّة.

«هل رأيتُكِ في مكان ما؟»

«أشارك في معظم الدعايات التلفزيونيّة، لكنّه عمل شاقّ. كيفما كان دوري فإنَّ المنتجين ينظرون إليّ تماماً مثلما فعلتِ وقلتِ «ليستْ من الضواحي بما يكفي»، وهي عبارةٌ تعني في الصناعة أنّني «يهوديّة جداً»».

وبعد أن لاحظتْ أنَّ ماربيسا لم تُطهِّر (شاكِراتها) تماماً، في لحظة صمت لوس أنجلس خاصّتها، ضغطت لورا جين خدَّ وجهها الجميل

على خدّ وجه ماربيسا الغيور، وقامتا معاً بدراسة بعضهما في مرآة الرؤية الخلفيّة، فبدتا مثل توأمين ملتصقين في الرأس، واحدة سوداء في منتصف العمر، والثانية شابّة وبيضاء، تتشاركان الدماغ نفسه، لكن ليس عمليّة التفكير نفسها حتماً. «تجعلينني أتمنّى لو كنتُ سوداء» قالت التوءم البيضاء وهي تبتسم وتمرّر يديها على خدّي أختها الحالكين المحترقين، «الناس السُود يحصلون على كلّ الأعمال».

لم يكُ ينبغي على ماربيسا أن تضع الحافلة على السيّار الآليّ، لأنّ يديها كانتا متحرّرتين من المقود، وحول عنق لورا جين، ليس لتخنقاها، ولكنّهما بحدّة تسوّيان لها ياقة الثوب، جاعلةً توءمها الشيطان تعرف أنّها جاهزة للانقضاض في أيّ لحظة، عندما يعطي أحدُ جانبَي دماغها الأمر بذلك. «انظري، أشكّ في أنّ الناس السُودَ يحصلون على كلّ الأعمال، ولكن حتّى لو كانوا كذلك، فلأنّ العاملين على الدعايات في شارع ماديسون يدركون أنّ الزنجيّ يصرف دولاراً وعشرين سنتاً من كلّ دولار يكسبه على الهراء الذي يشاهده في التلفزيون. ودعينا نأخذ، مقياساً، دعايات سيّارات الرفاهية...».

أومأت لورا جين، وكأنّها تصغي حقّاً، وعلى نحو خادع مدّت ذراعيها حول ماربيسا باتجاه المقود. لثانية، كنّا انحرفنا على طول الخطّ الأصفر المزدوج، لكنّها قامت بتصحيح بسيط، وبكلّ أناقة وجّهت الحافلةَ مرّة أخرى إلى ممرّ العبور الصحيح.

«سيّارات الرفاهية، كنتِ تقولين؟».

«الرسالة الماكرة لدعايات سيّارات الرفاهية هي «نحن هنا في مرسيدس بينز، أو ليكزس، أو بي إم دبليو، أو كاديلاك، أو أيّ ماركة لعينة، منتهزون للفرص على نحو عادل. هل تشاهد هذا الأنموذج، الذكر الأفريقيّ-الأمريكيّ الوسيم خلف المقود؟ نحن نحبُك، أوه أيُّها

الربُ، ونتوق إلى زبون أبيض ذكر بين عمرَي الثلاثين والخامسة والأربعين، لتجلسَ في كرسيِّك، نحبُك أن تصرف أموالك وتشاركنا عالمنا السعيد الخالي من الهمّ، ومن الإجحاف. عالم يجلس فيه السُّود مستقيمين في مقاعدهم وهم يقودون، وليسوا غارقين في كراسيهم بحيث يمكنك أن ترى فقط أعلى رؤوسهم المدوّرة اللامعة»».

«وما الخطأ في هذا؟».

«لكنَّ الرسالة اللاشعوريَّة هي «انظر، أيُّها الكسول، السمين، سريع التأثُّر بالدعايات، العذر البائس للرجل الأبيض. لقد انغمستَ في هذه الفانتازيا التي مدَّتها ثلاثون ثانية، فانتازيا الرجل الأسود الجذّاب وهو يقوم برحلة من قصره الفاره المصمَّم وفق هندسة إيروديناميكيَّة ألمانيَّة دقيقة. لذلك، ربَّما كان من الأفضل لك، يا أخي، أن تقوم بخطوتك الآن، وأن تتوقَّف عن السماح لعروض القرود تلك المتعلِّقة بحركة المسنَّنات، وبفتحة السقف، التي يقترح فيها المصنِّع أسعارَ تجزئة، أن تسرقَ الجزءَ الخاصَّ بك من الحلم الأمريكيِّ!»».

عند ذكر كلمة الحلم الأمريكيِّ، تصلَّبت لورا جين، وعادت إلى هداية ماربيسا. «أشعر بالإهانة»، قالت.

«لأنَّني استخدمتُ كلمة زنجيّ؟».

«لا، لأنَّكِ امرأةٌ جميلةٌ تصادف للتوِّ أنَّها سوداء، وأنتِ ذكيَّة جدّاً حتَّى تعرفي أنَّها ليست مشكلة عِرق، بل هي مشكلة طبَقة اجتماعيَّة».

طبَعَت لورا جين قبلةً صارخةً ورطبةً على جبين ماربيسا، ودارت بكعبَي حذائها، ماركة لوبوتين، ثمَّ عادت إلى عملها، وأنا شددتُ على ذراع حبيبتي وهي تهمُّ بحركةٍ، منقذاً بذلك لورا جين من لكمة موجَّهة إلى مؤخِّرة رأسها، لم تنتبه إليها قطُّ.

«هل تعرف لماذا لم يكن الناس البِيض يوماً بِيضاً؟ لأنَّهم، جميعاً،

يظنُّون أنَّ كلَّ ما حدث، وأنَّ بياضهم، هو لمسةٌ من الربِّ، هذا هو السبب».

مسحتُ أحمر الشفاه عن جبين ماريبسا المقطَّب.

«وأخبر قمامةَ الاضطهاد الطبقيِّ المتعلِّق بالهنود ومحدودي الذكاء، وهي تتحدَّث عن أنَّني ينبغي أن «أعرف أكثر»، أنَّها يهوديَّة. وهي مَن ينبغي أن تعرف أكثر».

«هي لم تقل إنَّها يهوديَّة، هي قالت إنَّ الناس يظنُّون أنَّها تبدو كيهوديَّة».

«أنت خائنٌ لعينٌ. هذا السبب في أنَّني أستسخفكَ. أنت، دائماً، لا تدعم رأيك، ومن المحتمل أنَّك في صفِّها».

عَدَّ غودار صناعة الأفلام نقداً، بالطريقة نفسها التي تفهم فيها ماريبسا قيادة الحافلة. لكن، على أيِّ حال، أظنُّ لدى لورا جين وجهة نظر. فكيفما يفترض أن يبدو اليهود، من باربرا سترايساند، إلى اليهوديَّة بالاسم فوبي غولدبيرغ، فأنت لا ترى الناس أبداً في الدعايات يبدون «يهوداً»، تماماً مثلما أنَّك أبداً لا ترى أناساً سوداً يظهرون كـ«حضريِّين»، وبذلك «مخيفين»، أو رجالاً آسيويِّين وسيمين، أو لاتينيِّين ببشرة داكنة. أنا متأكِّد من أنَّ أولاء المجموعات يصرفون مقداراً غير متناسب مع دخولهم على هراء لا يحتاجونه. وبالطبع، في العالم الشاعريِّ لدعايات التلفزيون، مثليُّو الجنس هم مخلوقات أسطوريَّة، لكنَّك تشاهد دعايات أكثر تُظهر مخلوقات آحاديَّة القرون خرافيَّة وجنيَّات أكثر ممَّا تشاهد مثليِّي الجنس، رجالاً ونساءً. وربَّما، الممثلون الأفريقيُّون-الأمريكيُّون الذين لا يشكِّلون تهديداً يمثِّلون على نحو مبالغ فيه في التلفاز. شهادة الماجستير التي يحملونها من كليَّة ييل للدراما، وتدرُّبهم على شكسبير، ذهب هباء الريح وهم يقفون حول مشابك الشُّوي، وهم يخطبون بأسطر مثل

«الرجاء يا بن بلدي، هل أنتَ مدركٌ حقّاً أنَّ بيرة بادفايزر هي أفضل أنواع البيرة، فالرأس الفارغ الذي يحمل التاج يجلس غير مرتاح». لكن، إذا فكّرت بها حقّاً فالشيء الوحيد الذي لا تشاهده أبداً في دعايات السيّارات ليس أشخاصاً يهوداً، أو مثليّي الجنس، أو زنوجاً حضريّين، إنّها التجارة.

تباطأت الحافلة عندما كانت ماربيسا تنعطف يساراً لتزيحنا عن الطريق السريع باتّجاه الأسفل حيث الطريق الفرعيُّ الملتوي المخفيُّ. زحفنا أمام تلال كلسيّة، ومجموعة من أدراج شاطئيّة خشبيّة متداعية، وعبر موقف سيّارات غير مستخدَم. من هناك، بدّلت ماربيسا سرعة غيار الحافلة بانتباه، وجعلتها تزحف على الرمال، حيث أوقفتها على توازٍ مع الأفق. وبّما أنَّ المدَّ كان مرتفعاً، فقد أوقفتها بعيداً بمقدار قدم ونصف عن مياه البحر.

«لا تقلق، هذه الحافلة مثل كلّ عربات التضاريس الوعرة، تقريباً هي برمائيّة. ما بين الانهيارات الوحليّة ومجاري لوس أنجلس القذرة، على الحافلة أن تكون قادرةً على شقّ طريقها عبر أيِّ شيءٍ، ولو كنّا استخدمنا مترو من الحافلات لتحطّ على شواطئ النورماندي، في يوم احتلال النورماندي، لكانت الحرب العالميّة الثانية انتهت قبل عامين من موعدها.

فُتحت الأبواب الأماميّة والخلفيّة على حدّ سواء، وبكلّ حُبٍّ، احتضن المحيط الهادئ الدرجاتِ السفليّةَ من الحافلة، محوّلاً إيّاها إلى واحدة من غرف فنادق البورا-بورا، تلك التي تقبع على شكل أبراج، بعيدة خمسين ياردةً عن البحر. وأنا، كأنّني توقّعتُ أن أرى ممثّلاً عن خدمة مطاعم «جاك إن ذا بوكس» يركن زلّأجته المائيّة أمامنا ليسلّمنا المناشف، ويقدّم لنا الهامبرغر وعصائر الفانيليا.

كان آل غرين يغنّي عن الحبّ والسعادة، وعلى ضوء السيّارة الداخليّ كان جلدها الرقيق الناعم الشاحب متقزّح الألوان مثل عِرق لؤلؤ

داخل صدفة «أذُنِ البحر». تبخترتْ في مشيتها أمامنا «في إحدى المرّات لعبتُ دور حوريّة بحر في دعاية تونا. على أيِّ حال، عليَّ أن أقول إنّه لـم يكن ثمّة مواهب سوداء في ذلك المشهد، كيف تصادف أن ليس هناك أيّ حوريّات بحر أفريقيّة-أمريكيّة؟».

«لأنَّ النساء السُّود يكرهنَ أن يبلّلنَ شعورهنّ».

«أوه». وهنا، مستخدمة قضبان الألومنيوم الخاصّة بالحافلة، ومثل متعرّية تحكُّ جسدها في العمود، وثبَتْ باهتياج إلى قلب الماء، يتبعها طاقم مطعم «جاك إن ذا بوكس»، أيضاً عراة إلاَّ من قبّعاتهم الورقيّة.

مشى هوميني إلى الأمام ونظر بشوق إلى الماء.

«سيّدي، هل مازلنا في ديكنز؟».

«لا، هوميني، لسنا كذلك».

«حسناً، أين هي ديكنز إذاً؟ بعيداً، هناك وراء الماء؟».

«ديكنز موجودة في رؤوسنا. للمدن الحقيقيّة حدود، ولافتات، ومدن شقيقة».

«هل سنحصل على كلّ هذا قريباً؟».

«آملُ ذلك».

«سيّدي، متى سنحصل على أفلامي من فوي شيشاير؟».

«قريباً، حالما نعيد ديكنز. سنرى إن كانوا في حوزته، أعدك بذلك».

توقّف هوميني عند باب الحافلة، ثمّ، وهو في كامل ثيابه، صار يتلمّس المياه بإصبع قدمه الخارج من المداس.

«هل تعرف السباحة؟»

«أوه، ألا تذكر حلقة «الذهاب عميقاً في البحر من أجل الصيد»؟».

كنت نسيت تلك الحلقة الكلاسيكيّة المخيفة من *الأوغاد الصغار*.

أفراد العصابة يلعبون الهوكي في المدرسة، لينتهي بهم الحال على شبكة صيد، كانوا أُرسلوا كي يصيدوا بها القرشَ الذي أرعب المنطقة المحاذية للبحر. وبعد أن أكل بيتي، الكلبُ ذو الدائرة حول عينه، الطعمَ السامَّ، لطَّخوا هوميني الصغير بزيت كبد القِدّ ووخزوا إصبعه، ومن ثمَّ علَّقوه من عروة حزامه إلى نهاية عصا الصيد، وأنزلوه في المياه، واستخدموه كسمكة جاذبة للقرش. وبينما هو في الماء، كان عليه أن يستنشق الهواء من خلال قطيع الأسماك المنتفخة داخل الماء، ليحمي نفسه من الغرق، ولدغته سمكة أنكليس في فخذه عدَّة مرَّات. انتهت الحلقة بأخطبوط ضخم يُظهر تقديره للأوغاد الصغار، مخلِّصاً البحرَ من تهديد ذي الأنياب بأن رشَّ الأولادَ بحبر أسودَ (تبيَّن كذلك أنَّ صوت ألفالفا هو صوت ثاقب إلى درجة تميُّزه بنوطة موسيقيَّة منفِّرة لهجمات أسماك القرش)، وعندما عادت حزمة الألوان إلى المنزل، إلى رصيف ميناء من الآباء المهتمِّين، قالت أمُّ هوميني وباكويت، وهي تربط إزاراً على رأسها «باكويت، لن أخبر أباك. أنا لن أهتمَّ بأصدقائك الغريبين!».

نامت ماربيسا في حضني، وأنا صرتُ أحدِّق في المحيط، أصغي إلى الموج المتكسِّر، وإلى جلجلات الضحك. لكن، في معظم الوقت كنت مشدوهاً بعُري لورا جين المتلألئ بلون المرجان الورديِّ عبر المحيط، وبحلمتيها اللتين تشيران إلى السماء، وبشعر عانتها الذي يترنَّح في الماء مثل خصلة زنجيَّة لعشب البحر الحريريِّ. رفستِ الماءَ بقدمَيها، وألقت نظرة إثارة، ثمَّ أصبحت في الماء. لكمتني ماربيسا بقوَّة على ضلوعي، واحتاج الأمر كلَّ طاقتي من أجل ألاَّ أحدِّقَ لها رضا محو الألم.

«انظر إلى نفسك، تتولَّع بامرأة عاهرة بيضاء، مثل أيِّ زنجيٍّ في لوس أنجلس».

«الفتيات البيض لا يؤثِّرنَ فيَّ، تعرفينَ ذلك».

«هذا هراء، لأنَّ انتصاب قضيبك أيقظني».

«إنّه العلاج بالتقزُّز».

«وما هذا؟».

تردَّدتُ في إخبارها عن والدي عندما كان يُغلق رأسي داخل جهاز العرض لمدَّة ثلاث ساعات، في حين يومض الجهاز في وجهي بصورٍ، تلمع كلَّ جزء من الثانية، للثمرة المحرَّمة عنده: الفتيات المعلَّقة صورهنَّ على الجدار، وفي الصفحتين المنصَّفتين لمجلَّة *بليبوي*: بيتي بيج، باربرا ستَرايسند، تويغي، جاين مانسفيلد، مارلين، صوفيا لورين، ثمَّ يُنزل في حلقي مادَّة مقيِّئة وبامياء، فأتقيَّأ أحشائي، في حين يفجّر بافي ساينت ماري وليندا رونستات في استيريو الصوت، فالمؤثّرات البصريَّة اشتغلت، لكنَّ أجهزة الصوت لم تعمل. وحتّى هذا اليوم، كلَّما شعرت بالضيق والاضطراب استمعتُ إلى ريكي لي جونز، وجوني ميتشيل، وكارول كينغ من الاستيريو، إلى كلِّ مَن كان يصرخ في الخارج على طريق كاليفورنيا قبل بيغي، أو توباك، أو أيّ من شعوب الإنويك. لكن، إذا أفضتَ في التأمُّل، وكان الضوء قويّاً، يمكنكَ أن ترى أبعد من صور باربي بينتون وهي عارية تحترق في بؤبؤَي عينيَّ، وكأنَّها تُعرض في شاشة بلازما رخيصة.

«لا شيء، لا أحبُّ الفتيات البيض فحسب».

جلست ماربيسا، ثمَّ خبَّأت رأسها داخل انحناءة رقبتي. «بونبون؟». كانت رائحتها، كما هي دائماً، رائحة بودرة أطفال وشامبو صالون الحلاقة، وهذا كلُّ ما كانت تحتاجه. «متى وقعتَ في حُبّي؟».

«*لون الخبز المحترق*»، قلتُ مسمّياً المذكّرات التي حقَّقت مبيعات قياسيَّة وتتحدَّث عن شابٍّ في ديترويت مع أمِّه البيضاء «المجنونة» التي لم تُرد لأبنائها، مزدوجي العِرق، أن يُصدَموا من كلمة «أسود»، لذلك

ربّتهم كأشخاص سُمر، وكانت تناديهم بـ«البيض المسمرّين»، وتحتفل بشهر التاريخ الأسمر بدلاً من الأسود. وإلى أن بلغ عمره عشر سنوات، كان يعتقد أنّه كان حالك السواد لأنّ والده الغائب كان شجرة المغنوليا التي أحرقها البرق في ساحة مشروع الإسكان. «أنتِ جعلتِ والدي يقنعك بضرورة حضور نادي كتاب دونات دُم دُم. كلُّهم أحبُّوا النادي، لكنَّكِ، وفي أثناء جلسة النقاش، صرختِ في أحد الشباب «لقد سئمتُ من وصفِ النساء حسب نغمة بشرتهنّ! هذه بلون العسل! وتلك بلون الشوكولا الداكنة! جدّة أبي كانت مخضّبة بالموكا، café-au-lait[1]، بنيّة مثل قطع بسكويت غراهام كراكر اللعينة! كيف لم يتصادف قط أن وصفوا شخصيّات الأدب من البِيض مثلاً بأسماء مأكولات أو مشروبات ساخنة؟ لماذا لا يوجد أبطال بلون اللبن، أو بلون قشرة البيضة، أو جلودهم خيطيّة كالجبنة، أو بلون حليب قليل الدسم، في هذه الكتب العنصريّة التي لا يوجد فيها فصل ثالث؟ هذا السبب في أنّ الأدبَ الأسودَ مقرفٌ»».

«هل قلتُ «الأدب الأسود مقرف»؟».

«نعم، وأنا غارقٌ في الحبّ».

«اللعنة، الناس البيض لديهم تأثيرهم في أدبهم أيضاً».

على نحو مفاجئ، ضربت موجة قويّة الحافلة من جانبها إلى الجانب الآخر، ثمّ تشكّلت موجةٌ جديدة من الناحية اليسرى. خلعتُ حذائي وجوربَيّ، مزّقتُ قميصي، وسبحتُ لملاقاتها. وقفت ماربيسا في مدخل الحافلة يغمرها المدُّ المرتفع حتّى قصبَتَي رجلَيها، كوّرت يديها على فمها وصرخت بحيث يمكن سماع صراخها من فوق الأمواج المتكسّرة،

---

(١) بالفرنسيّة بالأصل: قهوة بالحليب. (م)

وزمجرة العواصف المتزايدة على نحو مضطرد من الجنوب إلى الجنوب الغربي. «ألا تريد أن تعرفَ متى وقعتُ في حبّكَ؟».

وكأنّها كانت مدى الدهر عاشقة لي!

«وقعتُ في حبّكَ في كلّ مرّة كنّا نخرج فيها لنأكل! كنتُ أقول لنفسي: شكراً لله، رجل أسود لا يصرُّ على الجلوس في مواجهة الباب، زنجيٌ ليس مضطرّاً لأن يدّعي أنّه رجلٌ كبير! لأن يكون يقظاً كلّ الوقت، لأنّ شخصاً ما قد يكون يلاحقه لأنّه سيّئ جدّاً! كيف لا يمكن أن أحبّك؟»

سرُّ ركوب موجة قويّة بجسدك هو التوقيت. انتظرْ اللحظة المناسبة عندما ينزل المدُّ عن معدتك ليصل إلى فخذك. اسبحْ شوطين أمام الموجة، وحالما يجعلك التيّار تشعر أن لا وزن لك قُم بجولتين إضافيتين. ارفع ذقنك. ارمِ إحدى ذراعيك إلى جانبك، والثانية مستقيمة إلى الأمام، راحة كفّك نَحو الأسفل، وانحنِ قليلاً عند المرفق، ثمّ اركبْ باتّجاه الشاطئ فحسب.

أضواءُ المدينة: فصلٌ إضافيّ

لم أفهم يوماً فكرة المدن الشقيقة، لكنَّني كنت دوماً مفتوناً بها. والطريقة التي تختار بها إحدى هذه المدن التوائم، كما تُسمَّى أحياناً، توءَمها الآخر وتطلب ودَّها، تبدو أقرب إلى سِفاح القربى منها إلى التبنّي. بعض الشراكات، مثل تل أبيب وبرلين، باريس والجزائر، هونولولو وهيروشيما، أُسِّست لتكون دليلاً على نهاية العداوات وبداية السلام والازدهار بينها. ومثل الزيجات المرتَّبة تتعلَّم فيها المدن أن تحبَّ بعضها بعضاً مع مرور الزمن. شراكات أخرى هي زيجاتٌ بقوَّة السلاح لأنَّ إحدى المدينتين (أتلانتا مثالاً) قد حبَّلت المدينة الأخرى (لاغوس مثالاً) في الموعد الغراميّ الأوَّل بعد غزل عنيف خارج عن السيطرة لعدَّة قرون. بعض المدن تتزوَّج من أجل المال والمظهر، في حين تتزوَّج مدن أخرى من أجل إهانة موطنها الأمّ. خمِّن *مَن قادم إلى العشاء؟ كابول!* بين حين وآخر تلتقي مدينتان، وتقع إحداهما في غرام الأخرى بدافع من الاحترام المشترك، وحبِّ التنزُّه، والعواصف الرعديَّة، وموسيقا الروك آند رول الكلاسيكيَّة، نفكِّر هنا في إستنبول، بوينس أيرس، سيؤول. لكن في الزمن المعاصر، حيث تنشغل المدن العاديَّة في محاولة تحقيق التوازن بين ميزانيَّاتها والحفاظ على البنى التحتيَّة من الانهيار، فإنَّ معظم المدن تقضي وقتاً عصيباً في بحثها عن شريك الروح، لذلك تحوَّلوا إلى منظمة المدن الشقيقة، وهي منظمة عالميَّة وسيطة، مهمَّتها العثور على شركاء الحبِّ المناسبين للمدن الوحيدة.

حدث هذا بعد يومين من حفلة عيد ميلاد هوميني، عندما كنّا، أنا وبقيّة الديكنزيّين، لا نزال نتعافى من آثار الشرب، اتّصلت الآنسة سوزان سيلفرمان، مستشارة لقاء المدن، بخصوص طلبي. لم أكن في حياتي بمثل هذا الحماس.

«مرحباً. أسعدنا الاطلاع على طلبك الانضمامَ إلى أخويّة المدن العالميّة، لكن يبدو أنّنا لم نجد ديكنز على الخريطة. إنّها بالقرب من لوس أنجلس، أليس كذلك؟».

«كنّا مدينة رسميّة، لكنّنا الآن نوعٌ من الأراضي المحتلّة، مثل غوام، أو ساموا الأمريكيّة، أو بحر السكون».

«إذاً، أنتم إلى جانب المحيط؟».

«نعم. محيط المآسي».

«حسناً، ليس مهمّاً أن تكونوا مدينةً مُعترَفاً بها، فمنظّمة المدن الشقيقة العالميّة زاوجت المجتمعات قبل الآن. على سبيل المثال، المدينة الشقيقة لهارلم في نيويورك هي فلورنسا الإيطاليّة بسبب حركة النهضة الخاصّة بهما. ألمْ تمرّ ديكنز في نهضة ما؟».

«لا. حتّى إنّه ليس لدينا يومُ نهضة واحد نحتفل به».

«هذا سيّئ للغاية، لكنّني أتمنّى حقّاً لو أنّني عرفتُ سابقاً أنّكم مدينة شاطئيّة، فهذا يُحدِث فرقاً. ولكن، كما هو وضعكم، أدخلتُ بياناتكم عبر (أوربانا)، الحاسوب الذي يقيس التلاؤم عندنا، وكانت النتيجة ثلاث شقيقات محتمَلات».

أمسكتُ بالأطلس، وحاولتُ أن أخمّن مَن هي المدن السيّدات سعيدات الحظّ. كنتُ أعرف جيّداً أنّني لن أتوقّع روما، أو نيروبي، أو القاهرة، أو كويوتو، ولكنّي تخيّلتُ مدناً جميلةً من الدرجة الثانية، مثل نابولي، ولايبزيغ، وكانبيرا.

«لنرَ المدنَ الشقيقات الثلاث وفق ترتيب التلاؤميَّة... هواريز، تشيرنوبل، وكينشاسا».

ولكن، لم أفهم تماماً كيف اختيرت تشيرنوبل بما أنّها ليست مدينة أصلاً. على الأقلّ، هواريز وكينشاسا مدينتان كبيرتان بصفات عالميَّة، وإن تكن سمعتهما سيِّئة، لكنَّ المتسوِّلين لا يمكنهم الاشتراط. «سنقبل بالثلاث!»، صرختُ عبر الهاتف.

«كلُّ هذا مقبول وجيِّد، لكنَّني أخشى أنَّ المدن الثلاث رفضت ديكنز».

«ماذا؟ لماذا؟ على أيِّ أساس؟».

«هواريز (تُعرف أيضاً بالمدينة التي لا تتوقَّف عن النزف) تشعر أنَّ ديكنز عنيفة جدّاً. وتشيرنوبل، رغم إعجابها بالفكرة، شعرت، في نهاية الأمر، أنَّ قُرب ديكنز من لوس أنجلس ومعامل معالجة مياه الصرف الصحيِّ، هو مشكلة، وتتساءل عن موقف المواطنين تجاه الحدِّ من هذا التلوُّث المتفشِّي. في حين، كينشاسا، من جمهوريَّة كونغو الديمقراطيَّة...».

«لا تخبريني أنَّ كينشاسا، أفقرَ مدينة في أفقر بلد في العالم، المكان الذي لا يستطيع فيه متوسِّط الدَّخل أن يشتريَ جرسَ معزاة، بالإضافة إلى شريطَي كاسيت لمايكل جاكسون مهرَّبَين، وثلاث جرعات من الماء الصالح للشرب كلَّ عام، تفكِّر في أنَّنا فقراء جدّاً لترتبط بنا».

«لا، إنَّها تظنُّ ديكنز سوداء جدّاً، وعبَّروا وفق الصيغة التالية «هؤلاء الزنوج الأمريكيُّون المتخلِّفون غير مستعدِّين!»».

كنتُ مُحرَجاً جدّاً من إخبار هوميني أنَّ جهودي في إيجاد مدينة شقيقة لديكنز ذهبت هباء الريح، فصرتُ أحتال عليه ببعض الأكاذيب السُّوداء «لقد أبدت غرانسك بعض الاهتمام، ولدينا اقتراحات من

مينسك، وكيركوك، وناياك». في نهاية المطاف، نفدت كلُّ المدن التي تنتهي أسماؤها بحرف ك أو أيّ حرف آخر. وفي استعراض لخيبة الأمل، قلب هوميني صندوقَ زجاجات حليب بلاستيكياً، ووضعه في الطريق، ثمَّ وضع نفسه فوق منصةٍ لمزاد علنيّ: عاري الصدر، بثديين متهدِّلين، ويقف إلى جانب لافتة مثبّتة على العشب، مكتوب عليها: **للبيع. عبد زنجيٌ أسود مُستعبَد سابقاً، يُضرَب في أيّام الخميس فقط. مُتحدِّث جيّد.**

بقي هناك لأكثر من أسبوع، ورغم استخدامي بوق السيّارة فإنَّه لم يحرّك نفسَه من على مقعده. لذلك، متى ما احتجتُ سيّارتي كان ينبغي عليّ أن أصرخ «انتبه، أيُّها الرجل، عضوَ جمعيّة الكواكر» أو «ها قد جاء فريدريك دوغلاس ومريدوه الملاعين، اهرب لتنجو بحياتك»، وهذا ما كان يدفعه للركض ليختبئ وراء إحدى سيقان الذرة. لكن، في اليوم الذي احتجتُ فيه الخروج لملاقاة حبيبتي كان عناده خاصّاً.

«هوميني، هل يمكن أن تحرّك مؤخّرتك بعيداً عن طريقي؟».

«أرفض القيام بأيّ جهد من أجل سيّدي الذي لا يمكنه إدارة مهمّة صغيرة، مثل إيجاد مدينة شقيقة. اليوم، وهنا، زنجيُّ الحقل هذا يرفض التحرّك».

«زنجيُّ حقل؟! ليس لأنّني أريدك أن تتحرّك، لكنّك في الحقيقة لا تقوم بأيِّ عمل زراعة. أنت تمضي وقتكَ في حمّام الجاكوزي. زنجيُّ حقل أيّتُها المؤخّرة اللعينة! أنتَ زنجيٌّ سكّير تضيِّع وقتك في الشرب داخل حمّام السّاونا. تحرّك الآن!».

أخيراً، اخترتُ ثلاثَ مدن شقيقات، كلٌّ منها، مثل ديكنز، بلدة حقيقيّة اختفت في ظروف مريبة. الأولى كانت طيبة، ليست طِيبة المدينة المصريّة القديمة، بل موقع تصوير الفيلم الصامت العظيم «الوصايا العشر» الذي أخرجه سيسيل بي. دوميل. بُنيت على مساحة واسعة، ومنذ

العام ١٩٢٣ دُفنت تحت كثبان نيبومو الضخمة، على طول شاطئ غوادالوبي، كاليفورنيا. وبوّاباتها الخشبيّة الضخمة، ومعابدها ذات الأعمدة، وتمثال «أبو الهول» المصنوع من الورق، كلُّها كانت موطناً لرمسيس وكتيبة المئة جنديّ والكومبارس الذين أدُّوا أدوار فرسان الحقبة الرومانيّة. ربّما، في يوم ما، ستكشفها عاصفة غريبة وتزيح الغبار عنها، وبذلك يتمكّن موسى من قيادة الإسرائيليّين في رحلة عودةٍ إلى مصرَ، وديكنز إلى المستقبل.

بعد ذلك، شكّلت ديكنز، المدينة المزدهرة غير المرئيّة، شراكةً أخويّةً مع مدينتَين أخريين، دولرشايم، النمسا، ومدينة «امتياز الرجل الأبيض الضائعة». ودولرشايم، القرية التي تبخّرت منذ زمن طويل شمالي النمسا، جرّاء قذيفة من الحدود التشيكيّة. كانت المكان الذي وُلد فيه جدُّ هتلر من جهة أمّه. تقول الأسطورة إنّه قبل الحرب، في محاولة قام بها الفوهرر لمحو تاريخه الطبّي (خصية واحدة- عمليّة في الأنف- تشخيص إصابة بالزُهري- صورة طفل قبيحة، كلُّ تلك العلل في وقت واحد)، وكذلك لمحو اسم أسرته الأصليّ (شيكلغرابر- بوش)، ولمحو دمه اليهوديّ، أمرَ جيشه، المجنون أصلاً، إثبات جنونه بقصف البلدة في أثناء حكم الرايخ الأوّل. وبالنظر إليه كمحوٍ تاريخيٍّ، فقد كان تكتيكاً فعّالاً، لأنَّ لا أحدَ سيعلم شيئاً محدّداً عن هتلر، عدا أنّه سافل، وخالٍ من المرح، وفنّان مُحبَط، وهذا ما تستطيع أن تصف به أيَّ شخص آخرَ تقريباً.

كانت هناك حرب مزايدة صامتة بين المدن الأشباح حول العالم من أجل شرف أن تكون المدينة الشقيقة الثالثة لديكنز. مقاطعة فاروشا المهجورة، وهي كانت، في يوم من الأيّام، قسماً ناهضاً وحيويّاً من مقاطعة فاماغوستا في قبرص، أُخليت في أثناء الغزو التركيّ، ولم تُدمَّر أو يُعاد توطين السكّان فيها، صانعةً بذلك عرضاً مثيراً. كذلك تلقّينا

عرضاً من بوكور هيل ستيشن، المنتجع الفرنسيّ غير المأهول، الذي تستمرُّ آثاره المفرطة في الزخرفة حتّى اليوم بالتحلُل في الأدغال الكمبوديّة. بعد عرض مثير للإعجاب، كانت كاراكاتوا، شرق جزيرة جاوا في المقدّمة، في حين قامت مدنٌ كثيرةٌ مزّقتها الحروب وأُخليت مثل أورادور-سور- فالي في فرنسا، وباوا وغورمو في جمهوريّة أفريقيا الوسطى، بخطوات جبّارة من أجل الأخويّة المدنيّة. لكنّنا في النهاية وجدنا أنَّ من المستحيل تجاهل الدعوة المتّقدة لمدينة «امتياز الرجل الأبيض الضائعة»، وهي مدينة إشكاليّة ينكر العديد وجودها (معظمهم من الوجهاء البِيض ذوي الامتيازات). في حين، يجزم آخرون، بشكل قاطع، أنَّ جدرانها تصدّعت على نحو لا يمكن إصلاحه بتأثير من موسيقا الهيب هوب وكتابات روبيرتو بولانيو النثريّة. ذلك أنَّ شعبيّة لفائف التونا الحارّة، إضافةً إلى رئيس أمريكيٍّ أسود، كانت بالنسبة للذكر الأبيض المهيمِن تماثل بطانيّات الجُدري بالنسبة للسكّان الأمريكيّين الأصليّين. وأولاء الذين يميلون إلى الإيمان بالإرادة الحرّة، وبالسوق الحرّة، يجادلون في أنَّ مدينة «امتياز الرجل الأبيض الضائعة» هي مَن كانت مسؤولة عن زوالها، الذي يعود بدوره إلى سلسلة من المراسم الدينيّة والعلمانيّة المتناقضة، الآتية من السلطات العليا التي أربكت الرّجلَ الأبيض سريعَ التأثُّر، وانحدرت به إلى حالة قلقٍ اجتماعيٍّ ونفسيٍّ فتوقّف عن المضاجعة، والتصويت، والقراءة. والأكثر أهميّة، أنّه توقّف عن الاعتقاد، في نهاية الأمر، بأنّه الأهمُّ، أو على الأقلّ منعته من أن يدّعي ذلك على الملأ. لكن، في كلّ الأحوال، أصبح من المستحيل المشي في شوارع مدينة «امتياز الرجل الأبيض الضائعة» وأنت تغذّي غرورك بترديد بديهيّات خرافيّة مثل «نحن بنينا هذا البلد!». في حين، يعمل الناس الملوّنون حولكَ، ويطبخون الوجبات الفرنسيّة الفاخرة، ويصلحون سيّاراتك.لم يعد بمقدورك الصراخ «إنّها أمريكا، أحِبّها أو

غادرها!» في حين أنت، في أعماقك، تتوق للعيش في تورنتو، تلك المدينة التي أخبرت الجميع أنّها «عالميّة جدّاً»، وأنت تقصد أنّها «ليست عالميّة جدّاً». كيف يمكن أن تخاطبَ أحداً ما، أو تفكّر فيه بأنّه «زنجيٌّ»، في حين أولادك، الزنابق البيضاء الرقيقة، ينادونك بـ«زنجيّ» عندما ترفض إعطاءهم مفاتيح السيّارة؟ وعندما يقوم «الزنوج» يوميّاً بأمور يفترض أنّهم غير قادرين على فعلها، كالسباحة في الأولمبياد أو تصميم ساحات منازلهم. يا إلهي، إنِ استمرّ هذا الهراء فإنَّ أحدَ الزنوج، في يوم من الأيّام، لا سمح الله، سيقوم بإخراج فيلم جيّد. لكن، لا تقلقي يا مدينة «امتياز الرجل الأبيض الضائعة»، سواء كنتِ حقيقةً أم خيالاً، فأنا وهوميني سنحمي ظهرَك، وسنكون فخورَين بأن تصبحي المدينة الشقيقة لديكنز، المعروف عنها أنّها المعقل الأخير للسّواد.

الكثيرُ من المكسيكيّين

١١

«كثيرٌ من المكسيكيّين»، غمغمت كاريزما مولينا وهي تدرِّم أظافرها تدريماً فرنسيّاً كاملاً، ولذلك لم يسمعها أحد. لم تكن تلك المرّة الأولى التي أصغي فيها إلى مشاعرَ عنصريّة يُعبِّر عنها على الملأ. مُذ مشى الأمريكيُّون الأصليُّون بأحذيتهم الجلديّة صعوداً وهبوطاً في إل كامينو ريل ينشدون مصدر أصوات الأجراس اللعينة المزعجة التي ترنُّ فجراً صباح كلّ يوم أحد، فتخيف أكباشَ الجبال الصخريّة، وتقضي على كثير من الأرواح الهائمة المنتشية، يشتِم أبناءُ كاليفورنيا المكسيكيّين. والهنود الذين كانوا يبحثون عن السلام والهدوء، انتهى بهم الحال إلى العثور على يسوع، والعمل القسريّ، والجَلد، وأسلوب الإيقاع في الموسيقا. كان أبناء كاليفورنيا يهمسون «كثير من المكسيكيّين» في أنفسهم، في حقول القمح، وعلى مقاعد الكنيسة الخلفيّة حيث لم يكن أحدٌ يراهم.

الناس البِيض، ذلك الصنف الذي لا يجدُ كلاماً يوجِّهه للناس السُّود سوى «لا وظائف شاغرة لدينا»، و«لقد فوَّتَّ الفرصة»، و«نسيتَ تنظيفَ إحدى البقع»، و«أدخل الكرة الضائعة في السلّة»، أصبح لديهم، أخيراً، شيء يقولونه لنا. وفي الأيّام الحارّة في سان فيرناندو فالي، حيث ترتفع درجة الحرارة إلى ١٠٤ درجات، ونحن نحمل بقالتهم إلى سيّاراتهم، أو نحشو صناديق بريدهم بالفواتير، يستدير أحدُهم ويقول «كثير من المكسيكيّين»، اتّفاق صامت بين غرباء مظلومين لا يمكن أن يقعَ اللوم

فيه على الحرارة أو الرطوبة، بل على إخوتنا السُّمر في الجنوب، وفي الشمال، وفي المناطق المجاورة، وفي أيكة الأشجار، وفي كلّ مكان آخر في كاليفورنيا.

عبارة «كثير من المكسيكيِّين»، بالنسبة للسُّود، هي العذرُ الذي نمنحه لأنفسنا نحنُ، أكثر العمَّال الشرعيِّين في التاريخ، من أجل حضور التجمُّعات العنصريَّة التي تحتجُّ على العمَّال غير الشرعيِّين، الذين يسعون إلى ظروف معيشيَّة أفضل. «كثير من المكسيكيِّين» هو تبريرٌ شفويٌّ لبقائنا عالقين في أوضاعنا. نحبُّ أن نحلمَ، ونحن في ساعة شرب الشاي، بالرحيل، والحصول على ظروف معيشيَّة أفضل، في الوقت الذي نتصفَّح فيه بسرعة إعلاناتِ القروض العقاريَّة.

«ماذا عن مدينة غلينديل، حبيبي؟».

«كثير من المكسيكيِّين».

«ومدينة داوني؟».

«كثير من المكسيكيِّين».

«وبيلفلور؟».

«كثير من المكسيكيِّين».

«كثير من المكسيكيِّين». إنَّها ملاحظة مبتذلة تخصُّ كلَّ متعاقدٍ غير مرخَّص له، تعبٍ من كونه دون المستوى المطلوب، ويرفض إلقاء اللوم على افتقار توظيف العمالة الرديئة، وسلوكات تشغيل العمَّال المتحيِّزة، وقائمة المراجع الطويلة السخيفة على شبكة الإنترنت. يتحمَّل المكسيكيُّون اللوم في كلِّ شيء، فعندما يعطس أحدُهم في كاليفورنيا لا نقول «يرحمك الله» بل «كثير من المكسيكيِّين»، وعندما يصل حصانك إلى نهاية مطاف حلبة سباق الخيل وهو يعرج، وفي المركز الخامس، في سباق سانتا أنيتا، تقول «*كثير من المكسيكيِّين*» وعندما يوزِّع اللاعب

الأحمق بنتاً ثالثة في الدور الأخير من لعبة البوكر في كازينو الحيّ التجاريّ في لوس أنجلس، تقول «كثير من المكسيكيّين». إنّها عبارة لازمة متكرّرة في كاليفورنيا. ولكن، لما قالتها كاريزما مولينا، مساعدة مدير مدرسة «تشاف ميدل»، والصديقة الأقرب إلى ماربيسا (حبيبتي مهما كان رأيها في ذلك)، كانت هي المرّة الأولى التي أسمع فيها مكسيكيّاً-أمريكيّاً يقولها. وعلى الرغم من أنّني لم أكن أدرك ذلك وقتها، فقد كانت أوّل مرّة أسمعها من شخص يعنيها حقّاً، حرفيّاً.

على عكس الأوغاد الصغار، في أيّ وقت كنت ألهو فيه بعيداً عن المدرسة، لم أكن أذهب قطُّ إلى الصّيد- كنت أذهب إلى المدرسة. كنت أتسلّل خارج المنزل، في حين يكون والدي غارقاً في نومه في أثناء حصّة «السّواد»، وأنطلق بسرعة إلى مدرسة تشاف لأشاهد الأولاد يلعبون الكرة بأيديهم وبأقدامهم عبر سياج المدرسة. وإذا كنت محظوظاً فإنّني سألقي نظرة على ماربيسا، وكاريزما، وزميلاتهما، وهنَّ يجذبنَ الانتباه عند البوّابة الخلفيّة، أنيقات كفتيات في فرقة نحاسيّة، يحرّكنَ أوراكهنّ، ويغنّينَ: بيب بيب، *نمشي إلى أسفل الطريق، عشر مرّات في الأسبوع... «هو يي!، هو يي!»... تلك هي قوّة السُّود!... أنا الفتاة التي تفهمك، لذلك قدّم لي الأفضل مرّة أخرى.*

بالنسبة للأطفال في مدرسة تشاف، كان يوم العمل السنويُّ، الذي يُقام قبل نحو أسبوعين من عطلة الصيف، كافياً لجعل معظمهم على الأقلّ يتأمّلون طويلاً في فكرة الانتحار الوظيفيّ قبل أن يتقدّموا لاختبار الكفاءة أو يكتبوا سيرة ذاتيّة. فالتجمُّع عند الإسفلت الأسود في فناء المدرسة، والتقاء عمّالِ مناجم الفحم، وكلابِ الاسترداد في مضمار الغولف، وحائكي السلال، وحفّاري الخنادق، ومجلّدي الكتب، ورجال الإطفاء المصدومين، وآخر روّاد الفضاء، كلُّ ذلك لا يحفّز ولا يقدّم كثيراً من الإلهام. الأعمال القديمة نفسها كلّ عام. كنّا نواصل أعمالنا

المطلوبة التي لا مفرّ منها، لكنّ أحداً لم يقدِّم أجوبة عن الأسئلة من الصفّ الخلفيّ؛ مادمتَ مهمّاً ولا يتحرّك العالم من دونك، فلِمَ أنت هنا تضجرنا إلى أبعد الحدود؟ لماذا لا تبدو سعيداً؟ كيف تَصادفَ أن لا امرأة تعمل في سلك الإطفاء؟ كيف تَصادفَ أنَّ الممرضات يتحرَّكنَ ببطء شديد؟ السؤال الوحيد الذي أشبع فضول الأطفال كان موجَّهاً إلى آخر رائدِ فضاءٍ، رجل أسود عجوز محترم، واهن إلى درجة أنّه بدا وكأنَّه يجرّب فقدان الجاذبيّة هنا على الأرض.كيف يقضي روّاد الفضاء حاجاتهم؟ حسناً، *لا أعرف حالياً، لكن في أيّامي كانوا يلصقون كيساً بلاستيكياً على مؤخّرتك.*

لا أحد يريد أن يكون مزارعاً، لكن بعد شهر من احتفال عيد ميلاد هوميني، طلبت منّي كاريزما أن أفعلَ شيئاً مختلفاً. جلسنا في شرفة منزلي الأماميّة ننفث الدخان، في حين كانت تزعجني بقولها إنّها تعبت من رؤية أسرة لوبيز أو «جيراننا المكسيكيّين ذوي القبّعات»، كما كانت تسمّيهم، ومن خيولهم المسرجة بحليّ رعاة البقر اللامعة، التي كانت تسبّب لها الإحراج عاماً بعد عام، وبملابس رعاة البقر خاصّتهم، المخمليّة المطرّزة، وألعاب الحبل المتقنة. «لا أحد يهتمّ بالاختلافات الدقيقة بين السماد العضويّ والمخصّبات، أو يهتمّ بالتحكّم بالأمراض النباتيّة للجوز الأمريكيّ. اهتمامات هؤلاء الأطفال ضيّقة. عليك أن تمسكَ بهم في الحال ولا تدعهم يذهبون. لا أستطيع تخيُّل أيّ شيءٍ أسوأ من السنة الفائتة، حينما كان عرضك مملاً جداً، إلى درجة أنَّ الأولاد رموك بالبندورة العضويّة خاصّتك».

«هذا هو السبب في أنّي لن أحضرَ هذا العام، لستُ في حاجة إلى الإهانة».

أغلقت كاريزما إحدى عينيها وحدّقت في الغليون، ثمّ أرجعته إليّ.

«لقد فرغ الغليون من هذا القرف».

«هل تريدين المزيد؟».

أومأت كاريزما برأسها.

«نعم أريد، وأريد أن أعرفَ ماذا تسمَّى هذه الحشيشة، ولماذا أصبحت البورصة، وكلُّ الهراء الذي قرأته في حلقة بحث تخرُّجي في مادَّة اللغة الإنكليزيَّة، فجأة، أصبحت تعني شيئاً بالنسبة لي».

«أنا أسمِّيها حدَّة ذهن Perspicacity».

«حسناً، هذه هي جودة هذه القذارة التي تتنشقُها، أعرف ماذا تعني كلمة «حدَّة ذهن» كلمة لم أسمعها من قبل، تعني...».

نبح أحد الكلاب، وصاح ديك، وخارت بقرة، وانتقل ضجيج طريق هاربور السريع إلى المزرعة. دفعت كاريزما شعرها الأسود السابل الطويل عن وجهها، ثمَّ أخذت نَفَساً أضاء أسرار الإنترنِت: *يوليسيس*، رواية جين تومر *«القصب»*، والسحر الأمريكيُّ في عروض الطهي التلفزيونيَّة. هي عرفت أيضاً كيف تجعلني أشارك في يوم العمل.

«ماربيسا ستكون هناك».

لم أعد أحتاج مزيداً من الحشيش لأعرف أنَّني لم أتوقَّف عن حُبِّ تلك المرأة.

مع كتلة الغيوم المتدحرجة من الغرب بدت السماء وكأنَّها ستمطر، لكن لا شيء يثني كاريزما عن التأكُّد من أنَّ طلَّابها سيحقِّقون الفائدة من اكتشاف عشرات فرص الوظائف المتاحة للشبَّان المعوزين في أمريكا اليوم. وبعد أن أدلى عمَّال النظافة، وضبَّاط الإفراج المشروط، ومنسِّقو الموسيقا، ورجال المخدِّرات بدلائهم، حان الوقت لبعض الفعل. ماربيسا، التي تمثِّل صناعة النقل، التي حتَّى لم تنظر إليَّ طوال اليوم، قدَّمت مظاهرَ وحِيلاً في سياقة الحافلةِ جعلت من فيلم «سريع وغاضب»

امتيازاً تفخر به وهي تقود حافلتها ذات الثلاثة عشرَ طنّاً بخبرة بين المخاريط المروريّة، تغزل بإطارات حافلتها المنفوخة كقطع الدونات على أرض الملاعب الأربعة، مربّعة الشكل. وبعد أن وصلت إلى منحدر مؤقّت أُنشئ من مقاعد وطاولات الغداء حلّقت فوق فناء المدرسة على عجلتين، وبعد الانتهاء من القيادة الخياليّة دعتِ الطلاب إلى رحلة سياحيّة في حافلتها. صعد الأولاد الحافلة صاخبين سعيدين للغاية، وبعد نحو عشر دقائق كانوا يغادرونها بكلّ هدوء، وبطريقة منتظمة، وهم يشكرون ماريبيسا بكلّ جدّية. أحد المعلّمين، شابٌ أبيض، وهو المدرّس الأبيض الوحيد في المدرسة، كان يغطّي وجهه بيديه. وبعد نظرة حداد أخيرة إلى الحافلة، ابتعد بعيداً عن باقي المجموعة وانهار عند صندوق الكُرات، محاولاً أن يتماسك. لم يسبق لي أن تخيّلت أنّ شرح نظام النقل وارتفاع الأجرة يمكن أن يكون محبِطاً جدّاً. ثمّ بدأ مطر خفيف يهطل.

أعلنت كاريزما أنّ الوقت قد حان لتقديم أجزاء أكثر ريفيّة في البرنامج، فنهض نيستور لوبيز. أسرة لوبيز، في الأصل من هاليسكو، لاس كروسيس في المكسيك، كانت أوّلَ أسرة مكسيكيّة تندمج في المزارع. كنت في السابعة عندما وصلوا، وكان والدي دائم الشكوى من موسيقاهم، ومن كلّ أمور القتال المتعلّقة بهم. الدرس الوحيد الذي تعلّمته في دروسي المنزليّة عن التاريخ المكسيكيّ- الأمريكيّ كان «أبداً، لا تقاتل مكسيكيّاً، لأنّك إذا قاتلت مكسيكيّاً فإنّك سوف تقتل مكسيكيّاً!»، لكنّ نيستور، على الرغم من أنّه يكبرني بأربع سنوات، وعلى الرغم من أنّني كنت سأقتله في أحد الأيّام بسبب دمية سيّارة أو شيء من هذا الهراء، كان ظريفاً جدّاً. في فترة ما بعد ظهر أيّام الآحاد، لما كان يعود إلى منزله من دروس الدين كنّا نشاهد أفلام الخيّالة المكسيكيّين، وأفلاماً مهتزّة الصورة عن مسابقات رعاة البقر في البلدات

الصغيرة، وكنّا نشرب مشروب القرفة الحارّ الذي كانت تعدُّه أمُّه من أجلنا في أكوابٍ خزفيّة، ونقضيّ بقيّة فترة ما بعد الظهر نقلّب في أشرطة فيديو رهيبة عناوينها مثل *300 porrazoas sangrientos, 101 muerte del jaripeo, 1000 litros de sangre, Si chingas al toro, te llevas los cuernos*(١).

ومع ذلك، وعلى الرغم من أنّني شاهدت آثار كلّ تلك الأعمال في الشقوق على أصابعي، فإنّني لم أكن قادراً قطُّ على محو صورة رعاة البقر سيّئي الحظ أولاء، وهم يمتطون ثيراناً لا سروجَ لها لتمسك بها أيديهم، ولا مهرّجي مسابقة رعاة البقر يلوّحون للثيران، دون إسعاف طبّي، ودون خوف، في حين تطرحهم *الثيران الضخمة المدمّرة* أرضاً كدمى بالية لافقاريّة. كنّا نجأر بألم، بالنيابة عنهم، كلّما وخزت قرون الثيران، مستدقّة النهايات، على نحو لا يُصدّق، قمصانَهم المزخرفة وشرايينهم. نضرب براحات أيدينا فرحاً عندما تنضح عظام فكّ راكب الثور ووجهه بالقذارة المعجونة بالدماء. وفي حين لم يكن الفتيان السُّود أو اللاتينيُّون معتادين على فعلها كنّا منجرفين بعيداً في هذا الأمر. ضحايا اجتماعيّة لمراسيم عصابات السجون التي لم تستطع فعل شيء حيالنا إلاّ شرط الفصل بين الزنوج والأشخاص من أصول لاتينيّة. الآن، باستثناء حفلة الحيّ الموسميّة لا أرى نيستور إلاّ في يوم العمل، عندما يأتي، كشيء مرافق لافتتاحيّة أوبرا *ويليام تيل*، مسرعاً من وراء المصنع المقفل، وهو يؤدّي ألعاباً بهلوانيّة على حصانه.

لم أكن قادراً على التحديد بدقّة مجالَ العمل الذي يمثّله نيستور بالاستعراض، على ما أظنّ- لكنّه في نهاية عرض رعاة البقر، رفع قبّعته المكسيكيّة العريضة، المزيّنة بكرة فرويّة، ردّاً على تصفيق الحشد

---

(١) بالإسبانيّة بالأصل: ٣٠٠ نزال حتّى الموت، مئة حالة وحالة لوفاة لهاريبيو، ١٠٠٠ ليتر من الدّم، إذا لعنت الثور فسأترك لك القرون. (م)

الصاخب، وحدَّق فيَّ إلى الأسفل بتلك النظرة الساخرة «من علٍ» وهو يتبختر ويؤدِّي تلك الحركات الاستعراضيَّة، مثل الوقوف على الرأس فوق سرج الحصان. بعدها قدَّمتني كاريزما إلى تثاؤب جماعيٍّ عالٍ يمكن سماعه في جميع أنحاء ديكنز.

«ما هذا الصوت؟ هل هي طائرة أقلعت؟».

«لا، إنَّه الزنجيُّ المزارع. لا بدَّ أنَّه يوم العمل في المدرسة المتوسِّطة مرَّة أخرى».

قدتُ عِجلاً هائجاً بعينَين بنِّيَّتين إلى رقعة القاعدة الرئيسة في ملعب البيسبول المحاطة بسياج معدنيٍّ مهترئ. تجاهل بعض الأولاد الشجعان بطونهم المقرقرة وأمراض عوز الفيتامين، وتجاوزوا الصفَّ للوصول إلى الحيوان، بحذر، خائفين، ربَّما، من أن يصابوا بمرض، أو يقعوا في الحبِّ. داعبوا العجل، وتفوَّهوا بالشتائم.

«جلده ناعم».

«عيناه تبدوان مثل كاراميلا «ميلك دادز»، أرغب في تناولهما».

«طريقة لحس هذا العجل الزنجيِّ شفتيه، وخواره، ولعابه السائل، تذكِّرني بأمِّك المختالة عقليّاً».

«تبّاً لك، أنت المختال عقليّاً!».

«كلُّكم مختالون عقليّاً... ألا تعرفون أنَّ للبقر روحاً أيضاً؟».

تجاهلتُ اللفظ الخطأ لكلمة «مختلّ عقليّاً»، ومع ذلك، عرفت أنَّني كنت منتشياً، أو على الأقلِّ كان العجل كذلك. طوت كاريزما لسانها بين أسنانها وشقَّت الهواء بصفير مدرِّب كرة قدم حادّ. الصفير نفسه الذي كانت تحذِّرنا به، أنا وماربيسا، حينما كان والدي يسير على الممشى. وعلى الفور، صمت مئتا طالب، وحوَّلوا اضطراب عجز انتباههم باتجاهي.

«مرحباً بكم، جميعاً»، قلتُ، وبصقت على الأرض لأنّ هذا ما يفعله المزارع، «أنا، مثلكم أيّها الشبّان، من ديكنز...».

«من أين؟» صرخت مجموعة من الطلاّب. وكأنّني قلت إنّني من أتلانتس، فلم يكن الأطفال من مكان سوى من ديكنز، فوقفوا، وبدؤوا يتقيّؤون إشارات العصابات، ويخبرونني من أين جاؤوا: عصابة كريب من حديقة جوسلين في الجزء الجنوبيّ، فاريو تريسنيتوس يا سنيكو، عصابة بلادز من جادّة بيدروك ستونر.

وبحركة انتقام، استنبطت أقرب شيء في عالم الزراعة إلى إشارات العصابات، ومرّرت كفّي أمام حنجرتي- الإشارة العالميّة لأمر التوقّف عن الكلام، وأعلنتُ «حسناً، أنا من المزارع، وهي مكان مثل كلّ الأماكن التي سمّيتموها الآن، سواء كنتم تعرفونها أم لا، هي مكان في ديكنز، ومساعدة المدير مولينا طلبت منّي أن أشرح كيف يبدو نهار المزارع العاديّ، وبما أنّ اليوم يصادف ذكرى الأسبوع الثامن في حياة هذا العجل، فكّرت في أن أتحدّثَ عن الخِصاء. ثمّة ثلاث طرائق للخِصاء...».

«وما هو الخِصاء أيّها المايسترو؟».

«إنّها طريقة نمنع بوساطتها ذكورَ الحيواناتِ من إنجاب أيّ أطفال».

«ألا توجد لديهم واقيات ذكريّة؟».

«ليست فكرة سيئة، لكنّ الأبقار ليس لديها أيدٍ، وهي، مثل الحزب الجمهوريّ، لا تراعي حقوق المرأة في الإنجاب، لذلك هذه هي وسيلة التحكّم بعدد السكّان. وهي أيضاً وسيلة تجعل العجول طيّعةً. هل يعرف أحدكم ما تعنيه كلمة «طيّعة»؟».

بعد أن مرّرتها تحت أنفها الذي يسيل، رفعت فتاة نحيفة يدها

البيضاء بلون الطبشور، شاحبة جدّاً على نحو مثير للاشمئزاز، بيضاء جدّاً، وجافّة البشرة، هذه اليد لا يمكن أن تكون إلاّ يد أنثى سوداء.

«تعني عاهرة» قالت، وتطوّعت لمساعدتي بأن تقدّمت باتّجاه العجل، وصارت تعبث بأذنيه الزغبيّتين بأصابعها.

«نعم، يمكن القول إنّها كذلك».

مع ذكر كلمة «عاهرة»، وذكر الفكرة المضلّلة التي سيتعلّمون من خلالها شيئاً عن الجنس، كان الأطفال قد تجمّعوا في حلقة ضيّقة. أمّا أولاء الذين لم يكونوا في الصفّين الأوّلين فقد كانوا يتجوّلون ويمرّون في الأرجاء من أجل الحصول على رؤية أفضل. بضعة أولاد تسلّقوا أعلى داعمة الحافلة الخلفيّة وصاروا يمعنون النظر في العمليّة في الأسفل مثل طلّاب الطبّ داخل غرفة عمليّات. صفعتُ جسدَ العجل على جانبه، ثمّ ركعت إلى الأسفل، عند رقبته وقفصه الصدريّ، ووجّهت يد رعاة البقر خاصّتي، غير المعقّمة، وأمسكتُ قائمَتي العجل الخلفيّتين وفلقتهما حتّى انكشفت أعضاؤه التناسليّة أمام الملأ. لما رأيت أنّني كسبت اهتمام الأولاد انتبهت إلى أنّ كاريزما كانت تتفقّد موظّفها الذي لايزال متذمّراً، ثمّ مشت على رؤوس أصابعها عائدة إلى حافلة ماربيسا. «كما كنت أقول: ثمّة طرائق ثلاث للإخصاء: جراحيّة، بالمطّاط، وغير دمويّة. باستخدام المطّاط تضع شريطاً مطّاطيّاً هنا تماماً، فتمنع الدّم من الوصول إلى الخصيَتين، وبهذه الطريقة ستذبل الخصيتان في نهاية المطاف وتتضاءلان». أمسكتُ الحيوان من قاعدة كيس صفنه، وعصرتُ بقوّة، فصار يقفز من مكانه في انسجام تامّ مع قفز الأطفال «في الإخصاء غير الدمويّ، نسحق الحبال المنويّة هنا وهناك». قرصتان شديدتان لحشَفَة قضيب الحيوان المعرَّقة أرسلتاه في تشنّجات هائجة من الألم والاضطراب، وأرسلتِ الطلابَ في موجات من الضحك الساديّ.

استللتُ موسى يدويّة ورفعتها، ولويت يدي في الهواء متوقّعاً أن تلمع شفرة الموسى تحت أشعّة الشمس على نحو دراميّ، لكنَّ الطقسَ كان غائماً «بالنسبة للإخصاء الجراحيّ...».

«أنا أريد أن أفعل ذلك»، قالت الفتاة السّوداء الصغيرة. كانت عيناها البنيّتان مثبّتتين على كيس صفن العجل، وتقدحان بالفضول العلميّ.

«أعتقد أنّك في حاجة إلى موافقة من والديك».

«أيُّ والدين؟ أنا أعيش في إل نيدو»، قالت مشيرة إلى نُزل ويلمينغتون الذي كان اسمه في الحيّ يعادل اسم سينغ سينغ في فيلم جيمس كاغني.

«ما اسمك؟».

«شيلا. شيلا كلارك».

تبادلنا الأماكن، شيلا وأنا، تسلّقنا فوق بعضنا بعضاً دون أيّ مراعاة للعجل سيّئ الطالع. لما أصبحتُ في الخلف سلّمتُها الموسى ومقبض الإخصاء الذي هو اسم على مسمّى فعلاً، بكلّ ما يعنيه الاسم، ويفعل مثلما يفعل مقصُّ جزّ الحدائق، أو أيُّ أداةٍ جيّدة أخرى. أُزيل مكيالان من الدّم على نحو مفاجئ وماهر، من النصف العلويّ لكيس الصفن. انتزاعٌ بارعٌ للخصيتين إلى الهواء، سحقٌ وقطعٌ للحبل المنويّ يمكن سماعه حتى فِناء المدرسة المليء بالطلّاب والمعلّمين الصارخين، وعجلٌ أصبح مُحبطاً جنسيّاً على نحو دائم. بهذا الوضع كنتُ أنهي محاضرتي لصالح شيلا كلارك وثلاثة من طلّاب مستويات أخرى من المدرسة، مفتونين بما فيه الكفاية ليغتسلوا ببركة الدّم المنتشرة من أجل الحصول على نظرة أقرب إلى الجرح، في حين أتصارع مع العجل المستمرّ في تشنّجه. «يحلو لنا، نحن في حقل الزراعة، أن نسمّيَ حالة الثور المستلقي هنا عاجزاً بوضعيّة المضطجع، وهذا الوقت ليس وقتاً

سيّئاً للقيام بإجراءات مؤلمة أخرى على الحيوان، مثل نزع قرونه، وتلقيحه، وكيّه لتمييزه بإشارة، ووضع علامة على أذنَيه...».

بدأ هطول المطر يزداد، وحبّات المطر، الكبيرة والدّافئة، تثير غيوماً من الغبار وهي تضرب الرصيف القاسي والجاف. وفي منتصف فِناء المدرسة بدأ موظّفو الحراسة يفرغون إحدى الحاويات على عَجَل، فطرحوا المقاعد الخشبيّة المكسورة، والسبُّورات المصدوعة، ومرمى كرة اليد الذي أكله النمل، أرضاً فشكّلوا كومةً كبيرةً، وبعدها حشوا الفجواتِ المتشكّلة بالجرائد. تنتهي احتفاليّة يوم العمل عادة بحفلة شواء مارشميلو كبيرة، لكنَّ السماءَ كانت تزداد قتامةً، فتملّكني شعور أنَّ الأولاد سيصابون بخيبة أمل. وفي خضمّ الرطوبة المتزايدة، أنقذ المعلّمون الشابَّ المنتحبَ الذي كان يحدّق في كرة السلّة وكأنَّ العالمَ وصل إلى نهايته. وآخرون كانوا يجمعون الأولادَ، يلتقطونهم من على الأراجيح المنهارة، ومن على أنابيب الجماز الصدئة، ومن فوق المزحلِقات ومساند التأرجح، في حين كان نيستور يجري بسرعة بين القطيع المذعور يوجّهه نحو البوّابات. أدارت ماربيسا محرّك الحافلة، وتحرّكت كاريزما في الوقت الذي بدأ فيه العجل بالتعافي من الصدمة. بحثتُ عن مساعدتي شيلا كلارك، لكنّها كانت مشغولة جدّاً بالإمساك بزوج الخصيتين المدمّيتين من أحشائهما الخيطيّة، ترميهما في الهواء، وتضرب إحداهما بالأخرى مثل زوج طقطيقات الأولاد ذات الـ ٥٠ سنتاً، التي تستخرجها من آلات البيع الإلكترونيّة.

وبينما كنت ألوي رأس الحيوان، مديراً ظهري، واضعاً قدمي بين قائمتيه كي أمنعه من رفسي، التفّت ماربيسا بالحافلة، واتّجهت بها خارجة من البوّابة الجانبيّة إلى طريق شيناندوا دون تلويحة وداع حتّى. تبّاً لها. وقفت كاريزما قبالتي، تقرأ الجرح في عينيّ.

«أنتما الاثنان تعنيان كثيراً لبعضكما».

«هل تؤدّين خدمةً لي؟ في حقيبتي هناك مطهّر وعلبة فيها مادّة لزجة، مكتوب عليها *فليغنشوتز*». فعلت مساعدة المدير ما كانت تفعله دائماً مُذ كانت طفلةً صغيرةً: بيديها القذرتين، رشّت الحيوان المتلوّي بالمطهّر، ثمّ مسحتِ الجرح المفتوح بسائل فليغنشوتز اللزج، حيث كانت تتوضّع الخصيتان في وقت سابق.

لما أنهت عملها، ربّتَ المعلّم الأبيض، ووجهه مبقّع بالدموع، على كتف رئيسته. ومثل شرطيّ في برنامج تلفزيونيّ يسلّم شارته وسلاحه، انتزع باحترام زرّ «علّم من أجل أمريكا» الجديدَ اللامعَ المثبّت على صدريّة سترته، ووضعه في راحة يد كاريزما ومشى باتجاه العاصفة المفاجئة.

«ماذا كان كلُّ هذا؟».

«لما كنّا في الحافلة، وقفت مساعدتك النحيلة، شيلا، وأشارت إلى الملصق **أولويّة الجلوس للبِيض**، وأخبرت السيّد إيدموندز الشابّ أنَّ بإمكانه أن يجلسَ في مقعدها. ذلك الأحمق، قبِلَ عرضَها، وجلس، مُدركاً ما يفعل، ثمّ فقدَ التحكُّم بمشاعره، وبدأ يبكي...».

«انتظري، هل لا تزال تلك الملصقات معلّقة؟».

«ألا تعرف؟».

«أعرف ماذا؟».

«أنت تتحدّث كثيراً عن الحيّ، لكنّك لا تعرف ما يجري فيه. مُذ ألصقتَ تلك الملصقات في الحافلة، أصبحت حافلة ماربيسا المكانَ الأكثر أماناً في المدينة. هي كانت قد نسيت كلَّ ما يتعلّق بأمرهم، أيضاً، حتّى أشار مشرف نوباتها إلى أنَّ حافلتها لم تسجِّل أيّ حادثة منذ حفلة عيد ميلاد هوميني. لكنّها بعد ذلك، بدأت تفكّر في الموضوع. كيف

يعامل الناس بعضهم بعضاً باحترام. يحيُونك عندما يصعدون إلى الحافلة، ويشكرونك عندما يترجّلون منها. ليس هناك قتال عصابات كريب، أو بلادز، أو كولو. كانوا يضغطون على زرّ طلب التوقُّف مرّة واحدة، مرّة لعينة واحدة. هل تعرف أين يؤذي الأولاد وظائفهم الدراسيّة، ليس في المنزل، ولا في المكتبة، بل في الحافلة! هذا هو مستوى الأمان الذي وصلتُ إليه».

«الجريمة تتكرّر».

«إنّها تلك الملصقات. احتجَّ الناس في البداية، لكنَّ العنصريّة أرجعتهم، جعلتهم متواضعين، جعلتهم يدركون المدى الذي وصلنا إليه، والأهمّ من ذلك، أن نعرف إلى أيِّ مدى علينا أن نصل. بدا الأمر على متن تلك الحافلة وكأنَّ شبحَ الفصل العنصريّ وحّد ديكنز».

«وماذا عن المعلّم المنتحب؟».

«السيِّد إدموندز هو أستاذ رياضيّات قدير، لكن كما هو واضح، لا يمكنه تعليم الأولاد شيئاً عن أنفسهم، تبّاً له».

زحف العجل على قوائمه بعد أن التأم جرحه قليلاً، وشيلا، الفتاة الصغيرة التي خصَته، صارت تتمايل أمام وجهه لإغاظته، تعقد خصيتيه من شحمتي أذنيها مثل جوهرتين. شخر الحيوان شخرة وداع أخيرة لذكورته، ومشى الهوينى مواسياً نفسه باتجاه عمود لعبة الكرة المعلّقة التي لا كرة فيها أصلاً، العمود الذي كان محنيّاً، دون فائدة، أمام الكافتيريا. فركت كاريزما عينيها المتعبتين «الآن، لو كان الأطفال الملاعين يحسنون التصرُّف في المدرسة كما يفعلون في الحافلة لكنّا أنجزنا شيئاً».

مشى زملاء شيلا، يقودُهم نيستور لوبيز الذي كان يعدو أمامهم مسرعاً طامعاً في مكافأة عمله، على طول الأرض الوعرة، عبر رذاذ

المطر، وأمام أكواخ البانغالو القشّيّة المسقوفة بورق كرتون الأسقف، والنوافذ الزجاجيّة المغلّفة بورق الصحف وورق البناء الملوَّن. شكّلت المباني، على مثل هذه الحالة من الترميم، أبنيةً للتعليم، أفريقيّة ملوّنة تتكوّن من غرفة واحدة، جمعت تكلفة بنائها من تبرُّعات تلفزيون آخر الليل، فبدت مثل قاعات محاضرات، إذا ما قورنت بمثيلاتها.

كانت دربَ الدموع المعاصر[1]. الأولاد متحلّقين حول تلّة من أثاث المدرسة المحطَّم. بهجتهم لاتزال مسمَّرة على الرغم من فرقعة حبّات المطر على أكياس المارشميلو الكبيرة، وكومة الخشب المعتِمة، وأوراق الجرائد الرطبة. خلفهم، كانت صالة المدرسة التي انهار سقفها في زلزال نورثريدج عام ١٩٩٤ ولم يُعَد بناؤها. مدّت كاريزما يدها تحت أجراس سرج نيستور المخصَّصة لاحتفالات رأس السنة الجديدة، وصارت تجلجل بالأجراس، الأمر الذي جعل الأولاد يبتسمون. بعد ذلك مباشرة، ركضت شيلا كلارك، ودموعها تغسل كتفيها «آنسة مولينا، ذلك الولد الأبيض سرق إحدى «خصيتَيَّ»!» وصارت تنتحب، وتشير إلى ولد لاتينيٍّ بدين، أدكن منها بثلاث درجات، وعبثاً تحاول التقاط الخصية من على الأرض الرطبة. داعبت كاريزما، بلطف، رأسَ شيلا ذا الضفائر، مهدِّئة إيّاها. كان هذا أمراً جديداً بالنسبة لي، فالأولاد السُّود يشيرون إلى أقرانهم اللاتينيِّين بالبِيض. لما كنت في عمرهم، في تلك الأيّام، كنّا نصرخ «ليست هي!» قبل ألعاب مثل «إرفس اللعبة» و«الضوء الأحمر» و«الضوء الأخضر». في تلك الأيّام، قبل العنف، والفقر، وقبل أن يخفِض القتال داخل مجتمعاتنا حقوقَنا الطبيعيّة في الأرض، من ديكنز بأكملها، إلى كتل أبنية معزولة بسبب حرب العصابات، وقتها كان كلٌّ

(١) إشارة إلى الدرب الذي مشت فيه قبائل الأمريكيّين الأصليّين إلى غرب نهر الميسيسبي في منتصف القرن التاسع عشر مجبرين من الحكومة الأمريكيّة. (م)

واحد في ديكنز، بغضّ النظر عن عِرقه، أسودَ، ولا تُحدَّد درجة سواد أيّ شخص من لون بشرته أو قصّة شعره، بل من نطقه لإحدى العبارتين «لكلّ النيّات والغايات» أو «لكلّ الغايات الملحّة».كانت ماربيسا تقول إنّه على الرغم من الشعر الأسود السابل الذي يتأرجح فوق مؤخّرة كاريزما، ولون بشرتها *الهوركاتا*، فإنّها لم تكن تعرف أنّ كاريزما ليست سوداء حتّى اليوم الذي توقّفت فيه أمُّ كاريزما عن أخذ ابنتها من المدرسة. كان حديثها ومشيتها مختلفين عن حديث ومشية ابنتها. قالت لصديقتها مذهولة «أنتِ مكسيكيّة؟» ظانّة أنّ رفيقتها تتعثّر في مشيتها، أجابت كاريزما بتعجُّب «أنا لستُ مكسيكيّة!»، وعندها، وكأنّها تشاهدها لأوّل مرّة، نظرت كاريزما مليّاً إلى أمّها في محيط الوجوه والإيقاعات السوداء ما بعد المدرسة «أوه، اللعنة، أنا حقّاً مكسيكيّة! *Hijo de puta!*[1]». كان هذا منذ زمن بعيد.

قبل إشعال النار، خاطبت مساعدة المدير، مولينا، قواتّها. كان واضحاً من مدى الجدّيّة على وجهها، ومن نغمة صوتها أنّها جنرالٌ مُحبَط، مستسلمٌ للقدر بأنّ القوّات السّوداء والسّمراء التي أرسلها إلى العالم ليس لديها كثيرٌ من الفرص. *Cada día de carreras profesionales yo pienso la misma cosa. De estos doscientos cincuenta niños, ¿cuántos terminarán la escuela secundaria? ¿Cuarenta pinche por ciento? Órale, y de esos cien con suerte, ¿cuántos irán a la universidad?* ¿Online, junior, clown college, *o lo que sea*? About five, *más o menos. ¿Y cuántos graduarán?* Two, maybe. *Qué lástima. Estamos chingados*[2].

---

(١) بالإسبانيّة بالأصل: ابنة عاهرة. (م)

(٢) بالإسبانيّة بالأصل: كلّ يوم في حياتي المهنيّة أفكّر في الشيء نفسه، من بين هؤلاء الأولاد المئتين والخمسين، كم واحداً سيُنهي التعليم الثانويّ؟ أربعون بالمائة؟ وإذا=

وعلى الرغم من أنّني، مثل معظم الذكور السُّود الذين نشأوا في لوس أنجلس، ثنائيّ اللغة إلى درجة تمكّنني من أن أتحرّش جنسيّاً بنساءٍ من كلّ الأعراق بلغاتهم الأصليّة فحسب، إلاّ أنّني فهمت جوهر الرسالة. هؤلاء الأولاد قُضي عليهم.

فوجئت بعدد الأولاد الذين يحملون قدّاحات، لكن بغضّ النظر عن عدد المحاولات التي جُرّبت من أجل إشعال النار فإنّ الخشب المشبَع بالماء لم يلتقط الشرارة. أرسلت كاريزما مجموعة من الطلاّب إلى سقيفة التخزين، فعادوا يحملون صناديق من الورق المقوّى، ورموا محتوياتها على الأرض، وحالاً تشكّل هرمٌ من الكتب بعرض خمس أقدام، وارتفاع ثلاث أقدام أو أكثر.

«حسناً، ماذا تنتظرون؟».

لم يكن عليها أن تسأل مرّتين، التهبت الكتب ناراً، وارتفعت ألسنة لهب النار حتّى السماء، في حين كان الطلاّب يشوون المارشميلو بسعادة بأقلام رصاص من النوع ٢بي.

سحبتُ كاريزما جانباً، فأنا لم أستطع تصديق أنّها تحرق كتباً «اعتقدتُ أنّ اللوازم المدرسيّة ضئيلة».

«تلك ليست كتباً، إنّها أشياء جاءت من فوي شيشاير، لديه منهج كامل يدعى «أشعل الشريعة!» تضمُّ مثل هذه الكلاسيكيّات المعاد كتابتها، مثل: *أبناء العم توم والمدافع الخلفيّ عن البراءة*، كان أرسلها إلى هيئة المدرسة. انظر، لقد جرّبنا كلّ شيء: صفوفاً دراسيّة أصغر،

=كانوا محظوظين فمَن سيذهب إلى كليّة؟ على شبكة الإنترنت، الأحدث سنّاً، إلى كلّيّة المهرّجين، أو أيّاً كان اسمها؟ نحو خمسة، أكثر أو أقلّ. وكم سيتخرّج؟ اثنان ربّما. أمرٌ مأسوف عليه. كم نحن سخيفون. (م)

ساعات دراسيّة أطول، تعليماً ثنائيّ اللغة، تعليماً أحاديّ اللغة وبلغات فرعيّة، لغة الإيبونيك، تعليم الصوتيّات، التنويم المغناطيسي. برامج ملوّنة مصمّمة لتشجّع على بيئة تعلُّم مثاليّة. ولكن بغضّ النظر عن درجة اللون، من الحارّة حتّى الباردة، التي طليتَ بها الحائط، فإنّه لما ينحدر الأمر تكون الحالة هي التالي: معلّمون بيض يتحدّثون بمنهجيّة بيضاء، ويشربون نبيذاً أبيضَ، ومديرٌ أبيضُ متطلّبٌ يهدّد بوضع مدرستك تحت الإشراف، لأنّه يعرف فوي شيشاير. لا شيء ينجح. لكنّي سأكون ملعونة إذا وزّعتُ مدرسة ميدِل تشاف نسخاً من أغنية «جاء رجل المخدّرات» على طلّابها».

ركلتُ كتاباً محترقاً جزئيّاً، بعيداً عن النار. كان غلافه متفحّماً، لكن لايزال يمكن قراءته، *بلاكزبي العظيم* الصفحة الأولى، وقرأت فيها:

«حديث جدّيّ. لما كنتُ شاباً يملؤني النشاط والحيويّة، كنتُ حاضراً في كلّ مكان، أطيع أمّي. وأبي الأفريقيُّ- الأمريكيُّ غير النمطيّ يقطر بمعرفته عليّ... ومنذ ذلك الوقت وأنا أقلّده».

باستخدام قدّاحتي، أنهيتُ حرق الكتاب بنفسي، وقبضتُ على صفحاته الملتهبة تحت المارشميلو المعقود في سيخ خشبيٍّ كانت شيلا عرضته عليّ بلطف. كانت تلك الفتاة أبدعت رسناً من حبل القفز تضرب به رأس العجل، في حين كان اللاتينيُّ يحاول إعادة الخصيتَين إلى مكانهما جراحيّاً باستخدام صمغ من نوع إيلمير وقصاصات ورقيّة، إلى أن أمسكته كاريزما من رقبته ومنعته عن ذلك.

«أنتم أيّها الأولاد، هل استمتعتم بيوم العمل؟».

«أريد أن أكون طبيبة بيطريّة» أجابت شيلا.

«هذا شذوذٌ جنسيٌّ». واجهها غريمها اللاتينيُّ الذي كان يؤدّي ألعابَ شعوذةٍ، مستخدماً الغدد التناسليّة الخاصّة بالعجل.

«الشعوذةُ هي شذوذٌ جنسيٌ!».

«أن تردَّ على مَن يخاطبك بأنّه شاذٌّ، لأنّه ناداك بذلك فقط، هو الأمر الشاذُّ جنسياً».

«حسناً، هذا يكفي» صرخت كاريزما «يا إلهي، هل ثمّة شيء لا يظنُّ الأطفال أنّه غير شاذٍّ جنسياً؟».

استغرق الولد البدينُ في التفكير «هل تعلمين ما هو غير الشاذِّ جنسياً... أن تكون شاذاً جنسياً».

لما كان جرس الساعة الثالثة يرنُّ انهارت كاريزما على مقعدها، بنّيِّ اللون، البلاستيكيّ، ودموع الضحك تملأ عينيها. كان يوماً طويلاً. مشيتُ إلى جانبها. وأخيراً، اكفهرّت السماء وتحوّل رذاذ المطر إلى انهمار مطر غزير. ركض الطلّاب وأعضاء هيئة التدريس باتجاه سيّاراتهم، توقّفت الحافلة، وظهرت معها أذرع الآباء المتلهّفة، ونحن، وقفنا هناك تحت (دوش) السماء مثل أبناء كاليفورنيا الجنوبيّة، بلا مظلّات، نستمع إلى طشيش حبّات المطر على النار التي تموت ببطء.

«كاريزما، فكّرتُ في طريقة تجعل الطلّاب يحسنون التصرُّف، ويحترمون بعضهم كما يفعلون عندما يكونون في الحافلة».

«كيف؟».

«فصل المدرسة عنصريّاً». حالما قلتُ ذلك، أدركت أنَّ الفصل العنصريَّ ربّما يكون المفتاح لإعادة ديكنز. الشعور العامُ الموجود داخل الحافلة سينتشر في المدرسة، ومن ثمّ سيتغلغل في باقي المدينة. سياسة الفصل العنصريّ وحّدت جنوب أفريقيا، فلماذا لا تفعل ذلك في ديكنز؟

«بالتميز؟ تريد أن تفصل المدارس حسب اللون؟».

نظرت كاريزما إليّ وكأنّي أحد طلّابها. ليس طالباً غبيّاً بل غرّاً وجاهلاً. لكن، إذا سألتِني فإنَّ مدرسة ميدِل تشاف تطبّق الفصل

العنصريّ بكلّ الأحوال، وأعادت تطبيقه عدّة مرّات، ربّما ليس باللون، لكن بالتأكيد من خلال مستوى القراءة ومشكلات السلوك. واللغة الإنكليزيّة، كلغة ثانية للناطقين، كانت ضمن مسار مختلف عن الإنكليزيّة حينما يتحدّث بها الناطقون في مسارها الطبيعيّ. إبّان احتفالات شهر التاريخ الأسود، كان والدي يشاهد اللقطات التلفزيونيّة المنقولة ليلاً لحافلات الحرّيّة وهي تحترق، والكلاب تتشابك وتزمجر، ثمّ يقول لي «لا يمكنك فرض الاندماج، أيّها الولد، الناس الذين يريدون الاندماج، سيندمجون». لم أستطع قطُّ أن أعرفَ إلى أيّ مدى كنتُ أتّفق معه أو أختلف، لكنّها الملاحظة التي بقيت معي، وجعلتني أدرك أنّ الاندماج بالنسبة لكثيرين هو مفهوم محدود. هنا، في أمريكا، «الاندماج» يمكن أن يكون تغطية. «لستُ عنصرياً، الحفلة الراقصة التي أذهب إليها سوداء، ابن عمّي الثاني أسود، رئيسي (أو أيّاً كان) أسود». المشكلة هي أنّنا لا نعرف ما إذا كان الاندماج حالة طبيعيّة أو غير طبيعيّة. هل الاندماج، سواء كان قسرياً أم لا، هو إنتروبيا اجتماعيّة أو نظام اجتماعيّ؟ أبداً لم يعرّف أحدٌ هذا المفهوم. كانت كاريزما تفكّر في موضوع الفصل العنصريّ وهي تدوّر آخر قطعة مارشميلو على لهب النار. كنتُ أعرف في أيّ شيء تفكّر. كانت تفكّر كيف أنّ مدرستها الإعداديّة تضمُّ ما نسبته ٧٥ بالمئة من اللاتينيّين، في حين كانت، في أيّامها، نسبة السُود ٨٠ بالمئة. كانت تفكّر في نفسها حينما كانت تستمع إلى والدتها، سالي مولينا، وهي تخبرها قصصاً عن العيش في بلدة صغيرة معزولة عنصرياً في أريزونا في أربعينيّات وخمسينيّات القرن الماضي، كانت تفكّر في وجوب الجلوس في الجانب الحارّ من الكنيسة، أبعدِ مكان عن يسوع ومخارج الإطفاء، في وجوب الذهاب إلى المدارس المكسيكيّة، ودفن والديها وأخيها الرضيع في المدفن المكسيكيّ خارج البلدة، في النقطة ٦٠ على الطريق السريع، وكيف،

بعدّها، تحرّكت الأسرة باتجاه لوس أنجلس في العام ١٩٥٤. كان التمييز العنصريُّ أكثر أو أقلَّ قليلاً، إلاّ أنّهم، عكس السُّود في لوس أنجلس، كان بإمكانهم ارتياد الشواطئ العامّة.

«تريد أن تفصل المدرسة عرقيّاً؟».

«نعم».

«إذا كنتَ تستطيع فعل ذلك، فامضِ في الأمر، لكنّني أخبرك، هنالك كثير من المكسيكيّين».

لا يمكنني التكلُّم نيابةً عن الأطفال، لكنّني، وأنا أقود عائداً إلى المنزل، والعجل المخصيُّ حديثاً في المقعد الأماميّ لشاحنة البيك أب، يرتفع رأسه خارج النافذة، يلحس بلسانه قطرات المطر الهاطلة، تركتُ يوم العمل ملهَماً كما لم أكن من قبلُ، ومع تركيز متجدِّد. ماذا قالت كاريزما «وكأنَّ شبح الفصل العنصريّ وحّد ديكنز من جديد». قرّرتُ أن أعطي عملي الجديد، كمهندس المدينة المسؤول عن استعادتها، وعن الفصل العنصريّ، ستّة أشهر أخرى. إن لم تنجح الأمور فيمكنني دائماً أن أتراجع عن كوني أسود.

١٢

هطلتِ الأمطارُ بكميّات كبيرة، ذلك الصيف، بعد يوم العمل. أطلق عليه الأولاد البِيض عند الشاطئ اسمَ «الصيف الصاخب»، كما في العرض التلفزيونيّ «عيد الميلاد الثاني والأربعين الصاخب»، وتقارير الطقس لم تكن سوى إشاراتٍ متواصلة إلى معدّلات سقوط الأمطار، وإلى أنّ السحبَ تغطّي السماءَ. كلّ يوم، نحو السّاعة التاسعة والنصف، كان يهيمن ضغط منخفضٌ على الساحل، فتمطر السماءُ، وتتوقّف بالتناوب حتّى أوّل المساء. لا يركبُ بعضُ أبناء المنطقة الأمواجَ في المطر، بل إنّهم، أكثر من ذلك، يرفضون الخروجَ بعد العاصفة، لأنّهم يشعرون بالخوف من التقاط مرض التهاب الكبد من الرواسب، ومن كلّ المخلّفات الملوّثة التي تتدفّق مع مياه المحيط بعد هطول الأمطار الغزيرة. أمّا أنا، فأحبُّ الإمساك بالأمواج تحت المطر، حيث عددٌ قليلٌ من الملاعين في العرض. لا يوجد راكبو أمواج. أبقى بعيداً عن القنوات المائيّة قرب ماليبو ورينكون، التي تفيض بنفايات الصرف الصحّيّ، وبذلك أبقى آمناً. لذا، لم أقلق، ذلك الصيف، بشأن البراز والجراثيم، بل كنت قلقاً بشأن شجرات اليوسفيّ الساتسوما خاصّتي، وبشأن مسألة الفصل العنصريّ. كيف تنمو أشجار الحمضيّات، الأكثر حساسيةً للماء تحت ظروف الرياح الموسميّة؟ كيف تفصل عرقيّاً مدرسةً فيها فصلٌ واحدٌ في كلّ الأحوال؟

هوميني، الرجعيُّ العنصريُّ، لم يقدِّم لي المساعدة. لقد أحبَّ فكرة التربية القائمة على الفصل، لأنّه كان يظنُّ أنَّ الفكرة يمكن أن تجعل من ديكنز جاذبة لإعادة توطين البِيض. ذلك أنَّ المدينة ستعود إلى ما كانت عليه، ضاحية البِيض المزدهرة الخاصَّة بأيَّام شبابه؛ السيَّارات بخلفيَّات زعنفيَّة، وقبَّعات القشّ، والرقصات التي ترقصها وأنت تلبس جواربك فقط، دون حذاء، وأعضاء الكنيسة الأسقفيَّة البروتستانتيَّة، واحتفالات المثلَّجات الاجتماعيَّة. قال إنَّها ستكون نقيض الحركة البيضاء، تيَّارِ الكو كلوكس، لكن لما سألته كيف ذلك، اكتفى بهزّ كتفيه غير مبالٍ، مثل سيناتور محافظ، دون طرح أيّ أفكار، ثمّ أعاقني بسرد حكاياتٍ لا علاقة لها بالموضوع عن الأيَّام الخوالي الجيِّدة. «مرَّة في حلقة عنوانها «بوب الخائن» حاول ستيمي أن يتجنَّب الخضوع لاختبار التاريخ، الذي لم يدرس مقرَّره، بأن وضع مقعده في النار، لكن بالطبع انتهى به الأمر إلى إحراق المدرسة كلِّها، ووجب على العصابة أن تقدِّم الامتحان داخل النار لأنَّ الآنسة كاربتري لم تهتمّ بهذا الهراء». ثمّ هناك الذنب الذي يترافق مع كونك عنصريّاً. بقيتُ ليالي أحاول إقناع فان شاين الدبّ، الذي أصبح فرائه مع مرور السنين مرقَّشاً، وتحوَّل من الأصفر كلون أشعَّة الشمس إلى البنّيّ بلون فِطر الأصابع، بأنَّ إعادة تطبيق الفصل العنصريّ هو أمرٌ جيِّدٌ، وأنَّ ذلك مثل باريس التي لديها برج إيفل، ومدينة سان لويس التي لديها القوس الأثريُّ، ونيويورك التي لديها التفاوت الكبير في الدخل، لذلك يجب على ديكنز أن يكون لديها مدارس مفصولة عنصرياً، وإن لم يكن لأجل أيّ شيء، فهو من أجل أن يبدو كُتيِّب غرفة التجارة أكثرَ جاذبيَّة. مرحباً بك *في المنطقة التجاريَّة المتآلفة في* ديكنز: *الجنّة الحضريّة على ضفّتي نهر لوس أنجلس، حيث الغرف المتنقّلة لمجموعات الشبّان، ونجوم السينما المتقاعدين، والمدارس المفصولة عنصرياً!*

يدّعي كثيرٌ من الناس أنّ أفضل أفكارهم تأتيهم وهم في الماء؛ تحت (الدوش)، وهم يعومون في ماء حمّام السباحة، بانتظار إحدى الموجات، شيء ما عن الإيونات السلبيّة، الضوضاء البيضاء، وأن يكونوا في عزلة. لذلك، أظنُّ أنَّ ركوب الأمواج في المطر كان المعادلَ لعاصفة ذهنيّة تعصف في عقل أحد الرجال-ولكن ليس أنا. أنا لا أحصل على أفكاري الجيِّدة في أثناء ركوب الأمواج، بل وأنا أقود إلى المنزل عائداً من ركوب الأمواج، كما حصل معي حينما توقّفت في زحمة المرور، بعد يوم ممطر لطيف من أيّام يوليو، تفوح فيه رائحة الصرف الصحيّ والأعشاب البحريّة، أشاهد أولاد برامج التعليم العلاجيّ الأغنياء وهم يخرجون من المدرسة الصيفيّة لأكاديميّة إينترسيكشن، المدرسةِ الخاصّة المرموقة المواجهة للبحر «مرتكز التعلُّم» يلوّحون لي بأصابعهم بإشارات العصابات، ويقحمون رؤوسهم الشعثاء داخل سيّارتي، ويقولون «أيُّها الأخ، هل لديك أيُّ حشيش؟ من نوع هانغ تِن أو الصاروخ الأفريقيّ-الأمريكيّ؟».

على الرغم من هطول المطر المنتظم، لم يبدُ أنَّ الطلّاب قد ابتلُّوا. في الغالب، لأنَّ الخدم يلاحقون أسيادهم القاصرين الهائجين وهم يرفعون المظلّات فوق رؤوسهم اتقاء المطر، لكنَّ بعض الأولاد بِيضٌ جدّاً حتّى يبتلُّوا. حاولْ أن تتخيّل وينستون تشرشل، وكولن بول، وكوندوليزا رايس أو لون رينجر، مبتلّين من أعلى الرأس حتى أخمص القدم، وسوف تفهم الفكرة.

لمدّة ثانية حارّة واحدة، لما كنت في الثامنة، كان أبي يمازحني بضرورة أن يدرج اسمي في مدرسة خياليّة تحضيريّة للجامعة. وقف فوقي وأنا غائر عميقاً في حقل الأرزّ، أزرع سويقات النبات داخل الطين. تمتم بشيء عن الاختيار بين يهودٍ في سانتا مونيكا وغير يهود في هولمبي هيللز، ثمّ بدأ يستشهد ببحث يقول إنَّ الأولاد السُّود الذين يدخلون

المدرسة مع أولاد بِيض من أيّ دين «يؤدُون عملاً أفضل»، ثمّ طرح بحثاً غير موثوق بأنّ الناس السُود كانوا «أفضل» إبّان فترة الفصل العنصريّ. لا أتذكّر تعريفه مفردة «أفضل»، أو لماذا لم أدرس في منحة تبادل، أو في هارفورد-ميوبروك. ربّما السبب أنّ الانتقال كان مكلفاً جدّاً. لكنّ مشاهدة أولاء الأولاد، أبناء وبنات أقطاب صناعة السينما، يخرجون من ذلك البناء، التحفة الفنيّة، جعلني أفكّر بأنّني، بالنسبة لي، الطالب الوحيد في مدرسة أبي المنزليّة الأبديّة، كنتُ المستفيد من التعليم الأكثر فصلاً، الطالب، لحسن الحظّ، الذي سنحت له فرص خوض أحواض السباحة، وتناول وجبات كبد البطّ المعدّة منزلياً، والباليه الأمريكيّ. وفي حين لم أكن قريباً من اكتشاف كيف أنقذ محصول الساتسوما، كانت لديّ، حقّاً، فكرة كيف أفصل عرقيّاً ما كان، لكلّ الغايات والمقاصد واللاتينيّين، مدرسةً سوداء بأكملها. قدتُ إلى المنزل، وصوت والدي يسبح في رأسي.

لما عدتُ إلى المنزل، كان هوميني ينتظرني في فنائه، يقف تحت مظلّة غولف خضراء وبيضاء كبيرة، وقدماه العاريتان أحدثتا آثاراً عميقة في العشب الرطب. منذ وافقتُ على فصل المدرسة المتوسّطة، أصبحَ هوميني أكثر نشاطاً. لم يكن امتداداً لجون هنري، لكن لو أظهر بعض الاهتمام بالمزرعة فحسب، فإنّه على الأقلّ يكون قد أظهر بعض المبادرة الذاتيّة. في الفترة الأخيرة، كان يُظهر حماية جدّيّة لشجرة الساتسوما، فيجلس إلى جوارها في بعض الأحيان لعدّة ساعاتٍ، يطرد الطيور والحشرات. ذكّرته شجرات الساتسوما بالصداقة الحميمة في حياة الاستديو، المصارعة بالإبهام مع ويزر، صفعُه لأرباكل البدين على وجهه، ألعاب «الحقيقة أو التحدّي» حيث يجب على الخاسر أن يجري عارياً داخل موقع تصوير فيلم لوريل وهاردي. كان ذلك في أثناء الاستراحات الطويلة بين جلسات تصوير فيلم «أشاهد باريس، أشاهد

فرنسا» التي اكتشف فيها هوميني يوسفي الساتسوما. في أثناء تصوير ذلك الفيلم تجمَّع معظم أفراد العصابة حول طاولة الطعام في استوديو التصوير يأكلون مكعَّبات الكعك وكريما الصودا، لكن كان بعض مالكي المسارح الجنوبيِّين هناك، في ذلك اليوم، وطلبوا من هوميني وباكويت، رغبةً في أن يكونا لطيفين مع النظام الطبقيّ الذي رفض الكشف عن أفلامهم لأنَّها تُظهر أولاداً ملوَّنين وبِيضاً يلعبون مع بعض، أن يأكلا مع مجموعة من الكومبارس اليابانيِّين الذين، أسند إليهم، إبَّان موجة الهجرة في العام ١٩٣٦، أداء أدوار لصوص مكسيكيِّين. عرض الكومبارس عليهما بعضاً من شرائح المعكرونة من نوع «سوبا»، وحبَّات ساتسوما مستوردة من اليابان، أرضِ الشمس البازغة، فوجد الولدان الأسودان أنَّ حلاوة مذاق هذه الفاكهة كان الشيء الوحيد الذي أزال المذاق المقرف للبطيخ المقدَّم في المسلسل الكوميديّ من على لسانَيهما. في النهاية، جعل هوميني وباكويت أصحابَ العمل يكتبون في عقدَيهما: فقط يوسفي الساتسوما مسموح به في موقع التصوير، وليس الكلَمنتين ولا التانغرين ولا التانغيلوس. لأنَّ لا شيء يعيد كرامة أحد ما مثل برتقال الساتسوما ذي العصير الحلو بعد يوم شاقّ من تقديم التسلية للبِيض.

لازال هوميني يعتقد أنَّني زرعت الشجرة لتلبية حاجاته، ولا يعرف أنَّني زرعتها في اليوم الرسميّ نفسه الذي انفصلنا فيه أنا وماربيسا. كنت أنهيت منتصف السنة الجامعيَّة الأولى، وأقود إلى المنزل بسرعة، غرباً على طريق كاليفورنيا ٩١، يحثُّني ما ظننت أنَّه سيكون مضاجعةَ تهنئة، وليس ورقة صادمة مكتوباً عليها ببساطة: لا، *أيُّها الزنجيُّ*.

على نحو يائس، سحبَ كُمَّ بذْتي المبلَّلة «سيِّدي، لقد سألتني أن أخبرك عندما تصبح حبَّات الساتسوما بحجم كرة (البينغ- بونغ)»، ومثل غلام لعبة الغولف الذي يرفض أن يستسلم في جولة سيِّده الخاسرة، عقد هوميني مظلَّة فوق رأسي، وأعطاني جهاز قياس الحلاوة، ودفعني

بقوّة داخل الفناء الخلفيّ، حيث عبرنا عبر الطين إلى الشجرة المغطّاة بالمياه. «من فضلك سيّدي، أسرع، لا أعتقد أنّها ستنجح في ذلك».

تتطلّب معظم الحمضيّات ريّاً متكرّراً، لكن العكس هو الصحيح بالنسبة لحمضيّات الساتسوما. إنّها تحوّل الماء إلى فائض، وبغضّ النظر عن التقليم الذي قمتُ به، كان محصول ذلك العام وفيراً، وحبّات الساتسوما متدليّة من على الغصون، ولو لم أجد طريقة أقلّل بها كميّة الماء لكان المحصول سيّئاً، ولكنت أهدرت عشر سنوات وخمسين باونداً من الأسمدة اليابانيّة المستوردة. قصصتُ أغصان أقرب شجرة يوسفي، حتّى مقدار ربع إنش فوق نقطة وسط الشجرة، وأدخلتُ إبهامي في القشرة المجعّدة لإحدى الحبّات، مزّقتها، وعصرت بضع قطرات في قائس الحلاوة، الآلة يابانيّة الصنع، الصغيرة، باهظة الثمن، التي تقيس معدّل السكروز في العصير.

«ماذا يقول المؤشّر؟».

«اثنان فاصلة ثلاثة».

«وماذا يعني ذلك في معدّل الحلاوة؟».

«يعني مكاناً ما بين إيفا براون ومناجم ملح جنوب أفريقيا».

لم يسبق لي قطّ أن همستُ لنباتاتي، فلم أعتقد يوماً أنّ النباتات مخلوقات حيّة. لكن، بعد أن ذهب هوميني إلى المنزل، تكلّمت مع تلك الشجرات مدّة ساعة، قرأت لها الشّعرَ، وغنّيتُ لها البلوز!

١٣

اختبرتُ التمييز العنصريَّ القائمَ على العِرق، على نحو مباشر، مرَّة واحدة في حياتي. في أحد الأيَّام تحامقتُ وقلتُ لوالدي إنَّه لا توجد عنصريَّة عرقيَّة في أمريكا، لأنَّ الفرص متساوية، ولأنَّنا، نحن السُّود، مَن نرفس الفرصة، لأنَّنا لا نريد تحمُّل المسؤوليَّة بأنفسنا. في وقت لاحق، في اليوم نفسه، وفي منتصف الليل، انتزعني من السرير، ومعاً، قمنا برحلة غير محضَّر لها عبر البلاد في عمق بَياض أمريكا. وبعد ثلاثة أيَّام من القيادة من دون توقُّف، انتهى بنا الطريق في بلدة من بلدات ميسيسبي لا اسم لها، لم تكن سوى ملتقى طرق، حيث الحرارة الحارقة، والغربان، وحقول القطن، ومن خلال الحكم على نظرة المتحمِّس المترقِّب الواضحة على وجه والدي، كانت هناك أيضاً العنصريَّة المحضة.

«ها هو ذا» قال، مشيراً إلى مخزن بائس قديم جدّاً، وآلة لعبة (بينبول) تومض بسعادة عند النافذة، تقبلُ قطعَ عشرة السنتات فقط، تُظهر على نحو لا يقبله العقل أنَّ أعلى درجة مُسجَّلة هي ٥٦٣٧. نظرتُ في الأرجاء بحثاً عن التمييز العِرقيِّ. في الخارج ثلاثة رجال بِيض أقوياء البنى، بوجوه لفحتها الشمس مجعَّدة عند العيون، ما جعل تحديد أعمارهم أمراً غامضاً، يجلسون على صناديق الكوكاكولا الخشبيَّة، ويتحدَّثون بصوت عالٍ حول سباق السيَّارات المرتقب. دخلنا محطَّة

البنزين من جانب الطريق، ولما رنّنا الجرس جفلنا، أنا والعامل الأسود الذي قطع، على مضض، لعبة الشطرنج التي كان يلعبها مع أحد أصدقائه على شاشة تلفزيون.

«املأ الخزّان بأكمله لو سمحت».

«بالتأكيد، هل أتفقّد الزيت؟». أومأ أبي برأسه من دون أن يبعد نظره عن المخزن.

همّ العامل كلايد، إذا كان الاسم المخيط على الرقعة البيضاء على مئزره الأزرق موثوقاً، إلى واجباته؛ تفقّد الزيت، ضغط هواء الإطارات ومسح بخرقته المشبَعة بالزيت الزجاجَ الأماميّ والخلفيّ للسيّارة. لا أظنُّ أنّني سبق وشاهدت خدمة مع ابتسامة من قبل، وأيّاً ما كان داخل علبة الرذاذ تلك، فإنّ النوافذ لم تكن بمثل هذه النظافة. لما امتلأ خزّان الوقود سأل والدي كلايد «هل تظنُّ أنّني وابني نستطيع الانتظار ثانية واحدة؟».

«بالتأكيد، تفضّل».

ثانية واحدة؟ أطرقتُ برأسي حرَجاً. أكره أن يتصرّف الناس بتعالٍ تجاه الناس السُّود الذين يظنّون أنّهم متفوّقون عليهم. ما التالي؟ توقّف عن عملِك؟ ألم تكتفِ بعد؟ أغنية «من أخرج الكلاب إلى الخارج»؟

«أبي، ماذا نفعل هنا؟» غمغمتُ وفمي ملآن برقائق البسكويت المملّح التي كنت أحشوها في سبيليَ الهضميّ مُذ كنّا في ميمفيس. كانت أيّ شيء يبعد عن ذهني الحرارة، وحقول القطن اللانهائيّة، وفكرة أنّ العبوديّة السيّئة لا بدّ كانت بالنسبة لأيّ عبدٍ هي أن يقنع نفسه بأنّ كندا لم تكن بعيدة. وعلى الرغم من أنّه لم يتحدّث في هذا الموضوع قطُّ، مثل أسلافه الهاربين، لكنّ والدي كان قد هرب أيضاً إلى كندا متفادياً التجنيد وحرّ فيتنام. إذا حصل السُّود على تعويضات عن فترة العبوديّة

فإنّني أعرف كثيراً من أبناء العاهرات ممّن يدينون لكندا ببعض المال والضرائب غير المدفوعة والمتراكمة.

«أبي، ماذا نفعل هنا؟».

«نحن نراقب بتهوُّر» قال، مخرجاً منظاراً من نوع جنرال باتون ٥٠٠X من حقيبة جلديّة فاخرة. وضع هذا الشيء المعدنيّ البشع على عينَيه، ثمّ استدار نحوي، وعيناه جاحظتان داخل العدستين الثخينتَين مثل كرة بلياردو. «وأعني حقّاً أنّنا متهوّرون!».

بفضل سنوات من مسابقات البوب الشعبيّة الخاصّة بوالدي، وكتاب إيشميل ريد الذي كان يحتفظ به أعلى المرحاض لأعوام، كنتُ أعرف أنّ تعبير «مراقبة متهوّرة» يعني فعلَ رجل أسود يتعطّف وينظر إلى فتاة بيضاء جنوبيّة. هناك كان أبي يحدِّق، من خلال منظاره، في واجهة متجر لا يبعد أكثر من ثلاثين قدماً. أومضت شمس الميسيسيبي على العدستَين الضخمتَين مثل منارتي هالوجين. خرجت امرأة إلى الشرفة، بمئزر مربوط بفستانها القطنيّ، ومكنسة في يدها، تغطّي عينيها اتّقاء وهج الشمس. بدأت تكنس، والرجال البِيض جلسوا متباعدي الأقدام مشدوهين من جرأة الزنجيّ.

«انظر إلى ثدييها!» صرخ أبي بصوت عالٍ يكفي لتسمعه مقاطعة البِيض هذه كلُّها. لم يكن صدرها بكلّ هذه الضخامة، لكنّني أتخيّل أنّه عبر المنظار المحمول، النظيرِ لتيليسكوب هابل الفضائيّ، بدا ثدياها الصغيران مثل هيندينبرغ ومنطاد العام السعيد الكبير، على التوالي، «الآن، يابنيّ، الآن».

«الآن ماذا؟».

«اذهب إلى هناك، وصفّر للمرأة البيضاء».

أخرجني من الباب، محدِثاً غيمة من غبار دلتا الأحمر. عبرت

مسارَي الطريق المغطّيين بطمي صخريّ كثير، حتّى إنّني لم أتبيّن إن كان الطريق قد رُصف أصلاً في يوم ما. وبلطف، وقفتُ أمام السيّدة البيضاء وبدأت أصفر، أو على الأقلّ، حاولت. ما لم يكن يعرفه والدي هو أنّني لم أعرف كيف أصفر، فالصفير هو أحدُ الأشياء القليلة التي تتعلّمها في المدرسة العامّة، وأنا كنتُ طالباً في منزل، لذلك كنتُ أقضي ساعات الغداء أقف في رقعة القطن في الفِناء الخلفيّ أستظهرُ في ذاكرتي كلّ أعضاء الكونغرس الإصلاحيّين الزنوج: بلانش بروس، هيرام رودز، جون آر. لينش، جوسيا تي. وولز...، ولم أتعلّم كيف أزمُّ شفتيّ وأنفخ، على بساطة الأمر. ولهذا، لا أستطيع الفصل بين أصابعي من أجل تأدية تحيّة «فالكان»، أو أتجشّأ الأحرف الهجائيّة تبعاً للأمر، أو أشير بإصبعي الوسطى في وجه أحدهم من دون أن أغطّي باقي الأصابع باليد الثانية. فمي المليء بالرقائق لم يساعد أيضاً، لذلك كانت النتيجة النهائيّة: تقيُّؤ الشوفان الذي أمضغه على مريلتها الورديّة الجميلة.

«ماذا يفعل هذا الأحمق المجنون؟» سأل الرجال الثلاثة بعضهم بعضاً وهم يدوّرون أحداق عيونهم ويبصقون، ثمّ وقف العضو الأقلُّ كلاماً بين الثلاثة، وعدّل قميصه المطبوع عليه «لا زنوج في منظّمة سباق السيّارت الوطنيّة»، وببطء سحب عود الأسنان من فمه، وقال «إنّها رقصة البوليرو، الزنجيُّ الصغير يصفّر البوليرو».

قفزتُ إلى الأعلى والأسفل، ورفعتُ يديَّ بابتهاج. كان محقّاً، بالطبع كنتُ أحاول إعادة خلق تحفة رافيل، ربّما لم أكن أجيد التصفير لكنّني كنتُ دائماً أحفظ لحناً.

«البوليرو؟ لماذا، أيُّها الغبيُّ اللعين!».

كان المتكلّم أبي. خرج بسرعة من السيّارة، وبسرعة أكبر غطّت سحابةُ غباره سحابةَ السيّارة الغباريّة. لم يكن سعيداً، لأنّني، كما كان

واضحاً، لم أكن فاشلاً في التصفير فحسب، بل كنتُ لا أعرف ماذا أصفِّر أيضاً. «من المفترض أن تؤدّي صفرة الذئب! هكذا...». راقبَها بتهوُّر. فعل ذلك تماماً. زمَّ شفتيه وأطلق العنان لتصفيرة الذئب الداعرة والشهوانيّة، فقلبَ كلاًّ من أظافر المرأة البيضاء الجميلة الملوَّنة، والشريط الأحمر في شعرها الأشقر. الآنَ جاء دورها. وقف والدي هناك، شبقاً وأسود، وهي بالمقابل لم تراقبه بتهوُّر فقط، بل وفركت قضيبه داخل سرواله. دلَّكت قضيبه مثل عجينة بيتزا كما تستحقُّ من تدليك.

همس أبي بشيء ما في أذنها، ثمَّ أعطاني ورقة خمسة دولارات، طالباً منّي أن أعودَ، وهرعا كلاهما إلى السيّارة التي انطلقت إلى أسفل الطريق الترابيّة، وقد تركاني وحيداً أُشنق من دون محاكمة على جرائمه.

«هل ثمّة ذكر وعل أسود لم تضاجعه ريبيكا من هنا وحتّى ناتشيز؟».

«حسناً، على الأقلّ هي تعرف ما تحبُّ، لكنَّ خلفيّتك البيضاء الخرساء لم تقرّر بعدُ هل أنت تحبُّ الرجال أو لا تحبُّ».

«أنا ثنائيُّ الجنس، أحبُّ الاثنين».

«لا يوجد مثل هذا، إمّا أنّك تحبُّ نوعاً أو لا تحبُّ. الرجال يُغرمون بِديل إيرن هاردت، أيُّها المغفَّل».

وبينما كان الأولاد الكبار الطيّبون يتجادلون حول مزايا ومظاهر الحياة الجنسيّة، دخلتُ المتجر من أجل شراء شراب صودا وأنا أشعر بالشكر لأنّني مازلت على قيد الحياة. كان لديهم ماركة واحدة وقياس واحد: زجاجة كوكا كولا تقليديّة سعتها سبع أونصات. فتحتُ واحدةً وشاهدتُ فوران ثاني أكسيد الكربون في أشعّة الشمس. لا أستطيع إخباركم كم كان مذاق تلك الكوكا طيّباً. كان ثمّة نكتة قديمة لم أفهمها حتّى سال ذلك الإكسير البنّيُّ ذو الفقاعات بنعومة أسفل حلقي.

يوماً ما اجتمع بوبا، وهو هنديٌ أحمرُ، مع زنجيٍ ومكسيكيٍ، كانوا يجلسون في محطّة الحافلات، عندما فجأة، بوووم، ظهر جنّيٌ من الفراغ في سحابة من الدخان «ليطلب كلُّ واحد منكم أمنية»، قال الجنّيُ، وهو يعدّل عمامته وخواتمه الياقوتيّة، فقال الزنجيُ «أتمنّى أن ينتقل كلُّ إخواني وأخواتي السُّود إلى أفريقيا، حيث سأغذّي الأرض، ويتمكّن الأفريقيّون من الازدهار». حرّك الجنّيُ يدَه، بوووم، كلُّ السُّود غادروا أمريكا باتّجاه أفريقيا. بعدها قال المكسيكيُ «يا سلام، يبدو هذا جيّداً بالنسبة لي، أريد من كلّ المكسيكيّين أن يكونوا في مي-هي-كو، حيث يمكننا العيش عيشة رغيدة، نربّي الأشقياء، ونشرب من خوابي التيكيلا الرائعة»، بوووم، ذهبوا كلُّهم إلى المكسيك وتركوا أمريكا. ثمَّ استدار الجنّيُ نحو بوبا، الهنديّ الأحمر «وما هي رغبتك أيُّها الصاحب؟ طلباتك أوامر». نظر بوبا إلى الجِنّيّ وقال: «هل تخبرني إذاً أنَّ كلَّ المكسيكيّين في المكسيك، وكلَّ الزنوج في أفريقيا؟».

«نعم، أيُّها الصاحب».

«حسناً، إنّه يوم حارٌ. أظنُّ أنّني أستطيع الآن أن أطلب زجاجة كوكا كولا».

بهذا المقدار كانت الكولا جيّدة.

«هذا سيكلّفك سبعة سنتات. دعِ المال على الطاولة فحسب يا ولد. أمُّك الجديدة ستأتيك في الحال».

عشر علب صودا، وسبعون سنتاً بعد ذلك، ولم تعد أمّي الجديدة، ولا أبي القديم، ووجب عليّ أن أُفرغ ما شربت. الرفاق في محطّة البنزين كانوا لا يزالون يلعبون الشطرنج. العامل الجائل يحوم بتبرُّم حول قطعة الشطرنج عند زاوية الرقعة وكأنَّ قراره التالي سيقرّر مصيرَ العالم. دفع العامل بقطعة الفرس إلى مربّع جديد «أنت لستَ أحمقَ حتّى تفتتحَ اللعب بالافتتاح الصقليّ هذا، فخطّك المائل ضعيف».

المرحاض.

«المرحاض للمتسوّقين فقط».

«لكنَّ أبي للتوّ اشترى بعض البنزين...».

«وأبوك يمكنه أن يتغوّط هنا حتّى يهنأ قلبه، أمّا أنت، في الجانب الآخر، تشرب كوكا كولا الرجل الأبيض، وكأنَّ ثلجه أبرد من ثلجنا».

أشرتُ إلى صفّ زجاجات الكوكا كولا سعة سبع أونصات في البرّاد. «كم ثمنها؟».

«بدولار ونصف».

«لكنّها بسبعة سنتات في الطريق».

«اشترِ الأسودَ، أو بُل على نفسك، حرفيّاً».

شاعراً بالأسف عليَّ، بعد أن ربح نقطتَي المباراة، أشار بوبي فيشر بعيداً حيث تقف حافلة قديمة.

«هل ترى محطّة الحافلات المهجورة تلك إلى جانب محلج القطن؟».

عبرتُ الطريق بأقصى سرعة. ومع أنَّ البناء لم يعد مستخدماً، فإنَّ كرات من بذور القطن كانت لاتزال تتأرجح في الهواء مثل ندفات الثلج. اتّخذتُ طريقي باتجاه الخلف، وراء المحلج، والمنصّاتِ الفارغة، والرافعاتِ الصدئة، وشبحِ إيلي ويتني. والذباب يئزُّ في المرحاض ذي المبولة الواحدة، وورق لاصق الذباب ينتشر على أرض الحمّام والمقعد اللذين تحوّل لونهما إلى أصفر باهت بفضل أربعة أجيال من كلِّ الأولاد الكبار الطيّبين بمثانات لا قعر لها، يبولون غالونات لا نهائيّة من البول الناتج عن شربهم في أثناء العملِ الصباحيّ. الرائحة النتنة اللاذعة

للعنصريَّة غير المتدفِّقة، والخراء، لفحا وجهي، فاقشعرّت ذراعي. تراجعتُ ببطء، وتحت عبارة **للبِيض فقط** المطبوعة على باب المرحاض، مررتُ بإصبعي عبر ذرّات الغبار المتراكمة، وكتبتُ **شكراً لله**، ثمَّ بُلتُ على كثيِّب نمل، لأنَّ بقيَّة الكوكب، كما هو واضح كانت **للملوَّنين فقط**.

١٤

من النظرة الأولى تبدو المناطق التي تبتدئ أسماؤها بكلمة «دون»، والمناطق ذات التلال التي تبعد نحو عشرة أميال عن ديكنز، التي انتقلت إليها ماربيسا بعد أن تزوَّجتْ من إم سي باتشي، مثلَ أيِّ بلاد أفريقيَّة-أمريكيَّة غنيَّة؛ الشوارع التي تحدُّها الأشجارُ تتعرَّج هنا وهناك، والمنازل تواجهها حدائق معاصرة لا عيب فيها، على الطراز اليابانيّ، والريح تعزف موسيقا على نحو تحوّل فيه تيّارات الجوّ إلى أغاني ستيفيووندر، والرايات الأمريكيَّة ورايات حملات دعم رجال السياسة تبرز على نحو متفاخر أمام أفنية المنازل. لما كنَّا نتواعد في الخارج، أحياناً بعد لقاء ليليّ خارجيّ، أنا وماربيسا، كنَّا نتجوّل في المنطقة، نقود شاحنة أبي البيك أب عبر شوارع بأسماء إسبانيَّة مثل دون لوغو، دون مارينو، ودون فيلبّي. كنَّا نشير إلى المنازل الصغيرة الحديثة، بأحواض سباحتها، ونوافذها الزجاجيَّة الكبيرة، وواجهاتها الحجريَّة، وشرفاتها العازلة للحرارة المطلَّة على لوس أنجلس، نشير إليها بمنازل العائلات الكبيرة، كما في جملة «لقد جاء أفراد أسرة ويلكوكس، يا صاحبي، هؤلاء الزنوج يعيشون في منازل كبيرة كمنازل دون كيخوته». كنَّا نأمل أن نعيشَ في أحد تلك المنازل في يوم ما، وأن تكون لنا مجموعة من الأولاد. وأسوأ شيءٍ يمكن أن يصادفنا هو أن نتَّهمَ ابننا الأكبر بالتدخين زوراً، وربَّما تكسر رميةُ كرة قدم سيِّئة أنفَ ابنتنا، وخادمتنا التي تعمل بدوام

جزئيّ ربَّما ترمي نفسها دائماً على ساعي البريد، ثمَّ نموت ونخضع لاستثمار عالميّ مثل بقيَّة الأسر الأمريكيَّة الطيِّبة.

لمدَّة عشر سنين، منذ انفصلنا عن بعضنا، كنتُ دائماً أركن سيَّارتي خارج كوخها، انتظر حتَّى تُطفَأ الأنوار، ومن خلال المنظار، وعبر الستارة الفضّيَّة للنافذة المفتوحة، كنتُ أدخلُ إلى الحياة التي كان من المفترض أنَّني أعيشها؛ حياة السوشي والألعاب، والأطفال الذين يدرسون في غرفة المعيشة، ويلعبون مع الكلب، وبعد أن يذهبوا إلى النوم، أشاهد معها فيلم «نوسفيراتو» وفيلم «بيترا بوليس»، وأبكي مثل طفل لأنَّ الطريقة التي يدور فيها بوليت غودارد وشارلي شابلن حول بعضهما بعضاً في فيلم «الأيَّام الحديثة» مثل كلبَين، تذكِّرني بنا، ماريبسا وأنا، وأحياناً أتسلَّل إلى الشرفة، وعند الباب الشبكيّ، أعلِّق مع *ابننا كازو* صورةً فوتوغرافيَّة على شجرة الساتسوما الكبيرة عند الشرفة، مكتوب على ظهرها *مرحباً*.

ليس ثمَّة كثيرٌ عليك فعله بشأن فصل أيّ مدرسة عنصريّاً عندما تكون في فترة العطلة المدرسيَّة. لذا، في ذلك الصيف قضيتُ وقتاً أكثر خارج منزلها لأسباب أجرؤ على الاعتراف بأنَّها قانونيَّة، حتَّى إحدى ليالي أغسطس الحارَّة، حيث كانت حافلة الميترو ذات الأربعين قدماً، المركونة عند رصيف منزل ماريبسا، قد أجبرتني على إلغاء شكل مطاردتي التقليديَّة. مثل زملائها ذوي الياقات البيضاء، ليس الأمر غير عاديّ، بالنسبة لموظَّفة سوداء من ذوات الياقات الزرقاء مثل ماريبسا، أن تأخذَ عملها معها إلى المنزل. وبغضّ النظر عن مستوى دخلك، فإنَّ المثل القديم القائل إنَّ عليك أن تكون جيِّداً بمقدار ضعفين عن الرجل الأبيض، وبنصف جودة الرجل الصينيّ، وأربع مرَّات أجود من الزنجيّ الأخير، المشرفِ المستخدَم قبلك، لازال صحيحاً. ومع ذلك، فوجئتُ أنَّ الحافلة رقم ١٢٥ تقف هناك على رصيف منزلها، مؤخِّرتها سدَّت الطريق، وإطاراتها اليمنى أتلفت العشب الأخضر الذي كان رائعاً يوماً ما.

زحفتُ أمام شجرات الغاردينيا ولافتات الحماية، وفي يدي صورة فوتوغرافيَّة، وعلى أطراف أصابع قدميّ دخلتُ عبر نافذة جانبيَّة، مكوِّراً يديّ حول عينيّ. حتّى في جوّ منتصف الليل البارد، كانت العربة لا تزال دافئة وتعبق برائحة البنزين وعرق الطبقة العاملة.كان قد مضى أربعة أشهر على حفلة عيد ميلاد هوميني، وملصقات **أولويّة الجلوس لكبار السنّ، والمعوَّقين، والبِيض** لا تزال موجودة. تساءلتُ بصوت عالٍ كيف نجت من اللوم مع تلك الملصقات.

«قالت إنّها مشروع فنّيّ أيُّها الزنجيُّ».

لامستْ خدّيَ سبطانة مسدَّس دوَّار عيار ٣٨مم، باردة ومجهولة، لكنّ الصوت خلف السلاح كان على العكس تماماً، دافئاً وودوداً، «أيُّها الرجل، لو لم أشمّ رائحة بقرة تخرج من قفاك لكنتَ الآن ميتاً مثل موسيقا سوداء جيِّدة».

أدارني ستيفي داوسون، شقيق ماربيسا الأصغر، نحوه، ثمّ عانقني عناقاً حارّاً والمسدّس في يده. خلفَه، وقف كوز ذو العينين الحمراوين، وابتسامة سعادة ثملة تظهر على وجهه. صببُه ستيفي خرج من السجن. كنتُ سعيداً لرؤيته، كما أنّها كانت عشر سنين على الأقلّ مُذ رأيتُه آخرَ مرّة. سمعة ستيفي في عالم العصابات كانت أكثر دناءةً من سمعة كوز، فهو لم ينتمِ إلى عصابة قطّ، لأنّه كان مجنوناً بالنسبة لعصابة كريب، ووضيعاً جدّاً بالنسبة لعصابة بلادز. كان ستيفي يكره الألقابَ لأنّه كان يشعر بالسوء إزاء استخدام لقب، وهو لا يحتاج واحداً. ومع وجود بضعة رجال عنيدين في الحيّ مازالوا يحملون أسماء مسيحيّة، فإنّه لما يقول الزنوج ستيفي تبدو وكأنّها لفظة صينيّة متجانسة. فإذا كنت في الأرجاء كنت ستعرف تماماً ماذا يعنون. في كاليفورنيا، تصيبك ثلاثُ واقِعات. إذا أُدنتَ بجنايتَين فإنّ الحكم الثاني، مهما كان ثانويّاً، يمكن أن يعني الحياة الدائمة داخل السجن. في مكان ما، طوال مباراة

البيسبول، على ماسك الكرة أن يفوِّت الكرة الثالثة لستيفي، لأنَّ القانونَ أرسله إلى قاعدة ملعب المباراة.

«كيف خرجت؟».

«باناتشي ساعد في إطلاق سراحه»، أجاب كوز. وعرض عليّ رشفة من شراب تانكويراي، مقرفة، كما هي دائماً، مثل شراب (الغريب فروت) الخاصّ بالحمية.

«ماذا، هل أدّى إحدى تمثيليّاته الخيريّة، وأخرجك عبر المذياع؟».

«إنّها قوّة القلم. بين عروض الشرطة خاصّته على التلفاز، ودعايات البيرة، يعرف باناتشي بعضَ الناس البِيض المهمّين. كتب الرسائل، وها أنذا، حرٌّ وفق إطلاق سراح مشروط مثل أيّ ابن عاهرة».

«ما هي الشروط؟».

«الشرط الوحيد هو ألاّ يُقبَضَ عليّ، وماذا غير ذلك؟».

بدأ أحدُ الكلاب ينبحُ. فُتِحت ستائرُ المطبخ، وسقط ضوء على الممرّ. ومع أنّنا كنّا خارج نطاق الرؤية، لكنّني جفلتُ.

«لا داعي للخوف، باناتشي ليس هنا».

«أعرف ذلك، هو ليس هنا دائماً».

«وكيف تعرِف ذلك، كنتَ تطارد أختي مرّة ثانية؟».

«مَن هناك؟» صرخت ماربيسا، وقد أنقذتني من إحراج أكبر. همستُ لستيفي بأنّني لستُ هنا.

«أنا وكوز».

«حسناً، ادخلا قبل أن يحصلَ شيءٌ ما».

«نعم، سنكون في الداخل في ثوان».

أوّل مرّة قابلتُ فيها ستيفي، كانت في تلك الأيّام لما كنتُ وأخته

نعيش في ديكنز. كانت هناك سيّارة ليموزين مركونة أمام منزلهم. خلا ليلة حفلة الرقص، لا تشاهد كثيراً من سيّارات الليموزين في أحياء الغيتو. وتلك السيّارة الكاديلاك السوداء الطويلة مزدحمة، بدءاً من البار الصغير فيها إلى النافذة الخلفيّة، بأشخاص جلفين، فاتحي البشرة وداكنين، طِوال وقِصار، أذكياء وأغبياء-جمعت ستيفي ورفاقه. أولاد على مدى السنين اختفوا، واحداً أو اثنين في الأيّام العاديّة، وثلاثة في الأيّام الدمويّة الحقيقيّة. سارقو بنوك، ساطون على عربات الطعام، قاتلون. باناتشي وكانغ كوز كانا الرفيقَين الوحيدَين الناجيَين. وعلى الرّغم من أنّ ستيفي وباناتشي أحبَّ أحدُهما الآخر فعلاً، لكنّها كانت علاقة مفيدة لكلا الطرفين. فباناتشي لم يكن سوى فاسق مفلس، وستيفي أعطاه موثوقيّة شارع حقيقيّة في مشهد موسيقا الراب، وبالنسبة لستيفي فإنّ نجاح باناتشي ذكّره بأنّ كلّ شيء ممكن إذا ما اتّخذتَ الأشخاصَ البِيضَ الحقيقيِّين إلى جانبك. بعد ذلك، عمل باناتشي قوّاداً. بالتأكيد، كان لديه نساء يقمنَ بأعمال قذرة لأجله، ولكن أيّ زنجيّ لم يكن لديه مثله؟ أتذكّر باناتشي في غرفة المعيشة، وهو يحدّق في أسفل ماربيسا، يقرع موسيقا الراب التي أصبحت أوّل تسجيل ناجح له، في حين ينفّذ ستيفي هندسة الصوت له.

ثلاثةٌ من أعضاء طائفة المورمون، في فترة ما بعد الظهر
يحتاجون إلى متذمّر جديد، ناعس، ويشعر بالسوء
يَعِد بخلاص زنجيّ مثلي
لا بدّ أنّ بريام يونغ غبيٌّ، ومنتشٍ من المخدّرات.

لو كان عند ستيفي شعار لاتينيّ لا بدّ كان *Cogito, ergo Boogieum* أنا أفكّر، إذاً أنا في حفلة رقص موسيقيّة.

«كيف تصادف أنّ حافلة ماربيسا مركونة هنا؟» سألتُ.

«أيُّها الزنجيُ، كيف تصادف أنّك هنا؟» نبحَ بالمقابل.

«أردتُ أن أتركَ هذه لأختك». عرضتُ عليه صورة شجرة الساتسوما، التي اختطفها من يدي. أردتُ أن أسأله إن كان تسلّم كلَّ الفاكهة التي كنتُ أرسلها إليه على مرّ السنين: البابايا، الكيوي، التفّاح والتوت. لكن، من ليونة بشرته، وبياض عينَيه، واللمعة في خصلة شعره الخلفيّة، والطريقة المريحة التي كان يستند فيها على كتفي، خمّنتُ أنّه تسلّم الفاكهة.

«لقد أخبرتْني أنّك تترك لها مثل هذه الصور».

«هل جُنّتْ؟».

هزَّ ستيفي كتفيه، واستمرَّ يحدّق في صورة الكاميرا الفوريّة «الحافلة هنا لأنّهم فقدوا حافلة روزا باركس».

«مَن فقد حافلة روزا باركس؟».

«الناس البِيض. ومَن غيرهم؟ يُفترض أنّه في كلِّ فبراير، لما يزور طلّاب المدارس مُتحف روزا باركس، أو أينما تذهب الحافلة، يخبرون الأولاد أنَّ الحافلةَ التي كانت مكان ولادة حركة الحقوق المدنيّة هي أمرٌ زائفٌ. لقد وجدوا حافلة قديمة تخصُّ مدينة بيرمنغهام في ساحات خردة. هذا ما تقوله أختي على أيِّ حال».

«أنا لا أعرف شيئاً عن هذا!».

ابتلع كوز بلعَتين من شراب الجِن «ماذا تعني بأنّك لا تعرف؟ هل تعتقد أنّه بعد أن أهان متحف روزا باركس أمريكا، سوف يخرج بعض العمّال البِيض لإنقاذ الحافلة الأصليّة؟ هذا يبدو مثل مشجّعي السيلتيك وهم يعلّقون قمصان فريق ليكرز في عوارض حديقة بوسطن، لا شيء أسخف من ذلك».

«على أيِّ حال، هي تعتقد أنَّ ما فعلتَه في الحافلة، بشأن تلك

الملصقات، وباقي الهراء، هو أمرٌ متميِّز. وأنَّ كلَّ هذا جعل الزنوجَ يفكِّرون. إنَّها تفخر بك».

«حقّاً؟».

نظرتُ إلى الحافلة، حاولتُ أن أراها من زاوية أخرى، كشيء أكبر من أربعين قدماً من رقائق معدنيّة لصور الحقوق المدنيّة التافهة وهي تقطر سائل نقل الحركة على الطريق. حاولتُ أن أتصوَّرها معلَّقةً من سقف معهد سميثونيان، ومرشد سياحيٌّ يشير إليها، ويقول «تلك هي الحافلة الحقيقيّة التي أكَّد داخلها، هوميني جينكينز، آخر الأوغاد الصغار، على أنَّ حقوق الأفريقيِّين-الأمريكيِّين لم تكن يوماً هبة من الله، ولا دستوريّة، بل كانت شيئاً روحيّاً».

وضع ستيفي الصورة تحت أنفه، وأخذ نفَساً عميقاً، وسأل «متى ستكون تلك البرتقالات جاهزة؟».

أردتُ الإشارة إلى حبّات البرتقال الخضراء تلك، وأتفاخر كيف اكتشفتُ أنّه إذا غطّيتُ التربة، حول الشجرة، بأغطية بيضاء مقاومة للماء، فلن أكون قادراً على المحافظة على الرطوبة من التسرُّب إلى التربة فحسب، بل إنَّ بياض الأقمشة سوف يعكس أشعَّة الشمس مرّة أخرى إلى داخل الشجرة من أجل تثبيت لون الفاكهة، لكن كلُّ ما تمكّنت من قوله هو «قريباً. ستنضج قريباً».

نشِق ستيفي نشقةً أخيرة من الصورة، ثمّ مرَّرها تحت فتحَتَي منخر كانغ كوز الكهفيَّتين.

«هل تشمُّ رائحة الحمضيّات، أيُّها الزنجيُّ؟ هذه هي رائحة الحرّيّة».

بعدها، ربَّت على كتفي، وقال «وما هذا الذي أسمعه عن مطاعمَ لصينيِّين سُود؟».

١٥

كانت الرائحة هي ما جذبته. قرابة الساعة السادسة صباحاً، وجدت أوّل صبيٍّ يتجوّل في طريق منزلي، يتنفّس بقوّة، وهو يضغط أنفه تحت البوّابة مثل كلب مسعور محموم. بدا سعيداً. لم يكن يعترض طريقي، لذلك تركته وحيداً وذهبت لأحلب البقرات. لوس أنجلس، ولأسباب عديدة، يسودها الأطفال المتوحّدون، فظننتُ أنّه واحدٌ من أولئك المصابين، لكن في وقت لاحق صار لديه رفقة. عند فترة ما بعد الظهر، كان كلُّ ولد في المنطقة تقريباً قد احتشد في فِناء منزلي الأماميّ. قضوا آخرَ يوم من أيّام العطلة الصيفيّة يلعبون «الأونو» على العشب، ويحاولون معرفة مَن ضربته أنعمُ، ويلتقطون الإبر من على حبّات الصبّار ويلصقونها على ظهور بعضهم، ويفقعون بتلات زهوري، وينحتون أسماءهم على الملح الصخريّ. حتّى أولاد لوبيز: لوري، دوري، جيري وتشارلي، الذين كانوا يعيشون في المنزل المجاور، وعندهم مساحات من الأرض غير الممسوسة في فِناء دارهم الخلفيّ، وحوض سباحة من القياس الكبير ليلعبوا فيه، كانوا يتحلّقون حول الأخ الصغير بيلي، ويضحكون بهستريا عليه وهو يأكل شطيرة زبدة الفستق بشراهة. كان ثمّة فتاة صغيرة لم أعرفها، تترنّح على شجرة الدردار، أغرقتْ سرباً من النمل بقيئها.

«حسناً، ما هذا؟».

«إنّها الرائحة الكريهة» قال بيلي، بعد أن ابتلع لقمة من زبدة الفستق،

ومن شطيرة الذباب، بالنظر إلى ما بدا أنّه رِجلاً حشرة على لسانه. لم أشتمّ شيئاً، لذلك سحبني بيلي خارجاً إلى الشارع. لم يكن صعباً معرفة لماذا تقيّأت الفتاة، كانت الرائحة النتنة تنتشر في المكان. جالت الرائحة الكريهة طوال الليل، واستقرّت في الحيّ كأنّها انفجار غازاتٍ سماويّ. يا إلهي. لكن، لمَ لم أنتبه إليها في وقت أبكر؟ وقفتُ في منتصف جادّة بيرنارد، والأولاد يلوّحون لي بإشارات مجنونة مثل جنود في الحرب العالميّة الأولى، يحثّون رفيق سلاح مصاباً بغاز الخردل على أن يعودَ إلى الخندق حيث السلامة النسبيّة المؤقّتة. وحالما وصلتُ إلى ما وراء الحاجز الحجريّ، أنعشتني رائحة الحمضيّات اللاذعة. لا عجبَ في أنّ الأولادَ يرفضون الخروجَ من أرضي، فشجرة الساتسوما كانت تنشر عطرها على الأرض المحيطة مثل معطِّر للجوّ طوله عشر أقدام.

شدّ بيلي بنطالي «متى ستكون تلك البرتقالات جاهزة؟»

أردتُ أن أقول له غداً، لكنّني كنت مشغولاً بدفع الفتاة الصغيرة جانباً، بحيث أتمكّن من التقيُّؤ على شجرة الدردار، ولم أتقيّأ من الرائحة، بل لأنّ عينَي ذبابة حمراوين كانتا عالقتين في أسنان بيلي.

صباح اليوم التالي، كان أوّل أيّام المدرسة، اجتمع فيه أولاد الجيران وآباؤهم عند بوّابة الطريق المؤدّية إلى منزلي. صغار السنّ بدوا لامعين ونظيفين بملابس المدرسة الجديدة، يمسكون بقوّة بالسياج الخشبيّ، يحاولون استراق نظرة إلى حيوانات المزرعة من خلال أضلاع السياج الخشبيّة. أمّا البالغون، فبعضهم لا يزال يرتدي ثياب النوم، ينظرون إلى ساعاتهم، ويعدّلون أحزمة برانس الحمّام خاصّتهم، وهم يضعون أثمان الحليب -خمسة وعشرون سنتاً مقابل نصف ليتر من الحليب غير المبستر- في أيدي أطفالهم. تعاطفتُ مع الآباء، لأنّه بعد بقائي طوال الليل ساهراً مع الآثار الباقية للرائحة الكريهة، أبني مدرسةً خياليّة «كلُّها للبِيض»، كنتُ تعباً أيضاً.

من الصعب تحديد موعد نضوج الساتسوما، فاللونُ ليس مؤشّراً جيّداً، ولا بنية القشرة. الرائحة مؤشّر جيّد، لكنَّ أفضل طريقة لتتأكّد من نضوجها هي ببساطة أن تتذوّقها. ومع ذلك، كنتُ أثقُ بآلة قياس الحلاوة أكثر من حليمات التذوّق خاصّتي.

«ماذا تقرأ يا سيّدي؟».

«ستة عشرَ فاصلة ثمانية».

«هل هذا جيّد؟».

قذفتُ برتقالة إلى هوميني. لما تكون الساتسوما جاهزة للأكل تكون قشرتها طريّة جداً. اللعنة، تكاد حبّات الساتسوما تقشّر نفسها. دفعها كلّها في فمه العريض، وادّعى أنّه أغمي عليه بسقطة على كفله مُنفَّذةٍ ببراعة تجعل الديك يتوقّف عن الصياح خوفاً من أن يكون الرجل العجوز قد مات.

«تبّاً».

ظنَّ الأولاد أنّه قد تأذّى، وأنا أيضاً ظننتُ ذلك، حتّى لمع وجهه بابتسامة عريضة دافئة كالشمس المشرقة وهو يقول «نعم، سيّدي، إنّها طيّبة المذاق». وقفَ على دفعات، ثمّ تحرّك بهدوء، وصار يتشقلب في طريقه باتجاه السياج، مُظهراً أنّه لا يزال قادراً على أداء رقص الغودفيل وبعض حركات الزنوج البهلوانيّة. «أرى أناساً بِيضاً»، هتف في رعب مصطَنَع.

«دعهم يدخلون، هوميني».

فتح هوميني البوّابة جزئيّاً، وكأنّه يحدّق من بين ستائر عروض شيتلينغ، الجوّالين السُّود، قال «يُحكى أنَّ صبيّاً أسودَ في المطبخ يشاهد أمّه وهي تقلي له بعض الدجاج، وعند رؤيته الطحين وضع بعضاً منه على وجهه وقال «انظري إليّ ماما، أنا أبيض! «ماذا تقول؟» قالت أمّه، فعاد الولد وقال «انظري إليّ، أنا أبيض!». وووب! ما كان من أمّه إلاّ أن صفعته «لا تقل ذلك أبداً!» قالت، ثمّ طلبت منه أن يذهبَ إلى أبيه، ويخبره بما قال لها. بكى بكاءً حارّاً، وتساقطت دموعه مثل شلاّلات

نياغارا. ذهب الولد إلى أبيه «ما المشكلة يا بنيّ؟». «ما..ما.. ماما صفعتني!». «لماذا فعلت ذلك، بُنيّ؟». سأله أبوه «لـ.. لـ.. لأنّني قلت إنّني أبـ..أبـ..أبيض». «ماذا؟» **طاااخ!** صفعه أبوه صفعةً أشدّ من صفعة أمّه. «اذهب وأخبر جدّتك بما قلتَ! هي ستعلّمك!». استمرّ الولد يبكي، وصار يهتزّ بكلّيّته. وصل إلى جدّته «ماذا يا حبيبي، ما المشكلة؟» سألتْ. قال الولد «لقـ.. لقـ.. لقد صفعاني». «لماذا يا حبيبي، لماذا فعلا ذلك؟». أخبرها القصّة، ولما وصل إلى نهايتها، **بوووو!** صفعته جدّته صفعةً شديدةً جعلته يركع تقريباً. «لا تقل ذلك أبداً» قالت «والآن، ماذا تعلّمتَ؟». بدأ الولد يفرك خدّيه، وقال «تعلّمتُ أنّني كنتُ أبيضَ لمدّة عشر دقائق فقط، وأنّني أكرهكم أيّها الزنوج فعلاً!»».

لم يتمكّن الأولاد من معرفة ما إذا كان يمزح أو يتحدّث بطريقة مسرحيّة فقط، لكن بطبيعة الحال، وجد كلُّ واحدٍ منهم شيئاً مبهجاً في تعابيره، والتواءاته، وتنافر إدراكاتهم لدى سماعهم كلمة «زنجيّ» بلسان رجل عمره بعمر الشتيمة نفسها. معظمهم لم يكن شاهد أيّاً من أعماله، كانوا فقط يعرفون أنّه نجم. جمال عروض الزنوج الهزليّة في خلودها. الأبديّة المهدّئة متبخترة بكسل على أطرافه، إيقاع موسيقا جوبا، هيبة أدائه العميقة وهو يقود الأولاد إلى داخل المزرعة، وهو يعيد إلقاء مزحاته بالإسبانيّة على جمهور غير مقيّد يركض أمامه، في حين يحمل الكؤوس وترمس الماء بيديه، وهو يشتّت الدجاجات اللعينة.

Un negrito está en la cocina mirando a su mamá freár un poco de pollo... ¡Aprendí que he sido blanco por solo diez minutos y ya los odio a ustedes mayates![1]

---

(١) بالإسبانيّة بالأصل: يُحكى أنّ صبيّاً أسودَ في المطبخ يشاهد أمّه وهي تقلي له بعض الدجاج... تعلّمتُ أنّني كنتُ أبيضَ لمدّة عشر دقائق فقط، وأنّني أكرهكم أيّها الزنوج فعلاً! (م)

يقولون إنّ وجبة الإفطار هي أهمّ وجبة في النهار، وبالنسبة لبعض هؤلاء الأولاد ربّما كانت الوجبة الوحيدة، لذلك عرضتُ على الأولاد وأهاليهم على السواء، بالإضافة إلى الحليب، حبّات ماندرين ساتسوما طازجة. وكنتُ دائماً أتبرّع بعصيّ الكراميل، وركوبٍ على الخيل في اليوم الأوّل للمدرسة. أضع ثلاثة منهم على سرج الحصان القزم، وأرسل الصغار الملاعين إلى حرم مدرستهم. لم أعد أفعل ذلك. ليس منذ عامين، حينما حاول الولد في الصفّ السادس كابريانو مارتينيز، المدعو «كراميل»، وهو نصف سيلفادوريّ، ونصف أسود، يعيش في بريسكوت بليس، أن يصبح الفارس الوحيد على فرسه سيلفر، ويمضي بعيداً عن عنفه الأسرويّ. وجب عليّ أن أصل إلى بانوراما سيتي وأنا أقتفي أثره، ملاحقاً أكوام قذارة الحصان المتبخّرة.

أمسكتُ ولدين شاردين بالقرب من الإسطبلات، من مرفقيهما، ورفعتهما في الهواء.

«ابقيا بعيدَين عن الخيول».

«وماذا عن شجرة البرتقال، سيّدي؟».

غير قادرين على مقاومة رائحة الساتسوما المغرية، وضبط أنفسهم حتّى الاستراحة، أو عرض المسلسلات، لأجل وجبات منتصف النهار، كان زبُني مجتمعين تحت شجرة المندرين، يقفون كما المذنبين وسط أكوام من قشور البرتقال، وشفاههم مرطّبة بسكّر الفواكه.

«خذوا ما تشاءون»، قلتُ.

كان والدي يقول: «أعطِ زنجياً شبراً، وسوف يأخذ ذراعاً». لم أكن أعرف معنى كلمة «ذراع»، لكن في هذا الموقف كانت تعني تجريد شجرة الساتسوما الثمينة خاصّتي من ثمارها. هوميني، الذي كان يحمل بطنه المتكتّلة بكلتا يديه لأنّه كان حاملاً في الشهر الخامس بنحو عشرين جنيناً من حبّات الحمضيّات، مشى الهوينى باتّجاهي.

«أولاء الزنوج الجشعون سيأتون على كلّ برتقالك، سيّدي».

«لا مشكلة عندي، أنا فقط في حاجة إلى زوج من حبّات البرتقال».

ومن أجل دعمي، تدحرجتْ باتجاه قدميّ مباشرة حبّةُ ساتسوما ممتلئة ممتازة، محاولة جهدها الهرب من نوبة الطعام المجنونة.

هوميني، المتحمّس، والشمس تلفح وجهه، وطعم الساتسوما الحلو على لسانه الورديّ المتهكّم، قادَ الأطفالَ إلى حتفهم، يلحقهم آباؤهم الشغوفون، المفرطون في حمايتهم، وأنا، الجرذ الأكبر بين الجميع، وراءهم. أمّا كريستينا ديفز، وهي فتاة صغيرة، عظامها طويلة وأسنانها بيضاء، ويعود الفضل في ذلك إلى السنوات التي استهلكت فيها حليبيَ غير المبستر، فقد مشت باتجاهي، وشبكت يدي بقبضتها القويّة.

«أين أمّك؟» سألتُ.

وضعت كريستينا أصابعها على شفتيها، واستنشقت.

في أحياء مثل ديكنز، وقبل فترة قيام الآباء المهتمّين بمراقبة كلّ حركة من حركاتك باستخدام أدوات التنصّت السرّيّة المثبّتة على قنواتهم السمعيّة، تتعلّم في طريقك من المدرسة وإليها أكثر ممّا تتعلّم داخل المدرسة. كان والدي مدركاً هذه المسألة، لذلك كان، من أجل مواصلة تعليمي اللاصفّيّ، يرميني كلّ فترةٍ في أحياء غريبة، ويجعلني أمشي إلى مكان التعلّم المحلّيّ. إنّه درسٌ في إتقان التوجُّه داخل المجتمع، لكن من دون خريطة، ولا بوصلة، ولا زوّادة طعام، ولا حتّى قاموس للّغات المحكيّة. يعود الفضل، معظم الأحيان في مقاطعة لوس أنجلس، في أنّك تستطيع تقدير مستوى تهديد المجتمع إلى ألوان لافتات الشوارع، فاللافتاتُ الدالّة على لوس أنجلس هي لافتاتٌ معدنيّة مجوّفة من الخارج بلون أزرق كلون سماء منتصف الليل، وإذا كان عشُّ الطير مصنوعاً من إبر الصنوبر ومدسوساً داخل اللافتة، فهذا يعني أشجاراً خضراءَ، وأنّك

جانب ملعب الغولف، وفي الغالب أنت في منطقة أطفالِ المدارس العامَّة البِيض الذين يعيش آباؤهم مستوى يفوق قدراتهم الماليَّة في أحياء الطبقات المتوسِّطة العليا مثل تشيفيوت هيلز وسيلفر ليك وباليسيدز. ثقوبُ رصاصاتٍ، وسياراتٌ مسروقة حول مكتب البريد، تدلُّ على أولاد لهم قصَّة شَعري، ومستوى دخلي، ونمط ثيابي، أي أنَّك في أحياء مثل واتس وبويل هايتس وهايلاند بارك. سماءٌ زرقاءُ تدلُّ على مجتمعات غرف النوم المخمليَّة مثل سانتا مونيكا، ورانشو بالوس فيرديس، وشاطئ مانهاتن. المتأنّقون ينتقلون إلى مدارسهم بأيِّ وسيلة، من الزلاَّجة وحتَّى الطائرة الشراعيَّة، وآثار طبقات أحمر الشفاه المرسومة عند وداع أمَّهاتهم، الزوجات الأيقونات، لا تزال مرسومة على خدودهم. كارسون، هوثورن، كالفار سيتي، ساوث غيت، وتورينس كلُّها يدلُّ عليها اللون الأخضر الخاصُّ بالصبّار، وبالطبقة العاملة؛ هناك الشبَّان الصغار مستقلُّون، مألوفون، ويجيدون أكثر من لغة، ماهرون بالإسبانيَّة، سود، بإشارات عصابات الساموا. عند شاطئ هيرموزا ولاميرادا ودوارت لافتاتُ الطريقِ هي بلون ويسكي الشعير المخلوط البنيّ اللطيف، الأولاد والبنات يتسكَّعون في طريقهم إلى المدرسة، مكتئبين وناعسين، في طريق المساكن المصمَّمة وفق أسلوب الأبنية داخل مزارع. اللافتاتُ البيضُ المتألّقة تشير إلى بيفرلي هيلز بالطبع، شوارع منحدرة عريضة على نحو مبالغ به، يصطفُّ على أطرافها أولادُ أغنياءٍ لا يشكِّل ظهوري لهم أيَّ تهديدٍ، مفترضين أنَّني أنتمي إلى ذاك المكان بما أنَّني موجودٌ فيه، يسألونني عن شدَّة أوتار مضرب (التِنِس) خاصَّتي، يحاضرون فيَّ عن البلوز، وتاريخ الهيب هوب، والحركة الدينيَّة الراستافاريَّة، والكنيسة القبطيَّة، والجاز، والإنجيل، وعددٍ لا يُحصى من الطرائق التي يمكن وفقها تحضير البطاطا.

أردتُ أن أفرج عن كريستينا داخل الحياة البرّيَّة، أن أحثَّها على اتِّخاذ

أكثر الطرق التواءً وبُعداً عن المدرسة، وأجعلها تركض من غير رفقة تحت لافتات شوارع ديكنز فاحمة السواد، وتأخذ دروساً راقية في الكسل، وتحضر حلقة بحث لصديقها وهو يمشي إلى داخل أحد مطاعم «بوبس بيغ بوي» ويسرق البقشيش من صندوق المحاسبة، وتصوغ دراسة حرّة في شعريّة قوس قزح المتشكّل في ماء المرشّة المتطاير، وفي النداء الصادر عن صدريّة عاهرة مطرّزة بعصافير بنفسجيّة، وهي تموء من أجل زبائنها المحتملين عند شاطئ بوليفارد الطويل. كدتُ أجعل كريستينا تتحرّر، لكنّنا وصلنا إلى المدرسة تماماً عند قرع جرس الساعة التاسعة.

«أسرعي، ستتأخّرين».

«الكلُّ متأخّر بطبيعة الحال»، قالت وهي تركض لملاقاة أصدقائها.

الكلُّ متأخِّر. الطلّاب، الموظفون، هيئة التدريس، الأهالي، الحرّاس الشخصيُّون، كلُّهم مجتمعون أمامَ مدرسة تشاف ميدِل يتجاهلون الجرس، ويقيِّمون المنافسين الجدد الذين انتشروا عبر الشوارع.

كانت أكاديميّة ويتون تشارتر ماغنيت، مدرسةُ الفنون، والعلوم، والعلوم الإنسانيّة، والأعمال، والموضة، وكلُّ شيء آخر، قطعةً فنيّة من البناء الذي يكسوه الزجاج اللامع، وتبدو أشبه بنجمٍ آفلٍ منه بمكان تعلُّم. كان مجموع طلّابها من البيض، وكانوا أكبر من الحياة. لا شيء من هذا كان حقيقيّاً، بالطبع، كما كانت أكاديميّة ويتون موقع بناء زائف. قطعة أرض فارغة الآن، محاطة بسياج من رقائق الخشب مطليٌّ بالأزرق، فيه فراغاتٌ مستطيلةٌ يمكن لأيّ عابر أن يشاهدَ من خلالها بناءً لم يقُم قطُّ يوماً. ولم تكن المدرسة أكثر من مجرّد نقل جيّد لرسم بالألوان المائيّة، لمركز علوم البحار في جامعة «إيسترن مين»، أنا حمّلته من شبكة الإنترنت، رسم انتفخ وتمدّد تحت البلاستيك ووصل إلى البوّابة المقفلة بسلسلة أقفال.كان الطلّاب راقصي باليه، وغطّاسين يقفزون

من على دفّة الغطس، وعازفي كمان، ومبارزين بالسيف، ولاعبي كرة طائرة، وصنّاع فخّار، كنتُ سرقتُ صورهم بالأسود والأبيض من موقعَي أكاديميّة إنترسيكشن وهارفورد-ميدوبروك، ثمّ كبّرتُ تلك الصور وألصقتها على السياج. لو أنّ أحداً انتبه لكان لاحظ في الواقع أنّ حجم أكاديميّة ويتون أكبر بعشرة أضعاف من قطعة الأرض التي يفترض أن تُبنَى عليها، لكن إذا كان يمكن تصديق الحروف الحمراء المنقوشة تحت الرسم فإنّ أكاديميّة ويتون، من خلال كلّ الإشارات، كانت بالفعل «قريبة!».

ليست قريبةً بما يكفي لديكنز، بالطبع، التي يتوق آباؤها المهتمّون والمفعمون بالشكّ، التائقون إلى أن ينضمّ أبناؤهم إلى صفوف الأمريكيّين البِيض العمالقة الذين لا تجعل أجهزة التقويم من أسنانهم البيضاء لامعة فحسب، بل وتضيء مستقبلهم أيضاً. أشارت إحدى الأمّهات بحماس شديد إلى صورة ولد مجدّ ومعلّم مهتمّ مستغرقَين في نتائج منظار تحليل الطيف الموجّه إلى النجوم، ثمّ سألت كاريزما السؤال الذي يدور في ذهن الجميع.

«مساعدة المدير، مولينا، أيُّ أولادٍ يذهبون إلى تلك المدرسة؟ هل يخضعون لامتحان؟».

«نوعاً ما».

«ماذا يعني هذا؟».

«ما القاسمُ المشترك بين جميع أولاء الأولاد في الصورة؟».

«جميعهم بِيض».

«حسناً، هذا هو الجواب. إذا اجتاز ابنك الامتحان فسيُقبَل. لكن أنتِ لم تسمعي ذلك منّي. حسناً، انتهى العرض. الأولاد الجاهزون لتلقّي العلم، لنذهب، لأنّني سأقفل الأبواب خلفي، اذهبوا، أيُّها البشر».

عند الساعة ٩:٤٩ وصلت الحافلة المتّجهة غرباً إلى روزكرانس ولونغ بيتش، تحمل معها سحابة ضارّة من دخان العادم، وكان مضى وقت منذ تبدّد الحشد، وأنا أقفُ عند موقف الحافلة إلى جانب هوميني، أدخّن سيجارة ماريهوانا، وأحمل برفقٍ آخرَ حبّتَي ساتسوما عندي. فتحت ماربيسا أبواب الحافلة. نظرة شريرة تقع في مكان بين التجاهل والاشمئزاز مخيطة على وجهها مثل قناع هالوين لامرأة سوداء غاضبة، نظرة قد تخيف زملاءها في العمل والزنوجَ عند الزاوية، ولكن ليس أنا. رميتُ بالبرتقالتين إليها، وهي، انطلقت حتّى دون أن تشكرني.

بعد خمسمئة قدم أو أقلّ، الحافلة رقم ١٢٥، بمكابحها البالية كحذاء متشرّد، صفعت الهواء بتوقّف مفاجئ، وقامت بالتفاتة حادّة إلى اليمين. الشجار الحقيقيُّ الوحيد بيني وبين ماربيسا كان حول ما إذا كانت ثلاث دورات إلى اليمين ستوصلني إلى يسار موقعي الحالي. كانت تصرُّ على ذلك، وأنا كنت أعتقد أنّه بعد ثلاث دورات إلى اليمين لا هدف لها، ربّما تكون عندها ستتّجه إلى اليسار، لكنّك ستصبح في منطقة تقع قبل نقطة البداية الأصليّة. في الوقت الذي رجعت فيه الحافلة إلى الوراء باتّجاهي، مُثبتةً بذلك، إذا لم يكن من شيء آخر، أنّ حركتَي استدارة بالحافلة ستجعلك تماماً في النقطة التي انطلقت منها، كانت الساعة قد أضحتِ الآن ٩:٥٧.

فُتحت أبوابُ الحافلة، وماربيسا لا تزال تمسك بمقود القيادة. هذه المرّة كان وجهها مبرقعاً بعصير الساتسوما، وبابتسامة لم تستطع إخفاءها. دائماً ما كنتُ أحبُّ صوتَ حلّ أحزمة الأمان في السيّارات. تلك النقرة المحرِّرة، ورجوع الحزام مرتدّاً إلى أيّ مكان يشاء، لم يتوقّفا عن إعطائي السعادة. أوقفت ماربيسا الحافلة غير مبالية بقشور البرتقال في حضنها.

«حسناً، بونبون، لقد ربحت»، قالت، وهي تسحب سيجارة

الحشيش من فمي بيدها، وتمدُّها لتخفيها عن الأنظار وراء جسمها المليء، في فراغ الحافلة، معتذرة عن التأخير، ولكن ليس عن الرائحة التي كانت تعبق وهي تتوقَّف وتنزلق بالحافلة في زحمة المرور، تنفخ الدخان خارج نافذة السائق الجانبيّة، وأظافر أصابعها الورديَّة تنقر الرماد على الطريق. لم تكن تعرف ذلك، لكنَّها كانت تدخِّن حشيش «أفاسيا»، لذلك عرفتُ أنَّ الماضي بيننا هو ماضٍ، أو كما يقولون في ديكنز «هذا هو الحال في بعض الأحيان. . . *Is exsisto amo ut interdum*».

١٦

في وقت لاحق من ذلك اليوم، ومثل أيّ مهووسٍ بإشعال الحرائق، اجتماعيٌ طيّب يستحقُّ عدّة الحريق خاصّته، عدتُ إلى مسرح الجريمة. محقّق الحرائقِ الوحيد الموجود في الموقع كان فوي شيشاير، وهذه كانت أوّل مرّة، في السنوات العشرين الغريبة الماضية، أشاهده يقوم بمغامرة خارج محلّات دونات دُم دُم. أقدامُه راسخةٌ على أرض ديكنز، وها هو ذا هناك يقفُ أمام إحدى الرقائق الخشبيّة لما يُفترض أنّه أكاديميّة ويتون، وسيّارته المرسيدس تكاد تكون مركونةً على الرصيف، يلتقط الصور الفوتوغرافيّة بكاميرا تبدو باهظة الثمن. من فوق حصاني، إلى جانب الطريق المحاذية لمدرسة تشاف، شاهدتُه يلتقط صورةً، ثمّ يدوّن على عجل في دفتره. فتحتْ طالبة نافذتها في الطابق الثاني من المدرسة، ونظرتْ إلى الأعلى في مجهر مدرسيّ قديم إلى درجة أنّ ليفينهوك كان ليدّعي أنّه أنتيكا، ثمّ مدّت رأسها العلميّ في الهواء لتحملق في طفل أكاديميّة ويتون المعجزة، بحجم كودزيلا، وهو ينظر في مجهر إلكترونيّ متطوّر، مجهرٍ يجعل معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا يشعر بالغيرة.

في الجانب الآخر من الشارع لمحني فوي. كوّر يديه فوق فمه وصار يناديني، لكنّ حركة المرور السريعة والصاخبة، والسيّارات المتحرّكة إلى أعلى وأسفل الشارع في جادّة روزكرانس أجبرتني على أداء لعبة الظهور والاختفاء لصورته وكلماته.

«هل ترى هذا الخراب، أيُّها الخائن؟».

«نعم، أعرف!».

«اللعنة لأنّك تعرِف، قوى الشيطان وحدها تزرع مدرسةً، هي للبيض كلّها، وسط مجتمع غيتو».

«مثل مَن؟ الكوريُّون الشماليُّون، أو مَن؟».

«وهل يهتمُّ الكوريُّون الشماليُّون لأمر فوي شيشاير؟ هذه بلا شكٍّ مؤامرة من السي آي أي، أو ربّما أكبر من ذلك، فيلم وثائقيٌّ سرّيّ لشركة الكيبل الأمريكيّة عنّي! شيء شنيع يُحاك ضدّي! لو كنتَ حضرتَ أحدَ الاجتماعات في الأشهر القليلة الماضية... هل تعرف الشخص العنصريَّ اللعين الذي وضع ملصقات في حافلة عامّة...».

في تلك اللحظة، عمدت مجموعة حمقى، تطلق النار، إلى الاقتراب بسيّاراتها بعد أن أبطأت من سرعتها لغير سبب مفهوم، كتحذير مسبق. صوتُ تجشُّؤ مبحوح من محرّك سيّارة (في ٦)، الذي نقّص معدّل دورانه حتّى غيار السرعة الأوّل، ولكن مع هذه العربات المهجّنة حديثاً، الصامتة في حركتها، الموفِّرة للوقود، لا يفترض أن تسمع شيئاً البتّة. وحالما أدركنا ما يجري، سقطت رصاصة في الجانب الخارجيّ لسيّارة المرسيدس بلونها الفضّيّ الحديديّ، والمهاجِمُ كان بطبيعة الحال قد انطلق مسرعاً صارخاً «أعِدْ خلفيّتك السوداء إلى أمريكا البيضاء، أيُّها الزنجيُّ!»، في حين وصل معدّل حرقه للبنزين إلى خمسة وخمسين ميلاً في الغالون. اعتقدتُ أنّني ميّزت الضحكة التي تخصُّ الذراع السوداء النحيفة التي كانت تحمل مسدّساً مألوفاً. بدا إلى حدٍّ كبير مثل سلاح شقيق ماريبسا، ستيفي، الذي كان موجّهاً إلى رأسي منذ أسبوعين مضيا. وأسلوب العصابات الحذر لإطلاق نار من سيّارة كهربائيّة فيه كلُّ صفات براعة كانغ كوز في المعارك. وفي أثناء ذهابي باتّجاه فوي لأطمئنّ عليه،

كدتُ أجزم أنّني ميّزتُ شذا برتقال كان أحدُ المهاجمين رماه على رأس فوي، إنّها بالتأكيد إحدى حبّات الساتسوما خاصّتي.

«هل أنت بخير، فوي؟».

«لا تلمسني! هذه حرب، وأنا أعرف في أيّ جانب أنت!».

حين ابتعدتُ عنه، كان فوي ينفض الغبار، ويتمتم بعبارات حول مؤامرات، ثمّ اتّجه نحو سيّارته بتحدٍّ وكأنّه يغادر الفيلبين وهي تحت الحصار.

كان بابُ سيّارته الرياضيّة الكلاسيكيّة الخلفيُّ مفتوحاً، وقبل أن يركبَ وقف فوي ليضع على عينيه نظّارة الطيّار خاصّته. وبهيئة الجنرال آرثر الأسود، أعلن «سأعود، يا بن العاهرة، آمِنْ بذلك».

خلفنا، أغلقتْ طالبة الطابق الثاني النافذةَ وعادتْ إلى مجهرها، رمشتْ بعينَيها بسرعة وهي تعدّل بؤرة عدسة المجهر. حرّكت شريحة المخبر، وخربشتَ نتائجها على دفترها. خلافاً لفوي ولِي، كانت مستكينة لحالتها، لأنّها تعرفُ أنّ هذا هو الحال في ديكنز أحياناً، حتّى لما لا يجب أن يكون كذلك.

تفَّاح وبُرتقال

١٧

أنا باردٌ. ليس بمعنى أنّه ليس لديّ أيّ رغبة جنسيّة، ولكن بطريقة شنيعة كان رجل العلاقات الحرّة في السبعينيّات يصوّر عدم كفاءته الجنسيّة مع النساء بالإشارة إلى نفسه بأنّه «بارد» و«سمكة ميتة». أنا سمكةٌ ميتة جدّاً. أضاجع مثل سمكة غوبي مقلوبة. طبقٌ «ساشيمي» عمرُه يومٌ واحدٌ، مكوّناته البحريّة لديها قدرة جنسيّة أكثر ممّا لديّ. لذلك، في يوم إطلاق النار ورمي البرتقال ذاك، لما أدخلتْ ماريبيسا لسانها المنكّه، على نحو مثير للشكّ، بحموضة الساتسوما، في فمي، وفرجها يحتكّ بعظم حوضي، استلقيتُ على سريري بلا حراك، ويداي تغطّيان وجهي بخجل لأنّ مضاجعتي تشبه مضاجعة تابوت «توت عنخ آمون». إن كان عدم كفاءتي الجنسيّة مشكلة فهي لن تفشي سرّاً، لكنّها ببساطة صفعتني على وجهي، وضربت جثّة حوت الشاطئ داخلي، مثل مصارع ليلة سبت يبحث عن الانتقام في مباراة الحقد التي لم أكن أريدها أن تنتهيَ.

«هل هذا يعني أنّنا عدنا معاً؟».

«هذا يعني أنّني أفكّر في الموضوع».

«هل يمكنك التفكير بذلك على نحو أسرع، وربّما أكثر قليلاً إلى اليمين؟ نعم، هكذا».

ماربيسا هي الشخص الوحيد الذي يشخّص حالتي. حتّى والدي لم يكن ليكشفني. كنت أخطئ في أمر ما، مثلاً، أخطئ في التعريف بين

ماري مكلود بيثون وغويندولين بروكس، عندها سيكون ردُّه «أيُّها الزنجيُّ، ليس لديَّ أدنى فكرة عمَّا يحصل معك!»، وبعد ذلك، تُحلّق في رأسي كلُّ الصفحات التسعمائة والثلاث وأربعين من *الدليل الأسود لتشخيص وإحصاء الاضطرابات العقلية، الطبعة الرابعة.*

مع ذلك، عاشرتني ماريبيسا. كنتُ في الثامنة عشرة، فترة أسبوعين قبل الانتهاءِ من الفصل الدراسيِّ الأوّل في الكليّة. ماريبيسا وأنا في غرفة الضيوف. هي، تمرِّر إبهامها عبر صفحات *الدليل الأسود لتشخيص وإحصاء الاضطرابات العقليّة، الطبعة الرابعة* الملطّخ بالدماء. وأنا، في حالتي الاعتياديّة ما بعد المضاجعة، أدور حول نفسي مثل حيوان مدرَّع مراهق خائف، أبكي ملء عينيّ من الدموع بلا سبب.

«هو ذا. أخيراً اكتشفت ما هي حالتك». قالت وهي تدنو باتجاهي «هذا ما تعاني منه: اضطراب الارتباط». لماذا على أحدنا أن ينقرَ على الصفحة عندما يعلم أنّه مصيب؟ قراءة سريعة بصوت عالٍ ستفي بالغرض، ولسنا مضطرّين لفرك الصفحة مع كلِّ نقرةٍ من الإصبع الأنيق.

«اضطراب الارتباط: اضطراب ملحوظ، وعدم تلاؤم مع العلاقات الاجتماعيّة في معظم السياقات والمشاهد والأحداث. ينشأ قبل سنّ الخامسة ويستمرُّ حتّى البلوغ كما يتّضح في المثال ١ و/أو ٢:

١ ـ فشل مستمرٌّ في البدء بمعظم التفاعلات الاجتماعيّة الجديدة، أو الاستجابة لها. (على سبيل المثال، يستجيب الطفل أو البالغ لمقدّمي الرعاية والمحبّين السُّود بخليط من: الاقتراب والتجنُّب والمقاومة من أجل الراحة، وقد يُظهر حالة يقظة جامدة). الترجمة الشعبيّة: الزنجيُّ يجفل أو يقفز في أيِّ وقتٍ نلمسه فيه. يتقلَّب بين الحرارة والبرودة، وليس لديه أصدقاء ليتكلَّم معهم. ولما لا يحملق فيك وأنت تترجّل من قارب التجديف فإنّه يبكي مثل عاهرة صغيرة.

٢ ـ ارتباطات مسهَبة كما يتَّضح من خلال العلاقات الاجتماعيَّة المشوَّشة، مع عدم قدرة واضح على ارتباطات مختارة مناسبة مع الناس السُّود والأشياء السَّوداء (على سبيل المثال: تآلف مفرط مع الغرباء المتَّصلين، أو عدم القدرة على اختيار نماذج شخصيَّات الارتباط). الترجمة الشعبيَّة: الزنجيُّ يضاجع عاهرة بيضاء في الخارج، هناك في كليَّة ريفرسايد، جامعة كاليفورنيا».

كانت معجزة أن استمرَّت علاقتنا إلى تلك الفترة.

حدَّقتُ في خيالها الضبابيِّ لوقت طويل قبل أن تطلَّ برأسها من خلف ستارة الحمَّام المزيَّنة كرقعة شطرنج. كنتُ نسيتُ مقدار سمرتها. كم بدت جميلة، وشعرها الخيطيُّ متجمِّع عند وجهها! أحياناً، تكون القُبلُ الألذُّ هي الأقصر، ويمكننا مناقشة شعر العانة الحليق تماماً، لاحقاً.

«بونبون، ما هو الإطار الزمنيُّ؟».

«بالنسبة لنا، يبدأ الآن. وبالنسبة لموضوع الفصل العنصريِّ، أفكِّر في أنَّني أريد إنهاءه في «يوم الحيِّ»، وهذا يمنحني ستَّة أشهر أخرى».

سحبتني ماريبيسا ثمَّ أعطتني ماسورة مرهم المشمش للتدليك، التي لم تكن قد فُتحت منذ آخر مرَّة استحمَّت فيها هنا. دهنتُ ظهرها بالمرهم المقشِّر، وصرتُ أدلِّك في دوامات جلدَها الحبيبيِّ الذي يفترض أنَّه ناعم. كانت تستطيع دائماً قراءة ما يدور في خلدي.

«لأنَّ هذا الأمر بين ذاك الزنجيِّ فوي وبقيَّة العالم، سيؤدِّي إلى الإمساك بك عاجلاً أو آجلاً، اِنسَ أمرَ الفصل العرقيِّ. أنت تعرف أنَّ أولاد العاهرة ليسوا حريصين جدّاً على ديكنز، ولم يكونوا كذلك حتَّى حينما كانت موجودة فعلاً».

«كنتِ في تلك السيَّارة اليوم، أليس كذلك؟».

«تباً. لما أقلّني كوز وشقيقي من عملي قُدنا السيّارة راجعين إلى هنا، وحالما قطعنا ذاك الخطُّ الأبيض الذي طليتَه، كان الأمر وكأنّه... كما تعرف، لما تدخل إلى الحفلة المنزليّة المثيرة وتلك الموسيقا، وتتملّكك تلك الثقة بالنفس، يبدو وكأنّه... إذا متُّ الآن، فإنّني لن أهتمّ. هكذا كان الأمر. اجتياز الحدّ».

«لقد رميتِ تلك البرتقالة، عرفتُ ذلك».

«ضربتُ ابنَ العاهرة الغبيّ في منتصف وجهه».

ضغطت ماربيسا بشقّ خلفيَّتها المتناسقة على حوضي. كان عليها أن تعودَ إلى الأولاد، لذلك لم يكن لدينا وقت كثير، وبإخباري ذلك، لم تكن تحتاج إلى وقت طويل.

على الرغم من خمشاتها الاستهلاليّة كفتاة شهوانيّة في السابعة عشرة، إلاّ أنّ ماربيسا كانت كسلى في علاقتنا. وبما أنّها كانت تعمل في عطل نهاية الأسبوع، وتلتزم بالعمل الإضافيّ المجنون، وجب علينا أن نلتقي يومَي الاثنين والخميس فقط. ليالينا في المدينة كانت عبارة عن رحلات إلى المركز التجاريّ ومقهى قراءة الشعر، والأكثر إزعاجاً لي، ليلات المايكروفون المفتوح في نادي بليثورا الكوميديّ.كرهت ماربيسا نكتَتي عن فصل مدرستَي ويتون وتشاف عنصريّاً، وأصرَّت على أن أطوِّر حسَّ الدعابة من خلال تعلُّم إلقاء النكات، ولما احتججتُ قالت «أصغِ إليّ، أنتَ الآن لست الرجل الأسود الوحيد في العالم الذي لا يستطيع المضاجعة، لكنّني أرفض الخروج مع الرجل الوحيد الذي لا يملك، على نحو مطلق، حسّ دعابة».

من أندية الموسيقا، إلى السجون، إلى حقيقة أنّه يمكنك إيجاد عربات تقديم طعام كوريّة فقط في أحياء البِيض، فإنّ لوس أنجلس هي مدينة مفصولة عنصريّاً على نحو مخدِّر للعقل. لكنَّ مركز التمييز

العنصريّ هو عروض «كوميديا الوقوف» .stand up comedy إنّ إسهام مدينة ديكنز التافه، للتقليد القديم لرجال الكوميديا السُّود، هو ليالي المايكروفون المفتوح، برعاية مفكّري دونات دُم دُم، الذين يقلبون المحلّ، في الثلاثاء الثاني من كلّ شهر، إلى نادٍ فيه أربع وعشرون طاولةً، يُطلق عليه اسم: فنُّ الكوميديا، ومنتدى حريّة الطرفة الأفريقيّة-الأمريكيّة، والطريقة المميّزة التي تعرض كثيراً من الكوميديّين الأفريقيّين-الأمريكيّين الذين... ثمّة تتمّة طويلة للاسم، لكنّني لم أتمكّن قطُّ من قراءة العنوان الذي علّقوه فوق لافتة الدونات الكبيرة المتأرجحة فوق موقف السيّارات. أنا وحدي سمّيتُ المكان بليثورا[1] plethora للاختصار، لأنّه على الرغم من إصرار ماربيسا على أنّني لا أمتلك حسّ الدعابة، فإنّ كثيراً من الرجال السُّود غير المضحكين، مثل كلّ المحلّلين الرياضيّين السُّود، يحاولون أن يبدوا أذكياء، فيُسيئون استخدام كلمة «كثير» في كلّ فرصة، كما في النكتة التالية:

س: كم تحتاج من الأولاد البيض من أجل تثبيت مصباح أبيض؟

ع: كثيراً! لأنّهم سرقوه من رجل أسود! لويس لايتمر، رجل أسود اخترع المصباح الأبيض وكثيراً من القذارة الذكيّة!

وصدِّقوني، نكتة مثل هذه ستحصل على كثير من التصفيق. كلُّ ذكر أسود، ولا أهتمُّ إلى أيّ لون أو معتقد سياسيّ ينتمي، يظنُّ سرّاً أنّه يستطيع فعل واحد من ثلاثة أشياء أفضل من أيّ شخص آخر في العالم: لعب كرة السلّة، غناء الرّاب وإلقاء النكات.

إذا كانت ماربيسا تعتقد أنّني لستُ مضحكاً فإنّها أبداً لم تستمع إلى والدي. في الماضي، في ذروة نجاح عروض «كوميديا الوقوف» الخاصّة

(١) Plethora تعني الكثير، الوفرة في الشيء. (م)

بالسُّود، هو أيضاً كان يجرُّني إلى ليالي المايكروفون المفتوح أيّام الثلاثاء. في تاريخ السُّود الأمريكيِّين، كان ثؤمّة اثنان فقط يتميَّزان بالعجز الكامل عن إلقاء نكتة: مارتن لوثر كينغ الابن، ووالدي. حتَّى في نادي بليثورا يمكن للكوميديِّين أحياناً أن تزلَّ ألسنتهم بنكتة حقيقيَّة عن غير قصد «أنا أؤدِّي تجربة أداء لفيلم توم كروز الجديد. توم كروز يؤدِّي دورَ قاضٍ مختلٍّ عقليّاً...» المشكلة في ليلة المايكروفون المفتوح في بليثورا أنَّه لا يوجد حدٌّ للوقت، لأنَّ «الوقت» هو مفهومٌ أبيض، وهذا يلائم والدي الذي كانت تلك مشكلته أيضاً، لم يكن لديه إحساس بالوقت. على الأقلّ، الدكتور كينغ كان منطقيّاً فلم يحاول يوماً إلقاء نكتة.كان أبي يلقي نكاته بالطريقة نفسها التي يطلب بها البيتزا، وينظم الشِّعر، ويكتب أطروحته في الدكتوراه في منظمة التحليل النفسيّ الأمريكيَّة. نعم، كانت نكاته تحمل عناوين مثل «هذه النكتة تدعى: الاختلافات العرقيَّة والدينيَّة في رعاية مؤسَّسات المشروبات»، ثمّ يقدِّم تلخيصاً للنكتة، فبدلاً من أن يقولَ ببساطة «أرنب وكاهن ورجل أسود يتحدَّثون عند بار الحانة»، كان يقول «موضوع النكتة ثلاثة ذكور، اثنان هما رجلا دين! أحدهما وفق العقيدة اليهوديَّة، والآخر كاثوليكيّ رُسم كاهناً، ودين المستجيب الأفريقيّ-الأمريكيّ غير محدَّد، كما هو حال مستواه التعليميّ. موقع الأحداث للنكتة هو مؤسَّسة مرخَّصة يقدِّم فيها الكحول. لا، انتظروا، إنَّها طائرة، أنا آسف، هذا خطئي. سيقفزون بالمظلاَّت». أخيراً، يصفِّي حنجرته، ويقف قريباً جدّاً من المايكروفون، ويخطب بما يجب أن يسمِّيه «بنية النكتة الرئيسة». الكوميديا هي حرب. لما تنجح وصلة الكوميديّ فإنَّها تقتل، وإذا كانت النكات سخيفة يشيرون إليها بأنَّها ميتة. والدي لم يمت على خشبة المسرح، لقد ضحَّى بنفسه من أجل ذاك الرجل الآخر الأسود غير المعروف، وغير المضحك إطلاقاً، الموجود هناك خارج الكرة الأرضيَّة، بما أنَّه لا بدَّ من وجود شيء قائم خارج جوّ

الأرض. لقد شاهدتُ أضحيات أكثر تسلية من نكاته المعتادة، ولكن لم يكن هناك ناقوس لننقر عليه، أو عصا من القياس الكبير نستطيع بأحدهما أن نطرده من المسرح. كان ببساطة يتجاهل أصوات الاحتجاج والملل، ويواصل سرد الحكاية، من حيث توقّف إلى الخاتمة. ونتيجة النكتة كانت نوبات من السعال. جوقة الرفض الشفويّ، وكثير من التثاؤب، وُجدا ليؤدّيا معنى. كان ينهي نكتته بقسم المراجع:

«جولسون، آل (١٩١٨) سامبو وماما يظهران من أجل الانطلاق على الطريق السريع ٥، زيغفيلد فوليز».

«ويليامز، بيرت (١٩١٧) لو كان يستطيع الزنجيُّ الطيران، جولة حلقة شيتيرلينغ».

«كوميديٌّ غير معروف (بحدود ١٨٩٩) «رقص الفودفيل المسرحيّ للبِيض: أنا أسرق قذارتي» بناء فريماسون، كليفلاند، أوهايو».

«ولا تنسَ أن تعطيَ النادلَ بقشيشاً».

على الرّغم من أنّها كانت مرهَقة بسبب اليوم الطويل الذي قضته وهي تنقل الجماهير، كانت ماربيسا تتأكّد من وصولنا مبكّرين، واضعةً اسمي على نحو إلزاميّ في أعلى ورقة الاشتراك. لا أستطيع إخباركم كم كنتُ مرعوباً وأنا أسمع مدير العرض وهو يقدّم اسمي «الآنَ، ضُمُّوا أياديكم من أجل بونبون».

وقفتُ على خشبة المسرح كأنّني أعيش تجربةً خارج الجسد. أحدّق في الجمهور، وأرى نفسي في الصفّ الأماميّ أستعدُّ بالبندورة الفاسدة، والبيض، ورؤوس الخسّ المهترئة، لأرميها على ابن العاهرة المهرّج الذي يروي كلَّ نكتةٍ سخيفةٍ عتيقةٍ من نكت ريتشارد بريور يمكن أن يتذكّرها من مجموعة نكات والده. لكن، كلَّ ليلة ثلاثاء كانت ماربيسا تدفعني إلى الخشبة وهي تقول إنّها ستستمرُّ في الامتناع عن مضاجعتي

حتّى أجعلها تضحك. عادةً، أعود إلى الطاولة بعد ما يسمّى وصْلَتي، لأجدَها غارقةً في نومها، غير قادر على معرفة ما إذا كانت منهكة من العمل أو من الملل. في إحدى الليالي قرّرتُ أخيراً أن أروي نكتة أصليّة، وحافظتُ على عنوانها احتراماً لوالدي، وإن كان عنواناً طويلاً:

لماذا لم تنجح كلُّ عروض آبوت وكوستيللو الهزليّة في مجتمع السُّود؟

مَن أوّلاً؟

لا أعرف. أمُّك.

انفجرت ماربيسا ضحكاً وهي تتحرّك في المساحة الضيّقة بين الكراسي المطويّة التي أزيحت جانباً من أجل تشكيل ممرّ للحركة. عرفتُ أنَّ الجفافَ الجنسيّ سينتهي تلك الليلة.

يقولون لا تضحك على نكتتك. لكنَّ أفضل الكوميديّين يفعلون، وحالما انتهى برنامج المايكروفون المفتوح، هرعتُ إلى الخارج، وقفزتُ راكباً الحافلة رقم ١٢٥ التي كانت مركونةً تماماً خارجَ النادي لأنَّ ماربيسا كانت تستخدمها كسيّارة أسريّة، خائفة من أن يغيبَ التمثال المتحرّك عن عينيها. وقبل حتّى أن تفكّرَ في حلِّ الفرامل اليدويّة للحافلة، كنتُ أتمدَّدُ عارياً على المقعد الخلفيّ، جاهزاً من أجل مضاجعةٍ سريعةٍ تحت النافذة المطليّة. وصلتْ ماربيسا إلى تحت مقعد السائق، وسحبت صندوقاً كرتونيّاً كبيراً، دحرجته إلى أسفل الممرّ، وألقت المحتويات في حضني، دافنة قضيبي المنتصب في إنشَين من بطاقات التقارير، ومطبوعات الكمبيوتر، والتقارير المرحليّة.

«اللعنة. ما كلُّ هذا؟» سألتُ، وأنا أنخلُ الأوراقَ عسى يحصل قضيبي على بعض الهواء.

«أنا أؤدّي دور الرسول من كاريزما. مازال الوقت مبكراً جدّاً، فلم

يمضِ سوى ستّة أسابيع، لكنّها تظنُّ أنَّ التعليمَ المفصول عرقياً نجح بطبيعة الحال. الدّرجات الدراسيّة في ارتفاع، والمشكلات السلوكيّة في انخفاض، لكنّها تريد منك أن تؤكّد تلك النتائج ببعض التحليل الإحصائيّ».

«اللعنة، ماربيسا! الوقتُ الطويل اللازم لوضع كلّ هذا الهراء في الصندوق يوازي الوقت اللازم في العمليّات الحسابيّة».

أمسكتْ ماربيسا بقاعدة قضيبي وعصرته.

«بونبون، هل تشعر بالخجل لأنّني سائقة حافلة؟».

«ماذا؟ من أين جئتِ بهذا؟».

«ليس من أيّ مكان».

مداعبة صغيرة لأذنها كانت قادرة على محو النظرة الحزينة على وجهها، أو جعل حلمَتَي ثدييها تنتصبان. وهي تشعر بالملل من محاولاتي مداعبتها، أزلقت «تقرير مرحلة» على طول قضيبي، ثمّ لفّته حول رأس قضيبي بحيث أستطيع قراءته وكأنّه قائمة طعام عشاء مبكّر في مطعم. طالب في الصفّ السادس اسمه مايكل غاليغوس قدّم موضوعاتٍ لم أفهمها، واستحقّ علاماتٍ لم أستطع فكّ شيفرتها، لكن وفقاً لتعليمات المعلّم، كان يُظهر تحسُّناً في شيء يدعى الإحساس بالأرقام والعمليّات.

«ماذا تعني هذه الدرجة (أ.ك)؟

«أ.ك تعني أنّه أظهر كفاءة».

على نحو فطريّ ضبطتْ كاريزما الخفايا النفسيّة لخطّتي، حتّى لو كانت مجرّد بداية معنى بالنسبة لي. فهمتْ رغبة الإنسان الملوّن تجاه الحضور المهيمن للأبيض الذي تمثّله أكاديميّة ويتون، لأنّها عرفت أنّه حتّى في هذه الأوقات من المساواة العِرقيّة، عندما يرمي شخصٌ ما،

أكثرُ بياضاً منّا، أغنى منّا، أكثر سواداً منّا، أكثر صينيّة منّا، أيُّ شيءٍ أميز منّا، المساواةَ في وجوهنا، فإنّه يُظهر لدينا الحاجة كي نؤثّر، نتصرّف، نرفع أكمام قمصاننا، نؤدّي واجباتنا الدراسيّة، نظهر في الوقت المحدَّد، نرمي رمياتنا الحرّة، نعلّم، نثبت قيمتنا الذاتيّة، آملين أنّنا لن نُطرَد، أو يُلقى القبض علينا، أو نُرحَّل بعيداً، أو تُطلق النار علينا. في الجوهر، أكاديميّة ويتون تقول لطلّابها ما قاله بوكر تي. واشنطن، المربّي العظيم، ومؤسّس معهد تاسكيغي، يوماً لشعبه غير المتعلّم: «ألقوا بدِلائكم حيث أنتم».لم أفهم قطُّ لماذا وجب أن تكون دلاءً، لماذا لم يُوصِ قصير النظر بوكر تي. بأن نلقي كتبنا، على سبيل المثال، أو مساطرنا الحاسبة، أو حواسيبنا المحمولة، عندها لكنت تعاطفتُ مع حاجته، ومع حاجة كاريزما إلى مراقبة جماعيّة فوقارّيّة عند الطلب. صدِّقوني، ليست مصادفةً أنَّ يسوع، ومفوّضي دوريّ كرة السلّة الأمريكيّ، ودوريّ كرة القدم الأمريكيّ، والمتحدِّثين في نظام ملاحة الأقمار الصناعيّة العالميّ الخاصّ بك (حتّى اليابانيّة منها) كلّهم بِيض.

ليس ثمّة مثبِّط لشهوة الجِماع أكثر من العنصريّة وتقارير المرحلة على قضيب أحدهم، ولما تسلّقت ماريبسا، نصف العارية، إلى أعلاي، فإنّها وقضيبي ألقيا برأسيهما النائمين بالقرب من أسفل بطني، وهي لا تزال تمسك برمز ذكورتي، وتسافر إلى أيّ مكان يحلم سائقو الحافلات بالذهاب إليه. إلى مدارس طائرة ربّما، لأنه في أحلام ماريبسا يمكن للحافلات أن تطير. وصلت الحافلة في الوقت المحدَّد ولم تسقط. استخدموا قوس قزح كجسر، والغيومَ كخليج تركن إليه الحافلات، أمّا راكبو الكراسي المتحرّكة فصاروا يلفّون وينحرفون إلى جانب الحافلة مثل مقاتلين يحمون جناح قاذفة القنابل. لما تصل إلى ارتفاع التجوال فستزمّر لأسراب من نوارس بحر وزنوج يهاجرون جنوباً بقيّة حيواتهم، ببوق لا يزمّر بل يعزف موسيقا روكسي، بون آيفر، ساني ليفاين، وأغنية

نيكو «هذه الأيّام»، وكلُّ ركابها يحصلون على أجر للمعيشة. وبوكر تي. واشنطن، الراكب المداوم، لما يصل إلى الحافلة فسيخبرها «لما ترين بونبون، الخائنَ الكونيّ، وحبَّك الوحيد الحقيقيّ، ألقي بسروالك الداخليّ حيث تكونين».

١٨

مع قدوم نوفمبر، بعد نحو ستّة أسابيعَ من حادثة إطلاق النار، كنتُ أحرزتُ تقدُّماً ملحوظاً مع ماربيسا، لكنّ التقدُّم كان أقلّ في ما كنّا نعمل عليه، بما أنّني الآنَ أمارسُ الجنس على نحو شبه منتظم، والهدفان الآخران، اللذان يحتلّان الأولويّة في حياتي، كانا فصل ديكنز عنصريّاً، وتربية محصول بطاطا جيّد في جنوب كاليفورنيا. عرفت لماذا لا أستطيع جعل البطاطا تنمو، لأنّ الطقس دافئ جدّاً. لكن، لما وصلتُ إلى الأفكار الجيّدة بشأن الفصل العنصريّ من خلال العِرق، كان كلُّ ما خطر ببالي في الحال هو منطقة سكنيّة عنصريّة، و«يومُ الحيّ» كان يبعد بضعة أشهر فقط. ربّما كنتُ، مثلَ أيّ فنّان معاصر، لديّ كتاب واحد جيّد، ألبوم واحد، فعلٌ حقيرٌ واحد ضخم لكراهية الذات في داخلي.

كنّا، أنا وهوميني، في صفّ الأرض الذي كنتُ خصّصته لزرع الدرنات. أنا، مستندٌ على يديّ وركبتيّ، أتحقّق من خليط السماد وكثافة التربة وتحريك بذور البطاطا الخمريّة داخل التربة، أمّا هو فيكيل الاقتراحات المتعلّقة بالفصل العنصريّ على كامل المدينة، ويؤدّي العمل الوحيد المكلَّف به، وهو قلبُ خرطوم مياه الحديقة ذي الثقوب التي كنتُ أحدثتُها فيه.

«سيّدي، ماذا لو أعطينا كلَّ شخصٍ لا نحبُّه شارةً مميّزة، ونقلناهم إلى مخيّمات؟».

«لقد حصل ذلك فعلاً».

«حسناً. ماذا عن هذه الفكرة؟ نصنّف الناس في ثلاث مجموعات: سود، ملوّنون وأشباه آلهة، مع وضع بعض قوانين مثل حظر للتجوال ونظام للمرور...».

«هذا أمرٌ قديمٌ، أيُّها الأمريكيُّ الأسود».

«سينجح هذا في ديكنز، لأنَّ كلَّ واحد، سواء كان مكسيكيّاً أم ساموا أم أسودَ، هو في الأساس ظلٌّ من ظلال اللون الأسمر». أسقطَ خرطوم المياه في الجانب الخطأ من الحفرة، وحفر في تجويفه. «الآنَ، في الجزء السفليّ سيكون لدينا المنبوذون. أولاء أناس لا فائدة منهم إطلاقاً. مشجِّعو نادي لوس أنجلس كليبرز، رجال شرطة المرور، والناس الذين لديهم وظائفُ قذرة حيث يعملون مع نفايات الإنسان والحيوان، مثلك».

«إذا كنتُ شخصاً منبوذاً، وأنت عبدي، فماذا يجعلك هكذا؟».

«كفنّان موهوب، ومسرحيٍّ، أنا برهميّ، بعد أن أموتَ، سأحصل على النيرفانا، أمّا أنت فستعود إلى حيث أنت الآنَ تماماً، تتمرّغ في قذارة البقر».

قدَّرتُ مساعدته، ولكن لما كان هوميني يثرثر حول الطوائف الهنديَّة، ويصوِّر رؤيته حول نظام الطوائف الاجتماعيَّة الهنديَّة كما يمكن أن يطبَّق في ديكنز، بدأتُ اكتشفُ عائقيَ الذهنيّ. كنتُ أشعرُ بالذنب، مدركاً أنّني كنتُ ابن العاهرة في مؤتمر وانسيي، الجنوب أفريقيّ الأبيض البرلمانيّ في جوهانسبورغ عام ١٩٤٨، محبُّ الجاز المتطلِّب في لجنة تحكيم جوائز غرامي الذي -في محاولة لجعل الجائزة أكثر شمولاً- يضع تصنيفات جوائز لا معنى لها، مثل: أفضل أداء موسيقا «آر أند بي» من ثنائيٍّ، أو أفضل مجموعة مع صوت، أو أفضل آلاتيّ لموسيقا الروك من

عازف منفرد، يعرف كيف يبرمج لكن لا يمكنه العزف على آلة. كنتُ الأحمقَ الذي يفعل أموراً مثل تخصيص سيّارة للسكّة الحديديّة، ومواقف للبانتو، وإثارة موسيقا بديلة. الجبان الذي لا يملك الجرأة للوقوف والقول: «أنتم، يا أبناء العاهرات، هل تدركون كم نبدو سخفاء هنا؟».

مع البطاطا المزروعة، والسماد المنثور، وخرطوم الماء الذي وُضع أخيراً في أخدوده الصحيح، كان الوقت قد حان لاختبار نظام الريّ البديل. فتحتُ صنبور الماء، وشاهدتُ مئة قدم من خرطوم مياه الحديقة الخضراء المثقوب ينتفخ، والمياه قد بدأت تشقّ طريقها عبر الفاصولياء، وأمام البصل الإسبانيّ، وحول الملفوف، حتّى وصل ضخُّ الماء من النافورات الستّ عنان السماء، يحوم الماء بدوّامات عالياً فوق كلّ شيءٍ إلاّ البطاطا، محوّلاً الرقعة الصغيرة القاحلة من الأرض جانب السياج الخلفيّ إلى سهلٍ من الفيضان صغيرٍ.

«سيّدي، ألن تغلقها؟ أنت تهدر الماء».

«أعرف».

«حسناً، ربّما في المرّة القادمة تزرع البطاطا الجديدة في الوحل حيث تتجمّع المياه».

«لا أستطيع، ذاك المكان دفنتُ فيه أبي».

أبناء العاهرات لا يصدّقون أنّي دفنتُه في الفِناء الخلفيّ، لكنّي فعلتُ ذلك. لو كان محاميّ، هامبتون فيسك غيّر بتواريخ بعض الإجراءات، ودفنه هناك في الزاوية حيث يفترض أن تكون البرك الراكدة. لا شيء ينمو في تلك البقعة من الأرض. ليس قبل وفاته أو حتى بعدها. لا توجد هناك شاهدة قبر. قبلَ شجرة الساتسوما الخاصّة بماربيسا، حاولتُ زراعة شجرة تفّاح كنصب تذكاريّ. كان أبي يحبُّ التفّاح. كان يأكله طوال

الوقت. الناس الذين يعرفونه كانوا يظنُّون أنّه رجلٌ مهتمٌ بصحّته حقّاً، لأنّك نادراً ما تراه في الأماكن العامّة من دون جهاز ماكينتوش وعلبة عصير فواكه الفيتامينات الثمانية. أحبَّ والدي تفّاح بريبيرن وتفّاح جالا، لكنَّ تفّاح هوني كريب هو المفضّل لديه. إعرضْ عليه تفّاحاً أحمرَ لا طعم له خالياً من النكهة، وسينظر إليك كأنّك تتكلّم بالسوء عن أمّه. أشعر بالأسف لأنّني لم أتفقّد جيب معطفه الرياضيّ عند وفاته، بالتأكيد كنتُ وجدتُ تفّاحةً هناك. كان دائماً يحضر واحدةً ليقضمها بعد انتهاء الاجتماعات. ولو كنتُ قادراً على التخمين لقلتُ إنّها كانت من نوع غولدن راسيت، تلك التي تحافظ على جودتها إبّان الشتاء، ومع ذلك لم نزرع شجر التفّاح قطُّ. ولكثرة ما كان يشتكي من الناس البِيض المدّعين في الجانب الغربيّ من المدينة، أعتقدُ أنّه كان بالخفاء يقود سيّارته باتّجاه أسرة غيلسون أينما كان لديهم تفّاح أوبالسينت للبيع مقابل أربعة دولارات ونصف للرطل، أو باتّجاه أسواق المزارعين إذا كان مطوّرو مشاريع التفّاح موجودين.

قدتُ سيّارتي طول الطريق باتّجاه سانتا باولا أبحثُ عن شجرة أزرعها. كنتُ أبحث عن شيء خاصّ. منذ أواخر تسعينيّات القرن التاسع عشر، عمدتْ جامعة كورنيل إلى تربية أفضل أنواع التفّاح في العالم. كان المناخ حيث الجامعة بارداً، وإذا سألتَ بلطف، ودفعتَ أجورَ الشحن، فإنّهم سيرسلون لك صندوقاً من تفّاح جوناغولد المقطوف في آخر الموسم، فقط لينشروا تعاليم الإنجيل. لكن في السنوات الأخيرة، ولسبب ما، أصبحت كورنيل تعطي الرخص بالأصناف الجديدة للمزارعين المحلّيين، وإذا لم تكن تملك مزرعة في الأجزاء الشماليّة لولاية نيويورك فلن تكون محظوظاً بأن تتدبّر أمرك مع تفّاح فلورينا الموسميّ. لذلك، في الوقت الحالي، بساتينُ الجامعة في جنيف ونيويورك، بالنسبة لتجارة السوق السوداء، توازي ميديلين في كولومبيا

بالنسبة لسوق الكوكائين. صلة الوصل كان أوسكار زوكالو، شريكي في المختبر في جامعة ريفرسايد، الذي كان ينفِّذ دراسته ما بعد الجامعيَّة في كورنيل. التقينا في كراج ركن الطائرات في أثناء أحد العروض الجويَّة. طائرات شراعيَّة ثنائيَّة السطح وطائرات «سوبويث كامل» و«كوريتيس». أصرَّ أوسكار على أن ننفِّذ «الصفقة» من نافذة السيَّارة إلى نافذة السيَّارة، بأسلوب أفلام الجريمة. كانت العيِّنة لذيذة جدّاً حتَّى إنَّني غرفتُ العصير الزائد السائل على أسفل ذقني، وفركته داخل فمي. لا أعرف إن كان هذا تهكُّماً، لكنَّ أفضل أنواع التفَّاح طعمه بطعم الدرَّاق. قدتُ إلى المنزل ومعي شجرة تفَّاح شهيّ مخمليَّة جاهزة للزراعة، وأنا أتخيَّل الصيحة في عالم التفَّاح، والمحصول المجنون، والعضّ المثاليّ الطافح بفيتامين سي. ثمَّ زرعتُ الشجرة على مسافة قدمين من مكان دفن والدي. اعتقدتُ أنَّه سيكون لطيفاً أن يحصلَ على بعض الظلّ. بعد ذلك بيومين، كانت الشجرة ميتة، وطعم التفَّاحات مثل طعم سجائر بنكهة النعناع، وكبد وبصل، وشراب رَمْ رخيص.

كنتُ واقفاً فوق قبر والدي، في الوحل، تحت رذاذ الماء المخصَّص لرشّ البطاطا. من هناك، تمكَّنتُ من رؤية المزرعة بأكملها، من الأمام إلى الخلف. صفوف أشجار الفاكهة، مفصولة حسب اللون، من الفاتح إلى الدّاكن، شجرات الليمون، المشمش، الرمَّان، الخوخ، الساتسوما، التين، الأناناس، الأفوكادو. الحقول التي تتناوب بين الذرة والقمح والأرزّ اليابانيّ، لو كنت فقط أشعر بأنَّني أدفع فاتورة المياه. مشتل الخضار في الوسط مدعوم بمواكب من الملفوف والخسّ والبقوليَّات والخيار. العنب في الكروم على طول السياج الجنوبيّ. البندورة في الشمال. ثمَّ بساط أبيض من القطن. القطن الذي لم ألمسه مُذ توفِّي والدي. ماذا قال هوميني عندما استهللتُ حكاية استعادة ديكنز؟ «هل تعرف العبارة التي *تقول ألا يمكنك رؤية الغابة من خلال الأشجار*؟

حسناً *إنّك لن ترى المزرعة من خلال الزنوج*». مع مَن كنت أمزح؟ أنا مزارع، والمزارعون بطبيعة الحال يفصِلون. نحن نفصل القمح عن القشّ. أنا لستُ رودلف هيس، أو بي. دبليو. بوثا، أو مجموعة تسجيلات كابيتول، أو الحياة المعاصرة للولايات المتّحدة لأمريكا. أولاد العاهرات أولاء يفصلون لأنّهم يريدون الاستمرار في السلطة. أنا مزارع، والمزارع يفصل في محاولة لإعطاء كلّ شجرة، كلّ نبتة، كلّ فقير مكسيكيّ، كلّ زنجيّ فقير، فرصةً وصول عادل لأشعّة الشمس، وللماء. المزارع يتأكّد من أنّ كلّ كائن حيّ لديه مجال للتنفُّس.

«هوميني!».

«نعم، سيّدي».

«في أيّ يوم نحن؟».

«الأحد. لماذا؟ هل ستذهب إلى اجتماع مفكّري دُم دُم؟».

«نعم».

«إذاً، إسأل ذلك الزنجيّ العاهر أين هي سلسلة أفلام *الأوغاد الصغار* خاصّتي».

١٩

كان الحضور قليلاً، ربَّما عشرة رجال. وقف فوي عند زاوية الغرفة، غير حليق الذقن، تكسوه بذلة مجعَّدة، يرتعش، ويرمش بعينيه على نحو غير مُتحكَّم به. مؤخَّراً ظهر فوي في الأخبار كثيراً، فأولاده غير الشرعيِّين كثيرون جدّاً، وكانوا رفعوا دعوى جماعيَّة ضدَّه بسبب الألم العاطفيّ الذي يسبِّبه لهم بإلصاق وجهه أمام الكاميرا أو المايكروفون في كلِّ فرصة. في هذه اللحظة، كانت قَصّة شعره المربَّعة الدقيقة المرسومة وفق هندسة إقليدس، ومفكِّرة رولوديكس، هما فقط ما يجمعانه مع مفكِّري دونات دُم دُم. من الصعب أن تفقدَ الثقة في رجلٍ حتّى في أسوأ أوقاته يمكنه أن يحافظ على شَعره مشذَّباً، ويدعو إلى الاجتماع أصدقاءَ مثل جون مكجونز. ومكجونز هذا رجل أسود محافظ، أضاف هذه الـ«مك» إلى اسمه العبوديّ مؤخَّراً. بدأ مكجونز يقرأ من كتابه الأخير الإيرلنديّ، لو سمحتم: *الرحلة الإيرلنديَّة السَّوداء من مجتمع الغيتو إلى مجتمع الغيليِّين*. كان الكاتب من سلالة فوي، ومع بقيَّة أهالي قرية بِرشميل لا بدَّ أن كان ثمَّة جمعٌ كبيرٌ في الاجتماع، لكن من دون شكٍّ كان مفكِّرو دونات دُم دُم يحتضرون. ربَّما كانت فكرة العصبيَّة بين مفكِّرين سود أغبياء لم يعد لها فائدة. «أنا في سليغو، قريةِ فنّان صغيرة، تقع على شاطئ الساحل الشماليّ لجزيرة إيميرالد»، كان مكجونز يقرأ. لثغته بنطق الأحرف، وتعابيره التمثيليَّة الفنيَّة جعلاني أرغب في لكمه

على وجهه. «بطولة إيرلندا بأكملها، المندفعة على التلفزيون، كيكيني ضدّ غالواي، الرجال بعصيٍّ تنتهي بكراتٍ بِيض صغيرة. فتى بكتفَين مدوَّرين، وبسترة صيّاد، يقف خلفي يربِّت بالنهاية الناتئة للهراوة على راحة يده. أشعر كأنّني في بلادي».

اتَّخذتُ كرسيّاً إلى جانب كانغ كوز، الذي كان يسلّي نفسَه كالعادة. يمضغ دونات من نوع مابل بار، ويتصفّح عدداً تائهاً عن بقيّة الأعداد من مجلّة *لورايدر*. لما رصدني فوي شيشاير نقر على ساعته، ماركة باتريك فيليب، كأنّني كنت شمّاسَ كنيسة دخل الكنيسة متأخّراً. كان ثمّة خطب في فوي، فقد استمرّ في مقاطعة مكجونز بأسئلة لا معنى لها.

«مندفعة جدّاً! هل جئتَ بهذا من امتحانات الجامعة الصعبة؟».

لما رأيتُ أنّ كوز لا يستخدمها استعرتُ نسخة نشرة *ذا تيكر* خاصّته. في حسابات الربع الماليّ، ومنذ البدء بفكرة أكاديميّة ويتون، ارتفعت العمالة في ديكنز ضعفَين، وأسعار المنازل ارتفعت ثلاثة أضعاف، حتّى معدّلات التخرُّج ارتفعت بنسبة الربع، لكنَّ الناسَ السُّودَ في النهاية بقوا سوداً. وعلى الرغم من أنّه كان من المبكِّر الحديث في التجربة الاجتماعيّة، وحجم العيِّنة كان صغيراً نسبيّاً، فإنَّ الأرقام لا تكذب، لأنّه في الأشهر الثلاثة الأخيرة، منذ ارتفعت أكاديميّة ويتون، أصبح أداء الطلّاب في مدرسة تشاف ميدل أفضل بكثير. ليس الموضوع أنَّ أيَّ شخص كان سيتخطّى كلّ الدرجات ويصل إلى الظهور في برنامج *مَن سيربح المليون* في وقت قصير، لكن في المتوسّط، مجموع الدرجات في امتحانات الكفاءة في الولاية كان يقترب من معدّل الكفاءة المطلوب، إن لم نقل قد تجاوزه. وبقدر ما استطعت أن أخرجَ عن مبادئ الولاية التوجيهيّة، كان التحسُّن التالي هو أنَّ المدرسة لن تخضعَ لأيِّ حراسة قضائيّة، على الأقلّ ليس في وقت قريب.

بعد أن انتهت القراءة، مشى فوي بخُطاً واسعة إلى مقدِّمة الغرفة، يصفِّق مثل طفل مبتهج في أوَّل عرض دُمىً له. «أرغب في شكر السيِّد مكجونز على هذه القراءة التحفيزيَّة، لكن قبل أن أدخلَ في موضوع ما بعد ظهر اليوم، لديَّ إعلان، أوَّلاً: إنَّ آخرَ عروضي المتاحة *حجر الشطرنج الأسود* قد أُلغي. ثانياً: كما يعرف كثيرٌ منكم ربَّما، معركة جديدة كانت قد بدأت، والعدوُّ الذي لا يهاب شيئاً موجود هنا، في شكل أكاديميَّة ويتون، وهي مدرسة للبِيض كلّها. لكنَّني لن أحزنَ، فلقد طوَّرتُ سلاحاً سرِّيّاً. الآنَ، لديَّ أصدقاء في مناصب عُليا، وكلُّهم ينكرون وجود أكاديميَّة ويتون». ألقى فوي بمحتويات حقيبته الصغيرة على أقرب طاولة. كتابٌ جديدٌ. نهض شخصان مباشرة وغادرا. أردتُ الانضمام إليهما لكنَّني تذكَّرتُ أنَّني موجود هنا لسبب، وجزءٌ منِّي كان فضوليّاً على نحو جنونيّ لمعرفة ما هي التحفة الأمريكيَّة التالية التي سيعلن عنها فوي. قبل أن يمرِّره في الغرفة، قدَّم فوي الكتابَ بكلِّ هدوء إلى جون مكجونز الذي ألقى بتلك النظرة التي تعني «أيُّها الزنجيُّ، هل أنت متأكِّد من أنَّك تريد أن تطلق العنان لهذه القذارة في العالم؟». لما وصل الكتاب إلى الخلف سلَّمني إيَّاه كانغ كوز دون أن ينظرَ إليه، وحالما قرأتُ العنوانَ لم أرد تركه، *مغامرات توم سورير*. لقد ظهر لي أنَّ أعمال فوي المكتوبة كانت فنّاً شعبيّاً أسودَ، وأنَّها ستحقِّق قيمةً ما في أحد الأيَّام. بدأتُ آسف وأندم لأنَّني أسهمتُ في حرق كتبه في «يوم العمل»، ولأنَّني لم أبدأ بجمع كتبه، ولأنَّني أمضيتُ السنوات العشر الأخيرة أنظر من أسفل أنفي العريض إلى ما، ربَّما، هو من المستحيل الآن أن تعثرَ على النسخة الأولى والوحيدة منه، عناوين مثل: *الرجل الأسود القديم وحوض سباحة ويني ذا بوه القابل للتضخُّم*، *الآمال المدروسة*، مِدلمارش في *منتصف إبريل*، *سأحصل على مالك، أقسم بذلك*. على غلاف رواية *توم سورير* صبيٌّ أسود في المرحلة الابتدائيَّة،

يلبس حذاءً جلدياً من تلك التي يستطيع إسقاط النقود فيها، وجوربَين مرسوماً عليهما مربَّعات، وسروالاً أخضرَ يفيض بالحيتان المرسومة. كان طفلاً مسلَّحاً بدلو محلول تبييض، ويقف بشجاعة أمام أحد الجدران، يرسم عليه لوحات غرافيتي العصابات، في حين تنظر إليه مجموعة من قطَّاع الطرق الأنذال نظرة تهديد.

لما انتزع فوي كتابَ توم سورير من يدي شعرتُ أنَّني كنتُ ضيَّعتُ لمسة الفوز الأخيرة في مباراة كرة قدم. «هذا الكتاب، وأنا لا أخجل من القول إنه س. ت. ح. سلاح تعليم الجماهير!». غير قادر على احتواء إثارته، ارتفع صوتُ فوي بمقدار أوكتافَين على مقياس الأصوات، وأخذه الحماس الهتلريُّ، «وكما ألهمتني شخصيَّة توم سورير، فإنَّها ستحفِّز أمَّة على تبييضِ هذا السور! على إخفاء تلك الصور المخيفة للفصل العنصريِّ الذي تمثِّله أكاديميَّة ويتون. مَن يقف إلى جانبي؟». أشار فوي إلى الباب الأماميِّ «أنا أعرف هؤلاء الأفريقيِّين-الأمريكيِّين الأبطال الذين يقفون مع القضيَّة...». من الناحية القانونيَّة، لا يسمح لي بالكشف عن الأسماء التي ذكرها فوي، لأنَّني لما أدرتُ رأسي باتِّجاه ما ظننتُ أنَّه سيكون هلوسة فوي الخفيَّة، كان يقف في مدخل متجر دونات دُم دُم ثلاثة من أشهر الأفريقيِّين-الأمريكيِّين الأحياء، ممثِّل مسلسل «رجل الأسرة» المعروف، وسأسمِّيه هنا باسم آي...بي، والزنجيَّان الدبلوماسيَّان اللذان سأسمِّيهما أو...أو، وإن...سي. لما استشعر فوي أنَّ مفكِّري دونات دُم دُم كانوا يحتضرون، غادر كلَّ المحطَّات واستدعى مَن يعرف الأصلحَ له. جلس النجوم الثلاثة بحذر وهم إلى حدٍّ ما قد فُوجئوا بأنَّ الحشدَ قليلٌ جداً، ثمَّ طلبوا قهوةً ومعجَّنات، وشاركوا في الاجتماع. كان معظمهم يجترُّ مع جون مكجونز الهراءَ المعتاد عن الحزب الجمهوريِّ، وأنَّ الطفل المولود في العبوديَّة في العام ١٨٦٠ كان أكثر احتمالاً أن يترعرع في كنف أسرة متينة من طفل وُلد بعد انتخاب أوَّل

رئيس للولايات المتّحدة الأمريكيّة، أفريقيّ أمريكيّ. كان مكجونز زنجيّاً منتفخاً يخفي كراهيته وراء مذهب الحرّيّة السياسيّة، أمّا أنا فكنتُ متوافقاً مع عواطفي على الأقلّ. هو استشهد بالإحصاءات التي لم يكن لها معنى على الإطلاق، حتّى لو كانت صحيحة، عند النظر إلى أنّ العبيدَ كانوا عبيداً. هذا الكائن المولود قبل حرب الأُسر المتينة لم يكن بالضرورة ثمرة رابطة حبٍّ، بل ثمرة زواج قسريّ، كما أنّه لم يذكر أنّ بعض زيجات العبيد الأسريّة المتينة كانت بين أخ وأخته، أو أمّ وابنها، أو أنّه، إبّان فترة العبوديّة، لم يكن الطلاق خياراً، لم تكن ثمّة عبارة «أنا خارج لأدخّن السجائر» ثمّ لا يعود أبداً. ماذا عن كلّ الأسر المتينة التي لم يكن لديها أولاد، أو بِيْعَ أولادهم إلى أناس وأماكن مجهولة. كمالكٍ للعبيد في العصر الحديث، شعرتُ بالإهانة لأنّ مؤسّسات العبوديّة المبجّلة لم تُوصف بالشرّ والقسوة المفترضَين.

«يا لها من حماقة»، قلتُ مقاطعاً مكجونز، وأنا أرفع يدي مثل طالب.

«يبدو أنّك تفضّل لو كنتَ وُلدتَ في أفريقيا عن أن تكون وُلدتَ هنا؟» أجاب سي. إن بنغمة حكمة في صوته، الأمر الذي أعطى فكرةً خطأً عن سيرته الذاتيّة، وسترته ذات الياقة على شكل حرف (V).

«ماذا؟ هنا؟» وأشرتُ إلى الأرض «مثل ديكنز؟».

«حسناً، ربّما ليس في مكان لا يُطاق مثل ديكنز»، قال مكجونز وهو يرمق الضيوف الآخرين نظرةَ «حتّى لا تُتعبوا أنفسكم، أنا أتكفّل بالموضوع». «لا أحد يريد العيش هنا، ولكن لا يمكنك حتّى التظاهر بالقول إنّك وُلدتَ في أفريقيا أكثر من أيّ مكان آخر في أمريكا».

من الأفضل أن تكون هنا أكثر من أيّ مكان في أفريقيا، ورقة اللعب الرابحة التي يرميها أيُّ بدائيٍّ ضيّق الأفق، إذا ألبستني قبّعة الكعكة على

رأسي، بالطبع سأفضّل أن أكون هنا أكثر من أيِّ مكان في أفريقيا، مع أنّي سمعت أنَّ جوهانسبورغ ليست بذاك السوء، والتزلُّج على الماء رائعٌ في شواطئ كيب فاردين. على أيِّ حال، لستُ أنانياً جدّاً لأصدّق أنَّ سعادتي النسبيّة، بما تحتويه، وليس على سبيل الحصر، من الحصول على برغر حارٍّ على مدى أربع وعشرين ساعة، وأقراص البلوراي، وكراسي مكاتب آيرون المتحركّة، تستحقُّ أجيالاً من المعاناة، وعلى نحو جدّيّ، أشكُّ في أنَّ أسلافنا العبيد في المراكب، في تلك اللحظات الخاملة بين أن تُغتَصَب أو تُضرَب، كانوا ينحنون على ركبهم ووجوههم مدركين، في نهاية الأمر، أنَّ أجيال القتل والألم غير المحتمل والمعاناة والألم النفسيّ والأمراض المتفشيّة تحمّلوا هذا العناء لأنَّ حفيدَ حفيدِ حفيدِ أحدهم ستكون عنده خدمة (واي فاي)، مهما كانت بطيئة أو متقطّعة.

لم أقل شيئاً، وتركتُ كانغ كوز يقاتل بدلاً عنّي. في عشرين عاماً، لم أسمعه يقول شيئاً في الاجتماعات أكثرَ موضوعيّة من الاعتراف بحقيقة أنَّ الشاي المثلّج يحتاج سكّراً أكثر، ولكن ها هو ذا يواجه رجلاً يتقدّم عنه أربع درجات، ويتحدّث عشر لغات، ليس منها واحدة سوداء باستثناء اللغة الفرنسيّة.

«أيُّها الزنجيُّ، أرفض السماح لك أن تطعن بديكنز هكذا!». قال كوز بحدّة، وهو يقف ويشير إلى مكجونز بأظافر أصابعه المقلّمة حديثاً «هذه مدينة، وليست مكاناً لا يُطاق».

الطعن؟ ربّما لم تذهب سدىً عشرون عاماً من خطاب دونات دُم دُم. ومكجونز، على الرغم من نقمة كوز، لم يتنازل «ربّما أخطأت في الكلام، لكن يجب عليّ أن أستثني من كلامك أنت، ديكنز مدينة! من الواضح أنّها مكان فقط، لا أكثر من مدينة أكواخ أمريكيّة، مدينة ما بعد

الحقبة السّوداء، ما بعد التمييز، ما بعد استرجاع الروح، إذا شئت تعود إلى زمن الجهل الأسود الرومانيّ...».

«مهلاً، واستمعْ إليّ أيُّها المغفّل، وفّر هراء ما بعد الروح، وما بعد الأسود، إلى شخص يهتمُّ بهذه السخافات، لأنّ كلّ ما أعرفه هو أنّي ما قبل الأسود. في ديكنز وُلدت وكبرت، عضو عصابات كريب أصيل حكيم، من العصر البدائيّ اللعين».

بدا أنَّ مونولوج كوز ترك أثراً في الآنسة آر...، لأنّها باعدت ما بين ساقيها المتصالبتَين، ثمّ فتحتهما بما يكفي لتكشف عن فخذين من حزب المحافظين، ومن ثمّ ربّتت على كتفي.

«هل يلعب ابن العاهرة هذا كرة القدم؟».

«قليلاً. كان رامي كرة أيّام الدراسة».

«Мои трусики мокрые»[1] قالت قالت بلغة روسيّة وهي تلعق شفتَيها.

لستُ لغويّاً، لكن أفضل تخمين لمعنى كلامها أنَّ كوز يمكنه أن يخترق دفاعاتها في أيّ وقت يشاء. قفز عضو العصابة القديم إلى منتصف محلّ الدونات، وباطن حذائه الرياضيّ المطاطيّ يزقزق في كلّ خطوة يخطوها. «هذه، يا بن العاهرة الفخور، هذه ديكنز»، ولم تسمع سوى أصوات خطواته. أدّى حركة عصابات من حذائه الناعم، تُعرف بمشية عصابة كريب، فدار على كعب حذائه من دون أن يديرَ ظهره للحشد. ركبتاه ملتصقتان، ويداه حرّتان. قفز داخل الغرفة في دوائر متّحدة المركز تنهار عليهم بأسرع من تمدّدهم. بدا الأمر كأنَّ الأرضيّة تشتعل حرارة،

---

(١) بالروسيّة بالأصل: سروالي رطب. (م)

وبالنسبة إليه الحارّ جدّاً هو أن يقفَ في بقعة واحدة لأكثر من ثانية. كان كانغ كوز يناقش مكجونز بأفضل طريقة يعرفها.

تريد أكثر. خُذ أكثر. سيِّئ بما يكفي، خذ بعض...

Velis aliquam, acquiris aliquam, caninus satis, capis aliquam[1].

في وقت تجمّع فيه الحشدُ حول الخصمَين، فعلتُ ما جئتُ لأجله. أزلتُ صورة أبي من على الحائط ودسستُها تحت ذراعي. فصلُ المدينة عنصريّاً وصورته معلّقة يشبه المضاجعة في الغرفة التالية لغرفة نوم والديك. لن تكون قادراً على التركيز، وغير قادر على الصراخ من المتعة كما تريد أن تفعل. تسلّلتُ خارجاً بهدوء، في حين كان كانغ كوز يعلّم مكجونز وبقيّة الجوقة مشيةَ عصابة كريب.كانوا يتحسّنون بذلك مثل محترفين، يتبخترون في الأرجاء مثل أعضاء عصابات من الجيل القديم. كان الأمر مفهوماً، فدمجُ جزءٍ من لغة ماساي مع شيء مسروق من رقص حرب الشيروكي تشاهده في فيلم ويسترن قديم، سيشكّل مشية كريب، التي هي رقصة محارب قديمة، رقصة يؤدّيها راقصون ذكور يلبسون سراويل فضفاضة لا تصل إلى المؤخّرة، رقصة نبيلة الهدف. إنّها رقصة تقول «يمكنك الرّمي عندما تكون جاهزاً، غريدلي»، وأيُّ زنجيٍّ في مركز الضوء، حتّى لو كان من أولاء الشركاء المحافظين، يعرف كيف هو الأمر عندما يكون مركز إصابة الهدف تماماً في مؤخّرتك.

كنتُ أحلُّ وثاق حصاني عندما وضع فوي ذراعاً أبويّة حول كتفي. بدا التوتر والعصبيّة واضحين على ذقنه كما لم أرهما سابقاً. رقبته كانت مُعفّرة بالوسخ، ورائحة جسده تفوح فوقي مع النسيم.

---

(١) باللاتينيّة بالأصل: ترغب في بعض الاعتبار، في رجل محدّد. الا يظهر لك ما يكفيك، وترغب بالمزيد. (م)

«أنت تغادر مع غروب الشمس أيُها الخائن».

«أنا كذلك».

«يوم طويل».

«هذا الهراء حول كوننا أفضل داخل نظام العبوديَّة هو أمرٌ كبيرٌ عليك. أليس كذلك، فوي؟».

«على الأقلّ، مكجونز مهتمٌّ».

«دعنا من ذلك. هو مهتمٌّ بالناس السُّود مثل اهتمام لاعب السلَّة بكرة السلَّة. عليه أن يهتمّ لأن لا شيء آخر سيكون فالحاً فيه».

لما عرف أنَّني لن أعودَ أبداً إلى مفكِّري دونات دُم دُم رمقني فوي بتلك النظرة الحزينة مثل مبشِّر ينظر إلى وثنيّ في الغابة، نظرة تقول لا يهمُّ إن كنتَ غبيّاً جدّاً لتفهمَ حبَّ الله، إنَّه يحبُّك مع ذلك، فقط سلِّم المسؤوليَّة للنساء، ولعدَّائي المسافات الطويلة، وللموارد الطبيعيَّة.

«أنت لستَ مهتمّاً بالمدرسة المخصَّصة بأكملها للبِيض؟».

«لا، الأطفال البِيض في حاجة إلى التعلُّم أيضاً».

«لكن الأولاد البِيض لن يشتروا كتبي. بالحديث عن...» سلَّمَني فوي نسخةً من توم سورير، ثمّ وقَّع عليه حتَّى دون أن أطلبَ منه ذلك.

«فوي، هل يمكنني أن أسألك؟».

«بالتأكيد».

«أعلم أنَّها ربَّما تكون أسطورة هزليَّة، ولكن هل صحيح أنَّك حقّاً تملك سلسة أفلام *الأوغاد الصغار*؟ لأنَّك إن كنتَ كذلك فلديَّ عرض لك».

من الواضح أنَّني أثرتُ غضبه. هزَّ فوي رأسه مشيراً إلى الكتاب، ثمَّ تحرَّك بتثاقل إلى الداخل، ولما فتحتُ الأبوابَ الزجاجيَّة كان يمكنني

سماع كانغ كوز، أغنى رجل أسود في البلاد، مع زنجيّين دبلوماسيّين مبشّرين أسطورتين، يترنّمون جميعاً بكلمات أغنية الرّاب لفرقة إن. دبليو. أي «اللعنة على الشرطة» بأعلى صوت مسموع. وقبل أن أضعَ كتاب توم سوررير في الجعبة، قرأتُ المنقوش عليه، كتابة وجدتُ فيها تهديداً غامضاً.

إلى الخائن

مَن شابه أباه فما ظلم...

فوي شيشاير

تبّاً له. عدوتُ بالفرس باتجاه المنزل. وجّهتُ الحصان بصعوبة إلى أسفل جادّة غوثري، مخترعاً بعض حركات ترويض الخيل داخل المدينة على طول الطريق عندما تجاهلت شرطة المرور وعدوت بالفرس عبر سلسلة من مجسّماتٍ على شكل رقم ثمانية، مجتازاً، ومحطّماً براميل البناء البرتقاليّة في الطريق المغلق بسبب أعمال البناء. في طريق تشاريتون تعلّقتْ بي راكبة (سكوتِر) تعبة، وبيدٍ واحدة أمسكتها من ظهرها وسحبتها إلى جانبي مثل حنطور من إيردروم إلى سوير، أجلُدها في المنعطفات الحادّة باتجاه برينسايد. لم أعرف ما كنتُ أتوقّعه من محاولة إعادة ديكنز إلى مجدٍ لم يكن موجوداً قطُّ. حتّى إن، في يوم ما، جرى الاعتراف بديكنز رسميّاً، فلن يكون ثمّة ضجّة، ولا ألعاب ناريّة. لن يهتمّ أحد إطلاقاً بأن يقيم تمثالاً لي في الحديقة، أو يسمّي إحدى المدارس الابتدائيّة على اسمي. لن يكون ثمّة شيء مثل الفخر الذي شعر به جون باتيست بوينت دو سابل وويليام أوفرتون عندما نصبا رايتَيهما في شيكاغو وبورتلاند. فوق كلّ هذا، لن يكون الأمر كأنّني اكتشفتُ شيئاً ما. أنا، فحسب، رفعت الغبار عن قطعة أثريّة لم تكن قد دُفنت حقّاً،

لذلك لما وصلتُ البيت، حيث هوميني، نزع بحماس كبير السرج عن حصاني، متلهّفاً أن يعرض عليّ بعض الإدخالات الجديدة على الموسوعة في شبكة الإنترنت، كتبها عالم مجهول.

«ديكنز مدينة غير موحّدة في جنوب غرب مقاطعة لوس أنجلس. كانت كلّها سوداء، الآن فيها مكسيكيُّون. عُرفت مرّة بأنّها عاصمة القتل في العالم. ليست سيّئة كما تبدو عليه، لكن لا تسافر إليها».

نعم، إذا أصبحت ديكنز مكاناً حقيقيّاً مرّة أخرى فإنّ ابتسامة هوميني العريضة ستكون المكافأة التي حصلتُ عليها في حياتي.

٢٠

بقي الأمر بعيداً عن العلن، لكن على مدى الأشهر القليلة التالية أصبح فصل ديكنز عنصرياً نوعاً من المرح. وعلى العكس من هوميني، لم يكن لديَّ عملٌ حقيقيٌّ. وعلى الرغم من أنَّها كانت عملاً غير مأجور، فقد كانت قيادة السيَّارة في جميع أنحاء المدينة مع هوميني العبقريِّ الأفريقيِّ-الأمريكيِّ، بالنسبة لي، أنا العالم الاجتماعيُّ الشرِّير، نوعاً من تفويض السُّلطة، مع سخريتنا الدائمة من افتقادنا إلى السلطة أصلاً. من الاثنين إلى الجمعة، تماماً عند الساعة الواحدة، كان هوميني يقف في المقدَّمة إلى جانب الشاحنة.

«هوميني، هل أنت جاهزٌ للفصل العنصريِّ؟».

«نعم، سيِّدي».

بدأنا بالأمور البسيطة، شهرة هوميني المحلِّيَّة، وتقدير الناس له أثبتا قيمتهما، كان يرقص دائماً، وينفجر بأغانٍ ورقصات معقَّدة على نحو مجنون من تلك الرقصات التي تعود إلى أيَّام حلقة تشيتلينغ[1]، تلك التي يمكن أن تجعل فريق الإخوة نيكولاس، وهوني كولز، وباك، وفرقة بابلز الخُضر بأقنعة سوداء، تعلوهم أمارات الغيرة:

---

(١) شبكة المسارح والأندية التي كان يسمح فيها للسّود بتقديم عروض، فترة التمييز العنصريّ في الولايات المتّحدة. (م)

لأنَّ شعري مجعَّد
فقط لأنَّ أسناني بيضاء كلؤلؤ
فقط لأنّني أبتسم دائماً
وكأنَّ ثيابي حسب أحدث طراز.

لأنّني سعيد لكوني حيّاً
أقابل تلك المشكلات بابتسامة
فقط لأنّني ملوَّن
هذا لا يصنع فرقاً، ربّما
لماذا إذاً يدعونني «المتألّق»

ثمّ يلصق لافتة **للملوّنين فقط** على نافذة أحد المطاعم الأماميّة، أو على نافذة صالون تجميل، كأنّها جزءٌ من أدائه المسرحيّ. لم ينزع أحد تلك اللافتات قطُّ، على الأقلّ في حضورنا. كان هوميني يعمل جاهداً من أجلها.

أحياناً، وتقديراً لوالدي، لما يكون هوميني في استراحة الغداء أو نائماً في الشاحنة، كنتُ أزور أحد البيوت مرتدياً معطف المختبر الخاصّ بأبي، وأحمل حاسوباً لوحيّاً. كنت أسلّم المالك بطاقتي وأشرح له أنّني أعمل مع الإدارة الفيدراليّة للظلم العنصريّ، وأجري دراسة مدّتها شهر حول آثار «الفصل العنصريّ للسلوك المعياريّ على الناس المفصولين عنصريّاً»، وأعرض عليه أن يدفع خمسين دولاراً من ضرائبه، ويختار بين ثلاث لوحات: الأولى **فقط السُّود، والآسيويُّون**، الثانية **اللاتينيُّون، فقط اللاتينيُّون، والآسيويُّون، والسُّود**، الثالثة **السُّود، غير مسموح**

للبِيض. فوجئت بعدد الناس المشتغلين بالأعمال الصغيرة الذين دفعوا لي من أجل لوحة غير مسموح للبِيض. ومثل معظم التجارب الاجتماعيَّة لم ألتزم بالأفعال اللاحقة للوعود، ولكن بعد نهاية الشهر، لم يكن غيرَ عاديٍّ أن أتلقَّى اتصالات من المتابعين يسألون الدكتور بونبون ما إذا كان بإمكانهم أن يبقوا اللوحات على النوافذ لأنَّهم بذلك جعلوا زبائنهم يشعرون بالخصوصيَّة. «لقد أحبَّ الزبائن اللوحات، يبدو الأمر كأنَّهم ينتمون إلى نادٍ خاصّ للعموم!».

لم يستغرق الأمر طويلاً لإقناع مدير ميرالتا، صالة السينما الوحيدة في المدينة، أنَّ الشكاوى ستنخفض إلى النصف إذا حدَّد مقاعدَ في الصالة خاصَّةً بالبِيض، وغير المتكلِّمين فقط، في حين يحافظ على مقاعد البلكون للسُّود، اللاتينيِّين وضعاف السمع. لم نكن نطلب الإذن دائماً، مع الطلاء والفرشاة غيَّرنا ساعات عمل مكتبة واندا كوليمان العموميَّة من الأحد-الثلاثاء: مغلق، الأربعاء-السبت ١٠ حتَّى ٥,٣٠ إلى الأحد- الثلاثاء: فقط للبِيض، الأربعاء- السبت: فقط للملوَّنين. في وقت كان فيه عملنا قد بدأ يحقِّق النجاح، كانت كاريزما تحقِّق النجاح أيضاً في مدرسة تشاف ميدل. من الآن فصاعداً، ثمَّة منظمة تبحث عنِّي من أجل فصل عنصريٍّ صغير خاصّ. في محاولة للحدّ من معدَّل جرائم الشبَّان في المنطقة، أراد الفرع المحلِّيُّ لمنظمة «مليون ولد مكسيكيّ» أن يفعل شيئاً غير لعب كرة السلَّة في منتصف الليل، «شيئاً أكثر ملاءمة لمكانة المكسيكيِّين والأمريكيِّين الأصليِّين»، مسعى رياضيّ لا يتطلَّب كثيراً من المساحة، حيث يتمكَّن الأولاد من التنافس على قدم المساواة، وحيث لا تستطيع حلقة الأسماء اللامعة في عالم كرة السلَّة، أمثال إدواردو ناخيرا، وتاني روبنسون، وإيرل واتسون، وشوني شيميل، وأورلاند منيديز-فاليز أن تجعلهم يعدلون عن الأمر.

كان الاجتماع مقتضباً. من ناحيتي، يتألَّف من سؤالين:

الأوّل: «هل لديكم أيُّ أموال؟».

«نحن للتوّ حصلنا على ١٠٠٠٠٠٠ دولار مساعدة من جمعيّة «ويش آبون أستار»».

الثاني: «ظننتُ أنّهم يقدّمون تبرّعات للأولاد المحتضرين».

«تماماً».

في ذروة إجبار السلطات للبلديّات على تنفيذ قانون الحماية المدنيّة، ملأت بعض البلدات المنفصلة عنصرياً أحواض السباحة المحلّيّة خاصّتها بدلاً من السماح للأولاد غير البِيض بالمشاركة في المتعة المنحرفة للتبوُّل في الماء. ولكنّنا، في عمل مستوحى من الفصل العنصريّ المعاكس، استخدمنا المال لاستئجار منقذِ سباحةٍ، كان شخصاً متشرّداً، وبنينا حوض سباحةٍ «للبِيض فقط» محاطاً بسور شائك أحبَّ الأولاد القفز منه، وبذلك تمكّنوا من لعب لعبة ماركو بولو وحبس أنفاسهم الجماعيّة تحت الماء كلّما رصدوا سيّارة دوريّة شرطة تمرُّ.

لما شعرت كاريزما أنّ طلّابها أصبحوا في حاجة إلى قوّة مقابلة لهجمات الفخر المخادع، والسوقِ التخصُّصيّةِ التي تحصل في أثناء شهرَي التاريخ الأسود، والتراث الإسبانيّ، جئتُ بفكرة فريدة، وهي أسبوع البِيض. على عكس التسمية، كان أسبوع البِيض في الواقع احتفالاً لمدّة ثلاثين دقيقةً بعجائب وإسهمات العِرق القوقازيّ الخفيّة في عالم الرفاهية. فترة راحة للأطفال أُجبروا فيها على المشاركة في إعادة تمثيل حلقاتٍ عن قصص العمّال المهاجرين، والهجرة غير القانونيّة، ورحلة العبيد. مرهق ومتخم من كونك مجبراً على تجربة البهتان الذي ينشأ عندما يفعل أحدُ أبناءِ جِلدتك شيئاً، فيُعمّم الأمرُ على أبناء الجلدة كلّهم. استغرق الأمر نحو يومين من أجل غسيل السيّارات، من دون فرشاة طويل الأمد في جادة روبرتسون إلى نفق من البَياض. غيّرنا اللوحات

بحيث إنَّ أطفالاً من ديكنز تمكّنوا من الاصطفاف والاختيار بين عدّة خيارات للغسل العِرقي:

بياض جيّد: فائدة ارتفاع أقساط تأمين معدَّل العمر المشكوك فيه.

بياض ناصع: بياض عاديّ، زائد تحذيرات، بدلاً من إلقاء رجال الشرطة القبض عليك.

مقاعد لائقة في الحفلات والأحداث الرياضيّة.

العالم يدور حولك، وحول اهتماماتك.

بياض ناصع جدّاً: بياض ناصع، زائد وظائف، مع مكافآت سنويّة.

الخدمة العسكريّة هي للحمقى.

قبول على أساس القرابة في كلّيّة من اختيارك.

معالجون يستمعون إليك.

قوارب ليست للاستخدام أبداً.

جميع الرذائل والعادات السيّئة يشار إليها باسم مراحل.

عدم المسؤوليّة عن الخدوش والفجوات والمواد المتروكة في اللاوعي.

من أجل الموسيقا الأنصع بياضاً يمكن أن نفكّر في (مادونا، فرقة روك «ذا فلاش»، فرقة «هوتي آند ذا بلوفيش»)، الأطفال يرتدون ثياب السباحة، ويقطعون طريقاً مختصرة، ويرقصون ويضحكون في الماء الساخن ورغوة الصابون، ويتجاهلون ضوء صفّارة الإنذار الأحمر، ويجرون تحت شلّالات الشمع الكرنوبيّ غير الحارّ. أعطيناهم الحلوى ومشروبات الصودا، وسمحنا لهم بالوقوف ليجفّفوا أنفسهم تحت مضخّات الهواء الحارّ بقدر ما يشاؤون، وذكّرناهم بأنّه حينما تتعرّض إلى

رياح دافئة تهبُّ في وجهك فهو الشعورُ نفسُه إذا ما كنتَ أبيضَ وغنيّاً. الحياة بالنسبة للقلّة اليائسة غير المحظوظة كانت مثلاً أن تجلسَ في المقعد الأماميّ لسيّارة ذات غطاء قابل للطيّ لمدّة أربع وعشرين ساعة.

لم تكن بالضرورة فكرة توفير الأفضل للآخر، ولكن مع اقتراب «يوم الحيّ،» كنّا، هوميني وأنا، تمكّنّا من تثبيت بعض أشكال الفصل العنصريّ تقريباً في كلّ قسم ومنشأة عامّة في ديكنز، باستثناء مستشفى مارتن لوثر كينغ الابن، الذي يقع على نحو مثير للتناقض في حدائق بولينزيان. حدائق بولينزيان المعروفة اختصاراً ح. ب، هي مكان الأغلبيّة اللاتينيّين الذين يُشاع عنهم أنّهم عدائيّون للأفريقيّين- الأمريكيّين. في الواقع، تقول الأسطورة المحليّة إنّ آلام الديكنزيّين السُود الذين يقودون عبر ح.ب باتجاه المستشفى كانت في غالب الأحيان أشدّ من الآلام التي تسبّب لهم بها التماس العناية الطبّيّة في المقام الأوّل. بين رجال الشرطة ورجال العصابات يعدُّ اجتياز شوارع أيّ منطقة في مقاطعة لوس أنجلس، خاصّة تلك التي لا تعرفها، أمراً خطراً، فأنت لا تعرف أبداً متى يُقبض عليك لأنّك من اللون المخالف، أو لأنّك ترتدي زيّاً من اللون الخطأ. لم أعانِ من مشكلات في حدائق بولينزيان، لكن لأكون صادقاً، لم أذهب إلى هناك قطّ في الليل. وفي ذاك المساء، قبل تنفيذ خطتنا في المستشفى، كان هناك إطلاق نار بين عصابتين تتبعان منطقة حدائق بولينزيان، وهما فاريو وباريو. عصابتان يربطهما نزاع دمويّ قديم بالمعنى الحرفيّ للكلمة. لذلك، ولكي أضمن سلامتي وهوميني في أثناء دخولنا وخروجنا، ألصقتُ علمَين، الأوّل بنفسجيٌّ، والثاني ذهبيٌّ لفريق ليكرز على الواقي الأماميّ لشاحنتي. وإمعاناً في التدبير، رفرف علم فريق ليكرز ضخم لبطولة عام ١٩٨٧ من على سقف الشاحنة. كلُّ واحد، وأنا أعني هنا كلَّ شخص في لوس أنجلس، يحبُّ فريق ليكرز. قدتُ باتجاه أسفل شارع سينتينيال، حتّى وراء السائقين بطيئي الحركة

الذين يرفضون أن تزيد سرعتهم عن عشرة أميال في الساعة، كانت أعلام ليكرز ترفرف بجلال في رياح الليل، معطية الشاحنة صفة سيّارة سفير، الأمر الذي جعلنا نتجوّل بحصانة دبلوماسيّة مؤقّتة.

الدكتور ويلبرفورس مينغو، مدير مستشفى مارتن لوثر كينغ الابن، كان صديقاً قديماً لوالدي، وكان أعطاني الإذن بأن أفصل المكان عنصريّاً عندما شرحت له أنّني كنت أنا من رسم الحدود، ووضع علامة الخروج، واستنبط فكرة أكاديميّة ويتون. انحنى على كرسيه، إلى الوراء، وقال إنّه مقابل رطلين من الكرز، أستطيعُ فصل مستشفاه عنصريّاً بأيّ شكل أراه مناسباً. وتحت غطاء الظلام القاتم، رسمنا، هوميني وأنا، كلماتِ مركز بيسي سميث *للأذيّات* بأحرف يسيلُ منها الدّم على نحو مخيف، كما في أفلام الرعب، على ما كان، حتّى ذلك الوقت، مدخلَ إسعاف زجاجيّاً لا اسم له يدخلك مستشفى كينغ. ثمّ حفرنا إعلاناتٍ بسيطة بالأسود والأبيض في منتصف عمود الدعامة، مكتوباً فيها: **وحدة الإسعاف هي للبِيض فقط.**

لا أستطيع القول إنّي فعلت هذا دون خوف، كان المستشفى هو المكان الضخم الذي فصلته، وثمّة احتمال كبير أن يرى عملي شخصٌ لطيفٌ من خارج المنطقة. بسبب خوفي من المضيّ إلى الداخل، سألت هوميني أن يعطيني إحدى الجزرات الطازجة التي كنت اقتلعتها في الليلة السابقة.

«ما الأمر، دكتور؟» مزحتُ مع هوميني وأنا أمضغ الجزرة.

«أنت تعرف، سيّدي، أنّ باغز باني لم يكن نكرة، لكنّ الأرنب برير كان يقضم بثقة أكبر».

«هل سبق للثعلب أن أمسك بالأرنب برير، لأنّني متأكّد تماماً أنّ الأولاد البِيض سيقبضون علينا بعد عملنا هذا».

عدَّل هوميني شعار شركة سانشاين سالي للبناء على جانب الشاحنة، ثمَّ التقط علب الطلاء وفرشاتين من الخلف.

«سيِّدي، إذا جاء أحد البِيض إلى هنا، وشاهد هذا الهراء، فسوف يفكِّر في ما يفكِّر فيه دائماً، هؤلاء الزنوج مجانين، وهم في جنونهم مستمرُّون».

منذ بضع سنوات، قبل زمن الإنترنِت، وقبل الهيب هوب، وقبل الشعر المقروء بصوت عال، وقبل صور كارا ووكر الظلِّية، كنت أميل إلى الاتِّفاق معه. لكن كوني أسودَ لا يعني أنّي لم أكن عليه سابقاً. التجربة السَّوداء جاءت بكثير من الهراء، ولكن على الأقل كان ثمَّة خصوصيَّة لعينة. عاميَّتنا وحسُّنا السيِّئ للموضة لم يحقِّقا النجاح إلاَّ بعد سنين من هذه الحقيقة. حتَّى إنَّه كانت لدينا مجموعة تقنيَّات الجنس عالية السرِّيَّة الخاصَّة بنا. كاما سوترا الزنجيُّ، ينقلها بين الأجيال، في الملاعب والمنحدرات. والدان ثملان تركا الباب مفتوحاً قليلاً بحيث «يتعلَّم الزنوج الصغار شيئاً». لكنَّ نشر الإنترنِت للبورنوغرافيا السَّوداء أعطى أيَّ شخص، مقابل خمسة وعشرين دولاراً، دخولاً لمدَّة شهر. وكعدم احترام لحقوقنا في الملكيَّة الفكريَّة، أتاح الوصول إلى تقنيَّاتنا الجنسيَّة التي كانت يوماً ما تميِّزنا. والآن، ليست النساء البيضاوات فحسب، بل النساء من كلِّ العقائد والألوان والتوجُّهات الجنسيَّة، عليهنَّ أن يعانينَ، وشركاؤهنَّ يطؤنهنَّ بسرعة ويصرخون «مَن يملك هذا الفرج؟» بعد كلِّ ضربَتين. وعلى الرغم من أنَّهم أبداً لم يقدِّروا باسكويات، وكاثلين باتل، وباتريك يويِنغ- ولم يكتشفوا فيلم *قاتل الأغنام* بعد، أو لي مورغان، أو بودرة تالك، أو فران روس، أو جوني أوتيس- فإنَّ أنف الاتِّجاه السائد في أمريكا محشورٌ في شؤوننا، وكنتُ أعرف في نهاية المطاف أنّني ذاهب إلى السجن.

دفعني هوميني عبر الأبواب الآليَّة «سيِّدي، لن يهتمَّ أحدٌ بهم حتَّى يهتمُّوا هم بأنفسهم».

لم تعد المستشفيات تزيِّن جدرانها بألون قوس قزح في خطوط تحديد الاتّجاهات بعد الآن. في أيّام اللصاقات الطبيّة، درزات الجراحة التي لا تنحلُّ، والممرّضات اللطيفات، كانت ممرضة القبول تقدِّم لك بطاقة القبول، وأنت ستتبع الخطَّ الأحمر إلى غرفة الأشعّة، والبرتقاليّ إلى غرفة الأورام، والبنفسجيّ إلى غرفة طبِّ الأطفال. لكن الآن في مستشفى كينغ، لما يتعب مريض غرفة الإسعاف أحياناً من انتظار الاهتمام به من جانب نظام لا يبدو أنّه يهتمُّ أبداً، فسيحمل كوباً بلاستيكيّاً بإصبع مقطوع يسبح في جليد ذاب منذ زمن طويل، أو يحقن النزيف بإسفنجة مطبخ، وأحياناً بسبب الملل القاتل ينزلق إلى القسم المحميّ بالزجاج، ويسأل ممرضة الفرز إلى أين يؤدّي هذا الخطُّ بلونه الكريه؟ والممرّضة تهزُّ كتفيها بلا مبالاة. وغير قادر على تفادي الفضول، سيبدأ متابعة الخطِّ الذي استغرق منّي ومن هوميني الليل كلَّه لرسمه، ونصفَ اليوم التالي للتأكُّد من أنَّ الكلَّ سيطيعون إشارات الخطِّ المطليّ حديثاً. إنّه الخطُّ الأقرب إلى طريق الحقيقة الذي سيحصل عليه المريض أكثر من أيِّ وقت مضى.

على الرغم من ذلك، ثمّة لمسة لون أزرق، بزرقة وردة الذرة، في اللون، لون بانتون ٤٢٦ سي غريب، لون غامض. اخترته لأنّه يبدو إمّا أسود وإمّا بنّيّاً اعتماداً على الضوء وارتفاعِ أحدهم، ومزاجِه. وإذا تبعت الشريط الذي يبلغ عرضه ثلاثة إنشات خارج غرفة الانتظار، فسوف تقف عند مجموعتين من الأبواب المزدوجة، تضع سلسلة من الانعطافات الحادّة إلى اليمين واليسار عبر متاهة من الممرّات التي ينتشر فيها المرضى، ثمّ تؤدّي ثلاث حركات نزولاً على درجات قذرة حتّى تصل إلى دهليز داخليّ خفيف الإضاءة يضيئه مصباح أحمر خافت. هناك يتفرّع الخطُّ المرسوم إلى ثلاث شُعب، كلُّ خط صغير يقود إلى عتبة زوج من الأبواب المتماثلة غير الملاحَظة. مجموعة الأبواب الأولى تقود إلى

الممشى الخلفيّ، الثانية إلى المشرحة، الثالثة إلى صفّ آلات بيع الوجبات السريعة ومشروبات الصودا. لم أجد حلاً للتباين الطبقيّ والعِرقيّ في مجال الرعاية الصحيّة، لكن قيل لي إنّ المرضى الذين يسيرون إلى أسفل الطريق الأسود-البنّيّ هم الأكثر حيويّة، لأنّهم لما يُنادى بأسمائهم أخيراً، فأوّل شيء يقولونه لطبيب الاستقبال «دكتور، قبل أن تعالجني، أريد أن أعرف شيئاً واحداً، هل تهتمُّ بي حقّاً؟ أعني، هل لديك أدنى اهتمام؟».

٢١

هكذا كان الاحتفال في «يوم الحيّ». كانغ كوز وآخرُ تشكيلٍ عصابيٍّ لديه، وعصابة جادّة الكولوسيوم، وعصابات كريب في المنطقة، والهراء الذي يتبعها، كلُّهم يتحركون باتجاه أراضي أعدائهم. أبناء ساحل بلدة فينيسيا في لوس أنجلس يخيّمون أسفل شارع برودواي. أربع سيّارات وعشرون من الحمقى، الشمس تلفح ظهورهم يبحثون عن الإثارة. بالنسبة إلى معظمهم، إنّه الوقتُ الوحيد في أثناء العام الذي يغادرون فيه الحيّ خلا الأيّام التي يُبعَدون فيها إلى السجن، ولكن منذ ظهور قروض العقارات متغيّرة القِيم، معظم أصحاب الابتسامات العريضة جرى تسعيرُهم حسب حجوزاتهم بارات المشروب، والصيدليّات التي تقدّم الطبّ العامّ، ونجوم السينما المنفعلين الذين نصبوا حيطاناً بارتفاع خمسَ عشرة قدماً من خشب الكرز حول ربع آكر من بيوت القشّ، تحوّلت إلى أبنية قيمتها ٢ مليون دولار. الآن، أينما أراد أبناء ساحل بلدة فينيسيا أن «يدخلوا في العمل» والدفاع عن أماكنهم المحجوزة، عليهم أن يسافروا إلى أماكن بعيدة مثل بالمديل وموورينو فالي. وليس أمراً ممتعاً عندما يرفض عدوُّك العودة إلى القتال. ليس لعدم الشجاعة أو نفاد الذخيرة، ولكن بسبب الإرهاق، مرهقون جدّاً من القتال لمدة ثلاث ساعات على الطريق السريع، ومن إغلاق الطرقات من أجل سحب الزناد. لذلك، الآن يحتفل «بيوم الحيّ» الحيّان اللذان كانا في وقت ما يتنافسان من

خلال عرض نسختيهما من إعادة تمثيل الحرب الأهليّة، يجتمعان في مواقع معارك الماضي الكبيرة، البندقيّات والمسدّسات والألعاب الناريّة في كلّ جانب، في حين يركض المدنيُّون الأبرياء الجالسون على طاولات الرصيف جانب المقهى طلباً للنجاة. يتجمّعون بأعداد كبيرة في سيّاراتهم معدّلة المحرّك القديمة، ومثل أولاد مشاغبين يلعبون ألعاباً خشنة مثل «لمس اليدين بالطّين». أبناء ويستسايد غير الشرعيّين يطارد أحدُهم الآخر أعلى وأسفل ممشى شاطئ فينيسيا، يُظهرون الاحترامَ لجعجعات القديمين، ويلكمون بعضهم عند الأكتاف، في حين يسيؤون التصرُّف ويعيدون إحياء وقيعات قتالِ العصابات التي غيّرتِ التاريخ: معركة شارع شيناندوا، مناوشات شارع لينكولن والمذبحة سيّئة السمعة في لوس أميغوس بارك. بعد ذلك، يجتمعون مع الأصدقاء والأسرة في مركز التسلية، وهو منطقة مضمار بيسبول منزوع السلاح وسْط البلدة. يؤكّدون السلام مع حفلة الشواء والبيرة.

وخلافاً لجميع أقسام الشرطة التي تتفاخر بسياسات عدم الرحمة، مع كلّ تورُّط في معدّل الجريمة، أنا لا أريد أن أفترض ببساطة أنّ حملة الفصل العنصريّ المحلّيّة التي دامت ستّة أشهر كان لها في الهدوء النسبيّ الذي عاشته ديكنز في ذلك الربيع، لكن في تلك السنة كان «يوم الحيّ» مختلفاً. كنّا، أنا وماربيسا وهوميني وستيفي، نتكسّب في تجارتنا من الزوّار الجالسين على مقاعد الفريق في ملعب البيسبول، وذخيرتنا من شرائح الفواكه تنفدُ على نحو أسرع من المعتاد. كان الناس يدفعون زيادة في اليوم الثامن من الشهر، وكانت عادةُ كلّ عصابة، كلّ حيّ، أن تستخدمَ الحديقة في اليوم الذي يمثّل هذا الحيّ برأيها. على سبيل المثال، عصابة «٦٣ ستريت سنايبر سيتي كيللرز» تحجز الحديقة في يوم الثالث من يونيو لأنّ يونيو هو الشهر السادس من العام، واسمها فيه ستّة وفيه ثلاثة. عصابة «لوس أوسوس نيغروس دوسي يا أوكو» لا تصرف

أموالها في الثامن من ديسمبر، كما نتوقّع ربّما، ولكن في الثاني عشر من أغسطس، لأنّ كاليفورنيا، خلافاً للاعتقاد الشائع، باردة جدّاً في الشتاء. كنتُ في مركز التسلية في يوم ١٥ مارس المعتدل ذلك، لأنّه بالنسبة لعصابة جادّة الكولسيوم، وعصابة بروت كريب، «يوم الحيّ» هو يوم العيد الرومانيّ الشهير، في الخامس عشر من مارس. ومتى سيكون إذاً غير ذلك الوقت؟

في نهاية الثمانينيّات، كانت تستخدم كلمة «الحيّ» للإشارة إلى المناطق الغالية في كالاباساس هيلز، شاكر هايز، والجانب الشرقيّ لحديقة حيوانات الكلاب في جامعة وِلايتك، ولما كان يشير أبناء لوس أنجلس إلى «يوم الحيّ» في كلامهم يقولون جملاً مثل: «لكنتُ شاهدت ابن العاهرة ذاك لو كنت مكانك. هو أو هي من الحيّ» أو «أعرف أنّني لم أزر أبويلا سيلفيا على فراش موتها، لكن هل كنت تتوقّع منّي أن أفعل؟ إنّها تعيش في الحيّ!» إنّها إشارة إلى مكان واحد، مكان واحد فقط، ديكنز. وهناك في مركز تسالي ملعب البيسبول، تجمّعوا تحت راية «يوم الحيّ»، واسترخوا في غرفة تبديل الفريق. كانوا عصابات وأعضاء أُسرٍ من كلّ الألوان والمشارب. ديكنز، التي كانت حَيّاً موحّداً في يوم ما، ومنذ اندلاع أعمال الشغب، تجزّأت إلى عدد لا يُحصى من الأحياء الأصغر، مثل يوغوسلافيا في الجانب المقابل. وفي حين كان كانغ كوز وباناتشي، نظيرا كيتو وسلوبودان ميلوزيفيتش السابقين في المدينة، يحتفلان بإعادة التوحيد، بالتبختر على الخشبة المؤقّتة، بنظّارتيهما ماركة أوكلي، وشعريهما المجعّدين كقَصّة دوريس داي، ويرتدّان على ظهريهما العريضين وهما يخبطان على نحو شرّير.

لم أكن شاهدت باناتشي منذ سنين، ولم أكن أعرف إن كان على علم بعلاقتي الجديدة مع ماربيسا، ولم أطلب الإذن قطّ. ولكنّ رؤيته يقدّم حيل المسرح الموسيقيّة الشعبيّة، بسلاحه (البومباكشن) قياس ١٢،

نظير غيتار كانغ الصغير، الذي يلوّحه في الهواء مثل مهرّج يلوّح بعصاه، يرميه عالياً، يلتقطه، يلقّمه، ويفجّر عجلة سيّارة تطير في الهواء كأنّها كرة صيد، كلُّ ذلك بيد واحدة، جعلتني أفكّر أنّه ربّما كان ينبغي لي أن أسأله. صرخ كانغ كوز عبر المايكروفون «أنا أعرف أنّ واحداً منكم أيّها الزنوج لا بدّ جلب معه طعاماً صينيّاً».

وقف رجلان، عند رؤيتهما، سيعرّفهما رجالُ الشرطة، وأيُّ شخص آخر من حكماء الشوارع حاصلٍ على درجة ٥٠ في درجة الذكاء بأنّهما «ذكران إسبانيّان مثيران للشكّ»، عند أوّل منصّة تماماً خارج مركز الاحتفالات، وأيديهما مضمومة إلى صدريهما. وعلى الرغم من أنّهما يبدوان، بشكلٍ أو بآخر، من الطريقة التي ينظران بها بازدراء إلى كلّ واحد منّا، مثلَ أيّ شخص آخر في الحديقة، فقد كان من الصعب معرفة ما إذا كانا من ديكنز. مثل نازيّين في تجمُّع كوكلس كلان، كانا مرتاحين أيديولوجيّاً، ولكن ليس من حيث الثقافة الجمعيّة. انتشر كلام أنّهما من حدائق بولينزيان. ومع ذلك، هذه الرائحة التي لا تقاوَم للمشويّات على حطب الجوز، وغيمة الرطوبة المنتفخة فوقهما، سحبت الثنائيّ أبعد وأبعد إلى داخل الحشود. لما وصل الرجلان إلى دائرة ضارب الكُرة في ملعب البيسبول سأل ستيفي الذي كان يقطع الأناناس بمِدية ضخمة «هل تعرفونهما أيّها الزنوج؟»، ولم يزح عينيه عن الرجلين اللذين كانا يقطعان طريقهما باتجاه درجات مقاعد الفريق. كلاهما كان يرتدي زيّاً بلون كاكي، مكوّناً من طماق فضفاض مرخيٍّ ينتهي بفردَتي حذاء رياضيٍّ من ماركة نايكي كورتيز، جديد إلى درجة لو أنّ أحد الرجلين خلعهما وعلّقهما في أذنيه مثل محارة الأذن، فسوف يسمع هدير محيط المَصانع الاستغلاليّة التي تنتج مثل هذه الأحذية. تبادل ستيفي نظرات السجن مع الشابّ الذي يرتدي قبّعة طويلة، ونقشُ *السّاحِق* مرسوم على طول خطّ ذقنه. لا يرتدي الناس في الحيّ قمصاناً خاصّة بالأندية الرياضيّة لأنّهم

يشجّعون فريقاً بعينه. اللون والشعار والقميص ذو الرقم على قفاه، كلُّها تعني شيئاً ما يرتبط بالعصابات.

لما تكون للتوّ خرجت من السجن فكلُّ شيء هو عنصريّ. ليس الأمر كأن ليس ثمّة مكسيكيّون في عصابة كريب السوداء ومجموعات بلادز، أو سود في معظم العصابات اللاتينيّة. في النهاية، في الشارع، هي مسألة تجاور وقرابة. تحالفك هو مع رفاقك ومع حيّك، بغضّ النظر عن العِرق. شيء ما يطرأ على سياسات الهويّة داخل السجن. ربّما هي مثل الأفلام عندما يكون أبيض ضدّ أسود ضدّ مكسيكيّ ضدّ أبيض، لا حالات شرط في الانتماء، ولا توجد مفردة (مع) ولا مفردة (لكن)، وقد سمعت حقّاً حكايات عن سفّاحين قساة لا يميّزون الألوان دخلوا السجن ورقصوا مع الزنوج أو الإسبانيّين الذين أعجبوا بهم. *تباً لِلعِرق، ولطاقة تشينغا السوداء، ولأمّ هذا الزنجيّ الأسود التي أطعمتني عندما كنت جائعاً، ولكلّ هذا القرف* .

الأحمق ذو القميص ناصع البياض، ونقش *الدمية* المرسوم على حنجرته، على نحو عموديّ، أومأ إليّ أوّلاً.

"¿Qué te pasa, pelón?"(1)

نحن الرجال الصلعان لا نتشارك كلّ العداء العنصريّ. قبلنا بحقيقته بغضّ النظر عن العِرق، وجميع الأولاد من حديثي الولادة الذين يبدون مكسيكيّين، وكلُّ الرجال الصلعان الذين يبدون سوداً تقريباً. عرضتُ عليه سحبة من سيجارة الحشيش خاصّتي. تحوّلت أذناه إلى لون أحمر عقيقيّ، ولمعت عيناه مثل ورنيش يابانيّ.

«اللعنة، ما هذا أيّها الكلب؟» سعلَ رجلُ *الدمية*.

(١) بالاسبانيّة بالأصل: ما الأمر، أيّها الأصلع؟ (م)

«أسمِّيها نفق كاربال، هيَّا، جرِّب نفساً».

حاول رجل *الدمية* أن يكوِّر يده، لكنَّه فشل. نظر رجل السَّاحِق إليه كأنَّه مجنون، ثمَّ أخذ سيجارة الحشيش من يده بغضب. لم أكن في حاجة إلى برنامج ليقول لي إنَّه على الرغم من المظاهر، فإنَّ رجل *الدمية* ورجل *السَّاحِق* لم يكونا في الجانب نفسه. بعد نشقة طويلة لوى الرجل *السَّاحِق* أصابعه كنوع من محاولة تقليد إشارات العصابات البارعة، لكنَّه لم ينجح في ذلك على الرغم من جهده. أزال مسدَّسه المطليّ بالنيكل من حزامه، وكاد يستطيع القبضَ عليه، وعلى نحو أصعب سحب الزناد. ضحك ستيفي، وانتشرت شرائح الأناناس الباردة في جميع الأنحاء. أولاد المنطقة بدأوا يأكلون، والتدفُّق المفاجئ لحلاوة الأناناس مع مذاق النعنع الخفيف، في النهاية جعلهم يجفلون ويقهقهون مثل أطفال صغار. ثمَّ مشى باقي أعضاء العصابات اللاتينيَّة، بنظراتهم القاسية، مشوا عميقاً باتجاه قاعدة الملعب، وبهدوء صاروا يأكلون الأناناس، ويتشاركون آخر نشقات سيجارة الماريهوانا.

«هل تعرفون أنَّ الحرفَين المرسومَين على رقبة جوني يونيتاس لايعنيان «الطفل اللطيف»؟».

«أعرف أنَّ هذا ما يعنيانه».

«يعنيان «الزنجيّ القاتل». مع ذلك، كلاهما زنجيَّان من عصابتين مختلفتين. أفراد عصابتي باريو ح.ب وفاريو ح.ب ليسوا مخيفين مثلهم إلى هذه الدرجة».

تبادلنا الابتسام، أنا وهوميني. ربَّما نجحت الإشارات التي كنَّا نشرناها في حدائق بولينيزيان في الطريق إلى المنزل من عملنا في المستشفى.كنَّا صنعنا لافتتَين، علقناهما على عمودَي هاتف في الجانب المقابل لشارع بيكر، حيث سكَّة حديد القطارات الصدئة تقسم الحيَّ إلى

فاريو وباريو. وضعناهما على نحو يجعل الناس على كلِّ جانبٍ يريدون معرفة ما تقوله اللافتة على الجانب الآخر، وكان يتوجَّب عليهم قطع السكَّة الحديديَّة لقراءة الأخرى، وبذلك وجب عليهم أن يغامروا داخل أرض العدوّ، فقط ليكتشفوا أنَّ اللافتة على الجانب الشماليّ للشارع كانت مطابقة تماماً لتلك على الجانب الجنوبيّ. كلا اللافتتين مكتوب عليهما: **الجانب الصحيح من السكَّة الحديديَّة.**

سحبتني ماربيسا خارج منطقة مقاعد الفريق باتجاه قاعدة الملعب. كانغ كوز ووفد من رجال العصابات المعمَّرين والتائقين، كانوا يجلسون عند مربّع ضارب الكرة، ينكشون في ضلوع حبّات الأناناس. باناتشي كان يمضغ شريحة الأناناس حتّى قشرتها، وهو يروي قصصاً عن حياة الموسيقيّين في الطرقات، عندما قاطعته ماربيسا.

«أردتُك فقط أن تعرفَ أنّني أضاجع بونبون».

غافلاً عن الأشواك، قضى باناتشي على ما تبقّى من الأناناس، الجلد وكلّ شيء، كلّها في فمه، يكرع ويمصُّ حتّى آخر قطرة من العصير. لما أصبحت الثمرة جافّة كعظمة في صحراء تمشّى باتجاهي، ربّت على صدري بأظافره النسائيّة، وقال: «تبّاً، لو كنتُ أستطيع الحصول على مثل هذا الأناناس كلَّ صباح لكنتُ سأضاجع الزنجيّ أيضاً».

رنَّ صوت طلقات ناريّة وسط الملعب. الرجل *السّاحِق*، على نحو واضح لايزال يشعر بآثار متلازمة النفق الرسغيّ، كان حافي القدمين، مستلقياً على ظهره، يمسك بقدميه المرتفعتين باتجاه الغيوم. بدا الأمر مسلّياً، لذلك ذهب معظم الرجال وبضعُ نساء للانضمام إليه، يتنشّقون حشيشهم، وأسلحتهم نحو الأعلى، ويقفزون عبر المضمار الوسخ، قدم في الداخل، وقدم في الخارج، يأملون النجاح في تنفيذ بضع دوراتٍ قبل قدومِ الشرطة.

٢٢

السُّود يتألَّقون دائماً، ويتألَّقون هنا هي التعبير المحكيُّ في هوليوود عن امتلاكك حضوراً فعّالاً أمام الكاميرا، وصورتك متألِّقة جداً. يؤكّد هوميني أنَّ هذا هو السبب في أنَّهم نادراً ما يصوِّرون الآن أفلاماً تتحدَّث عن علاقات حميمة بين البِيض والسُّود؛ صورة الممثِّل العظيم ذبلت. توني كورتيس، نيك نولت. صوَّر إيثان هوك فيلماً مع بعض الأفريقيِّين-الأمريكيِّين وأصبحت مشاهدةُ مَن هو الرجل غير المرئيّ حقّاً اختباراً للشاشة الفضيَّة. هل سبق وصُوِّر فيلم يُظهر علاقة امرأة سوداء مع أيِّ امرأة أخرى؟ الأمثلة الوحيدة التي يمكن أن تجذبك سينمائياً كانت جين وايلدر مع سبانكي مكفارلاند. وغير ذلك من الأمثلة-تومي لي جونز، مارك ويلبرغ، تيم روبينز-هي أفلامٌ معلَّقة على شعر عنق حصان هارِب.

عند مشاهدة هوميني في مهرجان لوس أنجلس للسينما الممنوعة، وأفلام الصور المتحرِّكة العنصريَّة الوقحة، على شاشة مسرح نوارت الكبيرة، وهو يتبادل النكات مع سبانكي، لم يكن صعباً معرفة لِمَ كانت كلُّ الصفقات، وقتها، تبشِّر بأنَّه سيصبح الولد الزنجيّ الكبير. عيناه تلمعان، وكان جذّاباً، كما كان خدّاه ملائكيَّين. شعره كان مجدَّلاً وجافاً، بدا كأنَّه كان مكوياً بالحرارة على نحو عفويّ. لا يمكنك أن تبعد نظرك عنه، وهو يرتدي ثيابَ عمل رثَّة قليلاً، وحذاءً رياضيّاً أسودَ برقبة كبيرة قياس عشرة. كان الرجل الوحيد الذي لم يتعدَّ مرحلة البلوغ. لا

أحد يمكن أن يجسّد الشخصيّة مثل هوميني. لقد أدهشني كيف صمد أمام انقضاض هذه الحوارات العاطفيّة القويّة غير المراقبة، وأمام النكات التي تبدأ بِ«لما كان أبي في السجن». مُهلّلاً لكلِّ إهانةٍ بترحيب قلبيّ خارج من حنجرته «يا للفرحة!». كان من الصعب معرفة ما إذا كان يتظاهر بالجبن أو كان هادئاً فعلاً أمام قذائف الإهانة، لأنّه كان متيقّناً من أنَّ تلك العينين الجاحظتين، وتلك النظرة المذهولة بفم مفتوح وفكٌ مُرتخٍ، هي التي ستبقى حتّى اليوم ختم الممثل الكوميديّ الأسود. لكن في زمننا المعاصر، ينبغي أن يؤدّي الممثل الكوميديُّ هذه الحركة مرّة واحدة أو مرّتين فقط في الفيلم. البائس هوميني وجب عليه أن يصوّر لقطة ردّة فعل الزنجيّ ثلاث مرّات في كلِّ شريط، ودائماً في لقطة قريبة جدّاً.

لما أضيئتِ الأنوار أعلن المضيف أنَّ آخر حيٍّ من عصابة *الأوغاد الصغار* موجود معنا، ثمّ دعا هوميني للصعود إلى خشبة المسرح. وبعد وقوف وتصفيق ترحيبيّ من الجمهور، مسح هوميني عينيه وتلقّى بعض الأسئلة، وحينما تحدّث عن ألفالفا والعصابة كان هوميني شفّافاً إلى درجة عالية، إذ أوضح كيف كان البرنامج الزمنيُّ لإطلاق النار، وكيف استفاد من الدروس الخصوصيّة، ومَن كان ينسجم مع مَن، ومَن كان الأكثر تسلية خارج التصوير، ومَن كان الأحقر، وأعرب عن أسفه أن لا أحد لاحظ ثورة باكويت العاطفيّة. كما تحدّث بحماس مفرط حول مدى بلاغة وتأثير خطاب معلّمه في استوديوهات شركة إم. جي. إم، ودعوتُ ألاّ يسأل أحد عن دارلا حتّى لا يتوجّب علينا أن نصغي إلى حكاية استراحة الدقائق الخمس التي وضعوا في أثنائها راعيات الأبقار تحت مقاعد الملعب في فيلم «روميو كرة القدم».

«لدينا وقت لسؤال واحد فقط».

من الخلف، مباشرة على طول الممرّ الذي أجلس فيه، مجموعة من

التلميذات اللاتي تبرّجن بالأسود[1]، وقفنَ في انسجام تامّ، يرتدينَ سراويل ماركة فيكتوريا، بأحرف لاتينيّة NIΓ مخيطة على صدورهنَّ، وشعورهنَّ تَصادفَ أنّها ضفائر ثخينة مثبّتة بمشابك خشبيّة، فتيات جمعيّة «نو أيوتا غاما» بَدَوْنَ مثل دمىً تشاهدها في مزادات التحف القديمة. وبكلّ انسجام حاولنَ أن يسألنَ سؤالاً.

«نريد أن نعرف...».

لكنّهنّ أُجبرنَ على التراجع بسبب جوقة من أصوات الاستهجان، ووابل من الأكواب الورقيّة، وعبوات الفُشار. هدّأ هوميني الجمهور، وعاد الصمت إلى المكان، وأمسى هوميني مركز الاهتمام. لاحظتُ أنَّ المرأة الأقرب إليّ كانت أفريقيّة- أمريكيّة، فصغر أذنيها كشف إثنيّتها. كان مشهداً نادراً ما بعد ظهر يوم الأحد، أنثى زنجيّة حقيقيّة سوداء كسواد موسيقا فانك السبعينيّات، سوداء كعلامة +C في الكيمياء العضويّة، سوداء مثلي.

«ما المشكلة؟»، سأل هوميني الحشد.

وقف شابٌ أبيض ملتحٍ، يعتمر قبّعة من نوع «فيدورا»، أماميَ بصفّين، وأشار بإصبعه إلى نادي الفتيات «إنّهنّ زيّنّ وجوههنّ بأقنعة سوداء تهكميّة»، قال بطريقة تحمل تحدّياً «وهذا ليس لطيفاً».

وضع هوميني يده فوق عينيه، وصار يحدّق بالجمهور كأنّه أعمى، وسأل «قناع أسود؟ ماذا يعني هذا؟».

في البداية، ضحك الجمهور، لكن لما لم تظهر ابتسامة على وجه

---

(١) صبغنَ وجوههنّ بالأسود الكامل، وهذا الفعل فيه دلالة عنصريّة، يعود تاريخيّاً إلى القرن التاسع عشر، حيث كان الممثّلون البِيض يدهنون وجوههم وأجسامهم باللون الأسود لتمثيل أدوار السّود. (م)

هوميني حدّق الشابُ إليه بنظرة واسعة العينين بلهاء من الحيرة، لم نشاهدها منذ أيّام المهرّجين العظماء أمثال ستيبن فيتكيت، وجورج دبليو بوش، الرئيسِ الزنجيّ الأوّل.

لفت الشابُ الأبيضُ انتباهَ هوميني بكلّ احترام إلى بعض الأفلام التي كنّا للتوّ شاهدناها. «المندفع» حين سكب سبانكي الحبر على وجهه وادّعى أنّه هوميني، وبذلك استطاع صديقه قاتم اللون اجتيازَ اختبار الإملاء والانضمام إلى العصابة في الرحلة المدرسيّة إلى المتنزّه. «الوغد الأسود» عندما دهن ألفالفا نفسه بالسخام بحيث تمكّن من تقديم تجربة الأداء ليكون ضاربَ آلة البانجو في كلّ فرق جاز الزنوج. «شديد السّواد» حين حوّل فروغي نفسه إلى شبح بتجرُّده من ملابسه الداخليّة وتغطية نفسه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه بسخام النار وهو يصيح «بوو-غا! بوو-غا!». أومأ هوميني برأسه، ثمّ شدّ حمّالتَي بنطاله بإبهاميه، وتحرّك إلى الأمام، ثمّ باتّجاه الضوء، ودخّن من سيجارة غير مرئيّة، وصار يقلبها من جانب فمه إلى الجانب الآخر «حسناً، نحن لم نكن نسمّيه قناعاً أسودَ، كنّا نسمّيه تمثيلاً».

تحكّم بالجمهور من جديد، فاعتقدوا أنّه يضحكهم، لكنّه كان في منتهى الجدّيّة. بالنسبة لهوميني، أن تتبرّج بالسّواد ليس عنصريّة، إنّه مجرّد حسّ سليم، فالجلد الأسود يبدو أفضل. يبدو أكثر صحّة. يبدو فعّالاً. هذا هو السبب في أنّ مَن يبنون أجسامهم، والمتسابقين اللاتينيّين في مسابقة الرقص يتبرّجون بالأسود. لماذا أهل برلين، وأهل نيويورك، ورجال الأعمال، والنازيّون، ورجال الشرطة، والغوّاصون، والنمور الورديّة، والأشرار، وممثّلو مسرح الكابوكي، كلُّهم يرتدون الأسود؟ فإذا كان التقليد أعلى أشكال التملّق فعندها إذاً غناء البِيض قصائد السُّودَ هو مديح بحدّ ذاته، اعتراف على مضض بأنّه إلاّ إذا تَصادف أنّك حقّاً أسود، فأن تكون «أسودَ» فأنت أقرب شخص يمكن أن يحصلَ على

حريّة حقيقيّة. فقط اسأل آل جولسون أو العدد الوافر من الكوميديّين الذين يكسبون قوتهم من التمثيل «الأسود»، فقط اسأل فتيات نادي المدرسة اللاتي يجلسنَ في الخلف في مقاعدهنَّ تاركات العضو السّوداءَ الوحيدة تدافع عن نفسها.

«سيّد هوميني، هل هذا صحيح؟ هل حقّاً يملك فوي شيشاير حقوقَ أفلام *الأوغاد الصغار* العنصريّة؟».

اللعنة، لا تدع هذا الزنجيّ يبدأ الهراء المتعلّق بفوي شيشاير.

نظرتُ إلى المرأة المتبرّجة بالسّواد، إلى وجهها الأسود، متسائلاً فيما إذا كانت هي تمثّل أيضاً، فيما إذا كانت تشعر بالحرّيّة، فيما إذا كانت تدرك أنَّ لون جسمها الأسود كان في الحقيقة أشدَّ سواداً من قناع السّواد الذي ارتدته. أشار هوميني إليّ بأن أقفَ للجمهور، ولما قدّمني كـ«سيّده»، استدارت الرؤوس لتشاهدَ كيف يبدو حقّاً مالكُ عبد حيٍّ. تملّكتني رغبة في أن أخبرهم أنَّ هوميني عنى أن يقول «مدير» وليس «سيّد»، لكنّني أدركت أنَّ الكلمتين في هوليوود تعنيان الشيء نفسه. «أعتقد أنَّ هذا صحيح. كما أعتقد أنَّ سيّدي سيسعى إلى إرجاعهم إليَّ، لذلك في يوم ما سيرى العالم أكثر أعمالي ذلاً وضعفاً». لحسن الحظ بدأت أضواء الدار تخفت، وبدأت معها الرسوم المتحركّة العنصريّة.

أحبُّ بيتي بوب. لديها جسدٌ جميلٌ، روحها حرّة، تحبُّ الجاز، وعلى نحو واضح الأفيون أيضاً، ففي الفيلم القصير «للأعلى، للأسفل» المثير للهلوسة، يبيع القمرُ الأرضَ، موطنَ الاكتئاب، إلى الكواكب الأخرى بالمزاد. زحل، الكوكب القديم، يهوديٌّ بنظارتين، تكتمل دورته بأسنان سيئة ولهجة ألمانيّة ثقيلة يربح، ويفرك يديه بجشع «حصلت عليها، حصلت عليها، حصلت على الأرض بأكملها، يا إلهي» يبتهج، قبل أن يزيل الجاذبيّة عن مركز الأرض. إنّه فيلم من إنتاج ١٩٣٢،

وشخصيّة اليهوديّ المجازيّة التي اخترعها ماكس فليشر تجعل وضعَ الكرة الأرضيّة المليئة بالفوضى أصلاً، أكثرَ سوءاً. ليس لأنّ بيتي تهتمّ، ففي عالم تطير فيه القطط والبقرات، والمطر يسقط إلى الأعلى، الأولويّة رقم واحد هي أن تمنع تنّورتك من الارتفاع إلى الأعلى في أثناء سقوطك من السماء، كي لا تكشفَ عن ثيابك الداخليّة الضيّقة. ومن ينبغي أن يقول إنّ الآنسة بوب ليست عضواً في القبيلة؟ في الدقائق الستين المقبلة، عددٌ قليلٌ من الأمريكيّين الأصليّين، الثملين، بريش متدلٍّ، سيفشلون في اللحاق بشركة وورنر بروس. الأرنب، قليل الاستيعاب، فأر مكسيكيٌ يحاول خداع الهرّة البيضاء، ويستطيع التسلّل عبر الحدود ويسرق الإسبانيّ. وعلى ما يبدو، هناك مجموعة من القطط، والغربان، والضفادع الكبيرة، والخادمات، والمراهنين، وجامعي القطن، وآكلي لحوم البشر الأفريقيّين-الأمريكيّين يؤدّون بأصوات جشّاء دور المجانين في فيلم «نهر سواني» على أنغام موسيقا ديك إيلينغتون في مقطوعته «الليالي الأدغال في هارلم». في بعض الأحيان يحوّل انفجار طلقة بندقيّة أو تفجير ديناميت شخصيّةً بيضاءَ بالاسم مثل بوركي بيغ إلى شاعر أغانٍ ببودرة سوداء. الأمر الذي يهبه منزلةَ الزنجيّ الفخريّ، ويسمح له بغناء الألحان المرحة مثل «سباقات كامبتاون» مسجّلاً اسمه في لائحة شارة النهاية مع إفلاتٍ من العقوبة. وينتهي البرنامج مع باباي وباغز باني بالتتالي، ودون أيّ مساعدة، ينتصران في الحرب العالميّة الثانية ضدّ جنود يابانيّين، ذاهلين، بأربع أعين، وأسنان أماميّة كبيرة، يتحدّثون كلاماً غير مفهوم، مع مخلوقات عملاقة، وراقصة غيشا يابانيّة محتالة. أخيراً، وبعد أن سحق سوبرمان، مدعوماً بالعصابات وهتاف الجمهور، البحريّةَ الإمبراطوريّةَ حتّى الخضوع التّام، عادت الأضواء. وبعد ساعتين من الجلوس في الظلام نضحك على العنصريّة التامّة، ظهر

الذنب مع السطوع. كلُّ شخص يمكنه رؤية وجهك، فتشعر حينها كأنَّ أمَّك ألقت القبضَ عليك وأنت تستمني.

أمامي بثلاثة صفوف كان ثلاثة شبّان، أسود وأبيض وآسيويٌّ، يستعدُّون للمغادرة، يلتقطون ستراتهم، ويحاولون التخلُّص من الكراهية. الأسود، المحرج لتعرُّضه للإهانة والسخرية في فيلم كرتون كلاسيكيٍّ مثل «الأقزام السُّود»، لا يزال مختبئاً وراء وشاح سوبرمان يهاجم زميله الآسيويَّ على نحو هزليٍّ. يصرخ «اقبض على باتريك! إنَّه العدو!»، في حين يرفع باتريك يديه دفاعاً عن النفس محتجّاً «لست العدوَّ، أنا صينيٌّ»، لا تزال في أذنيه شتائم باغز باني اليابانيِّ، القرد، ذي العينين الضيِّقتين. الولد الأبيض، المسالم وغير المزعوج من المشادَّة الكلاميَّة، يضحك ويقلب سيجارةً في فمه. افعل ما شئت إذا امتلكت الوسائل. إنَّه لجنونٌ كيف يمكن لمساء سريع لأفلام *الأوغاد الصغار* القصيرة والرسوم المتحركَة بتقنيَّة (التكني كلور) التي أصبح عمرها قرناً من الزمن تقريباً، أن يزيدَ الغضبَ من الكره العِرقيِّ والعار. لم أستطع تخيُّل شيءٍ أكثر عنصريَّة من «التسلية» التي شاهدتها للتوِّ، وهذا السبب في أنَّني أعرف أنَّ الإشاعات حول ملكيَّة فوي شيشاير لحصَّة من قائمة أفلام «عصابتنا» هي أمرٌ زائفٌ. ما الذي يمكن أن يكون أكثر عنصريَّة ممَّا شاهدناه للتوِّ؟

وجدتُ هوميني في ردهة المسرح يوقِّع على المخلَّفات التذكاريَّة، ومعظمها لا علاقة له بفيلم *الأوغاد الصغار*، لكنَّ ملصقات الأفلام القديمة، ومقتنيات العمِّ ريموس، وتذكارات جاكي روبنسون، وأيَّ شيءٍ يرجع إلى ما قبل ١٩٦٠ يمكن أن يفي بالغرض. أحياناً، أنسى كم هو ظريفٌ هوميني. في الأيَّام الخوالي، لتجنُّب الأفخاخ التي يضعها الرجل الأبيض، كان يجب على الناس السُّود أن ينظروا أمامهم، عند أقدامهم، على نحو متواصل. كان يجب عليك أن تكون جاهزاً بمزحة مرتجلة أو بفكرة متواضعة من شأنها أن تنزع سلاحاً أو تقضيَ على أيِّ

استفزاز أبيض. ربّما إذا ذكّرته روح الدعابة عندك بأنَّ ثمّة مظهراً للإنسانيّة تحت الرأس الشائك، ربّما يجنّبك هذا الضربَ، وتحصل على الأجر المستحقّ لك. تبّاً، يوم واحد من كونك أسود في الأربعينيّات كان يساوي السنوات الثلاثمئة من التدريب على المشاهد الكوميديّة المرتجلة مع الناس الذين يعيشون في القاع والمدن الثانية. كلُّ ما يتطلّبه الأمر خمس عشرة دقيقةَ مشاهدةٍ للتلفزيون في سهرة السبت لتعرفَ أنّه لم يعد ثمّة رجال سود مضحكون، وأنَّ العنصريّة ليست كما كانت عليه.

وقف هوميني لالتقاط مجموعة من الصور مع فتيات «نو إيوتا غاما» المتبرّجات بالأسود. «هل الستائر تناسب القيلولة؟» قال هوميني بأسلوب يفتقر إلى الحرارة، قبل أن يرسمَ ابتسامةً عريضةً. وحدها السّوداء الحقيقيّة في المجموعة فهمت النكتة، وحاولتْ، كما ينبغي لها، ألاّ تتوقّفَ عن الابتسام. مشيتُ إلى جانبها، وأجابت عن أسئلتي حتّى قبل أن أسألها.

«أنا أحضّر لدراسة الطبّ. ولماذا؟ لأنَّ أولاء العاهرات حصلنَ على ما يردنَ. هذا هو السبب. شبكة إنترنت الفتيات المعمّرات موجودة الآن أيضاً، وهذا ليس مزاحاً. إذا لم تكن تستطيع القضاء عليهم فانضمَّ إليهم، هذا ما كانت تقوله ماما، لأنَّ العنصريّة في كلِّ مكان».

«لا يمكن أن تكونَ في كلِّ مكان»، أصررتُ.

فكّرتْ طبيبةُ المستقبل الدكتورة توبسي للحظة، وهي تفتل ضفيرة شَعر هاربة حول إصبعها: «هل تعرف المكان الوحيد الذي لا يوجد فيه عنصريّة؟»، ثمّ نظرتْ حولها لتتأكّدَ من أنَّ فتيات النادي لسنَ على مرمى السمع، وهمست «تذكر تلك الصور للرئيس الأسود وأسرته، وهم يمشون عبر البيت الأبيض متجاوري الأكتف، داخل تلك الإطارات اللعينة. في ذلك المثال، فقط في ذلك المثال ليس هناك عنصريّة».

ولكن كان ثمّة ما يزيد عن الكفاية من العنصريّة في ردهة المسرح تنتشر حولنا. قطٌ أبيضُ أحدبُ الكتفين فتلَ طرف قبّعة بيسبول هوميني فوق أذنه اليمنى، ثمّ لفّ ذراعيه حوله، وقبّله على خدّه، وتبادل معه جِلده. فعل الاثنان كلّ شيء ما عدا أن يدعوا بعضهما بعضاً بتامبو وبونز.

«أردتُ فقط أن أقول، كلُّ مغنّي الرّاب أولاء الذين يغنُّون كثيراً عن «آخر الزنوج الحقيقيّين»، لم يغيّروا منك شعرة، لأنّك أنت، رَجُلي، لستَ آخرَ الأوغاد الصغار، أنت آخرُ زنجيٍّ حقيقيٍّ، وأعني ذلك تماماً».

«ماذا، شكراً لك أيُّها الرجل الأبيض».

«وهل تعرف لِمَ لمْ يعد هناك أيُّ زنوج؟».

«لا يا سيّدي، لا أعرف».

«لأنَّ الناس البِيض هم الزنوج الجدد، لكنَّ اعتزازنا بأنفسنا يمنعنا من إدراك ذلك».

«هل قلتَ الزنوج الجدد؟».

«هذا صحيح. كلانا، أنا وأنت، زنوج تماماً، محرومان من حقوقنا على نحو متساوٍ، وجاهزان للقتال ضدَّ النظام الأمّ».

«ما عدا أنّك ستقضي نصف فترة حكمك في السجن».

توبسي كانت تنتظرنا في موقف سيّارات مسرح نوارت، لاتزال تتبرّج بقناع الوجه الأسود، لكنّها الآن ترتدي زوجاً من النظارات الشمسيّة الخاصّة، وبحماس تفتّش في حقيبة كتبها. حاولتُ أن أستعجلَ هوميني للذهاب إلى الشاحنة قبل أن يتمكّن من رؤيتها، لكنّها قطعت حديثنا.

«سيّد جينكينز، أريد أن أريك شيئاً». أخرجتْ مجلّداً بثلاث حلقات، وفتحته فوق غطاء الشاحنة. «هي ذي نسخٌ كنت أعددتها لدفتر حسابات

كلّ مشاهد أفلام *عصابتنا* و*الأوغاد الصغار* في استوديوهات هال روش واستوديوهات إم. جي. إم».

«تبّاً».

وقبل أن يتمكّن هوميني من النظر إليها، انتزعتُ دفتر الملاحظات، ومسحتُ بنظري الجداولَ العموديّة. كلُّ شيءٍ كان مدوّناً هناك: العناوين، تواريخ التصوير الفوتوغرافيّ، أبطال الأعمال، طواقم العمل، أيّام التصوير، تكاليف الإنتاج الإجماليّة، الأرباح والخسائر لجميع أفلام الـ ٢٢٧. انتظر لحظة، ٢٢٧؟

«كنت أعتقد أنّها ٢٢١ فيلماً؟».

ابتسمت توبسي وفتحت الصفحة ما قبل الأخيرة، ستّة جداول متتابعة لأفلام صُوِّرت في نهاية ١٩٤٤ طُمِست تماماً، ما يعني أنّ ساعتين من المرح غير مكتملتين، ولم أشاهدهما قطُّ، ربّما ما تزالا موجودتين في مكان ما. شعرتُ كأنّني أنظر إلى شيء من تقرير للـ«إف. بي. آي» عالي السرّية حول اغتيال كينيدي. نزعتُ الورقة من المجلّد، ورفعتُها باتّجاه الشمس محاولاً الرؤية من خلال سوادِ التنقيح، والزمن القديم.

«مَن تظنّين فعل هذا؟» سألتُها.

أخرجت توبسي نسخة أخرى من حقيبة كتبها. كان فيها قائمة بكل شُخص تفقّد دفتر الحسابات منذ العام ١٩٦٣. كانت أربعة أسماء مدوّنة: ماسون ريز، ليونارد مارتن، فوي شيشاير، وبترفلاي ديفيز، الاسم الذي افترضتُ أنّه اسم توبسي الحقيقيُّ. وقبل أن أرفعَ عيني عن الورقة، كان هوميني وبترفلاي جالسين في الشاحنة، ذراعه حولها، ويكبس على زرّ زمّور السيّارة.

«ذلك الزنجيُّ يملك أفلامي! هيّا نخرج من هنا!».

استغرق منّا الطريق بالسيّارة من غرب لوس أنجلس إلى مسكن فوي

في تلال هوليوود، أكثر ممّا ينبغي. لما كان والدي يرغمني على مرافقته للذهاب إلى مسامراته الفكريّة السّوداء مع فوي، لم يكن يعرف اختصارات الطريق من الشمال إلى الجنوب، من حوض النهر إلى المرتفعات. في تلك الفترة، كانت مرتفعات كريسينت وروسمور هلاليّة الشكل، وشوارعَ جانبيّة، وجولة لطيفة، والآن هي طريق عامّ ضيّق بمسارين. يا رجل، كنتُ أسبح في حوض سباحة فوي في حين كان الاثنان يتكلّمان في السياسة والعِرق. لم يُبدِ والدي قطّ مرارةً تجاه حقيقة أنّ فوي كان قد دفع ثمن تلك العقارات من المال الذي كسبه من فيلم «القطط السُّود وأبناء يامين»، تلك القصّة التي لا تزال رسومها الأوليّة معلّقة على حائط غرفة نومي. «جفّفْ نفسَك يا بن العاهرة!» كان أبي يقول، ويزيد «يقطر منك الماء على أرضيّة الرجل من خشب الكرز البرازيليّ»!

في معظم رحلتنا، كان هوميني وبترفلاي يتشاركان الفرجة على صورها مع أخوات الجمعيّة وهنّ يحتفلنَ بأفراح التعدُّديّة الثقافيّة. تشويه صورة إثنيّات مدينة لوس أنجلس من خلال الإثنيّات، وصورة الحيّ من خلال الحيّ. وفي انتهاك لكلّ قوانين المرور، والمحرّمات الاجتماعيّة، جلست في حضنه، وحزام أمان مقعدهما محرّر «هذا أنا في تجمُّع ثقافات الغيتو... أنا ثالثة «فتاة غيتو» من اليمين». اختلستُ نظرةً سريعةً إلى اللقطة. النساء بباروكات الشعر الأفريقيّة، تناهز أعمارهنّ الأربعين، ويدخّنّ الماريهوانا. أفواههنّ مليئة بالأسنان الذهبيّة وبقايا أفخاذ الدجاج. لم تكن السخافات العنصريّة أكثر إهانةً من الافتقار إلى الخيال الذي وجدته في الصور. أين كانت عروض الزنوج؟ موضة لباس الجاز؟ الخادمات السُّود؟ الأمّهات السُّود؟ الأولاد السُّود؟ البوّابون؟ لاعبو كرة القدم في موقع الظهير الرباعيّ؟ متنبّئو طقس نهاية الأسبوع؟ موظّفو الاستقبال في النضد الأماميّ، الذين يحيّونك في كلّ حركة من حركات

الاستوديو ووكالة المواهب في المدينة؟ *السيِّد ويدرسبون سيكون في الأسفل في دقيقة. هل يمكنني أن أجلب لك الماء؟* هذه هي المشكلة مع هذا الجيل؛ إنّهم لا يعرفون تاريخهم.

«هذه كانت ليلة اللهو للإسبانيِّين، أقمناها على شرف سينكو دي مايو...» كنقيض لحفلة التعدُّديَّة الثقافيَّة. لم يكن من الصعب تمييز بترفلاي في تلك الصورة: هذه المرّة كانت جالسة إلى جانب امرأةٍ آسيويَّة، وكلتاهما، مثل بقيَّة الأخوات، تلبسان طاقية سومبريرو المكسيكيَّة، وسترة بونشو، وحقيبة، وشارب بانشو فيلا متدلٍّ بطول قدم، في حين تشربان التيكيلا وتعلّمان أوراق اللعب. مرحى! تنقَّلتُ بترفلاي بين صورها، وعنوان كلّ نقرة على الصورة نوع الفستان المسجّل خلفها. القبو، حفلة حوض السباحة الحقيقيَّة. حفلة شابو شابو خارج المنزل! طريق رحلات البيرة والانتشاء.

يقبع على مقربة من مولهولاند درايف، على قمّة تطلُّ على وادي سان فيرناند، كان منزل فوي أكبر ممَّا أتذكَّر. عقار من طراز تيودور ضخم مع طريق لولبيَّة، بدا في معماره أقرب إلى أن يكون مدرسة إنكليزيَّة من مدارس الموضة للبنات من أن يكون منزلاً، على الرغم من إشارة الرهن العملاقة المعلّقة على بوّابة الدخول. خرجنا من السيارة. هواء الجبل كان منعشاً ونظيفاً. أخذت نفساً عميقاً وحبسته، في حين كان هوميني وبترفلاي يمشيان الهوينى باتجاه البوّابة.

«أستطيع شمّ رائحة أفلام، هناك في الداخل».

«هوميني، المكان فارغ».

«إنّهم هناك. أعرف ذلك».

«ماذا، هل ستحفر الساحة مثلما فعلتَ في فيلم «ثروات غير

متوقّعة؟»، سألتُ محاكياً صوت سبانكي وهو يغنّي أغنية البجعة في فيلم *عصابتنا*.

هزَّ هوميني السياج. بعد ذلك، تذكّرتُ الرقم السرّيّ، كأنّني أتذكّر رقم هاتف أفضل أصدقاء الطفولة. كبست ١-٨-٦-٥ في علبة أمان البوّابة. طنَّتِ البوّابة، وبدأت سلسلتها المتحركّة تفتح الباب بكلّ هدوء. ١٨٦٥ الناس السُّود واضحون على نحو لعين.

«سيِّدي، ألستَ قادماً؟».

«لا. أنتما الاثنان أدّيا المهمّة».

عبر مولوهولاند كان المنظر ساحراً.

باتّجاه الشمال، وقّتُّ عدوي بين سيّارة ماسيراتي سريعة، واثنين من المراهقين في سيّارة بي أم دبليو مكشوفة خاصّة بالاحتفالات. طريق متّسخ ينحرف هبوطاً جانب الجبل وعبر الأجمات لمسافة ميل أو نحو ذلك، يؤدّي في النهاية، إلى طريق جانبيّ، وإلى حديقة كريستال ووتر كانيون، طريق صغير لكن على نحو واضح يُوصِل إلى منطقة استجمام تضمُّ بضع طاولات رحلات، وبعض الأشجار المظلّلة، وملعب كرة سلّة. جلستُ تحت جذع شجرة تنُّوب متجاهلاً النسغ المتقطّر إلى أسفلها. لاعبو الكرة يحمّون عضلاتهم لجولة ما بعد العمل، أو لجولتين قبل مغيب الشمس. رجل أسود وحيد، في منتصف الثلاثينيّات، بشرته فاتحة، عاري الصدر، سار داخل ملعب كرة السلّة. كان واحداً من لاعبي السلّة أولاء غير الموهوبين، الذين يرتادون الملاعب البيضاء في الأحياء الغنيّة مثل برينتوود ولاغونا، باحثاً عن لعبة لائقة، أو فرصة للسيطرة، ومَن يعلم ربّما عن فرصة عمل.

«أيّ زنوج هناك، أعيروني انتباهكم، اخرجوا من الملعب»، صرخ الأخ من أجل متعة الأولاد البِيض.

أستاذ الفلسفة في الإجازات، رمى رمية البداية، ومحامي الأذيّات الشخصيّة ارتطم برامي الكرة، وصيدلانيٌّ بدينٌ، مُظهراً براعةً في التقاط الكرة، مرّر على نحو مفاجئ إلى طبيب الأطفال الذي فشل في إدخالها السلّة. تاجر المبيع اليوميّ رمى الكرة في الهواء فأبحرت بعيداً إلى خارج حدود الملعب ووصلت إلى كراج السيّارات. حتّى في لوس أنجلس، حيث السيّارات الفارهة، مثل عربات التبضّع داخل السوبر ماركت، تراها أينما نظرتَ، فسيّارة فوي موديل الـ ٥٦ من نوع ٣٠٠ إس. إل، واضحة للعيان. ولا يمكن أن يكون هناك من فئتها أكثر من مائة سيّارة موجودة على الكوكب. بالقرب من الحاجز الأماميّ جلس فوي على كرسيّ حديقة صغير، يرتدي صندلاً، وسروالاً داخليّاً فحسب، فوقه قميص، يتحدّث عبر هاتفه النقّال، ويكتب على حاسوب محمول قديم، تماماً كسيّارته. كان يجفّف ملابسه. قمصانه وبناطيله، وسراويله معلّقة بعلّاقات مثبّتة على بابَي سيّارته اللذين يفتحان إلى الأعلى، وكانت الملابس ترفرف في رحلة كاملة، وتحوم في الأعلى مثل أجنحة تنّين فضّيّ. وجب عليّ السؤال. نهضتُ ومشيتُ أمام لعبة كرة السلّة. كان لاعبان يتنافسان على كرة خارجة قد وقعا أرضاً، ويتجادلان حول أحقيّة الكرة قبل أن يقفا.

«مَن أخرج الكرة؟» سألني لاعبٌ يلبس حذاء رياضة مهترئاً، ذراعاه المشدودتان تستنجدان طلباً للعدل في صمت. عرفتُ الشابّ. إنّه المحقّق ذو الشارب في مسلسل الشرطة الذي أُلغي منذ زمن لكنّه الآنَ يحقّق نجاحاً في أوكرانيا. «أخرجها الشابُّ ذو الشعر الذي يغمر صدره». اعترض نجم السينما، لكنّه كان الحكم الصحيح.

رفع فوي نظره إليّ وهو جالسٌ على كرسيّه، لكنّه لم يتوقّف عن الحديث أو الكتابة. يتحدّث بسرعة، خلطة من الكلمات المبهمة عبر الهاتف، لا معنى واضحاً لها، شيء ما حول سكّةِ حديدٍ بسرعة عالية،

وعن عودة المقطورة الحمّالة. إطارات سيّارته المرسيدس، ماركة بيريللي، البيض كانت مهترئة، ورغوة صفراء مثل قيح كانت تنزُّ من المقاعد الجلديّة المتصدّعة والمتقرّحة. ربّما كان فوي الآن بلا مأوى، لكنّه رفض بيع ساعته أو سيّارته في مزاد. حتّى في أسوأ حالاتها، كانت سيّارته تساوي بضع مئاتٍ من ألوف الدولارات. كان يجب أن أسأل.

«ماذا تكتب؟». أنزل فوي الهاتف إلى كتفه.

إنّه كتابٌ يحوي مقالاتٍ عنوانها *أنا حينما ناقشتُ أبيضَ في أحد الأيام*».

«فوي، متى كانت آخر مرّة امتلكتَ فيها فكرة أصيلة؟».

غير متأثّر بالمطلق، فكّر فوي لثانية، ثمّ قال «من المحتمل أنّني لم أحصل على فكرة أصيلة منذ وفاة والدك»، قبل أن يعود إلى مكالمته.

عدتُ إلى منزل فوي القديم لأجدَ هوميني وبترفلاي يسبحان عاريين في حوض السباحة. فوجئتُ قليلاً أن لا أحد من الجيران الفضوليّين كان أزعج نفسه بالاتّصال بالشرطة. افترضتُ أنّهم قالوا إنّه رجلٌ أسودُ عجوزٌ يبدو مثل البقيّة. هبط الليل، واشتغل الضوء تحت الماء على نحو آليّ وهادئ. الضوء الأزرق الفاتح للحوض الذي يعمل في الليل فقط، هو لوني المفضّل. هوميني، مدّعياً أنّه لا يستطيع السباحة، كان في الطرف الأعمق من حوض السباحة، يمسك بسترة العوم الواسعة الخاصّة ببترفلاي بكلّ طاقته.لم يكن قد وجد ما يبحث عنه، أفلامه، لكن يبدو أنّه قد حقّق ما كان خطّط له. تجرّدتُ من ملابسي ونزلتُ في الماء. لا عجب أنّ فوي قد أفلس، لا بدّ أنّ درجة حرارة الماء كانت تصل إلى ٩٠ درجةً على الأقلّ.

عائماً على ظهري، شاهدتُ نجمة الشمال تلمع خلال البخار المتصاعد من الماء، مشيرةً إلى الحرّيّة التي لم أكن أصلاً أعرف إن كنتُ

أحتاجها. فكّرتُ في والدي الذي كانت أفكاره هي التي تدفع إلى تلك الملكيّة المملوكة من البنك. تحوّلتُ إلى رجل ميت، وحاولتُ تعديل وضع جسمي إلى وضعيّة جسمه عندما وجدتُه ميتاً في الشارع. ماذا كانت آخرُ كلماتٍ نطقها أبي قبل أن يطلقوا النار عليه... *لا تعرفون مَن يكون ابني*.كلُّ هذا نجح؛ ديكنز، الفصل العنصريُّ، ماريبسا، أعمال المزرعة، ولا أزال لا أعرف مَن أكون.

عليك أن تسأل نفسك سؤالين: مَن أكون؟ وكيف يمكن أن أؤكّد ذاتي؟

كنتُ تائهاً كما كنتُ دائماً، أفكّر على نحو جدّيٍّ بتمزيق الأراضي الزراعيّة، واقتلاع المحاصيل، وبيع الماشية، وصرف أثمانها على حوض سباحةٍ بأمواج اصطناعيّة كبيرة، فكم هو ظريف التزلُّج على الماء في الفناء الخلفيِّ؟

٢٣

بعد نحو أسبوعين من البحث عن كنز الفيلم الضائع لِلوريل كانيون، كُشف السرُّ. مجلّة *ريبابليك*، الصادرة حديثاً، التي لم تضع صورة طفلٍ على غلافها منذ طفلِ ليندبيرغ، قدّمتِ الحكايةَ لأوّل مرّة. فوق العنوان العريض «جيم كرو الجديد: هل التربية الجمهوريّة قصقصت أجنحة الطفل الأبيض؟» كانت ثمّة صورة لطفل أبيضَ عمره اثنا عشرَ عاماً، يتموضع في الصورة كرمز صغير للعنصريّة المضادة. جيم كرو الجديد يقف على درجات مدرسة تشاف ميدل، يرتدي سلسلةً ذهبيّةً ثقيلةً، وخصلات شعره ذهبيّة شقراء جامحة تنسلُّ من تحت قبّعته وسماعات الرأس الخافضة للضوضاء. يحمل كتابَ إيبونكس في يد، وكرة سلّة في اليد الأخرى. سِلْكُ التقويمِ السنّي الذهبيُّ يلمع خلال تكشيرته، والقميص الذي يرتديه بقياس XXXL مكتوب عليه المعادلة الرياضيّة: الطاقة تساوي تربيع الراب.

منذ زمن بعيد، علّمني والدي أنّه أينما قرأتَ سؤالاً على غلاف مجلّة للأخبار فالجوابُ سيكون دائماً «لا»، لأنَّ المحرّرين يعلمون أنَّ الأسئلة ذات الإجابة «نعم» ربّما، مثل بيانات تحذيرات السجائر، والمشاهد المقرّبة لترشّح القيح من المناطق التناسليّة التي تهدف إلى الردع، لكنّها في الحقيقة تشجّع على التدخين وعلى الجنس غير الآمن، ستخيف القارئ. لذلك تحصل على صحافة صفراء، عناوينها مثل: أو. جيه.

سيمبسون والعِرق: هل قرار المحكمة يقسّم أمريكا؟ الجواب: لا. هل مضى التلفاز بعيداً؟ الجواب: لا. هل معاداة الساميّة ستعود إلى الواجهة مرّة أخرى؟ الجواب: لا، لأنها لم تختفِ أصلاً. هل التربية الجمهوريّة قصقصت أجنحة الطفل الأبيض؟ الجواب: لا، لأنّه وبعد أسبوع من ظهور العنوان في أكشاك الصحف، خمسة أولاد بِيض، وحقائب ظهورهم ملأى بالكتب، وصفّارات الاغتصاب، قفزوا من حافلة المدرسة المستأجَرة، وحاولوا إعادة دمج مدرسة تشاف ميدل، حيث كانت مساعدة المدير، كاريزما مولينا، تقف في الممرّ تسدُّ المدخل إلى مؤسّستها المفصولة عنصرياً تقريباً.

حتّى إذا لم تعتمد كاريزما على كلّ الدعاية التي تقول إنّ استمرارَ تحسُّن معدّلات مدرسة تشاف الحاليّة، سيجعلها في المركز الرابع بين المدارس الحكوميّة في البلد العام القادم، فإنّه كان ينبغي عليها أن تعرف أنّ ٢٥٠ طفلاً ملوّناً بائساً يحصلون على تعليم متدنٍّ، لن تتصدّر صورهم الصفحة الأولى أبداً، في حين سوف يخلق حرمان ولدٍ أبيضَ واحدٍ من الحصول على تعليم لائق عاصفةً في وسائل الإعلام. ما لم يتنبّأ به أحدٌ، على أيّ حال، كان تحالف الآباء البِيض الضّجرين من الاستماع إلى نصائح فوي شيشاير، وسحبهم أطفالهم من المدارس الحكوميّة ذات الأداء الضعيف، والمدارس الخاصّة ذات الرسوم الباهظة، والدعوة للعودة إلى سياسة الفصل العنصريّ التي احتجّ ضدّها آباؤهم على نحو عنيف في أجيال سابقة.

بدت ولاية كاليفورنيا مفلسةً ومرتبكةً جدّاً، مكتوفة الأيدي تجاه تأمين مرافقة مسلّحة. لما نزل حِملان أضاحي إعادة التوحيد: سوزي هولاند، حنّة ناتر، روبي هالي، كيغان غودريتش وميلوني فاندويغ، من الحافلة من دون حماية الحرس الوطنيّ، ولكن بحماية سحر التلفزيون الحيّ وصوت فوي شيشاير العالي، كان قد مضت بضعة أسابيع مُذ

شاهدته يعيش خارج سيّارته، وممّا سمعته، لم يظهر أحدٌ في اجتماع مفكّري دُم دُم الأخير، مع أنّ المفكّر الاجتماعيّ المعروف آر. أو كان مقرَّراً له أن يلقي كلمة.

انحنت الأكتاف، وعُقدت الأذرع على نحو دفاعيّ أمام وجوههنّ، خمسةُ ديكنز، كما تُعرف الخماسيَّة، حصَّنّ أنفسهنّ في وجه الحجارة المنهالة والزجاجات وهنّ يركضنَ داخل الحشود، وداخل التاريخ. ولكن، على عكس ما جرى في ليتل روك، آركنساس[1]، في الثالث من سبتمبر ١٩٥٧، لم تبصق مدينة ديكنز في وجوههنّ وتنعتهنّ بكلّ النعوت العنصريّة. بدلاً من ذلك، توسّلوهنّ لأجل التوقيع، وسألوهنّ إن كنّ حجزنَ بطبيعة الحال للحفلة الراقصة. ومع ذلك، لما وصلت الطالبات المفترضات إلى أعلى الدرج وقفت هناك مساعدة المدير كاريزما وفعلت أفضل ما لديها، مثلما فعل العمدة فوبس في ذاك الزمان، رافضة التزحزح، وذراعاها تمسكان ببندقيّة موجّهة إلى طرف الباب. حنّة، الأطول في المجموعة، حاولت أن تخطو باتجاهها لكنّ كاريزما بقيت ثابتة.

«غير مسموح للبِيض».

كنّا، هوميني وأنا، في الجانب الآخر من النزاع. نقف خلف كاريزما، ومثلَ أيّ شخص آخر، وبصرف النظر عن الوصاية، وطاقم الخدمات الغذائيّة في ثانوية ليتل روك المركزيّة أو في جامعة ميسيسبي في العام ١٩٦٢، كنّا في الجانب الخاطئ من التاريخ. هوميني كان في المدرسة ذلك اليوم من أجل تعليم جيم كرو، وكانت كاريزما قد استدعتني لقراءة الرسالة التجاريّة التي رافقت النسخة المرسَلة بالبريد

(١) في ذلك الوقت، مُنعت تسع فتيات سود من الدخول إلى مدرستهم، ليتل روك الثانويّة المركزيّة، في أركنساس، بحجّة فصل المدارس. (م)

الإلكترونيّ لنصّ فوي شيشاير الأخير، متعدّد الثقافات المعاد تحليله، ويتحدّث عن: *الأرز والينّ*، والتعديل الصينيّ الكامل لنسخة ستاينبيك في أيّام عمّال السكّة الحديديّة! كان الكتاب نسخة كربونيّة للنصّ الأصليّ من دون مقالات، وبكلّ حالات القلب بين حرفَي l و r. *ربّما كلّ واحد في هذا العالم اللعين مرعوب، وخائف من الآخر*. لن أفهم أبداً لماذا بعد أكثر من نصفِ قرن من ظهور شخصيّة الابن الأوّل في سلسلة أفلام شارلي شان، الشابّ المتأنّق في أغنية «سماشينغ بابمكينز»، ومنتجي الموسيقا الجميلة، وألواحِ التزلّج، والزوجات الآسيويّات الطيّعات اللاتي تزوجنَ من رجال بِيض في إعلانات متاجر الأدوات المنزليّة، فإنّ أشخاصاً مثل فوي شيشاير لا يزالون يعتقدون أنّ الينّ هو عملة صينيّة، وأنّ الآسيويّين الأمريكيّين لا يمكنهم تهجئة حرف l في نطقهم. ولكن، كان ثمّة ما يثير الأعصاب في الخربشة المستعجلة للرسالة:

عزيزي جنديّ المفكّرة الليبراليّة،

أعلم أنّك لن تنفّذَ هذا العملَ القاسمَ للظهر بسبب الاستيلاء على الذكاء، لكن هذه نهايتك. هذا الكتاب سوف يرفعني برسوخ إلى مصاف الكتّاب الذين علّموا أنفسهم بأنفسهم، أمثال فِرجينيا وولف، وكاواباتا، وميشيما، وماياكوفسكي، كاتب جاهز لكلّ شيء. أراكم هذا الاثنين في أوّل أيّام الدراسة، ربّما في أحد دروسكم، لكنّكم ستحضرون عالمي أنا. أحضروا معكم قلماً وورقة، والخائن الزنجيّ الهامس.

وتفضّلوا بقبول الاحترام

فوي شيشاير «هل كنتم تعلمون أنّ غاندي كان يضرب زوجته؟»

لما سألتني كاريزما عن السبب في استشهاده بأولاء الكتّاب بالتحديد أخبرتُها أنّني لا أعرف، لكنّي تجاهلتُ الإشارة إلى أنّ القائمة كانت قد ضمّت كتّاباً منتحرين فقط. كان من الصعب التنبّؤ فيما إذا كانت الحالة

نوعاً من التفكير الانتحاريّ، لكنّني كنتُ آمل ذلك. لم يكن هناك كثيرٌ من السُّود المنتحرين في المغادرة، وبقدر ما يكون فوي مرشّحاً لمنصب «أوّل كاتب أسود ينتحر»، فقد كان واجباً عليّ أن أكونَ مستعداً. وإذا كان بالفعل كاتباً علّم نفسه بنفسه، فلا شكّ في أنّه أسوأ معلّم في العالم.

تقدّم فوي إلى رأس المجموعة ليتولّى المفاوضات، وعلى نحو سحريّ أظهر كدسةً صغيرةً من نتائج تحليل الـ دي إن أي ورماها، ليس في وجه كاريزما، ولكن مباشرة باتجاه عدسة أقرب كاميرا تلفزيونيّة «أنا لديّ هنا قائمة من النتائج تظهر كيف أنّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء الأطفال يملك جذوراً من ناحية الأمّ، متتبّعاً آثارَ أسلافهم لآلاف السنين، إلى وادي غريت ريفت في كينيا».

«أيُّها الزنجيُّ، في أيّ جانب أنت؟».

من داخل قاعات المدرسة غير المغطّاة لم أستطع رؤية مَن طرح السؤال، لكنّه كان سؤالاً جيّداً، وبحكم الصمت الحاصل، اتّضح أنّ فوي لم تكن لديه إجابة. ليس لأنّني لم أكن أعرف في أيّ جانب أنا، أيضاً. كلُّ ما عرفته أنّ الإنجيل، ومغنّي الراب الشاعريّين، وفوي شيشاير لم يكونوا إلى جانبي. كاريزما، على أيّ حال، كانت تعرف أين تقف، وبيديها على صدره، دفعت فوي والأطفالَ خلفاً إلى أسفل الدرجات مثل كثير من دبابيس البولينغ، نظرت حولي في الوجوه إلى جانبي العتبة: هوميني، المعلّمون، شيلا كلارك، كلُّ واحد مذعور قليلاً، لكن يملؤه العزم. اللعنة، ربّما كنتُ في الجانب الصحيح من التاريخ، بعد كلّ ما جرى.

«أقترح عليكم أنّكم، في حال رغبتكم الشديدة في الالتحاق بإحدى مدارس ديكنز، أن تنتظروا حتّى تفتح تلك المدرسة عبر الشارع».

وقف طلّاب المستقبل الواعد، البِيض، واستداروا محوّلين أنظارهم

إلى أسلافهم الفخورين، روّاد أكاديميّة ويتون الأسطوريّة، بوسائل تعليمها العريقة، ومعلّميها القديرين، وحرمها الأخضر مترامي الأطراف. كان ثمّة شيء فاتن على نحو لا يمكن إنكاره في ويتون. الشبّان بدؤوا ينجذبون بشوق إلى سمائهم المدرسيّة مثل ملائكة تجذبهم موسيقا قيثارة وطعام كافتيريا لائق، حتّى خَطا فوي شيشاير أمامهم «لا تنخدعوا بهذا التصوُّر الخادع» صرخ «هذه المدرسة هي جذر كلّ شرّ. إنّها صفعة في وجه أيّ شخص كان يقف دائماً لصالح المساواة والعدل. إنّها نكتة عنصريّة تسخر من الناس المجدّين هنا وفي كلّ المجتمعات، من خلال وضع جزرة على عصا ومدّها أمام الخيل الهرمة التعبة جدّاً من الجري. وفوق هذا، إنّها مكان لا وجودَ له».

«لكنّها تبدو حقيقيّة».

«إنّ أجمل الأحلام تلك التي تبدو حقيقيّة».

خاب أمله، لكنّه لم يُهزم. جلستِ المجموعة على رقعة من العشب إلى جانب سارية العلم. كانت مواجهة مكسيكيّة متعدّدة الثقافات، فوي الأسود والأولاد البِيض في الوسط، كاريزما وصورة أكاديميّة ويتون الطوباويّة على الجانبين.

يقولون إنّ في أثناء لعبهم الغولف في عطل نهاية الأسبوع، والد تايغر وود الشاب، في محاولة رخيصة منه لخداع ابنه، كان يخشخش فكّة العملة المعدنيّة في جيبه حينما كان يقف ابنه على مسافة ستّ أقدام من الفوز في لعبة الغولف، وكانت النتيجة النهائيّة هي التأكُّد من أنّ شخصاً غبيّاً نادراً ما يُصاب بالذهول. أنا، في الجانب الآخر، بسهولة أتحيّر. كنتُ أخسر دائماً، لأنّ والدي كان يحبُّ لعبَ لعبة يسمّيها «ما بعد الحقيقة» حيث كان، في منتصف أيّ شيء أفعله، يعرض عليّ صورةً تاريخيّةً معروفةً ويسألني «إذاً، ماذا حدث بعد ذلك؟» كنّا مرّة

وسط مباراة هوكي على الجليد لفريق بروينز، وفي وقت الاستراحة، وضع أبي أمام وجهي صورة آثار دوسات قدمَي نيل آرمسترونغ على رمال القمر. إذاً، ماذا حدث بعد ذلك؟ هززتُ كتفيّ «لا أعرف. قدّم تلك الإعلانات التجاريّة الخاصّة بعربات كريزلر على التلفزيون».

«خطأ. بعدها أصبح مدمناً على الكحول».

«أبي، أعتقد أنّ ذاك هو باز آلدرين...».

«في الواقع، كثير من المؤرّخين يعتقدون أنّه كان منهكاً عندما خطا أوّل خطوة له على سطح القمر. «كانت تلك خطوة صغيرة للإنسان، وقفزة عملاقة للبشريّة» اللعنة، ماذا يعني هذا؟».

في منتصف أوّل مباراة في دوري بيسبول الصغار شاركتُ فيها، مارك توريس، رامي كرة نحيل، رميته سريعة مثل انتصاب قضيبِ مراهقٍ، عند أوّل لقاءٍ جنسيّ يقذف بسرعة خارقة، كسب منّي نقطتين، بكرة سريعة لم أرَها، ولا حتّى الحكم رآها، افترِض أنّها عالية فحسب، وأنّها في داخل المضمار بسبب الحرق الذي تسبّبت به سرعة الكرة على طول جبهتي. دخل والدي مقتحماً قاعدة الملعب، ليس لتقديم أيّ نصيحة تتعلّق بضرب الكرة، بل ليسلّمني صورة مشهورة لجنود أمريكيّين وروسيّين مجتمعين عند نهر إلبي، يتصافحون ويتخيّلون نهاية الحرب العالميّة الثانية في أوروبّا. إذاً، ماذا حدث بعد ذلك؟

«أمريكا والاتّحاد السوفييتيّ واصلا حرباً باردةً دامت خمسين عاماً تقريباً، وأجبرا بعضهما على إنفاق تريليونات الدولارات في الدفاع عن النفس، في مخطّط هرميّ سمّاه دوايت آيزنهاور المجمّع الصناعيّ العسكريّ».

«التأمين الاحترازي.، أطلق ستالين النارَ على كلّ جنديٍّ في الصورة بتهمة التآخي مع العدو».

اعتماداً على هوسكَ بالخيال العلميّ، فهو الجزء الثاني أو الخامس من فيلم حرب *النجوم*. ولكن، في أيّ واحد من الاثنين كنت؟ في وسط مبارزة الطعن بالسيف الليزريّ النهائيّة بين دارث فادر وليوك سكايووكرر، تماماً بعد أن قطع دارك لورد ذراع ليوك، ينتزع أبي المصباح اليدويّ من يد عامل الصالة، ثمّ يضرب بعنف صورةً بالأسود والأبيض على صدري. إذاً، ماذا حصل بعد ذلك؟ في أثناء موجة الضوء الضبابيّ، أرى امرأة شابّة سوداء تلبس بلوزة بيضاء مكويّة على نحو متقن، وتنورة من قماش بتقليمات مفرشِ الطاولة، ضمّت بإحكام، على نحو دفاعيّ، مجلّداً ذا حلقاتٍ ثلاث إلى صدرها وعقلها اللذين مازالا في مرحلة التطوُّر. كانت تلبس ثياباً سوداءَ قاتمة، لكنّها تحدِّق بنظرها إليّ وإلى النساء البِيض اللاتي يعذبنَها من الخلف.

«إنّها إحدى بنات مدرسة ليتل روك التسع. لقد أرسلوا إليهنّ قوّات فيدراليّة، ذهبت إلى المدرسة، وانتهت الأمور بسعادة بعد ذلك».

«ما حدث بعد ذلك أنّ العمدة، في العام التالي، بدل الاستمرار في دمج النظام المدرسيّ كما يقتضي القانون، أغلق كلّ مدرسةٍ ثانويّة في المدينة. إذا أراد الزنوج أن يتعلّموا فلن يتعلّم أحد. وبمناسبة حديثنا عن التعلّم، لاحظ أنّهم لا يعلمونك هذه الحكاية في المدرسة». لم أقل أيّ شيءٍ بخصوص أنّ ضمير «أنّهم» هذا يعود على معلّمين مثل والدي. فقط أتذكّر أنّني عجبتُ لماذا كان لوك سكايووكر يتشقلب داخل الهاوية المرصّعة بالنجوم دون سبب واضح.

في بعض الأحيان، أتمنّى لو أنّ دارث فادر كان والدي. كنتُ عندها أفضل حالاً. لم أكن لأملك يداً يُمنى، لكن بالتأكيد لم أكن لأحملَ عبء كوني أسودَ، وعلى نحو دائم، أنا في حاجة إلى قرار حول متى أهتمُّ بذلك، أو حتّى ما إذا كان ضروريّاً أن أهتمّ أصلاً. بالإضافة إلى ذلك أنا أعسر.

لذلك، كان الجميع هناك عنيدين كما البقع على العشب، ينتظرون شخصاً ما ليتدخَّل؛ الحكومة، الله، مبيِّض الغسيل، الشرطة، أيّاً كان.

وهي غاضبة، تفحّصتني كاريزما، وقالت: «متى سينتهي هذا الهراء؟».

«لن ينتهِ»، غمغمتُ، وخطوتُ داخل الإبداع المنعش، صباحِ كاليفورنيا في يوم ربيعيّ. فوي، كان قد حشد قوّاته من أجل استرسالٍ صاخب لأغنية «نحن سوف ننتصر». كانوا متحدّين: الذراع في الذراع، يتمايلون ويغنّون من القلب. معظم الناس يعتقدون أنَّ أغنية «نحن سوف ننتصر» هي مباحة للعموم. ذلك أنّه في أثناء سخاء النضال الأسود، كانت لازمات أغانيه الشاحذة للهمم مجّانيّة، ليغنّيها أيٌّ كان، في أيِّ وقت يشعر فيه بوخز الظلم والخيانة، وهذا ما ينبغي أن تكون عليه. ولكن، إذا وقفتَ خارج مكتب حقوق الطبع والنشر الأمريكيّ، والناس المحتجّة انتفعت من الأغنية المسروقة بغنائهم «نحن سوف ننتصر»، فإنَّ المكتب سوف يربح نيكلاً من نقود بيت سيغر عن كلِّ ترديد للأغنية. وعلى الرغم من أنَّ فوي، وهو يغنّي لكلِّ ما يستحقُّ الغناء لأجله، وجد أنَّ من الملائم أن يغيِّر الكلمات الحماسيّة «يوماً ما» إلى صرخة «الآن تماماً!»، إلاّ أنّني رميتُ عشرة سنتات على الرصيف كإجراء احترازيّ.

رفع فوي يديه عالياً فوق الرؤوس، فارتفعت سترته فوق بطنه الكبير، كاشفة عن مقبض مسدَّس ملصق بحزامه الجلديّ الإيطاليّ. هذا يشرح تغيير الكلمات، ونفاد صبره، والرسالة، والنظرة اليائسة في عينيه. ولماذا لم أدرك ذلك سريعاً: غياب الزوايا عن باروكة شَعره، مربّعة الشكل.

«كاريزما، استدعي الشرطة».

لا أحد سوى مجموعات هيبيز الكلّيّة، ومغنّي اليوبيل الزنوج، ومعجبي فرقة كاب، ومثاليّين متعدّدين آخرين، يعرف الأبيات من الثاني

إلى السادس من قصيدة «سوف ننتصر»، ولما بدأ قطيعه يتعثَّر في البيت التالي سحب فوي سلاحه وصار يلوِّح به وكأنَّه لوحُ قراءةٍ من نوع مسدس أي ٤٥، يعظ بجوقته في أثناء الأوقات الصعبة، حتَّى عندما يتجاهلونه، حتَّى عندما يديرون ظهورهم له، ويحلِّقون أمامنا أنا وهوميني باتجاه مدخل المدرسة الذي بقي مغلقاً في وجوههم لأنَّ كاريزما أغلقت الأبواب وراءها.

لا تتفرَّق ديكنز بسهولة، كذلك لا تتفرَّق وسائل الإعلام المحلّيَّة المعتادة على جرائم قتل العصابات، والتزوُّد الدائم، كما يبدو، بالقتَلة العصابيِّين. لذلك، لما أطلق فوي رصاصتين على خلفيَّة سيَّارته المرسيدس المركونة على نحو منحرف في شارع روزكرانس، ما فعله الحشد فقط هو أنَّهم فتحوا الطريق بما يكفي لخطِّ نار يمكن للأولاد البِيض من خلاله أن يصلوا إلى حافلة المدرسة على نحو آمن نسبيّاً، حيث خفضوا رؤوسهم تحت المقاعد. الفصل العنصريُّ ليس سهلاً أبداً في أيِّ مكان. وبعد أن أطلق فوي جولتين جديدتين من الرصاص على حركة حقوقهم المدنيَّة، أصبح التطوُّر أكثر بطئاً لأنَّ اثنين من إطارات حافلة الحرّيَّة فرغا من الهواء.

أطلق فوي رصاصةً أخرى على شعار المرسيدس- بينز المعدنيِّ في خلفيَّة السيَّارة. هذه المرَّة، فتح صندوق السيَّارة على نحو بطيء وفاتن تتميَّز به سيَّارات المرسيدس فقط، ثمَّ انتزع دلوَ محلولٍ مبيِّض من الخلف. ولكن، قبل أن نصلَ إليه، أنا أو أيِّ شخص آخر، صار يلوِّح، صاداً إيَّانا، بحزامه وغنائه النشاز. أجرى تغييراً آخرَ على الكلمات. هذه المرَّة، خصَّص اللحن بأن غيَّر اللازمة إلى «أنا سوف أنتصر». ما الذي يقوله الحكَّام دائماً في مسابقات الغناء المنقولة عبر التلفاز تلك؟ أنت حقّاً جعلتَ الأغنية خاصَّة بك.

صوت القرقعة الناتج عن فتح علبة طلاء هو دائماً الأكثر إرضاءً.

فرحاً بنفسه وبمفاتيح سيّارته، استمرّ فوي في الغناء على نحو مبرّر من أعلى رئتيه إلى أسفل قدميه، وظهره إلى الشارع، موجّهاً مسدّسه مباشرة إلى صدري. «شاهدت ذلك ملايين المرّات» كان أبي يقول «الزنوج المحترفون يفرقعون لأنّ التمثيليّة انتهت». السّواد الذي كان استهلكهم تبخّر فجأة مثل غبار النوافذ الذي يغسله ماء المطر. كلُّ ما تبقّى هو شفافية الظرف الإنسانيّ، وأيُّ شخص سيتمكّن من الرؤية عبرك. الكذب المتعلّق بالسيرة الذاتيّة كُشف أخيراً، والسبب الذي جعلهم يمضون بعيداً في كتابة تقاريرهم اكتُشف، والتأخير لم يكن بسبب الانتباه الشديد إلى التفاصيل بل بسبب عسر القراءة. والشكوك أكّدت أنّ كلّ زجاجة غسول فم مركونة على مقعد الرجل الملوّن في الزاوية، إلى جانب المرحاض، ليست مملوءة بـ«سائل مصمّم كي يقضي على الأنفاس الكريهة، ويزوّد حماية ٢٤ ساعة ضدّ الجراثيم التي تسبّب التهاب اللثّة وأمراضها» بل بمشروب مُسكر بمذاق النعناع، سائل صُمّم لقتل الأحلام السيّئة، ويزوّد شعوراً زائفاً بأنّ ابتسامة «ليسترين» البيضاء سوف تقتلهم بهدوء. «شاهدت ذلك ملايين المرّات» هكذا كان يقول «على الأقلّ الزنوج في الشاطئ الشرقيّ لديهم الكروم وشاطئ ساغ، نحن ماذا لدينا؟ لاس فيغاس ومطاعم إل بولو لوكو. شخصياً أحبُّ إل بولو، ليس لأنّني مقتنعٌ تماماً أنّ فوي يمثّل خطراً عليّ أو على أيّ شخص آخر، ولكن إذا خرجتُ من هذا حيّاً، فإنّ أوّل شيء سأفعله هو أن أمرّ على فيرمونت وشارع ٥٨ وأطلب خلطة ثلاثيّة داكنة، مع ذرة مشويّة وبطاطا مهروسة، وكأساً من شراب الفواكه الأحمر اللذيذ، ذاك مثل الذي تذوّقته في حفلة عيد ميلادي الثامن.

كانت صفّارات الإنذار تصدح بعيداً في الجانب الآخر من المدينة. حتّى لما كانت المقاطعة تفيض بضرائب الممتلكات من المنازل باهظة الثمن لم تتلقَّ ديكنز قطُّ نصيبَها العادلَ من الخدمات المدنيّة. والآن مع

التخفيضات والكسب غير المشروع، يُقاس وقت الاستجابة بالعصور، وعمّال مركز الهاتف أنفسهم الذين تلقّوا المكالمات من الهولوكست، ورواندا، ووندید ني، وبومبي، لا يزالون في مكاتبهم. حوَّل فوي المسدَّسَ من اتّجاهي ورفعه إلى أذنه، ثمّ ألقى بيده الحرّة محتوياتِ الدلو من صباغ جامد فيه بعض الرخاوة فوق رأسه. تسرَّب الطلاءُ في طيّاتٍ مُلتفّة على الجانب الأيسر من وجهه، وعلى طول ذلك الجانب من جسمه، عين واحدة، فتحة أنف واحدة، كمٌّ قميص واحد، جانب بنطال واحد، وساعة باتريك فيليب واحدة، كلُّ ذلك غُسِل تماماً باللون الأبيض. لم يكن فوي شجرة المعرفة، كاد يكون غصناً للرأي. لكن في أيِّ حال، كان من الواضح أنّه، سواء نجحت حيلته أم لم تنجح، كان يحتضر في داخله. نظرتُ إلى الأسفل، إلى جذوره، فَردة حذاء بنّيٌّ ملطّخة بالطلاء المنسكب كشلّال حليبيٍّ تمدَّد على ذقنه وصار يسقط. هذه المرّة، لا شكَّ في أنّه أضاع الأمرَ حقّاً، لأنّه إذا كان ثمّة ما يحبُّه فوي، الرجل الأسود الناجح، أكثرَ من اللهِ، والوطنِ، وأمّه، وقطعةِ فخذ الخنزير، فهو حذاؤه.

خطوتُ باتجاهه. ذراعاي مرفوعتان، ويداي مفتوحتان. ضغط فوي بسبطانة السلاح بعمق على جسده، جسدِ الرجل الأفريقيِّ المشوَّه، متّخذاً نفسه رهينة. الانتحار بوجود رجال الشرطة أو بغير وجودهم، لم أهتمَّ كثيراً، لكنّني كنتُ سعيداً لأنّه سيتوقّف عن الغناء أخيراً.

«فوي» قلتُ على نحو مفاجئ بصوت يشبه صوت والدي «عليك أن تسأل نفسك سؤالين: مَن أكون؟ وكيف أؤكّد ذاتي؟».

انتظرتُ المتوقّع «كلُّ ما أفعله من أجلكم أيُّها الزنوج، وهذا هو العرفان الذي حصلت عليه»، ثمّ خطب حول ألمه لأن لا أحدَ كان يشتري كتبه، وعلى الرغم من أنّه كان نجمَ برنامج حواريٍّ تلفزيونيٌّ انتشر في قارّتين، وكان معدَّه، ومُخرجَه، ومُنتجَه، ومُتعهّدَه، وكيف

قدَّم نسخة متجانسة ورومانسيَّة عن التفكير الأسود الذكيّ إلى عشرات المنازل في أكثر من ستَّة بلدان، ولم يتغيَّر شيء يتعلَّق برؤية العالم لنا، ورؤيتنا نحن لأنفسنا، وكيف كان مسؤولاً على نحو مباشر عن انتخاب رجل أسودَ في سدَّة الرئاسة، ولم يتغيَّر شيء، وكيف ربح زنجيٌّ في الأسبوع الماضي ٧٥٠٠٠ دولار في مسابقة ألعاب برنامج (المحكّ) للشبَّان، ولم يتغيَّر شيء، وكيف أنَّ الأمور تزداد سوءاً في الواقع لأنَّ «الفقر» كان قد اختفى من قاموسنا العاميّ، ومن وعينا، لأنَّه كان ثمَّة أولاد بِيض يعملون في غسيل السيَّارات، ولأنَّ النساء في أفلام البورنو يظهرنَ أكثرَ جمالاً، ولأنَّ الرجالَ الوسيمين الشاذِّين هم الجاهزون دائماً للدفع، ولأنَّ المشهورين محليّاً يقومون بالإعلانات التجاريَّة فيمجِّدون فضائل شركات الهاتف وجيش الولايات المتَّحدة. هل تعلم لِمَ سيطر هذا الهراء؟ لأنَّ أحداً يظنُّ أنَّنا لانزال في الخمسينيَّات، وأنَّه من المناسب إعادة إنتاج الفصل العنصريّ في الروح الأمريكيَّة، لأنَّ شخصاً، ليسَ أنت، أأنت هو، أيُّها الخائن؟ يضع علامات؟ يُنشئ مدارسَ وهميَّة وكأنَّ الغيتو كان نوعاً من باريس مُتخيَّلة بأكملها، مع محطَّات القطارات، وقوس النصر، وبرج إيفل، بُنيَ إبَّان الحرب العالميَّة الأولى لخداع القاذفات الألمانيَّة، ومثل الألمان الذين بدورهم في الحرب العالميَّة التالية، بنوا مخازنَ وهميَّة، ومسارحَ، وحدائقَ في مدن الغيتو النازيَّة من أجل خداع الصليب الأحمر كي يعتقدَ أن لا فظائعَ تحدث لما كان العالم كلُّه عبارة عن سلسلة من الفظائع اللعينة- رصاصة واحدة، احتجاز غير شرعيّ، تعقيم واحد، قنبلة ذرّيَّة في وقت واحد. أنت لا يمكنك خداعي، أنا لست سلاح الجوّ الألمانيّ، ولا الصليب الأحمر، أنا لم أترعرع في هذا الجحيم... مَن شابه أباه فما ظلم...

لما يكون دمك أنتَ الذي يمرُّ بين أصابعك، لا يمكن وصف الكمّيَّة المراقة إلاَّ بـ«الغزيرة». لكنَّني، وأنا أتلوّى قابضاً على أحشائي، بدأت

أشعر بشيء ما أقرب إلى النهاية. لم أسمع صوت إطلاق النار، ولكن للمرّة الأولى في حياتي لديَّ شيء مشترك مع والدي- كلانا أُطلق النار عليه، في الأحشاء، من ابن عاهرة جبان. شعرتُ برضا تجاه ذلك. شعرتُ كأنّني أخيراً دفعتُ دَيني له، ولأفكاره اللعينة عن السّواد، وعن الطفولة.لم يؤمن أبي قطّ بشيء اسمه النهاية، كان يقول إنّه مفهومٌ نفسيٌّ زائفٌ، شيء ما اخترعه المعالجون النفسيُّون ليلطِّفوا ذنبَ الغرب الأبيض. في كلّ سنواته الدراسيّة والعمليّة، لم يسمع قطُّ مريضاً ملوّناً يتحدَّث عن الحاجة إلى «نهاية». كانوا دائماً يحتاجون إلى الانتقام، إلى البعد، إلى الغفران، وإلى محام جيّد ربّما، ولكن ليس إلى نهاية. كان يقول إنَّ الناس يسيؤون فهم الانتحار، والقتل، وجراحة ربط المعدة، والزواج بين الأعراق، ويتكارمون بالبقشيش على النهاية، في حين ما يصلون إليه في الحقيقة إنّما هو المحو.

المشكلة مع «االنهاية» أنّك متى تذوّقتها فستريدها في كلّ مظهر من مظاهر حياتك، وخصوصاً عندما تنزف حتّى الموت، وعبدك في قمّة ثورته يصرخ «أعد إليّ أفلام *الأوغاد الصغار* خاصّتي، يا بن العاهرة!»، ويهاجم المعتدي عليك بمثل هذا الغضب المليء بالعُقد، الذي استدعى نصف عناصر قسم مفوضيّة شرطة مقاطعة لوس أنجلس لإيقافه، في الوقت الذي أحاول فيه إيقاف نزيف الدّم بغلاف مجلّة «فايب» مشبع بالماء كان أحدهم تركه في مزراب ماء المطر، فلا وقت لديَّ لأجعل أيَّ شيء ينزلق. كاني ويست، أعلن «أنا موسيقا الراب»، وجاي زي اعتقد أنّه بيكاسو، والحياة زيارة عابرة لعينة.

«الإسعاف سيكون هنا حالاً».

استقرّتِ الأمور أخيراً. هوميني، الذي لم يتمكّن من التوقُّف عن الصراخ، كان قد خلع قميصه وفتله ليجعل منه مخدّة، ثمّ جعل رأسي يرتاح في حضنه. ونائب المفوّض جلست القرفصاء أمامي، تلكز بلطف

جرحيَ بمؤخّرة مصباحها اليدويّ. «لقد كان أمراً شجاعاً لعيناً ما قمتَ به، أيُّها الزنجيُّ الهامس، هل أستطيع تقديم أيّ شيء حاليّاً؟»

«االنهاية».

«لا أظنُّك في حاجة إلى غُرز، لا تبدو مثل رصاصة في البطن، إنّها أقرب إلى إصابة في رواسب الدهون البطنيّة، إنّها سطحيّة حقّاً».

أيُّ واحد يصف الجرح الناتج عن رصاصة بأنّه سطحيٌّ هو إنسان لم يُصَب بطلق ناريٍّ قطُّ. لكنّي لم أكن لأسمح لبعض الفتور في التعاطف بأن يقفَ في طريق النهاية الكاملة.

«ليس أمراً قانونيّاً أن تصرخ «نار!» في مكان يكتظُّ بالجمهور، أليس كذلك؟».

«هو كذلك».

«حسناً لقد همستُ «العنصريّة» في عالم ما بعد العنصريّة».

أخبرتُها عن جهودي لاستعادة ديكنز، وكيف فكّرتُ في بناء مدرسة ستعطي المدينة إحساساً بالهويّة. ربّتت على كتفي بتعاطف، وخاطبت المشرف عليها عبر اللاسلكي، وبينما كنّا ننتظر سيّارة الإسعاف تناقشنا، ثلاثتنا، في خطورة الجريمة. المقاطعة راغبة عن اتّهامي بأيِّ شيءٍ أكثر من تخريب ممتلكات عامّة تخصُّ الولاية. وأنا أحاول أن أقنعهما أنّه حتّى مع انخفاض معدّل الجريمة في المنطقة مُذ وُجدت أكاديميّة ويتون، فما فعلتُه به لا يزال انتهاكاً للتعديل الأوّل، قانون الحقوق المدنيّة، وإن لم يكن ثمّة هدنة في الحرب ضدَّ الفقر فعلى الأقلّ هناك انتهاك لأربعة بنود من اتفاقيّة جنيف.

وصل المسعفون، وحالما استقرّت حالتي مع الشاش وبضع كلمات رقيقة، مضى عناصر الإسعاف الطبيّ في إجراءاتهم الأنموذجيّة.

«هل لديك أقارب».

وأنا لستُ ميتاً تماماً، ولكنّني قريبٌ من النهاية، فكّرت في ماريبسا، التي، إذا كان لوضعيّة الشمس العالية في السماء الزرقاء الفسيحة أيُّ إشارة، هي بالتأكيد في النهاية البعيدة لهذا الشارع بالتحديد تنفّذ استراحة الغداء، وحافلتها مركونة في مواجهة المحيط، وقدماها العاريتان على لوحة القيادة، وأنفها محشور في كتاب لكامو، وتستمع إلى فرقة توكينغ هيدز وأغنيتها «هنا يجب أن يكون المكان».

«الديّ صديقة، لكنّها متزوّجة».

«ماذا عن ذاك الشاب؟»، سألتني وهي تشير برأس قلمها إلى هوميني، عاري الصدر، يقف تماماً في الجانب الآخر، يعطي تصريحه إلى مساعدة المفوّض التي كانت تكتب على المفكّرة وتهزُّ رأسها على نحو عجيب. «هل هو من الأسرة؟».

«من الأسرة؟» هوميني، الذي سمع كلامنا، وشعر بالإهانة على نحو ما، مسح ما تحت إبطيه المجعّدين بقميصه، واقترب منّا ليعرفَ كيف أصبح وضعه «كشيء ما أقرب إلى الأسرة؟».

«يقول إنّه عبده»، أعلنتِ المفوّضة وهي تقرأ من مفكّرتها «عملَ لأجله، وفقاً لهذا اللعين، في السنوات الأربعمئة الأخيرة».

أومأت عنصر الإسعاف برأسها، وهي تمسح بيديها في القفاز المطاطيّ على طول ظهر هوميني المتعرّج.

«من أين جاءت آثار الضرب هذه؟».

«كنتُ أُجلَد. ومَن غير زنجيٍّ تافه كسول مثلي ستظهر آثار الجلد على ظهره؟».

بعد أن قيّدوا يديَّ إلى النقّالة الطبيّة، عرفت مساعدتا المفوّض أنَّ لديهما أخيراً تهمة يوجّهانها إليّ، مع أنّنا لم نتّفق بعد على الجريمة، وهما يحملانني عبر الحشد إلى سيّارة الإسعاف.

«عبوديّة إنسانيّة؟».

«لا، هو لم يُبَع قطُ أو يُشرى، ماذا عن الأشغال الشاقّة الإجباريّة؟».

«ربّما، ولكن لا يبدو أنّك غصبته على العمل».

«هل حقاً جلَدته؟».

«ليس تماماً، لقد دفعت لأحدهم... إنّها قصّة طويلة».

إحدى المسعفات وجب عليها أن تعقد رباط حذائها، فوضعوني على مقعد الحافلة الخشبيّ، في حين كانت هي تعقده. على ظهر المقعد الخلفيّ كان ثمّة صورة فوتوغرافيّة لوجه مألوف بابتسامة مريحة وربطة عنق حمراء.

«هل حصلتَ على محامٍ جيّد؟» سألتني مساعدة المفوّض.

«كلِّمي ذاك الزنجيّ هناك في الصورة فحسب»، ونقرتُ على الإعلان الذي كان مكتوباً فيه:

هامبتون فيسك، محام

تذكّر أنّ ثمّة أربع خطوات للوصول إلى البراءة

١- لا تشتِم! ٢- لا تركض! ٣- لا تقاوم الاعتقال! ٤- لا تشتِم!

١-٨٠٠ الحريّة Se Habla Español[1]

عُرضت عليّ في وقت متأخِّر لائحة اتّهامات هيئة المحلّفين الكبرى، لكنّ خدمات هامبتون كانت تستحقّ كلّ فلس يُصرف عليها. أخبرته أنّه لا يمكنني تحمُّل ضياع الوقت في السجن، فلديّ محاصيلُ على وشك أن تُجنى، وإحدى إناث الخيل ستلد في يومين. على الرغم من خبرته في القطف، تمشّى إلى داخل جلسة الاستماع وهو يمسح أوراق الشجر عن

(١) بالإسبانيّة بالأصل: يتكلّم الإسبانيّة. (م)

سترته، وينفض الأغصان عن شعره المموّج، حاملاً وعاءً من الفاكهة، ويتحدّث «كمزارع، موكِّلي هو عضو لا غنى عنه في مجتمع الأقلّيّة الموثّق أنّه يعاني من سوء التغذية ونقصها. هو لم يغادر ولاية كاليفورنيا قطّ، ويملك سيّارة شاحنة عمرها أكثر من ٢٥ سنة تسير على كحول الإيتانول، وهي مادّة أقرب إلى المستحيل إيجادها في هذه المدينة، ولهذا لا خوف من هروبه...».

المحامي العامّ في كاليفورنيا، وكانت قد طارت من ساكرامنتو إلى هنا للمرافعة في قضيّتي، قالت وهي تثب بحذائها ماركة برادا «اعتراض! هذا المدّعى عليه، بعبقريّته الشرّيرة الموجودة فيه، ومن خلال أعماله البغيضة، خطّط للتمييز العنصريّ ضدّ كلّ عِرق في الوقت نفسه، إذا استثنينا امتلاكه للعبيد دون خجل. إنّ ولاية كاليفورنيا تشعر أنّ لديها أكثر من دليل تثبت فيه أنّ المدّعى عليه انتهك على نحو فاضح قوانين الحقوق المدنيّة لأعوام ١٨٦٦، ١٨٧١، ١٩٥٧، ١٩٦٤، ١٩٦٨، وقانون المساواة للعام ١٩٦٣، والتعديلين الثالث عشر والرابع عشر للدستور، وما لا يقلّ عن ستّ من الوصايا العشر اللعينة. لو كان الأمر في حدود سلطتي لكنت وجّهت إليه تهم جرائم ضدّ الإنسانيّة!».

«هذا مثال على إنسانيّة موكِّلي» ردّ هامبتون بهدوء، وبكلّ لطف وضع وعاء الفاكهة على طاولة القاضي، ثمّ انحنى انحناءةً ماكرةً «مقطوفة حديثاً من مزرعة موكِّلي، حضراتكم».

فرك القاضي نغوين عينيه المتعبتين، ثمّ التقط حبّة درّاق من سلّة الفاكهة ولفّها بين أصابعه، وقال: «السخرية التي لا أفتقدها هي أنّنا نجلس هنا في قاعة المحكمة هذه- محامي عامّ أنثى سوداء من نسب آسيويّ، مُدّعى عليه أسود، محامي دفاع أسود، وكيل محكمة لاتينيّ، وأنا، قاضٍ من المنطقة الفيتناميّة- الأمريكيّة، نضع المعاييرَ لما هو أساساً

حجّة قضائيّة للفاعليّة والوجود الحقيقيّ للتفوُّق الأبيض كما هو معبَّر عنه في نظامنا القانونيّ. وفي حين لا أحدَ في هذه القاعة ينكر الفرضيّة الأساسيّة «للحقوق المدنيّة»، فنحن نجادل إلى الأبد ما يشكّل «العدالة للجميع تحت القانون» كما هو معرّف في موادّ الدستور نفسها، التي يُتّهم المدَّعى عليه بانتهاكها. وفي محاولة لاستعادة مجتمعه من خلال إعادة تقديم المفاهيم، المسمّاة فصلاً عنصرياً وعبوديّة، تلك التي أعطته تاريخه الثقافيّ، وصل إلى تعريف مجتمعه على الرغم من عدم دستوريّة وعدم وجود كلّ تلك المفاهيم. هو أشار إلى خطأ أساسيّ في كيفيّة ادّعائنا، نحن الأمريكيين، أنّنا نرى المساواة «أنا لا أهتمُّ إذا كنتَ أسودَ، أو أبيضَ، أو أسمرَ، أو أصفرَ، أو أحمرَ، أو أخضرَ، أو بنفسجيّاً». قلنا كلّ ذلك. طرحت الأمر كدليل على أساليبنا غير المؤذية، ولكن إذا رسمتَ أيّاً منّا بالبنفسجيّ أو الأخضر فسنصبح مجانين تماماً. وهذا ما يفعله. إنّه يطلي كلّ شخص. يطلي مجتمعه بالبنفسجيّ والأخضر، وينظر فيما إذا كان أحد لا يزال يؤمن بالمساواة. لا أعرف إن كان ما يفعله قانونياً أو ليس كذلك، لكنّ الحقّ المدنيّ الوحيد الذي أكفله لهذا المدَّعى عليه هو الحقّ في الإجراءات الواجبة، والحقّ في محاكمة سريعة. ستلتئم المحكمة غداً صباحاً عند الساعة التاسعة، لكن تشبّثوا بمقاعدكم أيُّها الموجودون، بغضّ النظر عن الحكم، بريئاً كان أو مذنباً، سوف تذهب القضيّة إلى المحكمة العليا، لذلك آمل ألاّ يكون في جدول أعمالك شيء للسنوات الخمس القادمة. يُسمَح للمدّعى عليه أن يدفع الكفالة، ويخرج». قضم القاضي نغوين قضمة كبيرة من حبّة الدرّاق، ثمّ قبّل صليبه «يخرج المدّعى عليه بكفالة حبّة بطيخ أصفر وبرتقالتين ذهبيّتين».

سَواذ كاملْ

٢٤

توقّعتُ أن يكون تكييف الهواء في المحكمة الدستوريّة العليا سيّئاً، مثل كلّ أفلام المحاكمات الجيّدة، كفيلمَي *اثنا عشر رجلاً غاضباً*، و*مقتل طائر مقلّد*. فالمحاكمات في الأفلام تجري دائماً في أماكنَ رطبة في حرّ الصيف، لأنّ كتب علم النفس تقول إنّ معدّل الجريمة يرتفع مع ارتفاع درجة الحرارة. وهنا انتشر الغضب، والشهود المتعرّقون والمحامون داخل قاعة المحكمة بدؤوا يصرخون على بعضهم بعضاً، وأعضاء هيئة المحلّفين يروّحون لأنفسهم، ويفتحون النوافذ الرباعيّة بحثاً عن الهروب وتنفُّس هواء منعش. في هذا الوقت من العام تتميّز واشنطن العاصمة بأنّها رطبة على نحو واضح، لكنّ رطوبتها لطيفة، وتكاد تكون باردة داخل قاعة المحكمة، ولكن يجب عليّ فتح النوافذ بطبيعة الحال، لأسمح للدخان، ولخمسِ سنوات من إحباط النظام القضائيّ بالخروج.

«لا يمكنك احتمال هذا الحشيش»، صرختُ على فريد مان، رسّام المحكمة، ذي الموهبة المحدودة، المولع بالأفلام. نحن الآن في استراحة الغداء لما عُدَّ أطول قضيّة تُعقَد في أروقة المحكمة الدستوريّة العليا. نجلس في حجرة الانتظار، ونمرّر الوقت وسجائر الحشيش ذهاباً وإياباً، ونقضي على خاتمة فيلم بضعة *رجال طيّبين* الذي لم يكن فيلماً عظيماً، لكنّ ازدراء جاك نيلسون للممثلين، وللسيناريو، وللطريقة التي مثّل فيها آخر حوار، رفعت مستوى الفيلم.

«هل طلبتَ الرمز الأحمر».

«ربّما فعلت. أنا منتشٍ جدّاً الآن...».

«هل طلبتَ الرمز الأحمر».

«أنت محقٌّ لعين. لقد فعلت، وفعلتها ثانية، لأنَّ هذه الماريهوانا عظيمة»، قطع فريد حوار الشخصيَّة «ماذا تُدعى؟» مشيراً إلى السيجارة في يده.

«ليس لها اسم حتّى الآن، ولكنَّ الرمز الأحمر يبدو اسماً جيّداً».

رسم فريد كلَّ محاكمات القضايا المهمّة: زواج المثليّين، نهاية قانون حقّ التصويت للعام ١٩٦٥ المقيِّد للسُّود، زوال سياسة العمل الإيجابيّ لصالح المتأثّرين بالتمييز في التعليم العالي، وتمدُّده ليزول في كلّ مكان آخر. هو يقول إنّه، إبّان عمله في الرسم ثلاثين عاماً في قاعة المحكمة، لأوّل مرّة في تاريخه يشاهد محكمةً تُفَضُّ من أجل الغداء، ولأوّل مرّة يرى القضاة يرفعون أصواتهم ويبحلقون ببعضهم بعضاً من الأعلى إلى الأسفل. عرض عليّ رسمه لجلسة اليوم، وفيها قاضية كاثوليكيّة محافظة تشير بإصبعها الوسطى إلى قاض كاثوليكيّ ليبراليّ من البرونكس يوجد خدش خفيٌّ على خدِّه.

«ماذا تعني coño؟».

«ماذا؟».

«ذلك ما همسته، وأتبعته بـ[1] Chupa mi verga, cabrñn»

بدت صورتي الكاريكاتوريّة المرسومة بأقلام الرصاص الملوَّنة فظيعة في أسفل يسار اللوحة. لا أستطيع التعليق على محكمة تسمح لشركات غير خاضعة لقوانين أن تنفق على الحملات السياسيّة أو تحرق العلم

(١) بالإسبانيّة بالأصل: لتمصّ قضيبي أيّها العاهر. (م)

الأمريكيّ، لكنّ أفضل قرار اتّخذته كان حظرَ استعمال الكاميرات في قاعة المحكمة، لأنّني، كما هو واضح في الرّسم، ابن عاهرة قبيح، أنفي بصليّ الشكل، وأذنايَ العملاقتان تبرزان من جبل رأسي الأجرد مثل مقياس رياح لحميّ اللون. ألمع بابتسامة أسنان صفر، وأحدّق في القاضية اليهوديّة المتصابية كأنّني أستطيع الرؤية عبر ثوبها. قال فريد إنّ السبب وراء حظر الكاميرات لا علاقة له بالمحافظة على الذوق العامّ أو الكرامة، إنّه لحماية البلاد من رؤية ما وراء صخرة بليموث، لأنّ المحكمة العليا هي المكان الذي تخرج البلاد فيها قضيبها وثدييها وتقرّر مَن سينكح، ومَن سيتذوّق حليب الماما. إنّها الإباحيّة الدستوريّة هناك، وماذا قال القاضي بوتر مرّة عن الفحش؟

«هل تظنّ أنّ بإمكانك، على الأقلّ، محو أسناني القواطع من الرسم؟ أبدو مثل بلاكولا!».

«بلاكولا فيلم بُخس حقُّه».

سحب فريد مشبك الألمنيوم من حبل التعريف المتدلّي من رقبته، واستخدمه كمشبك بديل عن عقب السيجارة من أجل إنهاء بقيّة الحشيش في سحبة واحدة. أغلق عينيه وأنفه بشدّة. سألته إن كان بإمكاني استعارة قلم رصاص، فأومأ برأسه موافقاً، فاغتنمتُ الفرصة لأزيل كلّ أدوات الرسم البنيّة من حقيبة ألوان الرصاص الفاخرة. اللعنة، سأرسَم كأبشع متقاضٍ في تاريخ المحكمة الدستوريّة العليا.

في دروس العلوم الاجتماعيّة، المعرّفة في منهج والدي بأنّها الأساليب والغايات للشعب الأبيض الذي لا يعرف الكلل، اعتاد أبي تحذيري من الاستماع إلى الراب أو البلوز مع غرباء بِيض. ومع تقدُّمي في العمر أصبحتُ حذراً من لعب المونوبولي أو شرب كأسَي بيرة أو تدخين الحشيش معهم أيضاً، فمثل هذه الأنشطة يمكن أن تولّدَ شعوراً

زائفاً بالحميميَّة. ولا شيء، من القطُ الجائع الغاضب إلى العبَّارة الأفريقيَّة، أكثر خطورةً من رجل أبيضَ فوق ما يَعتقد أنَّها أرضٌ حميميَّة. لما انتهى فريد من نفث غيمة دخان في ليل واشنطن العاصمة، تألَّقت عيناه بنظرة الأسود الغاضب «دعني أقل لك شيئاً يا رجل. لقد شاهدتهم جميعهم يمرُّون من هنا. التحليل العِرقيُّ، الزواج بين الأعراق، خطابات الكراهية، سياسات التصنيفات العِرقيَّة. هل تعرف الفرق بين شعبي وشعبك؟ بقدر ما نحن الاثنان نريد الاستئثار بالقرار، فإنَّكم، يا أبناء العاهرات، بمجرَّد تورُّطكم ليس لديكم خطَّة هروب. ماذا عنَّا؟ جاهزون في ثانية. أنا لم أدخل قطُّ مطعماً، أو صالة بولينغ، أو أيّ نشاط من دون أن أسأل نفسي ما إذا كانوا اختاروا هذه اللحظة للقتال، فكيف سأخرج من هنا؟ كلَّفنا ذلك جيلاً، لكنَّنا تعلَّمنا الدرسَ اللعين. يقولون لكم أيُّها الناس إنَّ المدارس قدَّمت كلَّ معرفتها، وليس هناك مزيد من الدروس لتتعلَّموها، وأنتم، أيُّها الحمقى، تصدِّقونهم. فكِّروا فيها، إذا دقَّ عليكم جنودُ النازيَّة البابَ في هذه اللحظة، ماذا ستفعلون؟ ما هي استراتيجيَّة الخروج؟

في هذه اللحظة دَقَّ أحدُهم الباب. إنَّها موظَّفة المحكمة، تبتلع آخر لفافة من لفائف التونة الجاهزة، وتتساءل لماذا تتدلَّى ساقي خارج النافذة. هزَّ فريد رأسه ببساطة، وأنا نظرت إلى الأسفل. حتّى لو نجوتُ من السقوط من ارتفاع ثلاثة طوابق، فإنَّني سأعلق في فناء المحكمة ذي الرخام المبتذل، الذي تحيطه جدران ارتفاعها ثلاثون قدماً من النمط الاستعماريِّ للهندسة المعماريَّة، محاطاً برؤوسِ أُسود، وسيقان البامبو، وأزهار الأوركيديا الحمراء، ونافورة مليئة بالطمي. في طريقنا للخروج أشار فريد إلى باب جانبيٍّ صغير خلف نبتة مزروعة بأصيص، يقود، على نحو محتمل، إلى الأرض الموعودة.

دخلتُ مرَّة ثانية القاعة لأجدَ صبيّاً أبيضَ باهت اللون على نحو

غريب يجلس في مقعدي. بدا الأمر كأنّه ينتظر الربع الأخير من مباراة كرة قدم، وتحرّك إلى الأسفل من السدّة العليا للملعب متسلّلاً أمام مُرشدي المقاعد ليتّخذ مقعداً أخلاه أحد المشجّعين على نحو مبكّر ليتجنّب ازدحام المرور. ذكّرني الأمر بالعبارة المجازيّة لكوميديّ أسودَ حول أرباب العمل الذين يعودون ليجدوا «الزنوج في مقاعدهم» يتراهنون بأطوال القشّات على مَن سيسألهم الرحيل.

«أنت في مقعدي أيّها الشاب».

«مهلاً، أردت فقط أن أخبرك أنّني أشعر أنّ لي حقوقاً دستوريّة أيضاً في المحكمة، ولا يبدو أنّ لديك كثيراً ممّن يهتفون لك»، حرّك مدفعه المضادّ للطائرات غير المرئيّ في الهواء: بوم! بوم! بوم!

«أقدّر لك هذا الدعم، وكنت أحتاج إليه بشدّة، لكن انزلق بعيداً فحسب».

عاد القضاة إلى قاعة المحكمة، ولم يلاحظ أحدٌ شريكي الجديد في المباراة. كان يوماً طويلاً. ظهرت الانتفاخات تحت عيونهم، وأثوابهم تجعّدت وفقدت بريقها. في الحقيقة، بدا رداء القاضي الأسود ملطّخاً بصلصة شواء، أمّا الشخصان الوحيدان اللذان بديا نشيطين فهما رئيسُ القضاة، بباروكة شعر الرئيس جيفرسون، وهامبتون فيسك الوسيم، فكلٌّ منهما أنيق، ولا تظهر عليهما أمارات التعب. ومع ذلك، سجّل هامبتون نقطة على خصمه رئيس القضاة بتغيير بزّته. إنّه الآن يتألّق ببزّة مولَعة بالجدال! عريضة من فوق مع بنطال ضيّق بلون أخضر ضارب إلى الصفرة. تجرّد من قبّعته، نوع هومبورغ، ومن عصاه ذات الرأس العاجيّ، وسوّى بنطاله، ثمّ وقف جانباً، في حين كان لدى رئيس القضاة ما يعلنه.

«أعلم أنّه كان يوماً حافلاً، وأعلم كذلك أنّ «العِرق» في هذه الثقافة أمرٌ صعب الحديث عنه، فيما نشعر بالحاجة إلى الاخت...».

صار الولد إلى جانبي يثرثر بترّهات مماثلة مأخوذة من فيلم *منزل الحيوانات*، وأنا سألت، بكلّ رقّة، ابنَ العاهرة الروحيّ هذا عن اسمه، لأنّه من حقّي أن أعرف مَن يقاتل إلى جانبي في الخندق.

«آدم ي...».

«إنّك رَجُلي».

إنّني مُنتشٍ إلى أبعد الحدود، ولكن ليس إلى درجة تجعلني لا أعرف أنَّ العِرقَ «أمرٌ صعب الحديث عنه» لأنّه من الصعب الحديث عنه. انتشار إساءة معاملة الأطفال في هذا البلد أمرٌ صعب الحديث عنه، لكنّك لا تسمع أناساً يشكون من ذلك. إنّهم فقط لا يتكلّمون في الأمر فحسب. ومتى كانت آخر مرّة أجريت فيها حديثاً هادئاً وواضحاً عن متعة سفاح القربى بالتراضي؟ في بعض الأحيان، مناقشة بعض الأمور هي أمرٌ صعب ببساطة، لكنّني أظنُّ حقّاً أنَّ البلد يؤدّي عملاً لائقاً في مخاطبة العِرق، وعندما يقول أحدُهم «لماذا لا نستطيع التّحدُّث عن العِرق على نحو أكثر أمانة؟» فهو يعني «لماذا لا تستطيعون أيُّها الزنوج أن تكونوا منطقيّين؟»، أو «تبّاً لك أيُّها الولد الأبيض، إذا قلتُ ما أردت قوله فستصيبني نيرانهم قبل أن تصيبني نيرانك لو كان في أمر العِرق أيُّ سهولة في الحديث عنه». وبالعِرق نقصد «الزنوج» لأن لا أحد، من أيِّ معتقدٍ، يبدو لديه أيُّ صعوبة في الحديث عن الهراء السخيف المتعلّق بالأمريكيّين الأصليّين، واللاتينيّين، والآسيويّين، وأحدث عِرق في أمريكا... المشاهير.

الناس السُودُ حتّى إنّهم لا يتحدّثون عن العِرق.لم يعُد ثمّة شيء يُعزى للون، وكلُّ أحاديثهم «حالات مسكّنة للألم». الناس الوحيدون الذين يناقشون مسألة العِرق ببصيرة وشجاعة هم أولئك الرجال البِيض في منتصف العمر، الصاخبون الذين يحملون أفكاراً رومانسيّة عن حقبة كينيدي وموسيقا موتاون، والأولاد البيض المنفتحون واسعو الاطّلاع

كالأولاد بقمصانهم المصبوغة المألوفين الذين يجلسون إلى جواري وهم يلبسون قمصاناً طُبع عليها *الحرّيّة للتيبت وبوبا فيت*، وعددٌ قليلٌ من الصحافيّين المستقلّين في ديترويت، والمنعزلون عن العالم، الأمريكيّون الذين يجلسون في أقبية منازلهم يكبسون أزرار لوحات مفاتيح حواسيبهم، ويكتبون ردوداً على سيلٍ من التعليقات العنصريّة اللانهائيّة الدقيقة والذكيّة على شبكة الإنترنت. لذلك، شكراً لله على وجود شبكة إم إس إن بي سي، وريك روبن، والشابُّ الأسود في مجلّة *ذا أتلانتيك*، وجامعة براون، والقاضية الجميلة في المحكمة الدستوريّة العليا، التي هي من آبر وست سايد، وهي تميل على نحو لطيف على المايكروفون، وتسأل أخيراً أوّلَ سؤال له معنى «أعتقد أنّنا أنشأنا مأزقاً قانونيّاً هنا، وهو إذا كان انتهاكُ الحقوق المدنيّة الذي قام به المدّعى عليه، أدّى إلى الإنجازات نفسها، تلك التي كان من المفترض أن تحقّقها الأنظمة السياسيّة، ولم تفعل، فهذا في الحقيقة انتهاك من جانبها للحقوق المدنيّة المذكورة. ما لا يجب علينا أن نفوّته هو أنّ عبارة «فصل عنصريٌ لكن عادل» أُلغيت، ليس على أساس أخلاقيّ، ولكن على أساس أنّ المحكمة وجدت أنّ الفصل لا يمكن أن يكون عادلاً. وكحدٍّ أدنى، هذه القضيّة تقترح ألاّ نسأل أنفسنا فيما إذا كان الفصل عادلاً حقّاً، ولكن ماذا عن «فصل عنصريّ، ليس عادلاً تماماً، ولكن أفضل ممّا كان عليه قبلاً إلى درجة عالية». Me ضدّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة تستدعي اختباراً جوهريّاً أكبر لما نعنيه بـ«فصل» و«عادل» و«أسود»، لذلك دعونا ننتقل إلى الأهمّ، ماذا نعني بـ«أسود»؟».

أفضل ما يتّصف به هامبتون فيسك، بخلاف أنّه يرفض موت موضة السبعينيّات، هو أنّه مستعدٌ دائماً. سوّى طيّة قميص بدلته التي تجثم على صدره مثل خيمة عملاقة، وبعدها سعل مصفّياً حنجرته، وهي إيماءة مقصودة يعرف أنّها ستخلق توتّراً عند بعض الموجودين، فهو يريد

لجمهوره أن يفقد أعصابه، فهذا يعني، إن لم يكن لسبب آخر، أنّهم يقظون.

«إذاً ما هو السّواد، حضرتكم؟ هذا سؤال جيّد، وهو السؤال نفسه الذي وجّهه الكاتب الفرنسيُّ جان جينييه بعد أن طلب منه أحد الممثّلين أن يكتب مسرحيّة كلُّ شخوصها سُود، وتأمّل جينييه متسائلاً ليس في «ماهيّة الأسود» فحسب، بل أضاف تساؤلاً أكثر جوهريّة «أوّلاً، ما هو لونه؟».

أرخى فريق هامبتون القانونيُّ الستائرَ فوق النوافذ، في حين مشى باتّجاه مفتاح الضوء، وغرقت قاعة المحكمة في سواد حالك. «بالإضافة إلى جينييه، كثيرٌ من مغنّي الراب والمفكِّرين السُّود كانوا أدلوا بدلائهم في هذه الفكرة. خماسيُّ فرقة راب قديمة، لصبيان بِيض مدّعين معروفين باسم «المراهقين السُّود الصغار»، أكّدوا أنَّ «السّواد هو حالة ذهنيّة». والد موكِّلي عالمُ النفس الأفريقيُّ- الأمريكيُّ إف. كيه. مي (الرحمة لروحه العبقريّة اللعينة) افترض أنَّ الهويّة السّوداءَ تشكّلت على مراحل. في نظريّته عن السّواد المثاليّ، المرحلة الأولى هي الزنجيُّ المعتنِق حديثاً. هنا وُجد الرجل الأسود في حالة ما قبل الوعي، تماماً مثل كثير من الأطفال الذين سيخافون الظلام الدامس الذي يغمرنا الآن. الزنجيُّ المعتنقُ حديثاً خائفٌ من سواده الخاصّ، سواد يشعر أن لا مفرَّ منه، مطلق، وأقلّ من...» طقطق هامبتون أصابعه، ثمّ عُرضت صورة ضخمة على الجدران الأربعة للقاعة فيها مايكل جوردان على عملة شيلن مُصوَّراً كالإلهة نيكه، لكن استُبدِلت بسرعة بصور متعاقبة لكولن باول وهو يعرض وصفته لليورانيوم الخام أمام الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة، قبل الفرصة السّانحة لغزو العراق، وكوندوليزا رايس تتفوّه بالكذب عبر فتحة أسنانها، أولاء هم الأفريقيُّون- الأمريكيُّون المراد بهم توضيح وجهة نظره، نماذج عن أنَّ كره الذات يمكن أن يجبرَ المرءَ على تقدير القبول السائد بدلاً من احترام الذات والأخلاق. صور لكوبا غودينغ، وكورال

من مسلسل *العالم الحقيقيّ*، ومورغان فريمان كلُّها صارت تتبدَّل بسرعة واحدة تلو الأخرى. باستدلاله بمثل أيقونات البوب المنسيِّين أولاء، فإنَّ هامبتون يلعب مع نفسه، لكنَّه استمرَّ في خطبته «إنَّهم يعانون من ضعف تقدير الذات، وعلى نحو عظيم من بشرتهم السَّمراء» انتشرت صورة، فيها قاضٍ أسودُ يدخِّن السيجار وهو ينفِّذ رمية غولف قصيرة على جدران المحكمة، ما جعل الجميع يضحك، بما فيهم القاضي الأسود «في المرحلة الأولى شاهد الزنوج إعادة عرض مسلسل *الأصدقاء*، غافلين عن حقيقة أنَّه في أيِّ وقت يواعد فيه ذكر أبيضُ في مسلسل (سيت كوم) امرأة سوداءَ على التلفزيون فهو دائماً الرجل الأبيض الأقلُّ جاذبيَّة في المجموعة، الذي يحصل على الحبِّ دائماً من الأخوات. إنَّها مرحلة السلاحف، والبكَّائيِّين، أمثال ديفيد شويمر، وجورج كوستانزاس في المجموعة...».

رفع رئيس القضاة يده بتواضع.

«عذراً سيِّد فيسك، لديَّ سؤال».

«ليس الآن يا بن العاهرة، أنا في ذروة نجاحي».

وأنا كنت كذلك. سحبتُ آلة لفِّ السجائر خاصَّتي، وبقدر ما أستطيع، في الظلام، عبَّأتها بالمنتَج الرَّطب، يمكنهم اتِّهامي بازدراء le mépris[1] كلِّ شيء. لا أحتاج إلى شخص يخبرني ما هي المرحلة الثانية من السَّواد. إنَّها «حرف B بخطٍّ كبير». أنا بالفعل أعرف هذا الهراء، لقد حفر في رأسي مُذ كنت كبيراً كفاية لألعب «واحد من الأشياء لا ينتمي» وأبي يجعلني أشير إلى الشابِّ الأبيض الرمز في صورة فريق ليكرز. مارك لاندزبيرغر، أين تكون حين أحتاجك؟ «السمة المميِّزة لسواد المرحلة الثانية هي الوعي المتزايد للعِرق. العِرق هنا مستهلك

(١) بالفرنسيَّة بالأصل: احتقار. (م)

بكلّيّته، ولكن بنمط إيجابيٍّ. يصبح السّواد مكوّناً أساسيّاً في الإطار التجريبيّ والخياليّ عند كلّ شخص. السواد مثاليٌّ والبياضُ ملعونٌ. المشاعر تتراوح بين المرارة والغضب وتدمير الذات إلى موجات من الابتهاج الموالي للسُّود ولأفكار التميز الأسود...». ولتجنُّب أن يُكشف أمري نزلتُ تحت الطاولة، لكنَّ سيجارة الحشيش لا تشتعل، ولا أستطيع سحبَ أيِّ نفَس. من مكان اختبائي الجديد جاهدتُ لأحافظ على احتراق الحشيش، في حين كنتُ أتخيَّل لمحات غريبة من صورٍ لفوي شيشاير، وجيسي جاكسون، وسوجورنر تروث، ومامز مابلي، وكيم كارادیشیان، ووالدي. لا يمكنني أبداً الهروب من والدي. كان محقّاً، فلا يوجد شيء اسمه النهاية. ربّما كانت عشبة الحشيش رطبة جدّاً حتّى لا تحترق احتراقاً كاملاً، أو ربّما كبستها كثيراً في آلة اللفِّ، وربّما ليس هناك أيُّ حشيش على الإطلاق، وأنا منتشٍ جدّاً إلى درجة أنّني حاولت تدخين إصبعي في الدقائق الخمس السابقة. «المرحلة الثالثة للسّواد هي مرحلة تسامي العِرق، وفيها يحارب الوعي الجمعيُّ القمعَ ويسعى إلى الصفاء». تبّاً، أصبحتُ هائماً، أنا شبحٌ. قرّرت أن أتسلَّل بكلِّ هدوء من أجل ألاَّ أتسبَّبَ بالإحراج لهامبتون الذي كان يعمل مثل بطلِ العدالة في هذه القضيَّة الأبديَّة. «الأمثلة على الناس السُّود من المرحلة الثالثة: روزا باركس، هارييت تيوبمان، سيتينغ بول، سيزار تشافيز، إيكيرو سوزوكي». غطَّيتُ وجهي في الظلام الحالك، والصور المتلاحقة لا تزال تشكِّل فيلماً يؤدِّي فيه بروس لي بعض ركلاته في فيلم دخول *التنِّين*. شكراً لفريد رسّام المحكمة، فلديَّ خطّة للخروج، وأستطيع اتّخاذ طريقي في الظلام. «شخصيّات المرحلة الثالثة هم المرأة على يسارك، والرجل على يمينك، إنّهم أناس يؤمنون بالجمال من أجل الجمال».

واشنطن العاصمة، مثل معظم المدن، أكثر جمالاً في الليل. ولكنّي، وأنا أجلس على درجات المحكمة الدستوريّة العليا أصنع غليوناً من علبة

صودا، وأبحلقُ في البيت الأبيض وهو مُضاء مثل نافذة متجر متعدِّد الأقسام، حاولتُ اكتشاف ما المختلف في عاصمة أمّتنا.

الصورة المتشكِّلة نتيجة التدخين من علبة بيبسي ليست الأفضل، لكنَّها ستكون كذلك. نفختُ الدُّخان في الهواء. ينبغي أن تكون المرحلة الرابعة من الهويّة السّوداء هناك. السّواد الكامل. لستُ واثقاً ممَّا يعنيه السّواد الكامل، ولكن أيّاً كان معناه، فإنّه بلا قيمة. على السطح يبدو السّواد الكامل عدمَ إرادة تحقيق النجاح. إنَّه دونالد غوينز، شيستر هايمس، آبي لينكولن، ماركوس غارفي، آلفري وودارد، والممثل الأسود المهمّ. إنّه سيجار تاباريللو، ونقانق، وقضاء ليلة في السجن. إنّه حركة تبديل الكرة بين اليدين في لعبة كرة السلّة، وارتداء حذاء المنزل في الخارج. إنَّه عبارتا «في حين» و«أشياء من هذا القبيل». إنّه أيدينا الجميلة وأقدامنا الفارعة. السّواد الكامل ببساطة هو عدم الاهتمام. إنّه كلارنس كوبر، تشارلي باركر، ريتشارد بريور، مايا ديرين، صن را، ميزوغوتشي، فريدا كالو، غودار الأسود والأبيض، سيلين، غونغ لي، ديفيد هامونز، بيورك، وفرقة ووتانغ كلان الموسيقيّة في أيٍّ من أطوارهم. السوّاد الكامل هو مقالات تبرِّر الخيال. إنّه إدراك عدم وجود أيِّ مطلق، باستثناء ما يكون موجوداً. إنَّه قبول التناقض ليس لكونه خطيئة وجريمة بل لأنّه ضعف إنسانيٌّ مثل أطراف الشعر المتعبة، ومثل الليبراليّة. السّواد الكامل هو إدراك أن لا معنى له كما هو حال بعض الكلمات التي نلفظها في كلامنا ولا معنى لها. العدميّة أحياناً هي التي تجعل الحياة تستحقُّ العيش.

وأنا جالس على درجات المحكمة الدستوريّة العليا، أدخِّن الحشيشَ تحت شعار «العدالة للجميع تحت القانون»، أبحلق في النجوم، اكتشفتُ أخيراً العيبَ في واشنطن العاصمة، إنّه كلُّ تلك الأبنية ذات الارتفاع الواحد، وليس هناك أيُّ أفق، ما خلا نصب واشنطن الذي يلمس السماء مثل إصبع وسطى عملاقة للأرض.

٢٥

الطريف في الأمر أنّه، وحسب قرار المحكمة الدستوريّة العليا، ربّما تكون حفلة الترحيب بعودتي هي أيضاً حفلة ترحيلي إلى السجن. لذلك كُتب على الراية المعلّقة فوق مدخل المطبخ دستوريّ **أو مؤسّساتيّ- مِن أجل اتّخاذ القرار**. أعدّت ماربيسا حفلةً صغيرةً اقتصرت على الأصدقاء وأسرة لوبيز الجيران. وكلّهم، في عريني يشاهدون أفلام *الأوغاد الصغار* التي كانت مفقودة، مجتمعون حول هوميني رجل السّاعة.

خرج فوي بريئاً من تهمة محاولة القتل، وعُدَّ أنّها كانت نزوة فقدان للأعصاب مؤقّتة، لكنّني ربحت قضيّة المدينة ضدّه. ليس الأمر أنّني لم أكن واضحاً، لكن مثل معظم المشاهير في أمريكا، إشاعة ثروة فوي شيشاير كانت مجرّد إشاعة، فبعد أن باع سيّارته ليدفع أتعاب المحاماة، الملكيّة الوحيدة التي كانت بحوزته وفيها قيمة حقيقيّة، وهي الشيء الوحيد الذي طالما أردتُه بشدّة: سلسلة أفلام *الأوغاد الصغار*.

مدعومين بالبِطّيخ، وشراب الجِن، والليموناده، وعارض سينمائيّ ١٦مم، وبصرف النظر عمّا سيُعرض على قناة إي إس بي إن الرياضيّة، استعددنا لسهرة ممتعة مع الأفلام المحبّبة بالأسود والأبيض، غير المشاهَدَة من أيّام «نعم، سيّدي» العنصريّة القديمة، التي تعود إلى زمن الفيلم الصامت و*لادة أمّة*. ساعتان من الفرجة ونحن نتساءل لِمَ تحمّل فوي كلّ هذه العناء. وعلى الرغم من أنّ هوميني كان جذلاً بصورته على

الشاشة لكنَّ الكنزَ السينمائيَّ في معظمه كان شريطاً سينمائيّاً لشركة إم جي إم لسلسلة أفلام *عصابتنا* لم يُطرح في سوق العرض. في منتصف الأربعينيّات كانت السلسلة ميتة من زمن، ومجرّدة من الأفكار، لكنَّ تلك الأفلام القصيرة التي كنّا نشاهدها بالتحديد كانت سيّئة. النسخة الأخيرة من العصابة بقيت سليمة: فروغي، ميكي، باكويت، جانيت غير المعروفة، وبالطبع هوميني في أدوار ثانويّة مختلفة. هذه الأفلام التي تعود إلى فترة ما بعد الحرب خطرة جدّاً. في فيلم «هوستي توستي النازيّة» تتبع العصابة أثر مجرم حرب ألمانيّ يتنكّر في هيئة طبيب. عنصريّة الطبيب جونز كشفته، فلمّا وصل إليه هوميني المريض بالحمى من أجل الفحص استقبله الطبيب بلكنة ألمانيّة ساخرة «أرى أنّنا لم ننتصر عليكم جميعاً إبّان الحرب. خذ حبّات الزرنيخ، وسنرى ما سينتج عن ذلك، فهمت؟». في فيلم «الفراشة الانطوائيّة» أدّى هوميني دوراً متألّقاً نادراً. هوميني، الذي نام في الغابة لفترة طويلة بحيث تسنّى الوقت لفراشة ملكيّة لتنسج شرنقة داخل شعره الطويل، وأصيب بالذعر ونزع قبّعته القشّ ليكتشف الآنسة كاربنتري. أعلنت هي بحماس أنَّ لديه شرنقة تعيش في رأسه، الكلمة التي سمعها أفراد العصابة الفضوليون بأنّها مرض (سِفلس)، فحاولوا إخضاعه لحجر صحيّ في ماخور. على الرغم من ذلك، كان ثمّة زوج من الأحجار الكريمة مخفيّين. في محاولة لإعادة إحياء الامتيازات الراكدة، أنتج الاستوديو أفلاماً عن قطع مسرحيّة أدّى أدوارها كلُّ أفراد العصابة. كان أمراً سيّئاً أنَّ العالم لم يشاهد باكويت بدور بروتوس جونز، وفروغي بدور سميثرز الغامض في فيلم «الإمبراطور جونز». عادت دارلا إلى المجموعة بعد غياب، وقدّمت أداءً لامعاً لشخصيّة أنتيغون الجموح. ألفالفا لم يكن أقلَّ لمعاناً في دور ليو المحاصَر في فيلم «الجنّة المفقودة» لكليفورد أوديت. لم يكُ ثمّة شيء، في معظم أفلام أرشيف فوي، يكشف سبب تحمُّل فوي هذا عناءَ إخفاء

هذه الأعمال عن الجمهور. العنصريّة تفيض كالعادة، لكن ليس ثمّة فظاعة أكبر من رحلة في الخارج تقضيها في أروقة السلطة التشريعيّة لولاية آريزونا.

«كم بقي من الشريط، هوميني؟».

«نحو خمس عشرة دقيقة، سيّدي».

لمعت كلمات «زنجيٌّ في كومة الحطب- مشهد رقم ١» على طول الشاشة فوق صورةٍ لكومة من حطب الوقود المخزّن. مرّت ثانيتان أو ثلاث و... بووم! ظهر رأسٌ أسودُ صغير بشعر مزغّب يكشف عن ابتسامة عريضة مثيرة «إنّهم قوم سودا!» قال قبل أن يرمش بعينيه الكبيرتين الواسعتين.

«هوميني، هل هذا أنت؟».

«أتمنّى لو كنت هو. هذا الولد طبيعيٌّ».

فجأةً، استطعنا سماع صوت المخرج وراء الصورة يصرخ «لدينا كثير من الحطب هنا، لكنّنا نريد المزيد من الزنوج، هيّا فوي، افعلها على نحو صحيح هذه المرّة، أعلم أنّكم فقط خمسة، لكن يمكنكم جعل المكان يعجُّ بالزنوج». المشهد رقم ٢ ليس أقلّ إثارة، لكن ما تبع ذلك كان فيلماً من شريط واحد منخفض التكلفة عنوانه «أمراء النفط الزنوج!»، يمثّل فيه باكويت وهوميني، وعضو غير معروف من قبلُ في عصابة الأوغاد الصغار، صبيٌّ صغير سجّل اسمه على الشارة: فوي شيشاير الصغير، وسودٌ بأسماء مستعارة، فيلم كلاسيكيّ سريع، وعلى حدِّ علمي، هو آخر عمل من سلسلة أفلام *عصابتنا*.

«تذكّرتُ هذا الولد! يا إلهي! تذكّرتُ هذا الولد!».

«هوميني، توقّف عن القفز أمامنا، إنّك تقطع مشاهدتنا».

في فيلم «أمراء النفط الزنوج!» بعد اجتماع سرّيٍّ في الزقاق الخلفيّ

مع راعي بقر نحيف يقود سيّارة ويرتدي قبّعة رعاة بقر كبيرة، نرى أفراد عصابتنا يدفعون عربة يدويّة محمّلة بالأموال النقديّة إلى أسفل الشوارع الخالية من الجريمة في غرينفيل. الثلاثي الزنوج الأغنياء يرتدون الآن بدلات رسميّة وقبّعات طويلة طوال الوقت، ويدفعون المال لعصابةٍ أخرى يتعاظم الشكُّ في نفوس أفرادها تجاه عصابتنا حتّى نهاية الفيلم، والحلويات! حتّى إنَّ الزنوج الثلاثة اشتروا لميكي الفقير مجموعة غالية الثمن لعدّة لاعب البيسبول كان شاهدها عند نافذة متجر لبيع المعدّات الرياضيّة. كانت العصابة الجديدة مستاءة من تفسير باكويت لمصدر الثروة الجديدة «لقد وجدتُ أربع أوراق رابحة لليانصيب الإيرلنديّ»، وبدأ يقترح عدداً من النظريّات حول مصدر الثروة: الأولاد لعبوا اليانصيب، راهنوا على الخيل في مسابقات الخيل، هاتي مكدايل توفّيت وتركت لهم كلَّ أموالها. في النهاية، هدّدت العصابة باكويت بترحيله إذا لم يخبرهم عن مصدر الأموال. «نحن نعمل بالنفط!» قال. ما تزال الشكوك تنتابهم، غير قادرين على إيجاد رافعة النفط. لحق أفراد العصابة بهوميني إلى مستودع خفيّ، حيث اكتشفوا أنَّ السُود الشنيعين جمعوا كلَّ الأولاد في بلدة الزنوج، وجعلوهم، مقابل نيكل لكلِّ ليتر، يقطِّرون السائل الأسود عبر أكياس مصل طبِّية من حاويات سوداء، ويملؤونها في علب سوداء! في النهاية استدار فوي، الذي يلبس حفّاضة أطفال، وابتسم للكاميرا قائلاً «إنّهم قوم سودا!»، قبل أن يتلاشى المشهد رويداً رويداً مع موسيقا خاتمة فيلم *عصابتنا*.

أخيراً، قطع كانغ كونز الصمت، وقال: «الآن عرفت لِمَ جُنَّ جنون ذلك المخبول فوي، كنتُ لأجنَّ أيضاً إذا كان في أعماقي مثل هذا القرف، وكنت سأجعل حياتي إطلاق نار على أبناء العاهرات دون أيِّ سبب».

ستيفي، رجل العصابات الشديد، عديم الرحمة، مثل السوق الحرّة،

وعديم المشاعر مثل أولاء المصابين بمتلازمة أسبرجر، انحدرت دمعة على خدّه، ثمّ رفع علبة البيرة على شرف هوميني، وعرض نخباً «الا أعرف كيف أقول ذلك، لكن... إلى هوميني، أنت رجل أفضل منّي. أقسم إنَّ جائزة الأوسكار عن الإنجازات مدى الحياة يستحقُّها الممثل الأسود، لأنّكم، أيُّها الشبّان، عملتم عليها جاهدين».

«ولا يزالون يعملون»، قال باناتشي الذي لم أكن أعرف حتّى إنّه هنا، وأفترض أنه عاد بعد يوم عمل طويل في مسلسل شرطة الهيب هوب، «أعرف ما عاناه هوميني، لقد قابلتُ مخرجاً أخبرني «نحن نحتاج إلى سواد أكثر في المشهد! هل يمكنك تسويده؟»، رددتُ عليه «تبّاً لك يا بن العاهرة العنصريّ»، فقال «تماماً، لا تفقد هذا الغضب»».

وقف نيستور لوبيز بسرعة. تمايل للحظة بتأثير الفودكا والحشيش في رأسه «على الأقلّ أيُّها القوم، أنتم لديكم تاريخ هوليوود، ماذا لدينا نحن؟ غونزاليس السريع؟ امرأة والموز على رأسها «السنا في حاجة إلى إشارات نتنة»، وبعض أفلام السجون».

«لكنّها أفلام سجون عظيمة يا صديقي».

«على الأقلّ كان ثمّة أوغاد صغار سود، أين كان الصغير كوريزو أو بوك تشوي اللعين؟».

على الرغم من أنَّ لدى نيستور وجهة نظر حول عدم وجود كوريزو، لكنّني لم أذكر أيَّ شيء عن سينغ جوي، وإدوارد سوهو، الوغدين الآسيويَّين في سلسلة الأفلام، اللذين، على الرغم من عدم شهرتهما، أدّيا أدواراً أعظم من أدوار المشاغبين بأنوف فُطس، رمتهم الاستوديوهات أمام الكاميرات فحسب.

توجّهت إلى الحظيرة للتحقّق من نعجتَيّ السّويديّتَين اللتين اشتريتهما حديثاً. نعجتان صغيرتان من نوع روزلاغز، كانتا ترقدان تحت شجرة

الكاكا. إنّها أوّل ليلة لهما في مجتمع الغيتو، وهما خائفتان من أنّ بقيّة الماعز والخنازير سيقدمون على نحرهما. إحدى النعجتين بيضاء عند رقبتها، والثانية مرقّشة باللون الرماديّ. تهتزّان من الخوف. ضممتُهما وزرعتُ قبلات على خطميهما.

هوميني الواقف ورائي، ولم أنتبه له، كما شاهدَ فعلَ، زرع قبلةً بشفتيه على فمي.

«اللعنة هوميني، ما هذا؟».

«أنا مستقيل».

«مستقيل من ماذا؟».

«من العبوديّة، وستتكلّم حول التعويضات صباحاً».

لا تزال النعجتان ترتجفان من الخوف. «فارا موديغ» همستُ في آذانها المرتعشة. لا أعرف ما يعني هذا، لكن هذا ما ذُكر في الكتيِّب، يجب عليّ قوله أمامهما ثلاث مرّات كلّ يوم في الأسبوع الأوّل. ما كان ينبغي عليّ شراءهما، لكنّهما مهدّدتان بالانقراض، وكان أستاذٌ بالزراعة معمّر شاهدني عبر الأخبار، واعتقد أنّني سأكون راعياً جيّداً. أنا مذعور أيضاً. ماذا إذا رُحّلتُ إلى السجن؟ مَن سيهتمُّ بهما؟ إذا كانت التهمة الأولى: انتهاك المبدأين الثالث عشر والرابع عشر لا قيمة لها، فهناك حديث عن محكمة الجنايات الدوليّة، واتّهامي بتطبيق سياسة التمييز العنصريّ. لم يحاكموا قطُّ شخصاً واحداً من جنوب أفريقيا، وسيلقون القبض عليّ؟ أفريقيٌّ- أمريكيٌّ غير مؤذٍ من جنوب وسط البلاد؟ Amandla awethu![1].

«تعالَ إلى الداخل عندما تنهي عملك هناك في الخارج»، صرخت ماربيسا من غرفة النوم.

---

(١) هتاف قبائل الزولو في أفريقيا ضدّ نظام التمييز العنصريّ، وتعني القوّة للشعب. (م)

هناك إلحاح في صوتها، وأعرف أنّها تعني أن أنهي عملي الآن! سوف أرضع النعجتين في وقت لاحق. في الداخل، تُعرض نشرة أخبار السّاعة المحليّة في التلفزيون، وصديقة السنوات الخمس مستلقية على بطنها فوق السرير، ووجهها الجميل بين يديها، تشاهد أخبار الطقس في التلفزيون الموجود فوق الخزانة. كاريزما إلى جوارها، تميل بجسمها على اللوح الخلفيّ للسرير، وقدماها، اللتان تكتسيان بجوربين، تتقاطعان مرتاحتين فوق مؤخّرة ماربيسا. وجدت مساحة متاحة على الفراش، فقفزت إليها وفي خيالي صورة لعلاقة جنسيّة ثلاثيّة.

«ماربيسا، ماذا إذا توجّبَ عليّ الذهاب إلى السجن؟».

«اخرس، وشاهد التلفزيون فحسب».

«أحرز هامبتون نقطةً جيّدةً في المحكمة عندما قال إنّه إذا كانت عبوديّة هوميني تعادل عبوديّة البشريّة، فعندها إذاً على أمريكا الشركات الكبيرة أن تكون جاهزةً لتقاتل حتّى الرمق الأخير ضدّ الدعاوى الجماعيّة التي رفعتها أجيال المتدرّبين لديهم، غير المعوَّض عليهم».

«هلاّ توقّفت عن الكلام، ستفوّت هذا».

«لكن، ماذا إذا ذهبتُ إلى السجن؟».

«عندئذ سأبحث عن زنجيٍّ آخر لأقضي معه علاقة جنسيّة خياليّة».

اجتمع باقي أفراد الحفلة عند باب غرفة النوم ينظرون إلى الداخل، تراجعت ماربيسا، وأمسكت بخدّي، وأجبرتني على أن أدير رأسي باتّجاه الشاشة «شاهد».

متنبّئة الطقس شانتال ماتينغلي تلوّح بيدها فوق خارطة لوس أنجلس. الطقس حارٌّ. «*هناك موجة من الرطوبة تتحرّك من الجنوب. تحذير من آثار الحرارة العالية في وادي سانتا كلاريتا وباقي الوديان الداخليّة في مقاطعة فينتورا. بالنسبة للمناطق الأخرى نتوقّع درجات حرارة موسميّة مع*

جوٌ لطيف حتّى منتصف الليل. في معظم الأحيان، السماء صافية إلى غائمة جزئياً ودرجات الحرارة من المعتدلة إلى متوسطة الاعتدال (أياً ما كان يعني هذا) على طول الشاطئ من سانتا باربرا إلى مقاطعة أورينج، وأكثر دفئاً في المناطق الداخليّة. الآن، تنبُؤات الطقس المحليّة. لا نتوقّع تغييرات جذريّة من الآن وحتّى وقت متأخّر من المساء». لطالما أحببتُ خارطة الطقس. تأثيرات ثلاثيّة الأبعاد على خريطة الساحل الطبوغرافيّة بالتناوب، وتتحرّك مع تحرُّك إشارات الطقس جنوباً وإلى الداخل، وتدرُّجات الألوان في سلاسل الجبال والسهول المنخفضة تنجح في إبهاري دائماً. «*درجات الحرارة الحاليّة...*

بالمديل ١٠٣/٨٨... أونكسراد ٧٧/٧٠... سانتا كلاريتا ١٠٨/١٠٧... ثاوزند أوكس ٧٧/٦٩... سانتا مونيكا ٧٩/٦٦... فان نويز ١٠٥/٨٢... غليندايل... ٩٥/٧٩... ديكنز ٨٨/٧٤... لونغ بيتش ٨٢/٧٥...»

«انتظروا لحظة. هل قالت ديكنز؟».

ضحكت ماربيسا على نحو هيستيريّ. أمّا أنا، فتحرّكتُ دافعاً الرفاق وأبناء ماربيسا الذين أرفض ذكر أسمائهم، وركضتُ إلى الخارج، إلى حيث ميزان الحرارة الشريطيّ المتدلّي من الشرفة الخلفيّة يؤشّر إلى ٨٨ درجة. لا أستطيع التوقُّف عن البكاء، لقد عادت ديكنز إلى الخريطة.

٢٦

في إحدى الليالي، وكانت ذكرى وفاة والدي، قدتُ السيّارة بصحبة ماربيسا إلى محلّات دونات دُم دُم، من أجل سهرة المايكروفون المفتوح. هناك اتّخذنا مجلسَينا المعتادين في الجانب البعيد عن المسرح، إلى جانب الحمّامات ومطافئ الحريق، نستحمُّ بالضباب الأحمر لعلامة الخروج. جلستُ، وأشرتُ إلى مخارج أخرى عند الضرورة.

«الضرورة لأيّ شيء؟ في حال قال أحدهم نكتة مضحكة، ووجب علينا الهروب إلى الخارج، وأن نحفر قبرَي ريتشارد بريور وديف تشابل، ونتأكّد من أنّ جثّتيهما لا تزالان مدفونتين في الأرض اللعينة، وأنّنا لسنا في عيد الفصح الأسود؟ هؤلاء الكوميديُّون صغار الزنوج الذين يقدّمون نكاتهم اليوم يسبّبون لي المرض. ثمّة سبب في أنّه لا يوجد جوناثان وينترز، أو جون كاندي، أو دبليو. سي. فيلدز، أو جون بيلوتشي، أو جاكي غليسون، أو روزين بار سُودٌ في هذا الحفل اللعين، لأنّ شخصاً أسودَ بديناً مضحكاً يمكن أن يخيف مُرعبي أمريكا».

«يوجد أيضاً كثيرٌ من الكوميديّين البِيض البدينين هذه الأيّام، وديف تشامبل لا يزال حيّاً».

«أنت تؤمن بما تريد الإيمان به حول ديف. الزنجيُّ مات. توجَّبَ عليهم قتله».

في إحدى المرّات، أضحكني أحدهم في النادي. مرّة كنّا، أنا

ووالدي، هناك معاً عندما قفز رجل أسود قصير، وهو الكوميديُّ الجديد، إلى خشبة المسرح. كان قاتم السَّواد مثل فاتورة كهرباء غير مدفوعة، وبدا على المسرح مثل ضفدع مجنون. برزت عيناه من رأسه وكأنّهما تحاولان الهروب من الجنون داخله. تعالَ لنفكّر بها، كان بديناً أيضاً، وكنّا نجلس في مكاننا المعتاد. في سهراتنا المعتادة، إلاّ إذا كان أبي على خشبة المسرح، كنتُ أقرأ في كتابي وأجعل النكات الجنسيَّة والقفشات عن الناس البِيض والسُّود تحوم فوقي، مثلها مثل الضوضاء المثارة حولي. لكنَّ هذا الرجل الضفدع افتتح السهرة بنكتة جعلتني أبكي «كانت أمُّك تصرف الإعانات الحكوميَّة منذ زمن طويل»، صار يرفع صوته وهو يمسك المايكروفون الفضّيَّ بسعادة كأنّه ليس في حاجة إليه، وهو هناك فقط لأنَّ أحداً سلَّمه إيّاه قبل صعوده إلى المسرح. «كانت أمُّك تصرف الإعانات الحكوميَّة منذ زمن طويل، وعينُها على قسيمة الطعام». أيُّ شخص يستطيع وضعي في زاوية لا يمكن الهروب منها لا بدَّ أن يكون مضحكاً. بعد ذلك، كنت أنا مَن جرَّ أبي إلى ليالي المايكروفون المفتوح. وإذا أردنا مقاعدنا المعتادة فيجب علينا الوصول إلى هناك مبكِّرين قدر الإمكان، لأنَّ الكلام ينتشر في لوس أنجلس السُّوداء بأنَّ ابن عاهرة مضحكاً سوف يحيي ليالي المايكروفون المفتوح، وسوف يمتلئ محلُّ الدونات بالضحك الأسود المنتفخ من الساعة الثامنة فصاعداً.

مهرِّج محكمة المرور هذا فعل أكثر من إلقاء النكات، لقد اقتلع اللاوعي عندك وضربك به على نحو سخيف، ليس حتّى تفقد إدراكك بل حتّى تصبح مدركاً. في إحدى الليالي، دخل رجلان أبيضان النادي بعد ساعتين من فتح الأبواب، وجلسا في الوسط، وانضمّا إلى حفلة اللهو. ضحكا بصوت عالٍ أحياناً، وصهلا على هيئة العارفين، كأنّهم كانا أسودين طوال حياتهما. لم أعرف ما الذي أثار انتباهه برأسه الكرويّ

تماماً والمنقوع بعَرق السهرة. ربُّما ضحكا بنبرة صوت عالية، أو ربَّما هلّلا عندما كان ينبغي أن يعترضا، أو ربَّما كانا قريبين جدّاً من الخشبة. ربَّما لو لم يكن الناس البيض يشعرون بالحاجة الدائمة إلى الوقوف في الأمام لما حصل ما حصل. «ما هو الشيء اللعين الذي تضحكان عليه؟» صرخ، وضحك أغلب الجمهور، والأبيضان عويا بصوت أعلى. ضرب يده على الطاولة، وفرح لأنّه قد استرعى الانتباه، ولأنّه قُبِلَ أخيراً «أنا لا أتحدّث هراءً! علامَ تضحكان أيُّها المتطفّلان العاهران؟ اخرجا من هنا!».

لا يوجد شيء ظريف في الضحك المتوتّر، في الطريقة التي ينزلق بها عبر الغرفة مع حركات تموُّجات الجاز السيّئة. الناس السُّود، واللاتينيُّون حول الطاولة المستديرة الذين خرجوا من بيوتهم من أجل سهرة في المدينة عرفوا متى يحين وقت التوقُّف عن الضحك، والرجلان الأبيضان لم يعرفا. نحن، بقيّة عناصر السهرة غرقنا في صمتنا، وصرنا نشرب من علب البيرة والصودا خاصّتنا، مقرّرين البقاء خارج النزاع. كانا يضحكان وحدهما، فربَّما كان هذا جزءاً من العرض، أليس كذلك؟

«هل أبدو كأنّني أمزح معكما؟ هذا المكان ليس لكما، أتفهمان؟ الآن اخرجا من هنا! هذا الشيءُ يخصُّنا!».

لا مزيد من الضحك، تضرُّع فحسب، ونظرات تطلب المساعدة لا إجابات لها. ثمّ صوت تراجع كرسيّين بهدوء قدر الإمكان بعيداً عن الطاولة، ثمّ هبّة ريح ديسمبر الباردة وأصوات الشارع. مدير السهرة أغلق الأبواب وراءهما تاركاً مثالاً صغيراً على أنّ الأبيضين لم يكونا هناك قطُّ إلاّ من أجل جرعتَي شراب غير منهيّتين، وثلاث حبّات دونات كحدّ أدنى.

«والآن... أين كنت قبل أن تتمّ مقاطعتي على نحو وقح؟ حسناً، نعم، ذلك الرجل الأصلع...».

لمـا أفكّر في تلك الليلة، في ذلك الكوميديّ الأسود وهو يطارد

الرجلين الأبيضين في جنح الظلام، وذيلاهما وتاريخهما بين أقدامهما، لا أفكّر في الصحّ والخطأ. لا، لما تعود أفكاري إلى تلك الأمسية أفكّر في صمتي. يمكن للصمت أن يكون احتجاجاً أو موافقة، لكنّه، في معظم الأحيان، خوف. أعتقد أنّ هذا هو السبب في أنّني هادئ جدّاً، وهامسٌ جيّد، وزنجيٌّ، وخلاف ذلك. ذلك لأنّني دائماً خائف. خائف ممّا يمكن أن أقوله، ومن الوعود أو التهديدات التي يجب أن ألتزم بها. هذا ما أحببته في هذا الرجل. على الرغم من أنّني لم أتّفق معه عندما قال: «اخرجا من هنا! هذا الشيء يخصُّنا!»، فقد احترمت أنّه لم يهتمّ. لكنّني تمنّيت لو لم أكن مذعوراً جدّاً، وكانت لديَّ الشجاعة لأقفَ محتجّاً. ليس لأنتقده على ما فعل أو لأدافع عن الأبيضين المضطهدين. بعد كلّ شيء، يمكنهما الدفاع عن نفسيهما، ويستدعيان سلطات ربّهما، فيضربون بعنف كلّ شخص في المكان... لكنّني تمنّيت لو استطعتُ الوقوف في وجه الرجل، وسؤاله سؤالاً واحداً «إذاً، ما هو بالضبط هذا الشيء الذي يخصُّنا؟».

خاتِمة

أتذكّر اليومَ الذي تلا مراسم تنصيب الرجل الأسود رئيساً للبلاد. فوي شيشاير، بكلِّ فخر مثل أيِّ رجلٍ مخالف للقانون، يقود حول المدينة سيّارته ذات البابين، يزمِّر ببوقه ويرفع علم أمريكا. لم يكن الشخص الوحيد المحتفل، وإن لم تكن فرحة الحيِّ كفرحة أو. جيه سيمبسون عند حصوله على البراءة، ولا كفرحة فريق ليكرز لنيله بطولة ٢٠٠٢، لكنَّها كانت تدانيهما. كان فوي يقود سيّارته أمام الإسطبل عندما تصادف أنّني أجلس في الفِناء الأماميّ أقشّر الذرة «لماذا تلوّح بالعلم؟»، سألته «لماذا الآن، لم أرَكَ تلوّح به من قبل». قال إنّه يشعر أنَّ بلاده، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، سدّدت ديونَها لنا أخيراً. «ماذا عن الأمريكيّين الأصليّين؟ اليابانيّين؟ المكسيكيّين؟ الفقراء؟ الغابات؟ الماء؟ الهواء؟ نسر كاليفورنيا اللعين؟ متى تسدُّد ديونهم؟»، سألته.

هزَّ برأسه في وجهي فحسب، وقال شيئاً فهمتُ منه أنَّ أبي سيكون خجلاً منّي، وأنّني لن أفهمَ أبداً. وهو محقٌّ، فأنا لن أفهمَ أبداً.

***

الفهرس

هذا الكتاب

«روايةُ الخائن هي أحد تلك الكتب النادرة التي تمكّنت من اتِّخاذ السخرية أسلوباً، وهو أسلوبٌ أدبيٌ صعبٌ للغاية، ولا يمكن إتقانه دائماً. لقد غاصت الرواية في قلب المجتمع الأمريكيّ المعاصر، بطرافة وحشيَّة، لم أقرأ مثلها منذ سويفت وتوين». بهذه الجمل افتتحت المؤرِّخة البريطانيَّة أماندا فورمان رئيسة الهيئة المانحة لجائزة مان بوكر تعليقَها على فوز رواية «الخائن» The Sellout للكاتب الأمريكيِّ بول بيتي Paul Betty، بجائزتها للعام ٢٠١٦.

ISBN 978-9933354268
9 789933 354268